محمد حسنين هيكل

زيارة جديدة للتاريخ

دار الشروق

زيارة جديدة للتاريخ

محمد حسنين هيكل

زيارة جديدة للتاريخ

إصدار جديد
لمناسبة خاصة

طبعة أولى ٢٠٠٣

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ (٢٠٢) فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: e-mail· dar@shorouk, com.

مقدمـــة

هذا الكتاب على نحو ما كتاب سعيد الحظ، فقد جرت كتابة فصوله سنة ١٩٨٥، وفي ظروف الانتهاء من عمل قدمته للنشر الدولى وبداية التركيز على عمل تالٍ بعده في نفس المجال. وطبقا لقواعد النشر الدولى فإنه لابد أن تنقضى فترة سنتين بين نشر عمل وبين جديد وراءه، حتى يأخذ السابق فرصته دون أن يزاحمه ـ من نفس الكاتب ـ لاحق يغطى عليه أو يزيح.

كان هذا الكتاب إذن فترة استراحة بين سفرتين، وفي هذه الاستراحة وبينما رُحت أقلب بعض الملفات والأوراق استعدادا وتأهبا للجديد، صادفت مذكرات وخطابات وصورا أعادت إلى الذاكرة ساعات سبقت عشت فيها مع بعض من قابلت، وتداعت مواقف ومشاهد، وخطر لى ـ وأمامى فسحة من الوقت ـ أننى أستطيع أن أستعيد وأتأمل بل وأتحاور من جديد (فى الضمير) مع كبار أتاحت لى الظروف فرصة أن أتعرف إليهم وأحاورهم وجها لوجه.

وكذلك اخترت ست شخصيات وجدت ما يخصها جاهزا أمامى، ثم رُحت أكتب عن أيام معها واخترت للفصول عنوان «زيارة جديدة للتاريخ»، وشرحت قصدى في مقدمة مهدت بها، ثم كان مفاجئا لى أن هذه الفصول التى كتبتها فى فترة استراحة ـ صادفت حظا حسنا لدى جماهير القراء فى العالم العربى حتى صدر الكتاب الذى جمعها فى اثنتى عشرة طبعة خارج مصر، فقد كان النشر الأول يومئذ فى «بيروت» فى ظروف كانت تعترض النشر لى فى مصر (التى كتبت منها طول الوقت ولم أغادرها بصرف النظر عن المحظورات).

ثم حدث بعد أن تغيرت الأحوال أن الصديق الأستاذ «إبراهيم سعدة» وهو وقتها رئيس تحرير جريدة أخبار اليوم ـ اطلع على هذه الفصول ـ فإذا هو ينشر بعضها على حلقات فى جريدته الأوسع انتشارا.

وراحت نسخ من الكتاب تصل إلى مصر، ورحت أتلقى رسائل كثيرة من قراء أصدقاء اهتموا بما قرءوا، ثم زاد فضلهم فكتبوا بما رأوا.

وخطر ببالى إزاء ذلك الاهتمام أن أزيد فى الفصول بما يسمح بجزء ثان، وربما ثالث من الكتاب، فقائمة من قابلت طويلة، لأن الأيام سمحت لى أن ألتقى بأقطاب الزمن الذى عشته ونجومه، وبالتالى فإن ما لدى فيه فيض وزيادة، لكننى انشغلت عن ذلك الخاطر بطوارئ الأحداث الجارية وربما أن حظ الكتاب الأول جعلنى أخشى من ثان يلحق به.

ثم حدث أخيرا أن الصديق الأستاذ «إبراهيم المعلم» جاءنى باقتراح إصداره من جديد، ولم يكن فى مقدورى غير أن أستجيب، ثم أحسد الكتاب على حُسن حظه مع قرائه، وبعدها أقدم شكرى لكل هؤلاء الذين اهتموا به، وأضعه تحت تصرفهم ـ عارفا بالفضل ـ داعيا وراجيا.

محمد حسنين هيكل

تمهيـــــد

هذا كتاب قد يبدو مختلفًا عن غيره وإن كنت أرجو ألاّ يكون غريبًا!

ولا بد لى فى بداية نشره أن أشرح موضوعه، وأسلوبى فى تناول هذا الموضوع، ومقصدى منه فى هذه الظروف بالذات.

لقد اخترت له ــ ومنذ بدأت فكرته باقتراح عام من هيئة تحرير «القبس» ــ عنوان: «زيارة جديدة للتاريخ».

والعنوان كما هو واضح من ثلاث كلمات:

ــ زيارة...

ــ وجديدة...

ــ وللتاريخ...

وأريد أن أقف قليلاً أمام كل واحدة من هذه الكلمات.

■ فكلمة «زيارة» تعنى ــ إلى حد ما ــ أننى أعود إلى لقاء أشخاص عرفتهم من قبل ــ وعودتى إليهم الآن محاولة لتجديد المعرفة ولإبقاء حبلها موصولاً وتوثيق أواصرها إذا استطعت.

وهكذا فإننى أعود إلى أحاديث رجال أتاحت لى ظروف حياتى وتجربتى أن ألتقى بهم وأن أحتك بأفكارهم وآثارهم. وأن أسبر ــ بقدر ما هو ممكن ــ أغوارهم،

وأحاول ــ بقدر ما هو متاح ــ استكشاف أسرارهم وكيف ولماذا بلغوا من نفوذ على التاريخ الذى عشناه والذى نعيشه.

وأشهد أننى كنت سعيد الحظ بمن لقيت، فلقد أتاحت لى الظروف أن أرى قمم عالمنا المعاصر، وأحيانًا عشت وسطها أراقب وأتابع مدركًا فيما بينى وبين نفسى أن الأيام منحتنى شرف أن أتتلمذ على التاريخ نفسه بواسطة صناعه أو المشاركين مباشرة فى عملية صنعه.

ولقد كان بينهم ملوك وزعماء وساسة، وقادة حرب وأساطين علم وفكر قامت أصابعهم ــ خلال أربع حقب بين الخمسينيات والثمانينيات ــ بتشكيل دنيانا كما نعرفها الآن.

هذا عن الكلمة الأولى فى عنوان الكتاب، وأنتقل إلى الكلمة الثانية:

■ «جديدة» ــ وهنا تحتاج المسألة إلى توضيح دقيق، فأنا هنا أستعمل الكلمة بغير مدولها الحرفى الضيق... بمعنى أننى لم أعد فعلاً إلى زيارة كل هذه الشخصيات التى أكتب عنها، فذلك لم يعد ممكنًا ــ حتى ماديًا ــ بالنسبة لبعضهم. فهناك بينهم من فارق دنيانا ولم يعد فى إمكان أحد منا أن يعود ليزورهم من جديد إلا فى عوالم الفكر. وهذا ما أفعله.

وصحيح أن بعضهم مازال معنا ولكنى لم أعد إلى زيارة أى منهم مرة أخرى لغرض كتابة هذه الصفحات.

هى إذن عودة بالفكر وليست عودة بالجسد.

أى أننى أعود إلى أوراقى وإلى انطباعاتى ــ ثم أترك نفسى أفكر وأتأمل.

أفكر وأتأمل بفعل المضارع أى فى ما هو قائم الآن، وبفعل المستقبل أى فى ما هو محتمل غدًا، وليس فقط بفعل الماضى أى ما جرى فعلاً وكان!

وبالطبع فأنا لا أنسب إلى غائب ما لم يقله مستغلاً واقع غيابه.

وبالطبع ــ أيضًا ــ فأنا لا أنسب لأحد ما لم يسمح لى حاضرًا بأن أنسبه إليه وإن

كان قد قاله لعلمى. فغياب أحدهم أو حتى حضوره مع مرور الأيام لا يعفينى من التزامى أمامه بحفظ ما أفضى به إلى ثقة وأمانة.

لا أفعل شيئًا من هذا أو قريبًا منه بالطبع، وبالقطع فمثل ذلك خارج عن أصول القول وحدوده وحقوق المجالس وحرماتها.. وإذن ما الذى أنوى فعله بالضبط فى هذه «الزيارة الجديدة للتاريخ»؟

لعله يكون ملائمًا أن أتحدث أولاً عما لا أنوى أن أفعله.

إننى لا أنوى أن أعود للماضى بممارسة اجتراره: مضغه مرة أخرى وتكراره مرة ثانية.

ثم إننى لا أنوى أن أجعله حديث ذكريات مما يرويه الآباء للأبناء ـ أو للأحفاد ـ يحكون لهم حكايات الماضى وقصص أبطاله بصوت يختلج فيه الدفء والحنين إلى أيام مضت ورجال ذهبوا ودنيا غير الدنيا وأيام تباعدت عن أيام.

لا أفعل ذلك وليس فى نيتى. فالماضى لا يعنينى على الأقل فى فصول هذا الكتاب، وإنما الحاضر والمستقبل هما هاجسى وشاغلى قبل وبعد أى اعتبار.

والسؤال الذى يثور هنا هو إذن:

ـ كيف أزور الماضى وآخذ معى إليه الحاضر والمستقبل؟

وإجابة السؤال هى أن الجسد لا يستطيع ولا يقدر، وإنما الفكر هو الذى يستطيع ويقدر. الفكر ومعه التأمل. ومع الاثنين يقين بأن التجربة الإنسانية لا تنقطع، كما أن حركة التاريخ لا تتقدم من فراغ ولا تترك وراءها ثغرات يطل منها هباء أو خواء.

بمعنى أدق فهناك كثير رأيته وسمعته فى الماضى ولم أستطع أن أقدر ـ فى حينه ـ معانيه الحقيقية أو مراميه البعيدة.

ثم إن هناك كثيرًا رأيته وسمعته وكان متاحًا للنشر ولكنى لم أنشره؛ لأن ضغوط الحوادث وتطوراتها ـ فى حينه ـ نقلت مواضع الاهتمام وغيرت مواقع التركيز.

وكذلك فإن هناك كثيرًا مما رأيته وسمعته اكتسب قيمة مستجدة عندما تعرض لاختبارات الحاضر ،مما يجعله صالحًا لقياس المستقبل.

ثم إن هناك كثيرًا مما رأيته وسمعته حوى دروسًا وعبرًا تستحق منا أن نراجعها ونستخلص منها ما يحتمل أن يكون غذاء لنا وزادًا فى ظروف قد تكون مشابهة ولا أقول متماثلة.

وصحيح أن التاريخ لا يكرر نفسه لاختلاف ظروف الناس والأمم والأحوال، ولكن أليس صحيحًا أيضًا أن هناك قوانين للتاريخ. وأن هذه القوانين تعمل أحكامها إذا تجمعت عناصر وعوامل تستدعى مثل هذه الأحكام؟!

إن «كارل ماركس» كان على حق حين صاغ مقولته الشهيرة:«إن التاريخ لا يعيد نفسه، وإذا فعل فإنه فى المرة الأولى مأساة عظيمة وفى المرة الثانية ملهاة مضحكة» لكنه من الحق أيضًا أن نفرق بين عودة الماضى ــ وهى مستحيلة ــ وبين سريان قوانين التاريخ ــ وهى محققة!

بقيت الكلمة الأخيرة فى عنوان الكتاب وهى:

■ «التاريخ»، ولقد طفت حولها فيما ذكرت من قبل قليل، وإذا كان لى أن أضيف شيئًا فهو التأكيد على أن التاريخ ليس علم الماضى وحده، وإنما هو ــ عن طريق استقراء قوانينه ــ علم الحاضر والمستقبل أيضًا، أى أنه علم ما كان وما هو كائن وما سوف يكون.

وهكذا فإننى أعود إلى شخصيات قابلتها فى الماضى مستعيدًا صورتها الكاملة أو شبه الكاملة فى أوراقى، محاولاً، برؤية معاصرة، إذا استطعت، تسليط أضواء على أجواء تحيط بنا فى العالم العربى بالذات، مركزًا على قضايا ومشاكل تستغرقنا اليوم وسوف تستغرقنا بعده، وبعده!

قضايا مثل الحرية والديمقراطية، قضايا مثل الحرب والسلم، قضايا مثل العلم والمعاصرة.. إلى آخره.

قضايا تلح علينا فى حاضرنا هذا وسوف يزداد إلحاحها علينا فى صبح غد.

هكذا خطرت لى ثم أمسكت بى هذه الفكرة:

«زيارة جديدة للتاريخ»

مشاعل من معابد التاريخ لإضاءة تخوم جديدة فى معالم التاريخ!

□

وأخيرًا فى هذه المقدمة قد يسألنى سائل: لماذا اخترت عددًا محدودًا أكتب عنه اليوم ضمن كل من قابلت من «الكبار» وهم بالعشرات على الأقل؟ وعلى أى أساس؟ وماذا كان معيار الاختيار؟ أهى الأهمية؟ أهو التسلسل الزمنى للمقابلات؟ أو ماذا؟

والحقيقة أننى لا أستطيع أن أقطع فى هذه الأسئلة بجواب.

إن «الكبار» الذين عدت لزيارتهم على صفحات هذا الكتاب لم يكونوا كل من رأيت من أقطاب التاريخ المعاصر. وبعضهم لم يكن من أهم من قابلتهم خصوصًا إذا قارنتهم بغيرهم.

وإذن لماذا هؤلاء السبعة بالذات؟

أكاد أقول إن ما شدنى إليهم فى هذه الظروف بالذات هو ارتباط أدوارهم التاريخية - ومن ثم أحاديثهم معى وأحاديثى عنهم - بعدد معين من القضايا الكبيرة التى تشغلنى - وغيرى - فى الظروف التى جلست فيها لكتابة هذه الصفحات.

ولعلى أجازف وأقول إن إلحاح قضايا بالذات هو الذى وجهنى - وربما دفعنى - إلى رجال بعينهم.

قضية الديمقراطية هى التى ذكرتنى بلقائى مع «خوان كارلوس» ملك إسبانيا. قضية الحرب والسلام هى التى ذكرتنى بلقاءاتى مع «مونتجمرى» قائد العلمين المنتصر. قضية الخطر الماثل فى احتمالات الحرب النووية هى التى ذكرتنى بلقائى مع «آينشتين» صاحب «نظرية النسبية».. وهكذا وهكذا.

القضايا كانت دليلى إلى الرجال.

ولست أعرف إلى أى حد حالفنى التوفيق فى إقامة التوازن بين القضايا وهى حية وممتدة وبين لقاءاتى مع الرجال وقد تمت كلها من قبل وتحددت نصوصها!

ولقد حاولت. وأتمنى ألا أكون قد وقعت فى خطأ مال معه الميزان أو اختلت به خطوط الحدود.

□

وربما يسألنى سائل أيضًا: ولماذا لم يكن بين من اخترت الكتابة عنهم الآن أحدٌ من العرب؟

وردى أن ذلك اختيار اتخذته واعيًا. ولقد كان فى استطاعتى أن أكتب عن كل زعماء وملوك وساسة العرب فى الأربعين سنة الأخيرة، لكنى لم أفعل، على الأقل بين دفتى هذا الكتاب الحالى، وكان مبررى أمام نفسى: أن زعماء وملوك وساسة العرب فى هذه الفترة يلزمهم إطار مستقل لأنهم أبطال قصة واحدة بأخيارها وأشرارها، ومن المعقول والقصة واحدة أن يكون إطار عرضها واحدا خصوصًا والقصة معقدة وبعض رجالها أكثر تعقيدًا من كل ما تستطيع الوقائع أن ترويه ومن كل ما تقدر الكلمات أن تنبئ به.

□

واعترف أنه كان فى استطاعتى أن أواصل الكتابة عن كثيرين غير من كتبت عنهم الآن دون أن أجد حدًا أقف عنده. لكنى ـ وهذا هو اعترافى ـ فرضت على نفسى أن أتوقف حينما بلغ حجم ما كتبته حجم كتاب طبيعى من كتبى وزاد. ولقد كانت أمامى وأنا أكتب قائمة تضم قرابة ستين اسمًا من الأعلام وكنت أستطيع أن أستمر، ولكن كان لا بد من نقطة يتوقف عندها الكلام، وهكذا لم أستطع أن أقترب من قلة بين كثرة

تمنيت أن أعود إليهم زائرًا.. مقبلاً عليهم ومشتاقًا. ذاكرًا ساعاتى الطويلة فى صحبتهم وفى حضرة التاريخ.

□

بقيت كلمات شكر أراها حقًا.

فمن الحق أن أشكر هؤلاء الذين اقترحوا علىّ الفكرة المبدئية لهذا الكتاب.

ومن الحق أيضًا أن أشكر هؤلاء الذين جعلوا كتابته ممكنة بالنسبة لى وذلك عن طريق عملهم وسهرهم على أوراقى، ولعلى أخص بالشكر منهم فى هذا الكتاب السيدة «نوال المحلاوى» التى أدارت مكتبى لمدة ثلاثة عشر عامًا صعبة وبرغم كل ما تحملت به من مسئوليات، فإنها أعطت أولوية لعملية حفظ وترتيب مجموعات أوراقى الخاصة وأدت ذلك بكفاءة وإخلاص وأمانة قلّ أن يكون لها نظير.

وإذا كانت ذاكرة الكاتب، باعتبارها حصيلة تجاربه، هى «بوصلة» اتجاهه، فإن أوراقه هى «خرائطه الملاحية» فى رحلة بحار الوقائع والتواريخ.

محمد حسنين هيكل

ملاحظـــة

ربما كـان من واجبى إزاء قـارئ هذه الفـصـول أن أتقدم إليـه فى بدايتـهـا بـتنبيـه مبكر، وفى الحقيقة فإنه اعتذار صريح.

إن هذه الفـصـول من «زيارة جـديدة للتـاريخ» تجـربة مـختلفـة بعض الشـىء من ناحية تسلسل سياق الكلام فيها، ذلك لأننى أضـمنها عنصـرين فى نفس الوقت:

أولـهما: اللقاء مع الشـخصية موضـوع الحديث، بأجوائه ونصـوصـه وحواشيه.

ثم ثانيًا: خـواطر طارئة لى تداعت أثناء السياق وعلى هامشـه دون أن تكون جزءًا عضويًا فيه.

ومن هنـا فـقـد تخـوفت أن بعـضًـا من التـداخل قـد يقع ولا بد أن أنبـه إليـه مـبكرًا معتذرًا عنه.

وقـد حـاولت أن أتلافـاه بـالفـصـل مـا بين السـيـاق الأصـلى للكلام نفسـه (الأجـواء والنصوص والهوامش) وبين خواطرى الذاتية المتداعية منه (وقتها أو الآن بأثر رجعى).

ولقد تركت سياق الكلام يجرى فى المتن.

وأمـا الخـواطر المتـداعيـة فـقـد حـاولـت فـصـلهـا بكتـابتـهـا داخل عـلامـات مـحـددة وحـرصت على أن يكون كل اسـتطراد فيـها مسـبوقًا بسطرين من النقط للفت النظر، ومُلحقًا بسطرين آخرين لمجرد التذكير بأنها عودة إلى السياق الأصلى للكلام.

ومـقـدمًـا أتمنى ألا يكـون من وراء ذلك عنت أو إرهـاق لكل أصـحـاب الفـضـل الذين يتنازلون لهذه الصفحات عن بعض وقتهم واهتمامهم.

«خوان كارلوس»

البحث عن إليزابيث!

وصلت إلى موعدى مع ملك إسبانيا متأخرًا ثلث ساعة.

كان موعدى مع الملك عند الظهر تمامًا من يوم الخميس العاشر من مارس ١٩٨٣، وبينما السيارة تدور فى الساحة التى يطل عليها قصر «زرزويلا» - المقر الرسمى للملك - لكى تتوقف أمام الباب لمحت عند مدخله الجنرال « سابينو فرنانديز كامبو» رئيس سكرتارية الملك ينظر فى ساعته والقلق على ملامحه.

ونزلت مسرعًا لا أعرف كيف أعتذر!

والمشكلة أننى لم أعرف من هو المسئول عن التأخير: أهو سوء تقدير من جانبى؟ أو أنه كان فرط حساسية؟ أو ماذا بالضبط؟ كان يومى ذلك حافلاً، ولذلك خططت له مسبقًا ورتبت.

كان لدىّ فى ذلك اليوم موعدان: أولهما فى العاشرة صباحًا مع رئيس الوزراء الاشتراكى الشاب «فيليب جونزاليس» فى قصر «مونكلوا»، المقر الرسمى لرئيس الوزراء.

وسألت «خوزيه» - سائق السيارة التى كنت أستأجرها فى مدريد - عن المسافة بين قصر «مونكلوا» - رئيس الوزراء - وقصر «زرزويلا» - الملك - ورد على الفور بأنها خمس دقائق بالسيارة، وقدرت أن التوقيتات كلها ملائمة.. سوف أقضى مع رئيس الوزراء ساعة أو ساعة ونصف على أكثر تقدير، ثم أتوجه إلى قصر الملك ولدىّ كل الوقت.. بالراحة وعلى المهل!

لكن حوارى مع رئيس الوزراء طال أكثر مما قدرت.

كانت تلك أول مرة ألتقى فيها بـ«فيليبو» كما يناديه الإسبان. بل إنها كانت من المرات القليلة التى التقيت فيها بهذا الجيل من زعماء الاشتراكية الجدد الذين قلبوا الموازين فى جنوب أوروبا، وفى المنطقة التى يسميها مستشار ألمانيا الغربية السابق «هيلموت شميدت»: «حزام الزيتون». ويقصد به اليونان وإسبانيا والبرتغال. إن «حزام الزيتون» الأوروبى يتجه يسارًا إلى الاشتراكية، بينما شمال أوروبا يتجه يمينًا إلى المحافظة، وهو وضع يبدو ملفتًا للنظر فى القارة العتيدة.

وكان نجاح «جونزاليس» فى أول انتخابات حرة فى إسبانيا قد استلفت نظرى ونظر غيرى من الذين يتابعون ما يجرى فى العالم ويرقبون تطوراته. وهكذا كنت حريصًا على أن ألقاه وأسمع منه. ولقيته وسمعت. وطال بنا الحديث وتشعب، ونظرت فى ساعتى وكانت الحادية عشرة والنصف. كان «جونزاليس» قد أجاب عن كل ما سألته فيه وبدأت أحاول أن أصل بحوارنا إلى نقطة ختام، وفجأة سألنى «جونزاليس»:

ـ «إنك سمعتنى وأنا لم أسمعك، ولدىّ أسئلة كثيرة عما يجرى فى منطقتكم»!

وترددت لحظة قبل أن أجيب.

وكان مبعث ترددى هو عامل الوقت. وتتابعت فى لحظة خواطرى.

«إن رئيس الوزراء يعرف بالطبع أن لدىّ موعدًا مع الملك فى الساعة الثانية عشرة، وهو بالتأكيد سوف يجعلنى انصرف من مكتبه فى وقت يسمح لى بأن أكون فى مكتب الملك فى موعدى تمامًا».

ورحت أتكلم وعقرب الدقائق يتحرك.

وتوقفت، لكن «جونزاليس» لم يتوقف. راح يتكلم عن العالم العربى الذى لا يعرفه ولم يزره ـ وعن أموره كما تبدو له من بعيد.

وطرأ هاجس على خاطرى: «ربما أن رئيس الوزراء لا يعرف أن لدىّ موعدًا مع الملك بعد دقائق»!

«إننى طلبت الموعد مع الملك من القصر مباشرة وأبلغت بالموعد من القصر مباشرة ودون تدخل أى من أجهزة الدولة. وربما أن رئيس الوزراء لم يأخذ علمًا. وإذا قلت له فربما أخلق ـ دون أن أقصد ـ حساسية لا مبرر لها بين الملك سليل البوربون وبين رئيس وزرائه الاشتراكى»!

وعقرب الدقائق مازال يتحرك «وفيليبو» مازال يواصل أسئلته وكلها نفاذة وذكية.

ولم يبق مفر.. فالساعة الآن تقترب من الثانية عشرة إلا خمس دقائق أو ستة.

واستأذنت من رئيس الوزراء على موعد آخر نستأنف فيه حديثنا إذا سمح وقته. وأسرعت إلى سيارتى أقول لسائقها «خوزيه»:

ـ «إنك قلت إن المسافة من قصر «مونكلوا» إلى قصر «زرزويلا» لا تستغرق أكثر من خمس دقائق، فهل تستطيع أن تجعلها أربعة»؟

وانطلق بالسيارة..

وكانت حساباته خاطئة.. وربما قلت إنصافًا له إنها كانت ناقصة..

وصلنا إلى بوابة القصر الخارجية بعد خمس دقائق، ولكن الذى لم يحسب حسابه هو طول المسافة من بوابة القصر الخارجية إلى باب القصر نفسه. ثم إنه لم يحسب حساب نقط الحراسة المتعددة على الطريق الذى يمتد ثلاثة كيلومترات تتلوى وتتعرج وتصعد وتهبط بين الربى الخضراء تغطيها الغابات بأشجارها الباسقة وأحواض الورد الزاهية بالألوان والعطور المتداخلة فى انسجام بديع، ثم حقول الأزهار وتلال نباتات الصبار النادرة.

وكنت فى شغل عن هذا كله، لوحة الطبيعة كأحلى ما تكون الطبيعة حين تلمسها أصابع فنان يعرف ما يفعل ويفهم العلاقة بين حساسية الإنسان وحيوية الطبيعة.

كنت فى شغل عن هذا كله بسؤالين ألحا علىّ فى قلق.

«هل أستطيع أن ألحق بموعدى على نحو ملائم لا تجاوز فيه»؟

ثم: «ما هى العلاقة بالضبط بين الملك البوربونى ورئيس وزرائه الاشتراكى»؟

إننى لم أسأل رئيس الوزراء عن هذه القضية ولكنى سوف أسأل الملك؟

أخيرًا توقفت السيارة أمام باب القصر.

وأخيرًا رحت أعتذر للجنرال «كامبو» رئيس سكرتارية الملك.

وهرولنا معًا نصعد سَلم الرخام المهيب إلى الدور الأول حيث مكتب الملك. ووصلنا إلى صالون الانتظار الملحق به، ودخل هو إلى مكتب الملك.. أتاح لى لحظات ألتقط فيها أنفاسى وأتغلب على قلق العجلة، وأرتب أفكارى بكل ما أريد أن أتحدث فيه مع الملك الوحيد الذى بقى له عرش من أسرة «البوربون».. ذات يوم كانوا، أو كانت فروعهم، تجلس على نصف عروش أوروبا. والآن لم يبق منهم إلا هو!

وأدرت البصر حولى فى صالون الانتظار. اللون الأزرق - الأزرق الليلى كما يسمونه - هو الغالب على كل أثاث الصالون. الأزرق الليلى هو الأثير لدى «البوربون»، ومعه الأبيض وزهرة الزنبق بماء الذهب، لكن هناك لمسات أخرى أحس بها وأشعر فيها بتأثير الملكة «صوفيا» زوجة الملك. أعرفها من أيام طفولتها من خلال معرفتى بوالدها الملك «بول» ووالدتها الملكة« فردريكا». ذات يوم كان لهم عرش اليونان، وأيام الحرب الأهلية فى اليونان عرفتهم. ولقد تهاوى عرش اليونان هو الآخر وخرج آخر ملوكه «قسطنطين» لاجئًا إلى لندن. وفى أثينا الآن رئيس وزراء اشتراكى آخر. وكذلك الحال فى البرتغال.

كلهم اشتراكيون فى «حزام الزيتون» من جنوب أوروبا.. «باباندريو» فى أثينا، و«شوارين» فى لشبونة، و«جونزاليس» فى مدريد!

لكن إسبانيا تختلف. مازال هنا ملك وعرش. وأعود إلى نفس السؤال الذى كان معى والسيارة تنطلق على الطريق إلى بوابة القصر ومن بوابة القصر إلى بابه: «ما هى العلاقة بين الملك البوربونى ورئيس وزرائه الاشتراكى خصوصًا على ضوء مواريث ماجرى فى إسبانيا قريبًا»؟: تنازل جده الملك «ألفونسو الثالث عشر» عن العرش. ثم الحرب الأهلية. ثم السنوات الطوال من حكم الجنرال «فرانكو» الذى أعاد

الملكية إلى إسبانيا ولكن على هواه، فقد استبعد «دون خوان» المطالب الشرعى بعرش إسبانيا واختار بدلاً منه ابنه «خوان كارلوس»، ثم تولى هو بنفسه تعليم الأمير الصبى وقتها وتأهيله للعرش لكى يضمن أن إسبانيا حتى بعد رحيله سوف تظل هى إسبانيا كما أراد لها، إذ ظن أن الموتى يمكن أن يحكموا الحياة من ظلام القبور!

وتوقفت أفكارى عن التداعى، فقد انفتح باب مكتب الملك وأطل الجنرال «كامبو» يدعونى إلى الدخول!

□

استلفت نظرى على الفور فى مكتب الملك شيئان:

■ الملك أكثر شبابًا مما قدرت. ظننت أن عبء الحوادث أخذ منه. لكنه يبدو لى الآن أن الحوادث أعطت أكثر مما أخذت. حركة حادة النشاط وضحكة مجلجلة.

■ رفوف المكتبة تغطى معظم الجدران فيما عدا نافذة واسعة تطل على الحديقة وتبدو وراءها نافورة كبيرة من الرخام الأبيض ترتفع وتتساقط المياه من حول تماثيلها. لكن رفوف المكتبة عليها قليل من الكتب بينما الجزء الأكبر منها ملىء بنماذج متكررة لسفينة واحدة. نماذج متفاوتة الأحجام. بعضها كبير وبعضها صغير. بعضها من الفضة وبعضها من الذهب. السفينة معروفة ومشهورة فى التاريخ. هى نفسها «سانتا ماريا» التى ركبها «كريستوفر كولومبس» وسافر عليها بمباركة إسبانية وتمويل إسبانى فاكتشف العالم الجديد ـ أمريكا!

وتبادلنا عبارات مجاملة هى المداخل الطبيعية لأى حديث، وقادنى مشيرًا إلى مقعد أمام مكتبه واتخذ هو مكانه وراء المكتب، وبدأت فقلت:

ـ «لابد أن أعترف أننى متحمس لكل هذه النماذج لـ «سانتا ماريا» هنا فى مكتبك. على الأقل يعرف زوارك ـ من أمريكا ـ من هم أصحاب الفضل، والأولى بالشكر...»

وقاطعنى الملك بضحكة مجلجلة قال بعدها:

ـ «إنك تتحدث عن ماض بعيد .. لقد تغيرت الدنيا» !

وقلت له :

ـ «إنك اقتربت بى مما أريد. دعنا من الماضى البعيد. إننى أريد أن أسمع منك عن الماضى القريب. ماض يكاد أن يكون معاصرًا. إنه يشغلنى الآن، والحقيقة إنه السبب الذى دعانى للمجىء هنا».

كان الملك يصغى إلىّ باهتمام، وعيناه مركزتان علىّ وكأنما هما أدواته فى استشعار ما سوف أقول حتى من قبل أن يصل القول إلى فكره ويجول فيه، واستطردت أقول «إننى مهتم بقضايا ومشاكل مرحلة الانتقال، قرأت الكثير من أدبياتها وحاولت التوفر على دراسة دخائلها لكننى حتى الآن لم أصل إلى تصور واضح كامل.. أو شبه واضح كامل.

ولعله يأذن لى أن أشرح تفصيلاً موضوعى».

وهز رأسه موافقًا وإن لم يقل شيئًا، ومضيت إلى التفاصيل.

قلت :

ـ «إننى أعرف أن لكل بلد خصائصه ولكل بلد ظروفه، وأعرف أن تجارب الشعوب غير قابلة للنقل أو التقليد، لكنها بالتأكيد قابلة للدرس والاستيعاب، ثم إننى أعرف أن القياس بالغير له مزالق لأن القياس الصحيح لا يصدق إلا فى حالة التماثل التام وهو مستحيل من شعب إلى آخر.

ومع ذلك فقد خطر لى أن هناك أوجه شبه، أقول أوجه شبه، بين ما كان عندكم وتغير، ومازال عندنا ولم يتغير على الأقل حتى الآن.

كان عندكم رجل واحد على القمة، الجنرال «فرانكو». وكذلك كان ومازال عندنا وإن اختلفت الرتب.

وكان تحت الرجل الواحد تنظيم سياسى من صنعه، «الفالانج» فى حالتكم. وكذلك كان ومازال عندنا وإن اختلفت الأسماء.

وكان وراء هذا الرجل الواحد جيش. وكذلك كان ومازال عندنا وإن اختلفت درجة التدخل المباشر.

لكنكم استطعتم أن تنتقلوا من هذا الوضع إلى وضع غيره.

الرجل الواحد - «فرانكو» - اختفى ولم يأخذ محله رجل واحد غيره.

والتنظيم السياسى الذى صنعه الرجل الواحد ذاب ولم يحاول أحد أو على الأصح لم ينجح أحد فى صنع مثال آخر متكرر له.

والجيش، فيما يبدو لى حتى الآن، لم يعد حيث كان، وإنما تغير موقعه.

أريد أن أكون صريحًا معك إلى أبعد حد.

فى البداية - وبعد وفاة الجنرال «فرانكو» - كنت واحدًا من الذين تشككوا. لم أتصور أن الانتقال مما كنتم فيه إلى ما أصبحتم عليه يمكن أن يحدث بسلام وأمان.

أتذكر أننى أثرت ذات مرة سنة ١٩٧٧ عاصفة فى أثينا. كان رئيس الجمهورية - بعد سقوط النظام العسكرى للكولونيلات فى اليونان - هو البرفيسور «تسيسوس» وهو أستاذ قانون. ولسبب ما فإنه قرر أن يدعو إلى ندوة محدودة فى أثينا لمناقشة قضية الديمقراطية، ودعا لها من العالم اثنى عشر رجلاً. كان من حظى أن أكون واحدًا منهم يتكلم عن الديمقراطية فى العالم الثالث.

أثناء المناقشات - وكان معنا فى الندوة «ماريو شواريس» أول رئيس لوزراء البرتغال بعد ثورة الزهور سنة ١٩٧٤ - استلفت نظرى أن «شواريس» بدأ حديثه بتهنئة نفسه والآخرين على عودة الديمقراطية إلى اليونان وإسبانيا والبرتغال، ثم تابعه آخرون من أعضاء الندوة. ولم أملك نفسى وأنا أسمع التهانى المتبادلة من أن أطلب حق التعليق لأقول: «بالتأكيد إن عودة الديمقراطية إلى اليونان وإسبانيا والبرتغال ظاهرة مثيرة وفيها الكثير مما نستطيع أن نهنئ أنفسنا عليه، لكن لدىّ تحفظات. ثم تساءلت أمام الجميع فى الندوة: «أليس غريبًا أن الديمقراطية لم يسمح لها بالعودة إلى اليونان إلا بعد هزيمة النظام العسكرى للكولونيلات أمام تركيا فى

معركة قبرص؟ لقد كان الكولونيلات أنفسهم فى ورطة ما بعد الهزيمة، وكانوا هم الذين اتصلوا تليفونيًا بالسياسى المدنى المخضرم «كارمانليس» فى منفاه بباريس برجاء أن يعود إلى أثينا وأن يتسلم مقاليد الحكم، وكانت تلك بداية عودة الديمقراطية إلى اليونان، أى أنها لم تكن لتعود لولا هزيمة قبرص.

وأليس غريبًا أن الديمقراطية لم يسمح لها بالعودة إلى البرتغال إلا بعد هزيمة دكتاتورية «سالازار» و«جايتانو» فى حرب أنجولا. لقد كان الرجل الأفريقى الأسود والأعزل هو الذى هزم الدكتاتورية وليس القوى الديمقراطية فى البرتغال. أى أنه - فى لشبونة أيضًا - لم تكن الديمقراطية لتعود لولا هزيمة أنجولا. وأليس غريبًا أن الديمقراطية لم يسمح لها بالعودة إلى إسبانيا إلا بعد وفاة الجنرال «فرانكو». لقد ظلت الديمقراطية واقفة على باب حجرة موته حتى لفظ نفسه الأخير. وبعدها، بعدها فقط، استطاعت الديمقراطية أن تجتاز عتبة الباب. أى أنه فى مدريد - بعد أثينا ولشبونة - كان الموت هو الذى أفسح المجال للديمقراطية!

أليس هذا كله غريبًا؟ وأليس فيه ما يدعونا إلى التحفظ!»

وواصلت شرح موضوعى للملك:

- «إن ملاحظاتى فى ذلك الوقت كانت موضع مناقشات واسعة اشترك فيها رئيس جمهورية اليونان بنفسه.

أتذكر أننى ظللت على تحفظاتى قائلاً: «إن التجربة وحدها سوف تثبت لنا ما إذا كانت عودة الديمقراطية إلى اليونان وإسبانيا والبرتغال مجرد حدث عارض - فرصة يتمكن فيها طرف من حشد قواه والانقضاض - أو أنها فى الحقيقة حدثٌ تاريخى وليست حدثًا عارضًا.

«إننى رحت أتابع وأراقب، وركزت بالتحديد على إسبانيا لأكثر من سبب. لقد ظللت على تحفظاتى وأنا أرى محاولات تدخل عسكرى ومشروعات انقلابات لم تنجح منذ توليتم العرش حتى الآن، ثم بدأت أراجع نفسى بعد الانتخابات الأخيرة التى فاز فيها «فيليب جونزاليس» وحزبه الاشتراكى.

لم يعد فى استطاعة أحد - أنا أو غيرى - أن يكابر فى أن تحولاً ما تم فى إسبانيا.

«أنا أعرف كم كانت قوة اليمين طاغية فى إسبانيا. لقد اختار الحرب الأهلية سنة ١٩٣٥ لأنه لم يطق وجود حكومة اشتراكية جاءت بها الانتخابات إلى الحكم. وكانت النتيجة - بعد سنوات من الدم والعذاب - أن استولى الجنرال «فرانكو» على السلطة من سنة ١٩٣٦ وحتى سنة ١٩٧٥، أربعين سنة كاملة.

«وأن يعود الاشتراكيون إلى السلطة بانتخابات حرة بعد غياب أربعين سنة فهذه ظاهرة لايستطيع أحد إنكار دلالاتها.

«أريد أن أكون شديد الوضوح معك ومع الحقائق.

«إننى لا أستطيع ولا يستطيع غيرى أن يدعى بأنك أنت الرجل الذى أعاد الديمقراطية إلى إسبانيا بعد غياب طال من منتصف الثلاثينيات إلى بداية الثمانينيات. هذه مهمة تتخطى قدرات أى رجل مهما كانت نواياه الطيبة. فالديمقراطية مرهونة بنمو طبقات المجتمع وقواه على نحو يسمح لها بدرجات من الفاعلية المتوازنة تقبل وترضى معها أن تحتكم إلى دستور وقانون لحل تناقضاتها.

«لسبب ما - أو لأسباب - كانت إسبانيا مع نهاية عصر «فرانكو» قرب مرحلة نمو من هذا النوع، لكن القضايا لا تحل نفسها بهذه البساطة. ليس لمجرد توفر مقدمات معينة تترتب النتائج تلقائيًا أو آليًا.

«مثل ذلك لا يحدث، وإنما تحتاج الأمور - حتى مع توفر المقدمات - إلى عملية إدارة واعية.

«إن الجيش - أو على الأقل عناصر منه - حاولت - ولو بحكم ما تعلمته وتعودت عليه فى عصر «فرانكو» - أن تتدخل بعد غيابه.. وبنفس منطقه.

«ثم إن اليمين - أو على الأقل جماعات منه - حاولت بحكم عجزها عن متابعة طبائع التطور أن تعرقل.

«بل إن اليسار ـ أو على الأقل تيارات فيه ـ حاولت بحكم وساوسها ومخاوفها المستبدة أن تغامر وتقامر.

«برغم هذا كله وتعدد مصادره واتجاهاته فإن تحولاً حقيقيًا استطاع أن يخط مساره. كان المسار حرجًا وصعبًا ـ لكن جزءًا من الطريق أمكن اجتيازه بغير شك. لا يستطع أحد منا أن يرى الغد، لكننا إذا حكمنا بما شاهدناه أمكننا أن نقول إن الانتقال الإسبانى إلى الديمقراطية قادر على الاستمرار بقدر معقول من الأمان.

«فى هذا كله ـ هذه هى النقطة المهمة ـ كانت سلطة العرش، وأنتم شخصيًا قرب الموقع الصحيح فى معظم الأوقات.

«كانت سلطة العرش هى الجسر الذى خطت عليه إسبانيا من حال إلى حال.

«استطاعت أن تدير ـ بدرجة عالية من الكفاءة ـ حركة توازنات كان يمكن أن تفلت، وعلى وجه القطع فإن التجربة لم تكن بالنسبة إليك مجرد نزهة!

«هذه التجربة ـ وقد اختصرتها قدر ما أمكن ـ هى ما أريد أن أسمعك فيه؟ ماذا حدث؟ كيف استطعت، بينما أنت ـ وأرجوك أن تغفر لى صراحتى ـ قبل أى شىء وبعد أى شىء: ملك؟ وكان يجب أن يكون مفهومك التقليدى أنك ظل الله على الأرض!»

□

ولم أكد أفرغ من كلامى حتى شهق الملك مروعًا ـ فيما بدا لى ـ مما قلت. ثم جلجلت ضحكته، ثم قال:

ـ «ياه .. ياه. وتريدنى أن أتحدث فى ذلك كله؟!».

وسكت. وسكت أنا الآخر منتظرًا.. وساد قاعة المكتب صمت للحظات. ثم عاد الملك يتكلم.

قال:

ـ «أنت بالطبع تعرف أنني كملك دستورى لايحق لى أن أتكلم فى السياسة.

بالطبع إننى إنسان، ولكل إنسان آراؤه. لكن ملكًا دستوريًا ـ حتى إذا تكلم ـ ليس له أن ينشر رأيه على الناس».

وقلت:

ـ « ذلك أعرفه، وأنا لا أريد هنا أن أجرى حديثًا صحفيًا معكم. سؤال وجواب، كل ما أريده هو أن أفهم.. أن أدرس تجربة على الواقع. قد أسمح لنفسى أن أقول إننى الآن لم أعد أجرى أحاديث صحفية مع أحد. إننى أقابل من أقابل فى الدنيا لمعرفة قد تلقى شعاع ضوء على ما أكتب. فى زمن بعيد قابلت أقطاب العصور التى عشتها وحاورتهم ونشرت أحاديثى معهم. وأما الآن ـ وبعد سنوات طوال ـ فإن ذلك لم يعد مطلبى من أى لقاء. صحيح أننى أكتب أحيانًا عن رجال، ولكنى لم أعد أنقل عنهم كل ما يقولون كيفما اتفق والسلام. ربما استشهدت أثناء كتابتى عن واحد منهم ببعض ما قاله ـ إذا سمح لى ـ لكننى أفعل ذلك من خلال رؤيتى وتقييمى لشخصيته أو مواقفه ومن خلال مجمل لقائى معه، وإحساسى بما قاله أو ما لم يقله»!

وكان الملك كريمًا ورقيقًا ـ أشهد له.

تنهد من قلبه بعد لحظة صمت... ثم عاد يتنهد مرة أخرى بعد الصمت، ثم جلجلت ضحكته ولمعت عيناه. ولست أعرف لماذا أحسست أن عينيه مرت بهما سحابة حزن لم أستطع لحظتها أن أعرف سببًا له.

ثم قال:

ـ «سوف أروى لك حكاية صغيرة وبعدها نقفل الدفاتر فيما يتعلق بى. إننى لا أرى معك ورقًا ولا قلمًا ولا جهاز تسجيل. لكننا سوف نقفل الدفاتر بعد هذه الحكاية».

وراح يروى حكايته:

« بعد نجاح الاشتراكيين فى الانتخابات الأخيرة اتصل بى أحد أصدقائى المقربين (لم يذكر اسمه) تليفونيًا وسألنى:

ـ خوان.. سمعت أن نتائج الانتخابات الإسبانية ظهرت ويشاع أن الاشتراكيين نجحوا فى الانتخابات. فهل الإشاعة صحيحة؟

وقلت له:

ـ ليست إشاعة وإنما هو خبر صحيح. لقد ظهرت نتيجة الانتخابات. فاز الاشتراكيون.

وقال:

ـ خوان.. هل جننت لتسمح للاشتراكيين بالسلطة وهم أعداؤك؟

وقاطعته قائلاً:

ـ من قال لك إن الاشتراكيين أعدائى؟ إن دستور إسبانيا يجعل كل القوى السياسية بالنسبة لى سواء.. إننى أقسمت على احترام الدستور، وما يريده الشعب هو ما يجب أن يكون.

وانفعل صديقى وصاح على التليفون:

ـ هل تعرف عواقب ما فعلت؟ ما هذا الذى تقوله؟

وقلت له:

ـ ما أقوله هو المكتوب فى الدستور الذى أقسمت على احترامه. إنك تسألنى «هل أعرف عواقب ما فعلت؟» وأنا بدورى أسألك «هل تعرف عواقب عدم فعلى له؟» إن الملك الذى يعترض إرادة شعبه ليس أمامه إلا أن يقدم رأسه للمقصلة قبل أن يطالب بها الشعب. إننى لم أفعل ما فعلته عن خوف وإنما عن اعتقاد بأن الملك لايحق له أن يريد غير ما يريد شعبه. هل فهمتنى..؟ هل فهمت التاريخ؟.. هل فهمت العصر الذى نعيش فيه؟

وجلجلت ضحكة الملك مرة ثانية ثم قال:

ـ «إننى أحترم آراء أصدقائى وإن اختلفت عن آرائى ـ لكن احترامى الأول هو لدستور إسبانيا. فيما يتعلق بدستور إسبانيا ليست لى آراء أو اجتهادات. لا يحق للملك أن تكون له آراء أو اجتهادات فى الدستور. واجبه أن يطيع، ولا بد أن تجىء الطاعة من قلبه وليس من لسانه».

ولم يترك لى فرصة وإنما قال:

ـ «الآن نقفل الدفاتر .. اتفقنا؟».

وقلت:

ـ «الآن نقفل الدفاتر .. اتفقنا!».

□

وابتداء من هذا السطر، لم تعد للملك «خوان كارلوس» علاقة بمعظم هذا الحديث!

تكون له علاقة به فى حالة واحدة ووحيدة وهى حالة إذا ما استشهدت به استشهادًا صريحًا ونسبت إليه قولاً أقصد نسبته إليه!

والحقيقة أننى لا أضع هذا التحفظ الجلى لمجرد الرغبة فى إخلاء طرف ملك إسبانيا من مسئولية ما هو قادم فيما يلى من السطور ـ وإنما لأن ما هو قادم ليس فعلاً محصلة لقائى معه وحده. هو أقرب إلى أن يكون محصلة محاولة أوسع فى استقصاء حكاية الانتقال الإسبانى إلى الديمقراطية، وهو انتقال مازال ماضيًا فى طريقه، على الأقل حتى هذه الدقيقة وإلى إشعار آخر.

عنيت أن أنص على ذلك بإلحاح تجنبًا لأى لبس أو خلط!

ثم أتقدم بالحديث إلى ما بعد هذا التحفظ الجلى والواضح.

□

وأريد أن أقول بداية ـ والحديث عن مرحلة الانتقال الإسبانى إلى الديمقراطية ـ

إن الشعب أو الأمة كائن حى، ومثل أى كائن حى فإن مرحلة الانتقال من حال إلى حال، ومن طور إلى طور هى دائمًا من أصعب الفترات.

فالشعب - أو الأمة - فى مثل هذه المرحلة من الحركة - كما يقولون - معرض ومكشوف لأنه يجتاز خلاء واسعًا ليس عليه دليل، ذلك لأن كل حياة تختلف عن أى حياة أخرى، وكل تجربة لها خصائصها لأنها موصولة بذات معينة، وربما تقاربت وتشابهت التجارب ولكنها لا تتماثل مع أحكام الطبيعة نفسها.

وأتذكر أن مشاكل وقضايا فترة الانتقال كانت من شواغل جمال عبد الناصر الكبرى لسنوات طويلة. كان يريد أن ينتقل بمصر من مجتمع نصف متخلف ونصف إقطاعى إلى مجتمع اشتراكى متقدم ومتطور فى زراعته وصناعته، وكان يأمل فى ديمقراطية سياسية مؤسسة على العدل الاجتماعى، ثم إنه كان يحلم بالانتقال بعالم عربى موزع ومقسم إلى أمة عربية واحدة.. وهكذا كان مأزقه الكبير هو مشاكل فترة الانتقال.

ولقد قرأ كتابات عن هذه المشاكل والقضايا لفترة الانتقال ولكنها جميعًا لم تشف غليلاً ولا حلت عقدة، فلقد كان معظم من كتبوا يتحدثون نظريًا، ثم إن معظم من طبقوا عمليًا وقادوا محاولات انتقال كبرى لم يكتبوا. ولو أنهم كتبوا لما أجابوا بالضبط عن سؤاله لاختلاف تجارب التاريخ واحدة منها عن الأخرى.

وكثيرًا ما سمعت جمال عبد الناصر يحاور بعض رفاق زمانه - وبالذات «نهرو» و«تيتو» - عن مشاكل وقضايا مرحلة الانتقال، ولا أظنه وصل - أو وصلوا - إلى إجابة شافية وافية، والسبب الرئيسى كما قلت هو اختلاف تجارب التاريخ.... ربما تتقارب وتتشابه لكنها لا تتماثل.. ويفيدنا أن نتذكر ذلك دائمًا حتى لا نقع فى مزالق تبسيط مخل وتسطيح للأمور ليس هنالك ما يدعونا إليه!

ومع ذلك فلقد يستلفت نظرنا - مجرد لفت نظر - أن التجربة التاريخية الإسبانية الحديثة بدأت فى وقت قريب وفى ظروف مشابهة للتجربة التاريخية المصرية الحديثة، وبالتالى العربية الحديثة.

كانت البداية فى التجربتين هى «نابليون بونابرت» ومطالع القرن التاسع عشر!

. . . .

. . . .

[أتوقف لحظة أمام استطراد ـ أو لعله استدراك ـ سريع، ربما يبدو بعيدًا، لكن ضرورات الموضوع ـ فيما أظن ـ تغرى بالتعرض له ولو لمجرد تنحيته جانبًا وحتى لا يظل أمره معلقًا بالهواجس والظنون!

أقصد به التجربة اليابانية فى الانتقال بدأت فى نفس الوقت ـ مطالع القرن التاسع عشر ـ مع التجربة الإسبانية ومع التجربة المصرية العربية.

لكن التجربة اليابانية ـ من وجهة نظرى ـ على عكس التجربة الإسبانية، لا تصلح لأى قياس رغم أن بعض المفكرين العرب يزجون بها دائمًا عندما يعقدون المقارنات وعندما تستوقفهم المفارقات بين ما هو هنا وما هو هناك!

التجربة اليابانية حالة فريدة ووحيدة تدرس لذاتها ولا شىء غير ذلك على الإطلاق لأسباب كثيرة بينها ما يلى:

١ ـ إن اليابان ـ جغرافيًا ـ على حافة الدنيا، بعيدة عن قلب العالم الذى نبض وتحرك منذ بداية التاريخ، ثم هى محاطة بالبحر. وإذن فقد كانت بعيدة، ثم إنها كانت آمنة، فهى ـ إلى جانب بعدها ـ جزيرة محاطة بالبحر يحميها من كل ناحية. وليس ذلك حال مصر وأمتها العربية ـ ولا هو حال إسبانيا ـ فكلهم على قارعة الطريق إذا جاز التعبير.

٢ ـ نتيجة لهذا الوضع الجغرافى فإن اليابان لم تصطدم بمواقع السيطرة المؤثرة فى التاريخ البعيد ولا فى التاريخ الأقرب منه. وأما مصر والعرب وإسبانيا فقد كانوا على طريق الغزوات والحملات والاصطدام المباشر بكل وسائل الصدام على مر العصور.

٣ ـ إن اليابان ـ نتيجة لكل ما سبق ـ كان لديها الوقت وكانت لديها الفرصة لنمو لا

تعوقه عوائق ولا تعترضه أسباب من خارجه. وعلى النقيض من ذلك مصر والعرب وإسبانيا.

٤ - إن اليابان عندما أرغمت على فتح أبوابها للتجارة أمام سفن «الكوماندر برى» الأمريكى لم تقتحم بالكامل ولا استبيح كامل ترابها وتراثها. أرغمت على أن تفتح الأبواب، وقد فتحت الأبواب.

وهناك فارق كبير بين باب مفتوح، وباب مقتحم.. مصر والعرب وإسبانيا تعرضوا جميعًا للاقتحام.

٥ - إن النظام الاجتماعى اليابانى لم يكسر من الداخل كما حدث لمجتمعات مصر والعرب وإسبانيا وغيرها، وإنما كانت هناك سيادة لنوع من الاستمرار والاتصال ظل معه هذا المجتمع وطنيًا وظل يابانيًا. ظل كذلك بمقوماته كلها وعلى رأسها وضع الإمبراطور الذى ضعفت سلطته أحيانًا وقويت أحيانًا أخرى، لكن ذلك حدث - حين حدث - نتيجة لتحديات من الداخل وليست من الخارج. ولم يحدث هناك مثلاً ما حدث لنا فى العصر المملوكى. حاكم لا يعرف لغة شعبه. ولا يرتبط بتراث البلد الذى يحكمه أو تقاليده ولا يمثل حكمه إلا مغامرته الشخصية وهو يعلم مقدمًا أنه غير قابل للاستمرار بعد حياته على فرض أنه عاش ومات حياة وموتًا طبيعيين. فلم تكن هناك أسر مالكة ولا ولايات عهد ولا حكم ولا سلطة مسئولة عن كفالة أى نوع من أنواع الاستمرار.

٦ - إن التراكم الاقتصادى اليابانى وحتى التراكم الثقافى والفنى لم يتعرض لنزيف مستمر متصل كذلك الذى تعرضت له مصر والعرب وإسبانيا، وإنما بقى لليابان ما صنعه شعبها اقتصاديًا وثقافيًا وفنيًا، فلم يكن هناك انقطاع ولا كانت هناك غربة!

٧ - إن المجتمع اليابانى لم يخترق فكريًا وسياسيًا كما حدث لمجتمعاتنا وكلها مخترقة إلى صميمها بحكم كثير أشرت إليه وكثير غيره لايحتاج إلى إشارة لأنه ماثل فى الأذهان قريب من الذاكرة.

٨ ـ إن البوذية فى زحفها شرقًا إلى اليابان من موطنها الأصلى فى الهند وصلت إلى هناك وقد تخلصت من كثير لحقها فى الهند، لقد وصلت إلى اليابان أفكارًا ولم تصل إلى اليابان عقائد مثقلة بأعباء تاريخية وأسطورية تؤثر فى التكوين الروحى والنفسى للأمة اليابانية. وهكذا فإن الوجدان اليابانى عندما اقترب من العصر الحديث كان متخففًا من أثقال وأعباء ومواريث مقيدة ومكبلة.

٩ ـ إن المجتمع اليابانى كانت له حرية الاختيار المفتوح سواء فى الأفكار والاجتهادات والنقل والتطوير والتقليد والتجديد دون عوائق أو روادع، ومثلاً فإن نظم التعليم الحديث فى اليابان لم تفرض على المجتمع اليابانى ولا تولى وضعها له غريب كما حدث فى مصر مثلاً حين وضع إنجليزى هو المستر «دانلوب» نظام تعليم ما لبث أن امتدت مؤثراته من مصر إلى بقية الأمة العربية.

١٠ ـ إن اليابان عندما خرجت لممارسة دور دولى مؤثر فى الباسيفيك كانت تواجه القيصرية الروسية التى وصلت توسعاتها إلى شاطئ هذا المحيط ضعيفة بحكم المسافة بين المركز والأطراف النائية، ثم إن الإمبراطورية القيصرية كانت تواجه مشاكل الثورة ومقدماتها فى داخل وطنها، وهكذا فإن النصر اليابانى البحرى سنة ١٩٠٥ على الأسطول الروسى ـ وهو النصر الذى لفت أنظار العالم كله إلى صعود نجم اليابان ـ لم يكن معجزة وإنما كان منطق التطور.

وحتى بعد أن هزمت اليابان فى الحرب العالمية الثانية بأول ضربات نووية فى التاريخ فإن اليابان ـ غير المثقلة بأعباء مواريث التاريخ والعقائد ـ كان سهلاً عليها أن تنحنى للعاصفة. ثم إن القوة الغالبة وهى الولايات المتحدة الأمريكية أدركت بسرعة أنها فى حاجة إلى اليابان، وهكذا فإن الجنرال «ماك آرثر» ـ وهو قائد الاحتلال الأمريكى لليابان ـ رأى لعدة أسباب وملابسات حاجته إلى بعث يابان قوية.

وفى ذلك الوقت كانت هناك تحديات الثورة الشعبية فى الصين ثم كانت هناك قلاقل الهند الصينية التى انفجرت فيما بعد فى حرب فيتنام.

وكان «ماك آرثر» من الذين يعرفون أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست قوة

برية فى أعماق القارة الآسيوية وهى لا تستطيع عمل ذلك وإلا تعرضت لمخاطر شديدة وذلك ما ثبت فى حرب فيتنام.

كان «ماك آرثر» يعرف أن الولايات المتحدة ـ أمام آسيا ـ هى دولة بحر وجو، وإذا كان ذلك كذلك فهى فى حاجة إلى قواعد تحيط بعمق القارة.. قريبة منها وبعيدة عنها فى نفس الوقت.. كان رأى «ماك آرثر» أن خط الدفاع الأمريكى الأكثر تقدمًا فى آسيا هو مجموعة الجزر الكبيرة القريبة من شواطئ القارة الضخمة، وأبرز هذه الجزر بالطبع.. اليابان والفليبين وفورموزا ـ تايوان فيما بعد ـ وبالطبع فإن اليابان كانت أقرب هذه الجزر إلى أن تكون قاعدة حقيقية وقاعدة مستقلة يمكن أن تنشأ فيها قوة موالية للغرب تطل من موقعها الذاتى على الباسيفيك فى مواجهة القوة الضخمة للاتحاد السوفييتى والقوة النامية للصين.. وهكذا فإن جهد الاحتلال الأمريكى تركز بالدرجة الأولى على إعادة بعث قوة اليابان: قوة تماسك مجتمعها أولاً، وقد تمثل ذلك فى الاحتفاظ بسلطة الإمبراطور وفى استعادة وترسيخ قيم اليابان التقليدية، ثم إن طاقة العمل اليابانية جرى إعادة تركيبها وفق نفس النمط اليابانى الخاص إلى درجة أن صاحب المصنع الجديد تحوّل ليصبح الطبعة الجديدة من الساموراى القديم.

وهكذا استطاعت اليابان محتفظة بشخصيتها أن تلحق بالعصر وتجاريه.. وأن تعبر ـ بسلام وأمان ـ مرحلة الانتقال بكل مخاطرها.

تجربة تاريخية فريدة . مبالغة فى خصوصيتها. تدرس لذاتها لا لشىء آخر ـ على الإطلاق!].

. . . .

. . . .

التاريخ هو الباب والمفتاح.

وهكذا أعود إلى التجربة الإسبانية. فيها ما هو أكثر من ذاتها، مع الحرص دائمًا على اختلاف التجارب.

من سقوط الأندلس فى يد الملك «فرديناند» والملكة «إيزابيللا» وحتى مطالع القرن التاسع عشر كانت إسبانيا تحت ملكيات تحكم بسطوة الإقطاع وبسيف الكاثوليكية، وكان إنجازها العظيم طوال تلك القرون هو رعايتها لمحاولات استكشاف العالم الجديد، وقد مكنتها عملية النهب المنظم لذهب أمريكا اللاتينية من تكديس غنى واسع من هذا المعدن النفيس لم يتح لغيرها، الأمر الذى جعل بعض المؤرخين يسمون تلك الفترة بـ «العصر الذهبى لإسبانيا» نسبة إلى معدن الذهب وليس نسبة إلى شىء آخر.

لكن إسبانيا كانت سيئة الحظ فى ذهبها المنهوب ـ على عكس إنجلترا.

فى إنجلترا وقعت مصادفة تاريخية لا تتكرر. لقد توافق تدفق الذهب المنهوب من المستعمرات مع بداية الثورة الصناعية الأولى، ثورة البخار، وتحوّل ذهب إنجلترا إلى ثروة حقيقية.

الذهب الإسبانى المنهوب من المستعمرات كانت له قصة أخرى مختلفة. تدفق قبل عصر البخار ولم يقع فى يد تجار وأصحاب مصانع وبنوك وإنما وقع فى يد ملوك ونبلاء وكرادلة.

ظل كنزًا ولم يتحوّل إلى ثروة حقيقية.

أصبح تحفًا فى القصور وتماثيل فى الكنائس، بل وما هو أفدح إلى درجة أن أى زائر لمدينة «أرانخوين» القريبة من مدريد يستطيع أن يرى كيف تصرفت الملكة «إيزابيللا» الثانية فيما طالته يداها من الذهب. كان للملكة عشيق وكانت تريد أن تلقاه بمأمن من عيون العاذل والرقيب، وفى وسط حدائق «الأرانخوين» بنت قصرًا تلتقى فيه مع العشيق. غرفة النوم كلها من الذهب الخالص، السرير والمقاعد والموائد. والسقف والأرض والجدران!!

ومع مطالع القرن التاسع عشر زحفت جيوش الإمبراطور على إسبانيا، إن «نابليون بونابرت» كان يريد عرشًا لشقيقه «جوزيف»، وبدت إسبانيا له فرصة جاهزة واجتاحتها جيوشه واستسلمت الملكية القديمة للإمبراطورية

الجديدة ودخل «جوزيف بونابرت» ليجلس باسم شقيقه على العرش فى قصر الاسكوريال!

لكن إنجلترا كانت لنابليون بالمرصاد. ونزل إلى إسبانيا جيش بريطانى بقيادة «ولنجتون» القائد الذى كتبت له المقادير بعد ذلك أن يوجه الضربة القاضية لنابليون فى «واترلو».

. . . .

. . . .

(أليست هناك أوجه شبه تستلفت النظر بين تجربة إسبانيا فى تلك الظروف من مطالع القرن التاسع عشر.. وتجربة مصر فى نفس الفترة.

غنى طائل تحصل عليه مصر فى العصور المملوكية من تجارة الشرق.

الغنى لا يتحول إلى ثروة، وإنما يظل كنوزًا وتحفًا فى قصور السلاطين نهبت كلها فيما بعد.

«نابليون» يجىء أيضًا فى الصراع على البحر الأبيض بين فرنسا وإنجلترا. شده برزخ السويس فى مصر - أو شدته مصر نفسها - طريقًا إلى الهند، كما شده مضيق جبل طارق مدخلاً إلى البحار الواسعة.

الجنرال «ولنجتون» يتصدى له فى إسبانيا برًا بنفس الطريقة التى تصدى له بها الأميرال «نلسون» بحرًا).

. . . .

. . . .

وبعد هزيمة «نابليون» عاد ملوك البوربون مرة أخرى إلى إسبانيا وجلس «فرديناند» السابع على العرش متصورًا أن الدنيا دانت له وأنه يستطيع أن يعود بالأمور سيرتها الأولى ناسيًا أن إسبانيا - تحت ضغط ظروفها الخاصة وتأثير

الثورة الفرنسية وبذور الأفكار التى تناثرت على الأرض الإسبانية من عصر الإمبراطور المستنير - قد خلقت قوى جديدة.

وفوجئ «فرديناند» بضباط جيشه الشبان يثورون عليه سنة ١٨٢٣ ويطالبونه بدستور تحكم البلاد بمقتضاه. واستعان الملك بجيوش فرنسا لإخضاع جيشه وشعبه.

. . . .

. . . .

[بعد قرابة نصف قرن من هذا التاريخ كان «عرابى» ورفاقه يكررون نفس المشهد مع الخديو «توفيق». طالبوه بدستور تحكم البلاد بمقتضاه. وبنفس المنطق استعان الخديو بأساطيل بريطانيا لكى تساعده على إخضاع جيشه وشعبه].

. . . .

. . . .

إن الجيش الفرنسى خرج بعد ذلك من إسبانيا (ولم يخرج الجيش الإنجليزى من مصر) ولم يكن هناك مفر من أن يصبح الجيش الإسبانى عاملاً أساسيًا فى السياسة الإسبانية - خصوصًا مع الصراعات الملكية على وراثة العرش - وشهدت إسبانيا فترة غريبة من الانقلابات العسكرية لم يكن يمكن أن تحدث إلا فى إسبانيا. انقلابات بالتلغراف!

كل ضابط طامع فى السلطة لم يكن عليه إلا أن يجمع توقيعات عدد من قادة المناطق العسكرية بتأييده ثم يبعث بتلغراف إلى من يحكم فى مدريد يخطره بأن مناطق كذا وكذا قررت تأييده. ويتخلى الحاكم فى مدريد عن السلطة لمن حصل على أكبر عدد من توقيعات القادة. ثم كانت هناك طلقة واحدة من مدفع القلعة القديمة فى مدريد تعلن سقوط حكم وقيام حكم آخر، وكفى الله المؤمنين القتال!

وكان أحد هؤلاء الجنرالات قد طرد الملكة «إيزابيلا» الثانية عن العرش وأعلن

الجمهورية الأولى فى إسبانيا. لكن الحكم بالتلغراف لم يكن قابلاً للاستمرار أكثر من ثلاثين سنة ،ثم حدثت «العودة»، عودة الملكية مرة أخرى. «ألفونسو» الثانى عشر على العرش.

ومات «ألفونسو» الثانى عشر سنة ١٨٨٥ وتلاه ابنه الملك «ألفونسو» الثالث عشر وكان طفلاً وأصبحت أمه «ماريا كرستينا» وصية عليه.

وكانت رياح القرن العشرين قد بدأت تهب على إسبانيا.

□

كان يمكن للقرن العشرين أن يكون «قرن الاشتراكية» ـ هكذا كانت التصورات ـ والأحلام ـ فى بداية القرن، ولم يكن يخطر ببال أحد يومها أن الرأسمالية سوف تكون قادرة على إحداث ثورة فى «وسائل الإنتاج» تعكس تأثيرها الفادح على «علاقات الإنتاج».

ولم تكن إسبانيا فى بداية القرن العشرين بعيدة عن تأثير تصورات ـ وأحلام ـ «القرن الاشتراكى».

ظهرت قوة العمال كفاعل رئيسى ومؤثر فى الحياة السياسية الإسبانية. وبرز ما سمى وقتها «الاتحاد الوطنى للعمل» وكان شيوعيًا متطرفًا. وبرز بعده ما سمى وقتها «الاتحاد العام للعمال» وكان ماركسيًا معتدلاً. وبرز حزب اشتراكى ينشد الإصلاح من خلال الشرعية البرلمانية.

لكن اليمين الإسبانى ـ المتمثل فى الملكية والإقطاع والكنيسة الكاثوليكية ـ راح يضغط بشدة. وتحت ضغطه أصبح الشيوعى فوضويًا والماركسى إرهابيًا واضطر الحزب الاشتراكى الإصلاحى إلى أن يتطرف بأكثر ضوابط الشرعية البرلمانية.

وجرت مذابح برشلونة الشهيرة. وتكررت الصدامات الدامية فى غير برشلونة.

وأخيرًا.. أخيرًا فى سنة ١٩٣٠ قام جنرال غريب الأطوار فى إسبانيا ـ وهو الجنرال «بريمو دى ريفيرا» ـ بانقلاب استولى فيه على السلطة ـ رئاسة الوزارة ـ

وحوّل الملك «ألفونسو» الثالث عشر إلى أداة فى يده إلى درجة أن الملك كان يطلق عليه لقب «موسولينى الإسبانى» !

وكانت دكتاتورية «بريمو دى ريفيرا» مقدمة فجة لدكتاتورية «فرانكو» فيما بعد.. ففى حين أن «بريمو دى ريفيرا» ركز على بعض الإصلاحات الداخلية وبالذات مشروعات الطرق فإن «فرانكو» طمح إلى ما هو أبعد. وفى حين أن «بريمو دى ريفيرا» اقتصر على الاهتمام بالقضايا المحلية المحدودة فى إسبانيا فإن «فرانكو» أخذ إسبانيا معه إلى بحر السياسة الدولية الهائج وكاد أن يغرق فيه ويأخذها معه.

والقصص - وكلها حقيقية - مازالت تروى فى إسبانيا - حتى الآن - عن «بريمو دى ريفيرا» ودكتاتوريته. كان فى الأوبرا ذات ليلة يحضر عرضًا من عروضها وأخرج من جيبه سيجارًا ضخمًا وأشعله وراح يدخن، وأقبل أحد ضباط حرسه مسرعًا يلفت نظره إلى أن التدخين ممنوع فى الأوبرا، وسأله رئيس الوزراء: «من الذى قال ذلك؟» وقال ضابط الحرس: «القواعد ياسيدى.. أتلاحظ أحدًا بين الجمهور كله يدخن؟». وفجأة إذ برئيس الوزراء يهم واقفًا فى مقصورته ويصيح بأعلى صوته موجهًا حديثه إلى كل جمهور الحاضرين فى المسرح قائلاً : «أيها السادة.. التدخين مسموح به الليلة فى الأوبرا» ثم جلس!

ولم يكن اهتمام «بريمو دى ريفيرا» بمشروعات الطرق كافيًا لمواجهة مشاكل إسبانيا فى مطلع الثلاثينيات. وأحس الدكتاتور أنه فى حاجة إلى تفويض جديد على الطريقة الإسبانية، فبعث إلى قادة المناطق العسكرية فى إسبانيا يطلب منهم تلغرافات تأييد ويقول لهم إنه سوف يستقيل إذا لم تصله فى ظرف أربع وعشرين ساعة. وأحس قادة المناطق العسكرية أن «بريمو دى ريفيرا» فقد شعبيته وأن الملك «ألفونسو» لم يعد يخشاه أو يحسب حسابه. ولم تصله تلغرافاتهم فى الموعد المضروب فقدم استقالته للملك الذى قبلها وأراد أن يلعب دور المدافع عن الديمقراطية، لكن الوقت كان متأخرًا وكانت إسبانيا فى حالة فوران تبحث عن بديل، ودعا الملك إلى انتخابات عامة.

وتألفت عصبة «الدفاع عن الجمهورية» وأصدرت بيانًا توجته بعبارة أصبحت فيما بعد شهيرة فى تاريخ إسبانيا الحديث:

«أيها الإسبان.. لم تعد لكم دولة...»

ثم تشكل تجمع من شباب الضباط أصدروا بدورهم إعلانًا استهلوه بقولهم «عندما طلبنا العدل أخذوا منا الحرية. وعندما طلبنا الحرية كان كل ما حصلنا عليه هو سيرك برلمانى هزيل!».

وجرت الانتخابات والصيحة المرفوعة فى معمعانها: «إن الملك خان الدستور». وسقط أنصار الملكية، وجاءت الأغلبية للجمهوريين. وقامت المظاهرات تطالب «ألفونسو» الثالث عشر بالخروج من إسبانيا، وتردد الملك، ولكن إسبانيا كانت على شفا الانفجار، وآثر أن يحنى رأسه للعاصفة ويخرج، وأعلن القصر الملكى يوم خروجه بيانًا منه جاء فيه:

«إن انتخابات يوم الأحد الماضى أظهرت لى أننى لم أعد أتمتع بحب شعبى. إننى أستطيع بسلطاتى الملكية أن أتدخل وأفرض سلطة العرش لكنى لن أفعل شيئًا يقود البلاد إلى حرب أهلية. وهكذا فإنه حتى يتاح للأمة أن تتكلم وتسمعنى صوتها؛ فإننى سوف أجمد كل سلطاتى الملكية».

□

كانت إسبانيا التى تركها «ألفونسو» الثالث عشر فى حالة يرثى لها. بلد تتوزعه الخلافات والانقسامات بالطول وبالعرض.

كانت السلطة الرسمية لتحالف القصر والإقطاعيين والكنيسة، وكان هذا التحالف فقد إحساسه بحقائق العصر.

وكانت الطبقة المتوسطة بأفكارها الليبرالية وأحزابها ومثقفيها تحاول إنقاذ الموقف، لكن العقلانية لم تعد شعار اليوم.

وظهرت قوة الطبقة العاملة فى المدن والريف تدفعها طاقات غضب جياش إلى حد الفوضى.

وكانت كل القوى تحاول أن تأخذ الجيش جانبها، فتركيب الجيش ذاته تغير، فلم يعد الجيش كما كان حرس الملك ولا جند الإقطاع ولا خدم الكنيسة. ولعل أخطر ما حدث - إلى جانب تمزق الجيش تبعًا لتمزق البلد - أن الجيش كمؤسسة فقد احترامه لسلطة الدولة. إن الجيش يريد أن يؤدى مهمته وراء دولة يشعر أنها أقوى منه، وبما أن السلاح فى يده هوفإن الأوامر الصادرة إليه لا بد أن تكون من مصدر أكبر وأقوى من السلاح، والمصدر الوحيد الأكبر والأقوى هو الشرعية ، وإلا فإذا أصبحت القضية قضية قوة السلاح فإن اليد التى تمسك به أولى بها أن تمسك بالسلطة دون حاجة إلى وسيط.

وفى مناخ الفوضى فإن بعض مشاكل القوميات - مثل الباسك - بدأت تتحول إلى دعوة انفصال وانسلاخ.

وفى الأسابيع التى تردد فيها «ألفونسو» الثالث عشر - قبل أن يجمد سلطاته الملكية - شهدت إسبانيا ٣٦٩ حادث اغتيال سياسى و١٢٨٧ حادث استخدام سلاح و١٦٠ حادث إحراق كنائس و٦٩ حادث هجوم مسلح على مقر أو فرع حزب سياسى و١١٣ حادث إضراب و١٠ حوادث اقتحام صحف حزبية أو سياسية.

ووقف «روبيلس» رئيس الحزب الكاثوليكى الإسبانى فى «الكورتين» البرلمان الإسبانى - يقول لزملائه:

«دعونا لا نخدع أنفسنا. إن أى بلد يستطيع إن يعيش فى ظل نظام ملكى أو جمهورى. فى ظل نظام برلمانى أو رئاسى. فى ظل نظام شيوعى أو فاشستى. لكن أى بلد لا يستطيع أن يعيش تحت الفوضى. إننا اليوم نسير فى جنازة الديمقراطية».

وكان من سوء حظ إسبانيا أنها انقسمت على نفسها فى الوقت الذى انقسمت فيه أوروبا كلها على نفسها بين الشيوعية السوفييتية من ناحية والفاشية - الألمانية والإيطالية - من ناحية أخرى.

وبالانقسام على مستوى القارة، والانقسام على مستوى الوطن انحدرت إسبانيا إلى الحرب الأهلية. وكانت حربًا أهلية شاركت فيها أوروبا كلها وزاد من حدتها أن القوى الليبرالية والتقدمية فى أوروبا الغربية دخلت فى خضم المعركة تؤيد القوى المطالبة بالديمقراطية وبالجمهورية ضد اليمين الإسبانى التقليدى المتمثل فى الملكية والإقطاع والكنيسة وكبار ضباط الجيش الذين تؤيدهم ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية بزعامة «أدولف هتلر» و«بنيتو موسولينى».

□

وفى مناخ ما قبل الحرب العالمية الثانية - من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ - أصبحت الحرب الأهلية فى إسبانيا صراعًا من نوع ليس له مثيل أو سابقة فى التاريخ.

بدت لمعظم الناس صراعًا بين الخير والشر، بين الحرية وأعداء الحرية، بين الديمقراطية والفاشية... مختبرًا لعقائد الكل ومختبرًا لأسلحة الكل قبل أن تهب العاصفة العاتية الكبرى على الدنيا بأسرها.

وكان تركيب إسبانيا فى حد ذاته مزيجًا متفجرًا لأن الشخصية الإسبانية فى حد ذاتها مزيج متفجر أيضًا.

وفيما بعد بسنوات طويلة قال لى «ستيفن سبندر» - الشاعر الإنجليزى الكبير - وكان أحد الذين هرعوا إلى إسبانيا جنودًا متطوعين للدفاع عن الحرية:

- «كان هناك لونان فى الحرب الأهلية فى إسبانيا ولا ثالث لهما: الأبيض والأسود، وليست هناك ظلال. إذا لم تكن معى فأنت خائن. وإذا لم تكن من نفس عقائدى فأنت كافر. نفس الفكر الذى صنع محاكم التفتيش فى إسبانيا وأخرج منها بالقتل والحريق كل أثر للإسلام واليهودية.

أحيانًا كنت أحس أثناء الحرب الأهلية فى إسبانيا أن صراعنا اختلاف كتب. كل من قرأ منا فكرًا آمن به. وكل من قرأ فكرًا آخر غير ما قرأناه اعتبرنا هراطقة واعتبرناه نحن أيضًا من الهراطقة.

كان كل الإسبان يعتنقون أفكارًا منقولة جاءت لهم من بقية أوروبا.

تذكر أن التراث الإسباني الأصلى انقطع تواصله بالإسلام. ثم انقطع تواصل الإسلام بتحالف الملوك المسيحيين ضد مسلمى الأندلس. ولم يكن للشعب الإسبانى بعد هذا الانقطاع غير أن يتقبل ما حملته له الرياح... وحملت له الرياح كثيرًا اختلط أمره.

تعاليم متزمتة من تراث الإمبراطورية الرومانية المقدسة كما تصورها حكم «آل هابسبورج».

وممارسات فى الحكم المطلق مما اشتهر به البوربون فى فرنسا.

وأفكار متحررة من آثار الثورة الفرنسية.

وخيال رومانسى صادف هوى لدى الشخصية الإسبانية مما ظهر وساد فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

واشتراكية وفوضية وشيوعية وفاشستية من القرن العشرين.

. . . .

. . . .

[ألا يذكرنا هذا الخليط الفكرى والعقائدى ببعض ما حدث لنا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟ ألم يحدث أن أفكار أوروبا وعقائدها هجمت إعصارًا كاسحًا على عالم عربى يبحث لنفسه عن إطار متجدد لحمايته بعد أن تحوّلت فكرة ودولة الخلافة الإسلامية فى إسطنبول إلى ركام يتهاوى وينهار؟!].

. . . .

. . . .

إن النتيجة فى إسبانيا كانت حريقًا ألهبه الزعماء والخطباء والشعراء، والعمال والفلاحون والجنرالات والجنود، والرصاص والمدفع والطائرة.

وعلى ضوء الحريق واللهب لمعت شخصيات وأعمال أضافت كلها إلى القصة وأخذت منها وهجًا لم ينطفئ مع الأيام.

ظهرت شخصية مثل «الباسيونارا» - كانت بائعة سردين تبيعه على صينية من القش تتجول بها فى قرى الباسك. تزوجت عامل مناجم شيوعى من الشمال وتأثرت بفكره وأثبتت أنها أعظم خطباء الثورة الإسبانية وأصبحت عضوة فى البرلمان.

وظهر شاعر إسبانيا العظيم «لوركا» يغنى للثورة ثم يختفى ذات يوم فى غرناطة فلا يعثر له - ولا لجثته - على أثر. قتله - كما أشيع - أحد الجنرالات ودفنه فى قبر مجهول، لكن أغانيه بقيت على ألسنة كل الثوار.

وظهر الكاتب الأمريكى الكبير «أرنست همنجواى» بأكثر من قصة، وظهر معه «أندريه مالرو» و«آرثر كوستلر» و«أودن» و«سبندر».

وظهر «بيكاسو» بلوحته الخالدة التى رسم فيها مشاعره عن الغارة الوحشية التى شنتها الطائرات الألمانية على مدينة «جويرنيكا» ليلة ٢٦ أبريل ١٩٣٧.

كان «بيكاسو» قد اختير لرسم لوحة تعرض فى الجناح الإسبانى بمعرض باريس الدولى وقتها، وعندما وقعت الغارة هزته إلى الأعماق فإذا لوحته «جويرنيكا» تخط نفسها على القماش. وتطايرت شهرتها فقد كانت فتحًا فى الفن الحديث. ظهر وتألق بعده نجم «بيكاسو» كرمز للموجة الجديدة فى التعبير.

كانت الخلجات الإنسانية للكتاب والشعراء، والرسامين - وأحيانًا الجنرالات - تعبر عن الحقيقة بأكثر مما تستطيع وقائع الحوادث التى كانت تصدرها الأطراف كل يوم فى بلاغات تحصى عدد القتلى والجرحى واتجاهات التقدم والتراجع.

ولقد عبر الشاعر الإنجليزى الكبير «أودن» - مثلاً - عن حلم الثورة فى قصيدته التى قال فيها:

«ما هو اقتراحك؟

أن نبنى المدينة الفاضلة؟

سوف نفعل

إننى أقبل

قد تكون دعوة جماعية للانتحار

موتًا رومانسيًا

حسنًا.. إننى أقبل

مادمت أنا اختيارك وإرادتك

نعم.. إننى إسبانيا».

ثم عبر الجنرال «نافارين» عن قمع الثورة المضادة بالقصة المشهورة التى رويت عنه... جاءه الموت والقسيس بجانبه يصلى له ثم يسأله:

- «هل غفرت لأعدائك؟».

وزمجر الجنرال الذى يقف على عتبات الموت وقال:

- «ليس لى أعداء.. إننى قتلتهم جميعًا!».

ثم كان التعبير النهائى عن الأمل وعن خيبة الأمل فى قول «همنجواى» بعد أن غادر إسبانيا عائدًا إلى أمريكا:

«إن وعدًا بالحرية من دكتاتور هو شيك بلا رصيد.. ثم إن أملاً بالحرية من حالم هو عملة مصابة بالتضخم».

انتهت الثورة الإسبانية وانتهت الحرب الأهلية فى إسبانيا بأن استولى الجنرال «فرانشسكو فرانكو» - وليس هيئة أركان حرب الجيش الإسبانى. على السلطة وزحف فصفى بقايا جيوب الثورة، وأقام نفسه دكتاتورًا على إسبانيا وارتبط

بصداقة ود مع «هتلر» و«موسوليني»، ثم غير تحالفاته بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وأصبح أمريكيًا أكثر من الأمريكيين.

□

ولمدة أربعين سنة تقريبًا تربع الجنرال «فرانشسكو فرانكو» على قمة السلطة. كان الجيش دعامة حكمه، وأراده مؤسسة دائمة فى إسبانيا تكفل استمرار سياساته حتى بعد انتهاء حياته.

وفى بعض المرات استعان بشخصيات من كفاءات البيروقراطية الإسبانية، وفى مرات أخرى استعان برجال من تنظيم «الاوبس ديو» ـ وهو نظام دينى كاثوليكى شبه سرى يرعاه الفاتيكان ـ فى محاولة لدمج مقدرة الإدارة وكفاءة التعليم مع عمق الإيمان الدينى المحافظ.

وليس من شك ـ كما هو واضح الآن ـ أن سنوات «فرانكو» الأربعين ساهمت فى صنع إسبانيا المعاصرة.

أعطتها استقرارًا طويلاً فى عالم متقلب ومتغير مما سمح بعملية نمومأمون.

وأعطتها خططًا للتصنيع والخدمات غيرت من التركيب الطبقى لإسبانيا.

لكن عوامل القلق من بقايا الحرب الأهلية كانت لاتزال موجودة وأولها قضايا الحرية.

وكان الاستمرار هو هاجس «فرانكو».. كيف يضمن الاستمرار؟

قلت إن «فرانكو» كان يريد أن يكون جيشه كفالة الاستمرار، لكن الجيش كان يحتاج إلى غطاء شرعى، دستورى، قانونى.

وهكذا طرحت مشكلة «الخلافة» نفسها على «فرانكو» فى السنوات الأخيرة من حياته.

كانت الملكية مازالت قائمة. فـ «ألفونسو» الثالث عشر لم يتنازل عن العرش، وإنما جمد استخدام سلطاته الملكية وخرج إلى المنفى.

وكان «فرانكو» ملكيًا خاض الحرب الأهلية وسيطر بعدها ممثلاً لنفس المعسكر الذى يضم الملك إلى جانب الإقطاع وإلى جانب الكنيسة.

وكان الإقطاع قد تفككت أواصره بالتصنيع وحل ملوك المال محل ملوك الأرض.

وكان أكبر وثانى أبنائه قد تنازلا عن حقهما فى العرش.

وكان ابنه الثالث «دون خوان» ـ والد «خوان كارلوس» ـ هو المطالب بالعرش الآن ـ لكن «فرانكو» لا يريده!

والغريب أن العلاقات كانت على ما يرام فى بداية الأمر بين «فرانكو» ـ الحارس على العرش الخالى من ملك يجلس عليه ـ والأمير «دون خوان» ـ الوحيد الباقى للمطالبة بالجلوس عليه من أبناء الملك «ألفونسو» الثالث عشر. ففى بداية الحرب الأهلية طلب «دونه خوان» أن يتطوع فى صفوف القوات «الوطنية» ـ «فرانكو» ـ ضد القوات «الشعبية» ـ الثورية ـ لكن «فرانكو» رفض وكتب إليه خطابا بخطه يقول له فيه «إن موقعك فى الأسرة المالكة يفرض عليك، كما يفرض علينا جميعًا، تضحيات لا بد أن نقبلها من أجل مصلحة الأمة».

لكن العلاقات لم تلبث أن ساءت، وربما كان السبب أن «دون خوان» لم يستطع أن يسبح فى أمواج السياسة الدولية. لقد تصور أن هزيمة «هتلر» و«موسولينى» فى الحرب سوف تعنى سقوط صديقهما «فرانكو» فى مدريد.

وكان على خطأ؛ لأن الولايات المتحدة الأمريكية ـ قائدة الحلف الغربى الكبير ـ لم يكن يهمها بعد الحرب أن تسأل «من هم الذين كانوا أصدقاء سابقين لـ «هتلر» و«موسولينى»؟ وإنما كان السؤال الذى وضعته أمام نفسها حتى قبل أن تسكت المدافع هو: «من هم الذين يمكن أن يكونوا أعداء سابقين ولا حقين ومستمرين لـ «ماركس» و«لينين» ومن بقى من أتباعهما»؟ ـ وكان سجل «فرانكو» فى هذه النقطة لا يحتمل أى شك.

وكان سليل البوربون المطالب بالعرش يحلم بالمبادئ ناسيًا أن الحقائق أهم منها فى حسابات السياسة الدولية. وهكذا راح يرتكب الأخطاء واحدًا بعد واحد. أربعة أخطاء كان «فرانكو» يعدها له على أطراف أصابعه حتى اليوم الأخير من حياته.

● فى نوفمبر ١٩٤٢ وعندما نزلت قوات الحلفاء إلى شمال أفريقيا ـ على الشاطئ المواجه عبر جبل طارق لإسبانيا ـ تصوّر «دون خوان» أن حكم «فرانكو» بدأ يترنح. وهكذا أصدر من منفاه فى جنيف بيانًا يؤكد أحقيته بالعرش ثم يحذر «فرانكو» من التورط فى الحرب ويعرض استعداده لقيادة المعركة إذا ما قامت قوات المحور بعمل ضد إسبانيا.

● ثم جاء الخطأ الثانى فى مارس ١٩٤٥ حين بدا أن الحرب العالمية الثانية انتهت فعلاً، أو هى على وشك الانتهاء بانتصار لا شك فيه للحلفاء. وقال «دون خوان» فى بيان أصدره من جنيف: «إن الإسبان مطالبون الآن بأن ينفضوا عنهم حكم «فرانكو» هذا الدكتاتور الصغير الباقى من حلف الطغاة: «هتلر» و«موسولينى» و«توجو» اليابانى. ثم أضاف «دون خوان»: «إن إسبانيا تحتاج إلى السلام وهو لا يتحقق لها إلا بعودة العرش إلى ممارسة دوره كما أنه هو نفسه صاحب الحق الشرعى والوحيد فيه».

● ثم جاء الخطأ الثالث عندما توقع «دون خوان» ـ وقد وضعت الحرب أوزارها فعلاً ـ أن «فرانكو» انتهى أو هو فى حكم المنتهى، فراح يخاطبه وكأنه ملك على العرش حقيقة وليس مجرد مطالب به. وسبقه «فرانكو»، فقد أعلن قانونًا بعودة الملكية نظريًا ولكنه احتفظ لنفسه بالحق فى اختيار شخص الملك عندما تجىء اللحظة المناسبة. وثار «دون خوان» وقال كلامًا كثيرًا تطوع بعضهم لنقله إلى «فرانكو».

● ثم جاء الخطأ الرابع حين تعطلت عضوية إسبانيا فى الأمم المتحدة بسبب ماضى علاقاتها مع دول المحور. ووقع «دون خوان» فى هذا الخطأ الرابع حين أصدر بيانًا فى يوليو ١٩٤٧ يقول فيه «إن المسئولية فى تعطيل قبول إسبانيا عضوًا فى الأمم المتحدة تقع على عاتق «فرانكو» الذى كان دكتاتورًا وسوف يظل دكتاتورًا طول حياته».

ورد الجنرال «فرانكو» على الفور بأن طرح للاستفتاء ما سمى بـ «قانون الخلافة» وبه أعاد الملكية إلى إسبانيا ثم احتفظ لنفسه بالحق فى تسمية الملك فى الوقت الذى يراه، وصوّت ٨٢٪ من الإسبان بالموافقة. وأصبح واضحًا أن زمام الأمور مستقر تمامًا فى يد «فرانكو». ولم يكن أمام «دون خوان» إلا أن يحاول مع «فرانكو» بطريقة أخرى، واستطاع بالفعل ترتيب أكثر من لقاء سرى معه لكن «فرانكو» كان حازمًا.

ويقول الذين حضروا أول لقاء بين الاثنين - وبعضهم مازال فى حاشية الملك حتى الآن - إن «الدكتاتور» لم يترك فرصة «للأمير» من أول لحظة، وإنما قال له ويد أحدهما مازالت تصافح يد الآخر:

- «دون خوان... إننى آسف ولكنك لن تجلس على عرش إسبانيا».

وسأله الأمير:

- «لماذا؟ إن الحق الشرعى لى دون سواى... إن أحدًا لا يستطيع أن يغير تسلسل ولاية العرش؟».

وردّ «فرانكو»:

- «إن إسبانيا تسطيع .... لقد اخترت ابنك «خوان كارلوس» لولاية العهد».

واحتج «دون خوان»:

- «ولكنه بعد طفل صغير، ثم إننى حى لم أمت فكيف يرث مكانى فى وجودى؟».

وقال «فرانكو » يهدد:

- «إننى أريده طفلا أعلمه بنفسى «حرفة الملك» ليكون مناسبًا لظروف إسبانيا. وأنا أعرف أنك حى موجود ولكنى أتوقع منك أن ترتفع إلى مستوى الظروف، وأثق أنك لن تتردد شخصيا فى التضحية من أجل إسبانيا ثم من أجل ابنك».

وألقى «دون خوان» بنفسه على أول مقعد قريب منه ثم قال لـ «فرانكو»:

ـ «جنرال فرانكو... إنك تريد أن تخلق تناقضًا بين الأب وابنه، وهذا غير إسبانى فضلاً عن أنه خطأ سياسى».

. . . .

. . . .

[كانت العلاقات بين الأمير «دون خوان» وابنه معقدة من الأصل، فقد شهد بيت الأسرة مأساة اشترك فيها «خوان كارلوس» مع شقيقه الأصغر منه «ألفونسو». كانا يلعبان معًا بمسدس. وكانت أصبع «خوان كارلوس» قرب الزناد وانطلقت رصاصة طائشة وقتلت شقيقه الأصغر وانهار «خوان كارلوس»، وحين أفاق من انهياره ظل عامًا يصلى كل يوم ويطلب المغفرة وأراد أن يتجه إلى الرهبنة].

. . . .

. . . .

وقال «فرانكو» وكأنه يتلذذ بالضربة القاضية التى وجهها لرجل وقف فى وجهه ذات يوم:

ـ «الخطأ السياسى أتحمل وحدى مسئوليته وأما التناقض الإسبانى فغير قائم. إننى أريد أن أحافظ على استمرار عرش البوربون، والعرش أكبر من الأفراد».

كان مفروضًا أن يكون هناك عشاء ليلتها لكن أحدًا من جماعة الأمير لم يستطع أن يضع فى فمه لقمة، وأما جماعة الجنرال فقد بدا كما لو أن شهيتهم قد تفتحت للطعام وللنبيذ!

وانتهى اللقاء بموعد آخر يفكر فيه كل طرف فى موقفه وإن كان الجنرال قد أوضح قبل انتهاء اللقاء أن عبء التفكير فى الخطوة القادمة على الأمير، وأما هو فقد فكر وقرر ولم يعد الأمر بالنسبة له فى حاجة إلى جهد جديد.

وانقسم مستشارو الأمير على أنفسهم ومن حوله.

بعضـهم كـان يرى أن الأمـير ليس عليـه إلا أن يقبل الأمر الواقع ممن يملك القوة على فرضـه. وبعضـهم الآخر كان يرى أن الحقوق الشرعية والدستورية لا يمكن تركها لأهواء دكتاتور وأن شعب إسبانيا عند اللزوم سوف يفرض عليه ما قد يرغمه على تغيير قراره.

وكان هذا من ضروب الأحلام.

واضطر الأمير فى النهاية أن يسكت وأن يترك الجنرال وما يريد، وفى ذهنه أنه يستطيع أن يستخدم ابنه فى فتح الباب أمام عودة الملكية رسميًا ثم بعدها يكون لكل حادث حديث.

لكن «الجنرال» لم يترك الأمور معلقة وإنما راحت تعليماته تتتالى.

على «الصبى» الذى اختاره للعرش ـ «خوان كارلوس» ـ أن يترك بيت الأسرة فى سويسرا أو البرتغال ثم يجىء إلى إسبانيا ليعيش فيها على أن يسمح له بلقاء والده مرة واحدة كل سنة. كان عمر «خوان كارلوس» وقتها ١٦ سنة.

إن «خوان كارلوس» سوف يدخل الكلية العسكرية فى ساراجوس ليدرس.

إنه بعد ذلك سوف يدرس سنة فى كلية البحرية وسنة فى كلية الطيران وسنة فى كلية أركان الحرب؛ ليكون على اتصال بحياة الجيش.

إنه بعد ذلك سوف يلتحق بجامعة مدريد ليحضر فصولا فى دراسة الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون والفلسفة.

إنه بعد ذلك سوف يكلف بمتابعة بعض أوجه النشاط الصناعى والاجتماعى والإدارى.

إنه بعد ذلك سوف يتزوج وينجب أطفالاً ليصبح صورة حية ومشرفة لولاية العهد.

وبالفعل تزوج «خوان كارلوس» ـ سنة ١٩٦٢ ـ من الأميرة «صوفيا» ابنة الملك «بول» ملك اليونان من الملكة «فردريكا» ـ وشقيقة الملك «قسطنطين» الذى جلس على عرش اليونان بعد أبيه. وكانت «صوفيا» من أجمل أميرات أوروبا وأكثرهن ثقافة!

ولم تخيب «صوفيا» آمال «الجنرال» فما لبثت أن أنجبت ثلاثة أطفال. بنتين : «هيلينا» و«كريستينا»، ثم صبيا هو «فيليب».

وقرر الجنرال أن الوقت قد حان للخطوة التالية خصوصًا وأنه كان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره.

□

وجاءت لحظة مأساوية حزينة فى حياة «خوان كارلوس»، وهو لا يذكرها حتى اليوم إلا وتعبر عينيه سحابة حزن رأيتها بنفسى تمر فى لحظات كانت فيها ضحكة الملك تجلجل فى قاعة مكتبه.

ذهب «خوان كارلوس» للقاء مع والده «دون خوان» وأفضى إليه بأن الجنرال على وشك أن يسميه ليجلس على العرش بعد أن «يذهب» هو، ثم يسأله الرأى والمشورة فيما عساه يفعل.

القنبلة الموقوتة أصبحت الآن على المائدة وساعة ضبط تفجيرها تدق ولم تبق غير دقائق وثوان.

ومرة أخرى انقسم مستشارو «دون خوان» وانقسمت أسرة البوربون كلها.

كان رأى البعض أن الأمير «خوان كارلوس» لا يستطيع الآن أن يرفض لأن «فرانكو» مازال قادرًا على إلغاء قانون الخلافة من أساسه وإنهاء ما تبقى من دعاوى البوربون.

ويبدو أن نفرًا من الحاشية كان تقديرهم أن «خوان كارلوس» ميال للقبول. لو كان فى نيته أن يرفض لما جاء يطلب نصيحة أبيه. إن طلبه للنصيحة فى هذه الظروف لا معنى له سوى أنه يريد موافقة أبيه، يريد لأبيه أن يتطوع ويسهل له نفسيًا قبول قرار توصل إليه فعليًا رغم صعوبته الشديدة عليه.

لقد استمع «خوان كارلوس» إلى كل وجهات النظر المحيطة بوالده وإلى وجهة نظر والده نفسه، لكن «دون خوان» قال لابنه فى النهاية «إنه يترك الأمر

كله له يتصرف فيه بما يرضيه أمام الله وشعب إسبانيا وتاريخ البوربون وضميره».

وكان هناك نوع آخر من النصائح يتلقاها «خوان كارلوس» تعددت مصادرها... جماعات من الضباط والفنيين الشبان الذين استعان بهم فى تنظيم مكتبه يلحون عليه فى القبول ... حماته الملكة «فردريكا» - وهى شخصية قوية وضالعة فى خبايا السياسة - لقد رأت ابنها الملك «قسطنطين» يرغم على التخلى عن عرش اليونان بعد انقلاب الكولونيلات دون أن تسقط السماء على الأرض فى اليونان، ولعلها أرادت لزوج ابنتها «صوفيا» أن يجد لنفسه عرشًا تظل معه الأرض والسماء كل منهما فى مكانها فى إسبانيا، وهكذا راحت هى الأخرى تشجع. ثم إن زوجة «خوان كارلوس» نفسها - الأميرة «صوفيا» - دخلت إلى ميدان إقناع زوجها بمنطق أن قبوله «للخلافة» هو الممكن الوحيد الذى يصون عرش البوربون فى إسبانيا ويستعيده.

وهكذا وقف الجنرال «فرانكو» أمام «الكورتيز» - البرلمان - فى مدريد يوم ٢٢ يوليو ١٩٦٩ ليعلن اختياره للأمير «خوان كارلوس دى بوربون» - حفيد «ألفونسو» الثالث عشر - لكى يكون خليفته فى رئاسة الدولة الإسبانية وملكًا مقبلاً لإسبانيا.

وتم التصويت على قانون من خمس مواد، وكانت نتيجة التصويت موافقة ٤٩١ عضوًا واعتراض ١٩ وامتناع ٩ عن التصويت.

وفى حضور الجنرال «فرانكو» ذهب وفد من رئاسة «الكورتيز» لمقابلة الأمير «خوان كارلوس» فى مقره بقصر «زرزويلا» للحصول على قبوله الرسمى لتسميته طبقا لقانون الخلافة، وقال «خوان كارلوس»:

«إننى أقبل أن أكون خليفة للجنرال فرانكو فى يوم أدعو الله أن يجعله بعيدًا».

كان كل الناس فى إسبانيا على اقتناع بأن «فرانكو» يموت. شبح الموت حوله دائمًا يراه كل الناس. وبتعيين «خوان كارلوس» خليفة له فإن كثيرين اعتقدوا أن «فرانكو» نفسه أخيرًا رأى الشبح الذى يراه كل الناس. ما كان ليقدم على تعيين خليفة له لولا أنه بعينيه رأى الشبح، وإلا لظل يؤخر ويعطل!

لكن شبح الموت ظل يحوم حول الجنرال عشر سنوات تقريبًا دون أن ينقض عليه ليأخذ نفسه الأخير.

ولم يكن الجنرال شبه الميت عاطلا فى فراشه عن العمل. كان مازال يرتب الأمور لاستمرار نظامه وفق ما قرره ورتبه.

الجيش، جيشه، هو كفالة الاستمرار. وهكذا اختار مساعده وأقرب الناس إليه - الأميرال «بلانكو كاريرو» - لرئاسة الوزارة.

والعرش، ختم شرعى ودستورى وقانونى، تحت إرادة الجيش الذى يسيطر عليه «كاريرو».

لكن المشكلة أن جماعات «الباسك» الإرهابية لم تترك الجنرال يهنأ بما قرر ودبر فى حياته ليضمن استمرار نظامه بعد وفاته. وهكذا فى يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٧٣ انفجرت قنبلة هائلة تحت سيارة الإميرال «كاريرو» فقتل رئيس الوزراء.

ولم يعثر «فرانكو » على بديل لـ «كاريرو» يسد الثغرة التى ابتلعته. عاش ورأى نصف خطته لما بعد وفاته يطير شظايا فى الهواء - ولم يبق إلا «خوان كارلوس». نصف خطته. النصف الشكلى منها. مجرد الختم تحت قرار من الجيش الذى هو مسئول أولا وأخيرًا عن استمرار النظام.

وكانت تلك بالتأكيد فترة حرجة فى حياة «خوان كارلوس».

وربما لا يستطيع أحد أن يتحدث بثقة عن طبيعة العلاقات بين الجنرال وخليفته البوربونى فى هذه الفترة. فلقد اختفى الجنرال بالموت أخيرًا، والملك لا يبدو راغبا فى الحديث عنها.

. . . .

. . . .

[من مفارقات الظروف أن الذى تحدث معى عن علاقات الجنرال والملك فى هذه الفترة - وفى وقتها - كان شاه إيران السابق«محمد رضا بهلوى».

تصادف أن كنت ضيفًا عليه فى قصر «نيافاران» فى طهران فى شهر مايو ١٩٧٥، وكنا نتحدث عن أحوال العالم حديثًا مرسلاً.

كان الشاه يقوم ـ كما يحلو له عادة ـ بدورة كاملة حول آفاق السياسة الدولية، ووصل فى استعراضه للأحوال إلى ما يجرى فى إسبانيا وسألنى أو بالأحرى سأل نفسه:

«ما الذى سوف يجرى فى إسبانيا بعد أن يختفى فرانكو؟».

وأجاب الشاه على نفسه بنفسه قائلاً:

«إن خوان كارلوس الذى سوف يصبح ملكًا وقتها لن يستطيع القيام بمسئوليته لأن الجنرال لا يعلمه بما فيه الكفاية. لا يطلعه على دقائق الأمور بما يسمح له أن يكون على علم بما يجرى لكى يكون له رأى فيه.

وهذا خطأ لأن خوان كارلوس سوف يجد نفسه فى ورطة يوم يتولى المسئولية».

ولقد نشرت هذا الجزء من حديث الشاه ضمن ما نشرته فى أعقاب تلك المقابلة سنة ١٩٧٥ .وفى مقابلتى للملك«خوان كارلوس» بعدها بثمانى سنوات ـ مارس ١٩٨٣ ـ رويت له ما سمعته من الشاه.

وجلجلت ضحكة الملك، ثم كان تعليقه:

ـ «لقد كان الشاه يحب أن يطمئن إلى أن كل الناس قد حفظوا دروسهم».

وقلت:

ـ «مأساة محمد رضا بهلوى أنه هو نفسه نسى دروسه».

وقال الملك«خوان كارلوس»:

ـ «لقد حزنت على موته... تعرض لظروف قاسية قبل أن تجىء النهاية».

(ولم أرو لـ «خوان كارلوس» بقية ما قاله الشاه لى فى ذلك الوقت ـ مايو ١٩٧٥ ـ ولا كنت نشرته وإن كان الشاه لم يضع قيدًا علىّ ـ بل كنت أنا الذى تحرجت تحسبًا من ردود فعل الرئيس السادات ـ يرحمه الله ـ فى مصر وقتها.

وما حدث كان كما يلى:

سألنى الشاه بعد أن فرغ من الحديث عن مشكلة «خوان كارلوس» ـ فجأة ـ قال:

ـ «كيف ينوى السادات أن يحل مشكلة الخلافة فى مصر؟».

ودهشت للسؤال وأجبته:

ـ «لا أعرف؟ ومع ذلك فلماذا لا تسأله وأنتما أصدقاء؟!».

قال:

ـ «صحيح... إننى حاولت أن أفتح الموضوع مرة لكن الموضوع بطبيعته حساس ولم أشأ إقحام نفسى فى شئون مصر الداخلية»..

ثم استطرد الشاه:

ـ «لماذا لا يفعل مع أحمد فؤاد ما فعله فرانكو مع خوان كارلوس».

وسألته صادقًا لا أفتعل شيئًا، فقد كنت نسيت:

ـ «من هو أحمد فؤاد؟!».

وردّ شاه إيران:

ـ «ابن فاروق.. هل نسيت...؟ إنه يعيش فى أوروبا ونحن نساعده بين حين وآخر، وهو ليس مثل أبيه. فاروق كان لصًا. ضبطته بنفسى وهو يسرق. ابنه مختلف ويستطيع السادات أن يأخذه ويربيه ويعلمه ويدربه كما يشاء!».

وسألته بدهشة:

ـ «هل تعتقد أن ذلك قابل للبحث؟».

وأجاب:

ـ «أنتم أيضًا مثل إسبانيا عشتم فترة قلقة، فترة فوران واضطراب وغليان ثورى... ألا تظن أن النظام الملكى يمكن أن يوفر نوعًا من الاستقرار؟»!.

وقلت:

- «إن الظروف فى مصر تختلف، فجمال عبد الناصر قاد ثورة وفرانكو قاد ثورة مضادة، وثورة عبد الناصر أحدثت تحولات اجتماعية بعيدة المدى يصعب معها أن أتصور مستقبلاً للنظام الملكى فى مصر خصوصًا وأن أسرة محمد على ليست لها جذور فى التراب الوطنى ثم إنها جاءت وذهبت دون أن تترك - باستثناء مؤسسها - أى إسهام إيجابى تاريخى.. أو أى نوع من التقاليد التى يمكن اعتبارها مرجعًا أو شاهدًا!».

وقال الشاه:

- «هذا صحيح.. كانوا مجانين... كثيرون منهم كانوا مجانين».

قلت:

- «ربما تعرف أن حماتك السابقة الملكة نازلى قد ارتدّت عن الإسلام وأصبحت كاثوليكية، وكذلك فعلت اثنتان من بناتها معًا، فائزة وفتحية؟».

وقال الشاه وهو ينفخ الهواء من أنفه استهجانا:

- «كانت طول عمرها... تندفع وراء عواطف اللحظة إلى حيث تقودها. إننى عرفت، وفكرت فى وقف مساعداتى لها، لكنى سمعت تفصيل الظروف التى جعلتها ترتد عن الإسلام إلى الكاثوليكية.

كانت مريضة وكانت تحت عناية راهبة كاثوليكية أثرت عليها، وعندما شفيت تصوّرت أن شفاءها معجزة، وجرتها الراهبة التى سيطرت على عقلها وعواطفها إلى الكاثوليكية».

وانتقل الشاه إلى موضوع آخر).

. . . .

. . . .

[الملفت للنظر بعد ذلك بسنوات - وحين ماتت الملكة السابقة «نازلى» فى

كاليفورنيا ـ أن الصحف المصرية نشرت بالتفصيل وبالصور مواد كثيرة عن وفاتها وجنازتها. ولكن أيا من هذه الصحف لم تشر إلى أن ملكة مصر السابقة ماتت كاثوليكية.

والملفت للنظر ـ أيضًا ـ بعد ذلك بسنوات أن السيد أحمد فؤاد بن فاروق استأذن الرئيس السادات ـ يرحمه الله ـ فى أن تجىء زوجته ـ وهى فتاة يهودية ـ لكى تضع مولودها الأول منه فى مصر، ثم أعلن الرئيس السادات بعد ذلك أنه أهدى لأحمد فؤاد أحد سيوف ـ جده ـ محمد على الكبير.

. . . .

(اعترف أن شكوكًا راودتنى فيما يمكن أن يكون قصده وراء ذلك، وتذكرت كلام الشاه قبلها بسنوات ودعوت الله أن يحمى مصر من نوبات وحى جرت عليها الويلات أحيانا !).

. . . .

(واستلفت نظرى أخيرًا ـ نوفمبر ١٩٨٤ ـ فى باريس وكنت ضيف عشاء فى بيت شخصية لبنانية مشهورة ـ أنه كان بين المدعوين معى على العشاء الأمير «ألكسندر» أحد المطالبين بعرش يوجوسلافيا.

وسألنى الأمير «ألكسندر»:

ـ «ما هو مستقبل الملكية فى مصر؟».

وقلت:

ـ «احتمال غير قائم على الإطلاق».

وعاد يسألنى:

ـ «ألا يفكر أحد فى أحمد فؤاد؟».

وقلت:

ـ «وعلى حد علمى لا أظن أحدًا يفكر فيه».

وقال:

ـ «هل لهذا علاقة بأن زوجته يهودية؟... إنه لم يتزوجها إلا بعد أن عقدتم الصلح مع إسرائيل !!].

. . . .

. . . .

ومات «فرانكو» فى ديسمبر ١٩٧٥ ووجد «خوان كارلوس» نفسه أخيرًا فى «ذلك اليوم الذى سبق له أن دعا الله ليجعله بعيدًا» ـ أصبح رئيسا للدولة الإسبانية وملكًا جالسًا على عرش البوربون وفوق رأسه تاجهم وفى لقبه اسمهم مرتين: بوربون من ناحية والده «دون خوان»، وبوربون من ناحية أمه «ماريا».

ماذا يفعل؟

قال لى الملك «خوان كارلوس» ونحن بعد فى مكتبه فى قصر «زرزويلا»:

ـ «منذ جئت إلى إسبانيا لأعيش فيها كنت أعرف أن شيئًا ينتظرنى. ولقد بدأت ملامح هذا الشىء تتضح أكثر وأكثر بعد أن صدر «قانون الخلافة» ثم تمت تسميتى بمقتضاه «أمير إسبانيا».

إننى بالطبع لم أكن أميرًا عاطلاً فى القصر وإنما كنت أعمل. كنت أكلف بمهام حاولت أن أؤديها، وكنت أبحث بنفسى عن حقائق أحاول أن أستوعبها. لم يكن وقتًا ضائعًا ولا انتظارًا مملا، ولقد كنت سعيد الحظ بمجموعة من المستشارين ـ عسكريين ومدنيين ـ تطوعوا لاستثمار ما لديهم من أفكار فى ملك إسبانيا المقبل. وأعتقد أنى مدين لهم بكثير. وفيما بعد أساء إلىّ بعضهم ربما بحسن نية ـ وذلك من طبائع النفس البشرية ـ لكن معظم من كانوا حولى عرفوا حدودهم والتزموها. فى «حرفة الملك» معرفة الحدود أهم شىء».

ويسكت «خوان كارلوس» يتحرز كثيرًا فى التفاصيل.

لكن بعض المحيطين بدوائر القصر كانوا أقل تحرزًا منه. ومن كلامهم ظهرت صورة الموقف فى إسبانيا كما بدا لعيون القصر بعد انتهاء مراسم دفن الجنرال «فرانكو» فى المقبرة التى أعدها لنفسه تحت نصب الخالدين!

□

قال لى أحد القريبين من القصر:

- «كان بعضنا يتصور أن إسبانيا بعد «فرانكو» سوف تكون أشبه بحقل ألغام علينا أن نستكشف خريطته.

كنا نخشى أولاً من أن يكون حكم «فرانكو» قد جمد التناقضات التى أدت إلى الحرب الأهلية، وبموته وارتخاء قبضته على الأمور فإن التجميد سوف ينفك ولا تلبث التناقضات الأصلية أن تظهر. ولكننا اكتشفنا أن سنوات الاستقرار الطويل - قرابة نصف قرن - وما صاحبها من مشروعات تنمية قد غيرت التركيب الطبقى الإسبانى. وسعت كثيرًا من نطاق الطبقة الوسطى. وبالتالى فإن الحدة القديمة فى الصراعات الاجتماعية خفت أعراضها.

ويتصل بذلك أننا خشينا أن تعود ثارات الحرب الأهلية لكى تصفى حساباتها - والدم الإسبانى حار وفوار - لكننا وجدنا أن مر السنين أعطى المجال لبخار حبيس أن يتسرب.

وكانت الكنيسة قد انتقلت من أقصى اليمين إلى قرب اليسار... إلى يسار الوسط على الأقل مع اتساع فى مدى الرؤية الاجتماعية، وساعد على ذلك أن إقطاع الأرض القديم تغيرت مواقعه.

ومع ذلك بدت بعض المواقع أمامنا ترفرف عليها رايات حمراء... خطر. ألغام ما زالت مدفونة تحت الأرض وصلاحيتها مازالت قائمة واحتمالات الانفجار فيها كامنة.

بينها مشاكل القوميات، والباسك بالتحديد.

وبينها قضية الجيش وأوضاعه والعادات التى اكتسبها فى سنوات «فرانكو».

وبينها الأزمات الاقتصادية، بالتضخم والبطالة وقصور الكفاءة ـ وهى جميعًا ليست حكرًا على إسبانيا وإنما هى فيها كما فى غيرها من بلاد أوروبا وغير أوروبا ـ ولقد يكون ظهورها فى إسبانيا أكثر من ظهورها فى بقية أوروبا لأن النمو فيها لم يكن بنفس معدله فى غيرها.

وعلى أية حال فإن الملك أدرك بسرعة أن واقع الحال لا يترك مجالاً إلا لخيار واحد وهو الخيار الديمقراطى. ممارسة الديمقراطية وترسيخ هذه الممارسة.

ومن البداية كان قوله «إن نموذجه هو الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا. عرش يرتفع فوق كل الأحزاب، وحكم لا تطلب مشورته إلا فى ظروف استثنائية».

وبعد قليل ـ والقول مازال لواحد من القريبين للقصر ـ أضاف الملك إلى دور إليزابيث ملكة بريطانيا دورًا آخر هو دور «عسكرى المرور».

«لعدة شهور سوف نقوم بدور عسكرى المرور أيضًا. هناك زحام شديد عند مفارق الطرق بتأثير تراكمات سابقة، وهذا الزحام لا بد له أن يتحرك. لا بد أن يقف عسكرى مرور عند تقاطع الطرق فى هذه الفترة من الزحام ويكون موقعه أمام كل الناس وكل القوى من كل الاتجاهات. وأمامهم جميعًا يحرك السير بالإشارات والصفارات حتى تنتظم الحركة وتتدفق خطوطها، وفى نفس الوقت لا يحدث صدام».

إن فترة الجمع بين دور الملكة «إليزابيث» ودور عسكرى المرور أدت ما كان مطلوبًا منها، فقامت أحزاب من كل الاتجاهات بما فيها حزب اشتراكى وحزب شيوعى ـ !! ـ ثم توفر لكل الاتجاهات حقها فى التعبير عن نفسها بكل وسائل النشر والحوار ـ ثم أجريت انتخابات حرة لم يتدخل فيها أحد.

تدفقت المياه التى كانت متجمدة وقت «فرانكو» ولم تتحوّل إلى سيل كاسح. تدفقت بمخاطر مقبولة ومحسوبة وراحت تجرى فى قنواتها الشرعية ـ وانتهى دور عسكرى المرور وبقى دور الملكة إليزابيث!

ومع ذلك ظل كثيرون ينظرون بشك إلى ما يجرى حولهم على الساحة الإسبانية.

كان بينهم بعض أفراد الأسرة المالكة أنفسهم، وفيما بينهم تصوروا أن عرش الملك «خوان كارلوس» لن يظل فى مكانه طويلاً، وفيما بينهم أطلقوا عليه اسمًا من نوع ما كان يطلق على الملوك الإسبان وكان اللقب الذى اختاروه الآن لملكهم هو «خوان كارلوس المختصر» - إشارة إلى أن حكمه سوف يكون قصيرًا!

«ولم يكن فى مثل هذه الألقاب وما تعنيه شىء يدعونا إلى القلق على الملك. بالعكس كنا نريده بعيدًا عن الأسرة، وفيها كثيرون ينطبق عليهم فى الحاضر ما انطبق من قديم على بوربون الماضى «ذهبوا وعادوا لكنهم لم ينسوا شيئًا ولم يتعلموا شيئًا».

«والحقيقة ونرجوك أن تتقبلها بصدر رحب - الكلام مازال صادرًا عن أحد القريبين من القصر، وتوجيه الخطاب فيه كان إلىّ - إننا فى بعض الأحيان كنا نخشى من تأثير أمراء العرب وليس أمراء البوربون، ففى هذا الوقت كانت إسبانيا مزارًا وملهى وملعبًا لكثيرين من أمراء العرب وأغنيائهم - وهؤلاء سعوا إلى الملك يتعرفون عليه، وكانت لإسبانيا مصالح كثيرة معهم، وكنا نريد لصداقتهم مع الملك أن تخدم هذه المصالح الإسبانية - لكننا - وبصراحة - لم نكن نريد أفكارهم ولا تأثيراتهم المحتملة على الملك. ومن حسن الحظ أن الملك عرف كيف يقترب وعرف فى نفس الوقت كيف يحتفظ بمسافة كافية»!

□

ولم يكن معقولا أن يتم الانتقال فى إسبانيا من الدكتاتورية إلى الديمقراطية وكأنه سفر من بلد إلى بلد أو قارة إلى قارة، ليس فيه غير مخاطر الطيران!

كان لا بد أن تحدث مفاجآت ... وحدثت بالفعل.

وفى البداية - كما هى العادة - كان الهمس.

أقطاب من النظام القديم بأفكارهم الجامدة، ومن كبار القادة بما تعودوا عليه ـ يذهبون إلى قصر الملك يلقونه شخصيًا أو يلقون أحدًا من كبار أفراد حاشيته، ويدور الهمس: «هل يعقل أن يترك الحبل على الغارب للشيوعيين؟ إنهم سوف يدفعون البلاد مرة أخرى إلى الحرب الأهلية... هل يسمح بذلك؟ ـ اللاجئون الذين كانوا خارج إسبانيا طوال سنوات «فرانكو» عائدون بالجملة للتشهير به وعلى رأسهم «الباسيونارا» ـ خطيبة الثورة الشهيرة وبائعة السردين السابقة.. هل هذا ممكن؟ ـ قانون الحكم الذاتى للمقاطعات يمر دون عقبات فى الكورتيز وسوف يؤدى إلى تمزيق وحدة الوطن.. أيمكن قبول تمزيق إسبانيا؟ ـ ثم هذه الأحزاب الكثيرة وساستها المتصارعون الذين لا عمل لهم إلا الكلام والشد والجذب ـ فى «الكورتيز»... هل يستطيع الكلام وحده والمشادات وحدها أن تحل مشاكل إسبانيا؟».

وفى فبراير ١٩٨١ ـ بعد خمس سنوات من تجربة الديمقراطية ـ وقعت الواقعة.

كان «الكورتيز» يصوّت على الثقة بوزارة «كالفو ستيللو» وإذا بقوة عسكرية تقتحم القاعة وتقبض على كل النواب والوزراء رهائن، ثم يعلن قائد القوة ـ وهو ضابط مشهور من أيام «فرانكو» اسمه الكولونيل «أنطونيو تاخيرو» ـ أن الجيش استولى على السلطة وأن «نواب الشعب ووزرائه» رهن الاعتقال فى قاعة اجتماعات المجلس حتى يتلقى أوامر أخرى.

ثم اتضح أن محاولة الانقلاب أوسع، فوراءها اثنان من كبار الجنرالات فى الجيش: أولهما الجنرال «ميلانس دل بوش» القائد العسكرى لمنطقة فالينسيا، والثانى ـ وموقعه أخطر ـ هو الجنرال «ألفونسو أرمادا» نائب رئيس هيئة أركان الحرب والمساعد العسكرى الشخصى للملك «خوان كارلوس» ـ وإذن فهناك شك قائم فى أن يكون الملك نفسه هو الموحى بالانقلاب ليعود بالأمور إلى ما كانت عليه أيام «فرانكو»!!

ولقد كان الأمر الأدعى للإثارة فى محاولة الانقلاب هو أن جلسة التصويت على

الثقة بالوزارة كانت مذاعة بالراديو على الهواء، وبالتالى فإن إسبانيا كلها سمعت فى نفس الوقت بما جرى، بل وسمعت صوت أحد نواب اليمين من أنصار «فرانكو» القدامى يصيح بالضابط الذى اقتحم قاعة «الكورتيز» قائلاً له : «اقتل كل هؤلاء الشيوعيين الحمر يا تاخيرو» !

□

ماذا يفعل الملك (الملكة «إليزابيث» !) فى هذه الليلة الليلاء وفى هذه اللحظات العصيبة ؟

كان فى قصر «زرزويلا»، وكان ـ مثل ملايين غيره فى إسبانيا ـ يتابع على الراديو عملية التصويت على الثقة بوزارة «كالفور ستيللو»، وعندما وصل النداء على نواب «الكورتيز» بالاسم إلى حرف النون أحس الملك ـ كما أحس ملايين غيره ـ بالهرج والمرج، وصياح الذعر مختلطًا بصوت الأوامر، ثم سمع بيان الكولونيل «تاخيرو» يعلن استيلاء الجيش على السلطة .

أراد أن يخرج من الغرفة إلى مكتبه لكن الملكة «صوفيا» ـ وكانت معه ـ ذكرته بأنه يرتدى البيجاما والروب دى شامبر . وأمسك الملك سماعة التليفون ليتصل بقيادة الجيش وقواد المناطق العسكرية . وكان معظم تركيز الملك على الفرقة المدرعة التى ترابط قرب مدريد، فهى القوة الضاربة فى الجيش الإسبانى، وإذا تحركت فالانقلاب واقع لا محالة وإذا ظلت مكانها فهى علامة الضوء الأخضر ! واستطاع الملك عن طريق اتصاله المباشر بقائد الفرقة المدرعة تثبيت الفرقة فى ثكناتها .

وتدخل مكتب تليفون القصر يقول للملك إن الجنرال «ألفونسو أرمادا» ـ المساعد العسكرى له، ونائب رئيس هيئة أركان الحرب، وأستاذه ومساعده الشخصى فى نفس الوقت ـ يريد الاتصال به، وتلقى الملك مكالمة الجنرال «أرمادا» وجن جنونه !

كان الجنرال «أرمادا» يقول له : «إن الجيش لم يعد قادرًا على رؤية إسبانيا تتردى

فى هاوية الحضيض وإن واجبه الآن - واجب الملك - أن يقف مع جيشه لإنقاذ إسبانيا أو يبتعد ليترك الجيش يقوم بمهمته المقدسة !».

ثم يستطرد الجنرال «أرمادا» قائلاً للملك: «إن معى الآن فى مكتبى عشرة من جنرالات الجيش، ثم إن معنا تأييدًا مكتوبًا من قائد المنطقة العسكرية الثالثة والخامسة والسابعة».

ولم يجد الملك على لسانه إلا عبارة واحدة كررها أكثر من مرة وهى قوله للجنرال أرمادا: «على جثتى»!

وحاول الجنرال « أرمادا» أن يقول للملك إن «فرانكو» هو الذى اختاره ورباه، وإن الجيش يعتبره ابنًا له، كما أن ضباطه يتصرفون على أنه واحد منهم، وأنه الآن يتخلى عن الجميع - فرانكو والجيش والضباط - فى لحظة خطيرة من حياة إسبانيا. لكن «خوان كارلوس» راح يكرر صرخته:

«على جثتى... على جثتى»!

وراح الملك يواصل اتصالاته بنفسه مع قادة المناطق العسكرية يتحدث إليهم شخصيًا، محاولا فى نفس الوقت أن يتأكد باستمرار أن «الفرقة المدرعة» الشهيرة مازالت ثابتة داخل ثكناتها.

أكثر من ذلك حاول الملك أن يتصل بنفسه بالجنرال «ميلانس دل بوش» - قائد منطقة فالينسيا - وهو العقل المدبر لمحاولة الانقلاب - لكن الجنرال رفض تلقى مكالمة الملك.

وكتب الملك برقية ترسل إليه بالتليكس نصها:

«إننى أرفض ما قمت به، وأدينه وأستنكره، ولن أترك إسبانيا لكم ولن أرضى بأن تتسلموا السلطة - خوان كارلوس هو الملك».

وبدأت المناطق العسكرية تتردد، وارتعشت أيدى وأعصاب قادة الانقلاب، وفى الصباح كانت المحاولة قد فشلت، وأفرج الكولونيل «تاخيرو» عن كل المعتقلين فى «الكورتيز» وطلب إلى جنوده تسليم أنفسهم وقام بتسليم نفسه أو قبلهم.

وبدأت المظاهرات تجتاح شوارع مدريد تطالب بشنق المتمردين الفاشيست على أعمدة النور فى الميادين العامة.

وصدر الأمر من القصر الملكى بأن يوضع الجنرال «أرمادا» والجنرال «دل بوش» فى استراحة رئيس أركان حرب الجيش ضيوفًا حتى يتم التحقيق. ثم أن يوضع الكولونيل «تاخيرو» فى جناح خاص من استراحة عسكرية أخرى.

وقال الملك لمن حوله وهو يصدر لهم الأوامر: «حذار حتى من إشارة تفسر على أنها إهانة... هؤلاء ضيوف وليسوا معتقلين إلى أن تجرى محاكمتهم».

وقيل له فى اليوم التالى إن الكولونيل «تاخيرو» يدلى من استراحته بأحاديث صحفية. وكان رده: «دعوة يقابل من يشاء ويقول ما يشاء فسوف يتحولّ بعد قليل إلى مجرد قصة مسلية».

ثم استدعى الملك هيئة وزرائه ورؤساء الأحزاب وعددًا من كبار الزعماء فى إسبانيا إلى لقائه فى قصر «زرزويلا».

وجاءوه قبل أن يذهبوا إلى بيوتهم، ملابسهم مهدلة وملامحهم شاردة وعيونهم ملتهبة من السهر مع الخطر، وقال لهم الملك «إن بعضا منهم كان يتشكك فى قوة الديمقراطية وعليهم الآن جميعًا أن يزدادوا ثقة فى الديمقراطية.

وهو لا يريد أن يتدخل فى شئونهم، لكنه الآن - وقد أرغم على دفع جزء من رصيده مع الجيش فى التصدى لمحاولة الانقلاب - يطلب منهم شيئًا واحدًا يرجوهم فيه وهو أن الديمقراطية تكون أقوى ما تكون حين تثبت قدرتها على الفعل وليس مجرد قدرتها على الكلام. إن العرش فخور بأنه استطاع أن يخدم إسبانيا بالحفاظ على الدستور، لكنه يرجوهم فى نفس الوقت أن يتذكروا أن مسئولية المحافظة على نص وروح الدستور ليست مسئولية العرش وحده».

ثم رجاهم أن يذهبوا إلى بيوتهم وأن يستحموا وأن يرتدوا ملابس جديدة استعدادًا ليوم جديد!

وقال لى أحد القريبين من القصر إنه يوم فاز «فيليب جونزاليس» وحزبه الاشتراكى فى الانتخابات الأخيرة ـ أحس بعض مستشارى الملك بالقلق، ومبعث قلقهم كان: هل يقبل الجيش حكومة اشتراكية، لقد كان الاشتراكيون فى الحكم عندما قامت الحرب الأهلية.

وكان رد الملك: «ما دامت هذه هى رغبة الشعب، وبحكم الدستور فعلى الجميع أن يقبلوا».

وعندما بدأ «جونزاليس» يطبق برنامج حزبه ألح كثيرون من مستشارى الملك عليه أن يتدخل لكى يضع «فرملة» على الحكومة.

وكان رد الملك أن مسئولية الحكومة أمام الدستور هى فرملتها.

□

وقال لى الملك «خوان كارلوس» بنفسه:

ـ «هل تعلم أننى تدخلت فى أعمال الوزارة الاشتراكية مرة واحدة من أجلكم... لقد تدخلت بالنصيحة فقط».

وبدا علىّ الفضول، وقال الملك:

ـ «فى برنامجهم أن يعترفوا بإسرائيل. وأنا لست ضد الاعتراف بإسرائيل، ولكنى أريد لمثل هذه الخطوة أن تتم دون أن تحدث مشاكل لا داعى لها بين العرب وإسبانيا... بيننا روابط تقليدية عميقة الجذور ولا بد من الحفاظ عليها. وأنا أعرف شخصيات عربية كثيرة تربطنى بها صداقات أحرص عليها (عدد بعض الأسماء). إن هناك دولاً عربية اعترفت بإسرائيل ولا تستطيع إسبانيا أن تظل معلقة فى الهواء.

وفضلاً عن ضرورة الاعتراف فى حد ذاته فإن الاعتراف بإسرائيل ضرورة عملية من ناحية أخرى. إسبانيا تريد دخول السوق الأوروبية المشتركة. دخولها فى السوق ضرورى ليس فقط لازدهارها ولكن أيضًا لاستقرارها.

إننى لا أنكر أن إسبانيا حصلت على استثمارات عربية مؤثرة، وهذه مع الصداقات التاريخية والإنسانية اعتبارات لها وزنها ـ لكننا يجب ألا ننسى اعتبارات أخرى.

ومع ذلك فأنا لا أضغط ولا ألح ... أذكر فقط وأدعو لفهم الظروف وتقديرها».

□

وسألنى الملك «خوان كارلوس»:

ـ «كيف أحوالكم فى العالم العربى؟».

وقلت:

ـ «هناك محاولة بحث عن الديمقراطية أو حتى عن المشاركة. هذه قضية القضايا فى العالم العربى. مجتمعاتنا نمت وتطورت وتغيرت كما حدث فى إسبانيا، لكن السلطة وممارساتها لم تستطع أن تعكس ذلك كله حتى هذه اللحظة.

بتأثير كل أفكار ومنجزات عصر جمال عبد الناصر وبتأثير كل مستجدات عصر البترول ـ إيجابيات هذا العصر ولا أتحدث الآن عن سلبياته ـ فإن نطاق التعليم اتسع اتساعًا هائلاً. اتسع أيضًا نطاق التصنيع. اتسع أيضًا حجم الطبقة المتوسطة. العاملون فى مجالات الإنتاج والخدمات بعشرات الملايين. المرأة تخرج للعلم وللعمل. العصر الحديث يطرق أبوابنا بأدواته ورموزه وقيمه. مجتمعاتنا جاهزة، بعضها على الأقل جاهز للانتقال إلى عصر من المشاركة فى القرار ... مقدمة ومدخلاً إلى الديمقراطية ... لكننا مازلنا بعد نبحث عنها».

وقال الملك بدهشة:

ـ «تبحثون عنها ... عن الديمقراطية؟»

قلت:

ـ «ليس بعد. التى نبحث عنها الآن هى «إليزابيث».»

وجلجلت ضحكته طويلة هذه المرة... ثم ردد القول:

ـ «تبحثون عن إليزابيث... !».

وعادت ضحكته تجلجل مرة أخرى، وصحبنى إلى باب مكتبه وابتسامته مازالت عريضة، ثم تحولت مرة ثالثة إلى ضحكة مجلجلة حين صافحنى مودعا وهو يقول:

ـ «إذن فأنتم تبحثون عن إليزابيث» !!

. . . .

ولم أسأله ماذا فهم؟ ولم يسألنى ماذا أقصد؟!

« أنـــــدروبـــوف »

رجــل الأســـرار

أحيانًا يخطر ببالى أن التاريخ الإنسانى، على نحو أو آخر، هو حكاية «فرص ضائعة»!

فرص كانت سانحة لصنع السلام بمعناه الأوسع والأشمل، لكن سلطان العقل تخلى عنها، ونوازع السيطرة استولت عليها، وكانت النتيجة أن أصبح التاريخ الإنسانى صراعات طويلة ومستمرة، دامية ومنهكة.

لكنى لا ألبث حين يطرأ لى هذا الخاطر أن أدفعه بواقع أن التعلق به من ضروب الأحلام المثالية التى تتناقض مع الطبيعة البشرية وهى فى حقيقتها صراع بقاء للأقوى وللأقدر. ذلك قانونها وغيره استثناء لا يقاس عليه!

ومع ذلك فإن الأحلام تختلف عن الأوهام. والأحلام لها قوة «حضور» فى حين أن الأوهام حالة غياب أو غيبوبة، وقوة حضور الأحلام فى أنها تظل دائمًا مؤشرًا إلى الطريق السليم ومحاولة تصحيح بالفكر لقصور الفعل، فهى حين تظهر الفارق بين المثال والواقع تقوم بما يشبه دور الضمير فى حركة التاريخ، وربما من هنا أن الصراعات الكبرى حاولت أن تغطى حقيقة مقاصدها بمبادئ أسمى وأنبل من هذه المقاصد، فالحروب الصليبية مثلا لم تكن من أجل السيطرة على طرق تجارة الشرق وإنما كانت دفاعًا عن مهد المسيح وصليبه. والحروب العالمية الحديثة لم تكن لاقتسام المستعمرات والأسواق وإنما لنصرة الحرية والديمقراطية. وهكذا... وهو شىء لا بأس به ـ فى جانب من جوانبه ـ لأنه يمنح المبادئ مسحة من الشرعية وظلا من قوة الإلزام المعنوى، فالأعلام التى تحتدم المعارك فى ظلها يصعب إنكارها فور انتهاء القتال!

□

لكن حديثى الآن عن الزعيم السوفييتى السابق «يورى أندروبوف». ومن المنطق أن نركز عليه دون أن نشرد طويلاً وراء حديث الفرص الضائعة، والأحلام والأوهام... إلى آخره.

يكفينا - أو بالأحرى يكفينى - أن أقول إننى أعتقد أن حكم «أندروبوف» الذى اختصره الموت إلى عامين أو أقل فى الكرملين، كان فرصة ضائعة.

يكفينى أن أقول إننى أحسست ـ من خلال لقاءات مع «أندروبوف»، ومن خلال أحاديث معه، ومن خلال احتكاك عملى بفكره وأسلوبه - أنه «لو» قدر له أن يعيش أطول لكان من حقنا أن نجد ساحة دولية تختلف عما نراه أمامنا اليوم. وبالتالى فإن موته المبكر بفشل الكلى فى أداء وظيفتها وانهيار القلب بعدها، كانت كلها عناصر فرصة ضاعت فى وقتها ولا أظنها سوف تسنح مرة أخرى فى وقت قريب.

ولفظ «لو» هنا هو نفسه التعبير عن الفرصة الضائعة. وهو نفسه حجم الفجوة بين ما هو واقع وما كان ممكنا.

والمثل الفرنسى الشائع يقول إن لفظ «لو» يستطيع أن يجعل «برج إيفل» ينفذ من ثقب إبرة!

«لو».... و«لو»... و«لو»، سلسلة طويلة من الفرص الضائعة فى التاريخ القريب!

لو أن «ونستون تشرشل» لم يتعجل فى إلقاء خطابه الشهير عن «الستار الحديدى الذى رآه ينزل على أوروبا الشرقية» ـ سنة ١٩٤٦ - لأمكن تفادى ثلوج الحرب الباردة، ولأمكن للحلفاء فى الغرب وفى الشرق أن يحتفظوا بعد انتصارهم على النازية والفاشية فى أوروبا - بنفس التعاون الحميم الذى قادهم إلى النصر فى الحرب (ربما»!).

لو أن نظام الأمم المتحدة لم تضطرب موازينه بسبب ظروف الحرب الكورية ـ لأمكن لهذا النظام أن يجنب العالم مصائب سباق التسلح التى كلفت البشرية ما متوسطه أربعمائة بليون دولار فى السنة على مدى أربعين سنة حتى الآن، أى ستة عشر ألف بليون دولار (ربما!!).

لو أن قـادة العـالم الذين اجـتـمـعـوا فى نيـويورك سنة ١٩٦٠ ـ «أيزنهـاور» و«خروشـوف» و«ديجول» و«ماكميلان» و«نهرو» و«تيتو» و«عبد الناصر» وعشرات غيرهـم من زعماء أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ـ أمسكوا بهذه اللحظة لاستطاعوا أن يجعلوا من عصرهم ـ وكان بالفعل عصر عمالقة ـ نقطة تحوّل فى السياسة العالمية (ربما!).

لو أن «الســادات» لم ينس حـقـائق التـاريخ والجـغـرافـيـا فى بداية سنة ١٩٧٤؛ لاستطاع أن يصل بمنطقة الشرق الأوسط كلها إلى تسوية شاملة بدلاً من اتفاقيات جزئية ثم حل منفرد مع إسـرائيل كان من نتائجه سقـوط تحالف أكتوبر العظيم وتمزق المنطقة بعد ذلك إلى أشلاء وشظايا (ربما!).

لو أن «يورى أندروبوف» لم يمت بهذه السرعة، بعد أقل من عامين فى الكرملين؛ لاستطاع أن يجد وسيلة إلى حوار حقيقى مع «رونالد ريجان»، فكلاهما يمثلان ـ أو يعبران عن ـ نفس الحقائق الجديدة فى بلديهما العملاقين (ربما!).

و«لو»... و«لو»، وكلها من باب التمنى، لكن ما وقع هو الواقع، و«برج إيفل» لن ينفذ من ثقب الإبرة!

□

ومن الحق أن أعترف بالفضل لرجلين لفتا نظرى مبكرًا إلى «يورى أندروبوف» وأهميته فى القيادة السوفييتية فى النصف الثانى من الستينيات ـ أى بعد سقوط «نيكيتا خروشوف» وبداية ما ظهر لنا وكأنه قيادة ثلاثية على القمة فى الكرملين تضم «بريجنيف» و«كوسيجين» و«بادجورنى» ـ السكرتير العام للحزب الشيوعى، ورئيس الوزراء، ورئيس الدولة السوفييتية ـ على التوالى.

كان أول هذين الرجلين هو السفير المصرى المقتدر فى موسكو وقتها الدكتور «مراد غالب». كنت أحدثه يومًا عن زعماء الكرملين الجدد ورأيى فيهم من ناحية الشكل كما يظهرون أمامى: مجموعة من الشخصيات الرمادية ليس لهم بريق

شخصية «خروشوف».، ثم إن ملامحهم عابسة باستمرار كأنهم على وشك تشييع جنازة، وإذا أراد أحدهم - كـ «بريجنيف» أحيانا - أن يتظاهر بخفة الظل فهى محاولة باهتة لتقليد «خروشوف»، ثم إن صورهم المعلقة فى الميادين بلمسات الرتوش الثقيلة على التقاطيع تكاد تحولهم فى الصور إلى تماثيل من الشمع لامعة لكنها بلا حس أو نبض. ولم يكن فى ذلك كله شيء مشجع.

لكن الدكتور «مراد غالب» كان له تقدير مختلف، ثم إنه كان يرى أيضًا ضمن المجموعة الجديدة الحاكمة فى الكرملين شخصيتين تستحقان الاهتمام والمتابعة. وكان طلبه أن أضع عينى على «مازاروف» - عضو المكتب السياسى المكلف وقتها بحركات التحرر الوطنى - ثم على «أندروبوف» - عضو المكتب السياسى المكلف بالإشراف على الـ «كى. جى. بى» أو لجنة حماية أمن الدولة والحزب، وهى تؤخذ فى العالم الخارجى على أنها النظير السوفييتى لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية. كان رأى الدكتور «مراد غالب» أن كلا منهما - «مازاروف» و«أندروبوف» - له مستقبل!

وكان الرجل الثانى الذى لفت نظرى إلى «أندروبوف» هو السفير الكندى فى موسكو وقتها «روبرت فورد». كان «فورد» - قبل موسكو - سفيرًا لكندا فى القاهرة، وفيها ربطتنى به صداقة وثيقة، ثم نقل سفيرًا فى موسكو وطالت خدمته فيها حتى أصبح عميدًا للسلك السياسى، وأصبح واحدًا من خبراء الغرب المعدودين فى الشئون السوفييتية.

كان تركيز «روبرت فورد» على «أندروبوف» شديدًا. وكان رأيه قاطعًا فى أن «أندروبوف» هو الرجل القادم فى الاتحاد السوفييتى. وإنه بين كل هذه المجموعة التى نراها على القمة فى الكرملين اليوم ، فإن «أندروبوف» أقدر من كل الآخرين على فهم العالم والعصر!

وفى تلك الأيام أصبحت عادتى أن أبدأ كل زيارة لموسكو بجلسة حوار طويل مع «مراد غالب» فى السفارة المصرية، ثم أتبعها بجلسة أخرى مثلها مع «روبرت فورد»

فى السفارة الكندية. وفى الجلستين كنت أسأل وأستفسر وأتقصى وأحاول أن أستخلص مفاتيح تصلح لحوارات أخرى تستطيع فى النهاية أن تعطينى صورة واضحة أو شبه واضحة للأوضاع فى عاصمة كتومة بطبيعتها ومطلسمة!

□

وفى أواخر شهر يوليو سنة ١٩٦٨ كنت فى موسكو مرة أخرى فى صحبة الرئيس جمال عبد الناصر. وكالعادة رتبت حوارى التقليدى مع «مراد غالب» ثم مع «روبرت فورد». ثم حدث ـ فيما يبدو لى ـ أن «تيريزا» زوجة «روبرت» ـ وكانت سيدة من أصل برازيلى متدفقة الحيوية والنشاط ـ علمت بوجودى مع زوجها فى غرفة مكتبه، فإذا هى تجىء إلينا منطلقة على سجيتها ـ كما هى دائما ـ تسألنى «ماذا أفعل هذا المساء؟». ثم تضيف إلى سؤالها دعوتى على العشاء فى نفس الليلة فى بيتها مع مجموعة من الأصدقاء معظمهم من السفراء الأجانب فى العاصمة السوفييتية، ثم تجعل الإغراء مضاعفًا فتقول إنه «سيكون معنا على العشاء اثنان من أعظم الموسيقيين فى الاتحاد السوفييتى : «أويستيراخ» و«سوستاكوفيتش». وكان الإغراء بالفعل شديدًا، فكلا الرجلين قمة فى فنه، وكنت قد استمعت ـ تسجيلاً ـ إلى العديد من أعمالهما، لكن الظروف لم تتح لى فرصة لقاء أى منهما ولا فرصة تلقى أدائه مباشرة منه.

وأضافت «تيريزا» بتلقائية مزاجها البرازيلى أنه «بدون البولشوى ـ مسرح الباليه العتيد فى موسكو ـ وبدون فنانين عظام من أمثال «أيستيراخ» و«سوستاكوفيتش» تصبح الحياة فى موسكو مللا لا يطاق». وبهدوء أعصابه حاول «روبرت» أن يرد على حماسة زوجته فقال لها: «تيريزا... ليس هناك ما يمكن أن نشكو منه هنا»! ولم تكن «تيريزا» من النوع الذى يمكن لأحد أن يعترضه بملاحظه، وكان ردها على زوجها هو قولها: «ولكن روبرت من قال إننى أشكو؟... إننى فقط كنت أقرر حقيقة واقعة»!

وتصادف فى اليوم التالى أننى كنت مدعوًا على غداء رسمى أقيم تكريمًا للرئيس

جمال عبد الناصر. وكان القادة السوفييت كلهم وبالجملة هناك، وبينهم «يورى أندروبوف» بالطبع. ورحت ـ مخلصا لنصائح «مراد غالب» و«روبرت فورد» ـ أجرب استطلاع شخصيته.. تابعت ـ من طرف خفى ـ تصرفاته عبر المائدة وحركاته وسكناته. ولم يكن هناك كثير أتابعه لأن «أندروبوف» كان ثابتا على مقعده مكبًا على طعامه يرفع رأسه بين الحين والآخر ويجيل النظر فيما حوله ثم يعود إلى نفسه كما كان. وحاولت أن أشده إلى حديث لكنه أشار إلىّ بأن ننتظر المترجم. وكان المترجم الشهير «كوندرياتشيف» ـ وهو المسئول يومها عن الترجمة على المائدة ـ مشغولاً بمناقشة دائرة بين «عبد الناصر» و«بريجنيف». ولم تمض غير دقائق حتى اتسعت دائرة المناقشة فإذا «سوسلوف» ـ عضو المكتب السياسى المسئول عن الجانب العقائدى فى الحزب الشيوعى السوفييتى، والوحيد الباقى من أيام «لينين» و«ستالين» ـ يشترك فيها. ويئست من إمكانية أن يفرغ «كوندرياتشيف» من ترجمة ما يدور بين الثلاثة ليعطى بعض وقته لمحاولتى مع «أندروبوف»، ثم لاحظت أن اهتمام «أندروبوف» بدأ يتعلق بما يجرى بين الثلاثة، «عبد الناصر» و«بريجنيف» و«سوسلوف». ثم فجأة وجدتنى طرفا فى الحديث بين الثلاثة واكتشفت لدهشتى أن موضوعه يخصنى.

على غير انتظار إذا الرئيس «جمال عبد الناصر» يوجه إلىّ الخطاب ويقول:

ـ «كنت أتحدث مع الصديق بريجنيف عن الصحافة. وسألنى عن الأهرام بالتحديد. وكنت أتحدث إليه عن تجربتكم فيه، والصديق سوسلوف لديه سؤال يريد أن يوجهه لك».

وقلت للرئيس «عبد الناصر» ـ وأنا أتطلع إلى «سوسلوف» ـ «إننى تحت أمره فى أى سؤال».

وقال «سوسلوف»، و«كوندرياتشيف» يترجم:

ـ «إن الرئيس ناصر قال لنا إن «الأهرام» مشروع مالى ناجح، وأنا لا أعرف كيف يمكن أن تكون جريدة سياسية جادة مشروعًا ماليًا ناجحًا؟».

ورحت أجيب عن السؤال ومؤدى إجابتى أنه لا تعارض بين أن تكون جريدة من الجرائد سياسية جادة وفى نفس الوقت مثيرة للاهتمام ومقروءة، وإن المشكلة التى تواجه بعض الجرائد السياسية تأتى من الخلط بين الجدية والكآبة، أو من تصور أن إثارة الاهتمام مضيعة لإثارة الاحترام.

ثم رحت أفصل فى أن القارئ الآن يريد الخبر صحيحًا ويريده مستوفى وكاملاً بما يمكنه من تكوين رأيه المستقل فى الأحداث وتطوراتها وبما يسمح له بالحكم حتى على اتجاهات الجريدة التى يقرؤها نفسها.

ثم أبديت رأيًا فى أن المقال يتراجع فى الصحافة الحديثة أمام الخبر، إلا إذا كان المقال - بقيمة ما فيه من أفكار ووقائع، أو بقيمة كاتبه - يرقى إلى مستوى أن يكون خبرًا فى حد ذاته.

ثم حاولت أن أفرق فى سياسة جريدة بين «التزامها بفكر» وبين «إلزامها بخط»، وقلت إن المساحة بين «الالتزام» و«الإلزام» هى نفسها المساحة بين «مسئولية الحرية» و«قيد الرقابة». ثم أشرت إلى أثر ذلك على ضمير القارئ، وأثره بالتالى على الثقة بجريدة يفضلها، وبالتالى سعة انتشارها ورواجها.

ثم أضفت أن مشروع «الأهرام» الجديد - فى ذلك الوقت - يعتبر واحدًا من أحدث وأكبر المشروعات الصحفية فى العالم وقد جرى تمويله كله ذاتيًا لم نأخذ فيه قرشًا واحدًا من الدولة ولم نتقدم من أجله بطلب قرض حتى من بنك، وكان هذا التزمت مهما لنا سواء بالنسبة لحقنا فى الاستقلال أو لحقنا فى الحرية.

كان «سوسلوف» يرى غير ما رأيت فى دور الصحافة، فالتعبير عن «الحزب» و«الالتزام» بخطه ليس تناقضًا - فى حسبانه - مع الحرية والاستقلال لأن «الحزب» هو التعبير عن فكر وحركة الجماهير، وليس هناك بأس فى أن تقوم دولة «الحزب» بتمويل صحافته لأن الصحافة «أداة توعية وتثقيف». وأما عن أهمية الخبر فى الصحافة والتركيز عليه باعتباره المادة الأساسية فى الجريدة، فهى بدعة منقولة عن

صحافة الغرب الرأسمالى وهى صحافة تخاطب غرائز قارئها ولا تسعى لتنمية مداركه».

ومضى الحديث ومضى، وتطرق إلى قضايا كثيرة كاقتصاديات الصحف، ومسألة الإعلان، والدور الذى تقوم به وكالات الانباء العالمية، ثم من جديد إلى قضية الخبر والمقال...

بين الحين والآخر كنت ألتفت ناحية «أندروبوف» فأجده فى كل مرة أشد اهتمامًا بالحديث وأكثر اقترابًا منه إلى درجة أنه أزاح مقعده حتى التصق بمقعد «سوسلوف». وفجأة تدخل فى المناقشة على نحو أثار دهشتى، قال بابتسامة خافتة:

- «إن صديقنا مهتم «بالخبر» لكننى لم أكن أعرف أن «الأخبار» كلها فى موسكو محصورة فى السفارة الكندية هنا»!

وبعد الغداء الرسمى قلت للرئيس «جمال عبد الناصر»، وكنا وحدنا:

- «غريبة.. لقد قالوا لى إن «أندروبوف» هو رجل المستقبل فى الكرملين، لكنه فى الملاحظة الوحيدة التى فتح الله بها عليه فى مناقشة اليوم لم يثبت شيئًا سوى أنه فعلاً رئيس الـ «كى. جى. بى» مشغول بقراءة تقارير جواسيسه عن تحركات زواره»!

وقال «جمال عبد الناصر»:

- «لا أظنها مسألة تجسس. لو كانت كذلك لما قالها لك. هؤلاء ناس يحسبون ما يقولون قبل أن يقولوه. أغلب ظنى أنها رسالة إليك تلفت نظرك إلى ألا تصدق كل ما تسمع من مصادر الغرب. وأظنه قالها على هذا النحو لكى تبدو فى قالب «اجتماعى». ولو قالها فى غير ذلك لبدت لك وكأنها نوع من الضغط عليك»!

□

كان هذا أول لقاء عابر مع «أندروبوف».

وفى شهر يناير ١٩٧٠ كان لقائى الثانى مع «أندروبوف». وكان لقاء طويلاً ومكثفًا. وأستطيع أن أقول إننى خلاله عرفته وتعاملت عن قرب معه.

كانت تلك زيارة «جمال عبد الناصر» السرية ـ الشهيرة فيما بعد ـ للعاصمة السوفييتية . كان فيها يطلب من السوفييت أن يتولوا هم حماية العمق المصرى فى مواجهة عمليات الاختراق الإسرائيلى ريثما تتمكن الأطقم المصرية من استكمال تدريباتها على استعمال صواريخ «سام٦» وغيرها من صواريخ الارتفاعات المتوسطة والمنخفضة.

وكان معنى قبول السوفييت لذلك الطلب وما يترتب عليه أنهم سوف يتواجدون عسكريًا على نحو غير مسبوق فى المنطقة، وكانت تلك من وجهة نظرهم ـ ولهم الحق ـ مخاطرة كبرى خصوصًا فى وقت كانت سياسة الوفاق فيه مطلبهم من الرئيس الأمريكى ـ أيامها ـ «ريتشارد نيكسون».

وتردد القادة السوفييت فى الاستجابة لما طلبه «جمال عبد الناصر»، وطال ترددهم، وزاد ضغطه عليهم إلى حد الأزمة. وطلبوا مهلة ساعات لإعادة التفكير والبحث.

. . . .

. . . .

(كان « جمال عبد الناصر» فى تلك الزيارة السرية ينزل فى الفيلا رقم (١) على تلال «لينين» المطلة على نهر «الموسكوفا» ولم يكن نازلاً فى الكرملين. فقد كان صعبًا أن ينزل فى المقر الرسمى للضيافة دون أن يتسرب خبر وجوده فى موسكو ويثير ما يمكن أن يثير من تساؤلات.

وكانت الاجتماعات مع القادة السوفييت تعقد فيما كانوا يسمونه «الجيمنازيوم» ـ وهو فيلا أخرى على تلال لينين مخصصة كاستراحة رياضة لأعضاء المكتب

السياسى. وكان التقدير - فيما أظن - أن تواجد سياراتهم الرسمية فيها أو دخول هذه السيارات وخروجها إليها ومنها، يبدو للعيان شيئًا عاديًا مألوفا ومتوقعا).

. . . .

. . . .

كان اجتماع الصباح الذى تأزمت فيه الأمور بين «عبد الناصر» والقادة السوفييت قد استمر حتى قرب الظهر. وعاد «جمال عبد الناصر» إلى الفيلا رقم (١) على تلال لينين ينتظر الرد النهائى للقادة السوفييت على طلباته.

وكنا ثلاثة فقط مع الرئيس «جمال عبد الناصر» فى مفاوضاته السرية الحاسمة: الفريق «محمد فوزى» وزير الحربية، والدكتور «مراد غالب» السفير المصرى فى موسكو، وأنا. وكنا نحاول أن نتابع ما يجرى بجوارنا فى «الجيمنازيوم» بوسيلة أو بأخرى. وكانت لـ «مراد غالب» قدرة على فتح الأبواب المغلقة، وهكذا راح يتحرك بين «الجيمنازيوم» والفيلا رقم (١) على تلال لينين يستطلع ويستكشف.

وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر بدأنا نشعر أن الأمور تأخذ اتجاهًا محددًا فى اجتماعات القادة السوفييت. فقد دُعى معظم ماريشالات الاتحاد السوفييتى فجأة للحضور إلى مبنى «الجيمنازيوم»، ثم انضموا إلى اجتماعات القادة السياسيين، وبدا أن قرارًا ما تجرى صناعته....

ثم عاد الدكتور «مراد غالب» من جولة استطلاع واستكشاف ليقول «إن الوفد المصرى مدعو إلى اجتماع بعد أقل من ساعة - فى الرابعة بعد الظهر - فى مبنى «الجيمنازيوم»، وإن القيادة السوفييتية توصلت إلى قرار فى شأن الطلبات المصرية، وهم يريدون إبلاغ الرئيس «جمال عبد الناصر» بما توصلوا إليه.

وفى الساعة الرابعة تمامًا كان الرئيس يدخل قاعة الاجتماعات فى «الجيمنازيوم»، ونحن الثلاثة - الفريق «فوزى» والدكتور «مراد غالب» وأنا - وراءه. واخترت مقعدًا فى طرف المائدة أستطيع أن أرى منه كل شىء، فقد أحسست أن الدقائق القادمة سوف تكون مشهدًا تاريخيًا لا ينبغى أن تفوتنى همسة فيه.

وساد الصمت فى القاعة فور جلوس المجتمعين على مقاعدهم، وأدرت البصر حولى.. كل أعضاء المكتب السياسى بالكامل تقريبًا حول المائدة: «بريجنيف» و«كوسيجين» و«بادجورنى» ثم «أندروبوف» و«كيريلنكو» و«تشرنينكو» و«كونابيف» و«بلشى» و«جروميكو». وكان الملفت للنظر معهم عدد ماريشالات الاتحاد السوفييتى الحاضرين إلى جوارهم: أولهم الماريشال «جريتشكو» وزير الدفاع، وبعده الأميرال «جورشيكوف» قائد البحرية، والماريشال «زاخاروف» رئيس أركان الحرب، والماريشال «سوكولوفسكى» قائد القوات البرية، والماريشال «باتيسكى» قائد سلاح الصواريخ، والماريشال «سوكولوف» - وأظنه كان رئيس هيئة التخطيط - ثم عدد آخر من الماريشالات تدل رتبتهم العالية على مكانتهم كما يدل عليها مجرد اشتراكهم فى اجتماع على هذا المستوى.

ولم يطل الصمت لأن «بريجنيف» أخذ الكلمة فورًا وبدأ يقول :

- «صديقنا الرئيس ناصر... إن القيادة السياسية للاتحاد السوفييتى بعد مناقشة طويلة اشترك فيها القادة العسكريون للقوات المسلحة السوفييتية قررت الاستجابة إلى طلباتكم...».

وتنفست بارتياح ثم رحت أخط بعض النقط على ورقة أمامى.

واستطرد «بريجنيف» يعدد القرارات التى توصل إليها القادة السوفييت السياسيون والعسكريون. بدأ بحجم الأسلحة والمعدات التى تقرر تقديمها إلى القوات المسلحة المصرية، وكانت كشفًا طويلاً أهم شىء فيه صواريخ الدفاع الجوى على مختلف الارتفاعات.

ثم انتقل إلى النقطة الخطيرة فى الموضوع كله، وهى اشتراك الاتحاد السوفييتى فى الدفاع عن العمق بما يحقق تمكين قوات الدفاع الجوى المصرى من التركيز على الجبهة لحماية القوات المتمركزة عليها.

ثم تحمل مسئوليات الدفاع عن العمق المصرى - بعيدًا عن الجبهة - بواسطة السوفييت مباشرة لفترة محددة تتمكن فيها قوات دفاع مصرى جديدة من

استكمال تدريباتها على الصواريخ الجديدة لتكون هذه القوات قادرة بدورها ـ بعد ذلك ـ على القيام بمسئولياتها الوطنية.

وكان الأمر ـ على هذا النحو ـ يتطلب أن تجىء إلى مصر قوات صواريخ سوفييتية وقوات جوية تحمى مواقعها، وما يتطلبه ذلك من ملحقات ضرورية للمواصلات والاتصال والتنسيق، إلى آخره... وهكذا فإن «بريجنيف» راح يعدد ما تقرر إرساله إلى مصر، وكانت القائمة متفقة فى كثير مع الطلبات المصرية.

ثم أضاف «بريجنيف» بعد ذلك ملاحظتين:

أولاهما: إن القرار الذى تم اتخاذه خطير، وهو يقتضى أقصى درجة ممكنة من التغطية السياسية بما فى ذلك الحرص على «سر القرار» لأن تسرب شىء منه يمكن أن يؤدى إلى تعقيدات دولية ترتفع حدة المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط، فضلاً عن تعقيدات إضافية على الوضع الإقليمى وربما أيضًا على الوضع الوطنى فى مصر؛ لأن بعض العناصر العربية والمحلية قد ترى فى «القرار» وما يترتب عليه «تواجدًا سوفييتيا» فى المنطقة يزيد كثيرًا عن مجرد وجود خبراء سوفييت مع السلاح السوفييتى أو مع المصانع أو فى السد العالى.

وثانيتهما: إنه يرجو ـ ويلح فى الرجاء بأن لا تتخذ مصر فى فترة تواجد قوات الدعم السوفييتى ـ قرارًا بتوسيع نطاق الحرب لأن مثل ذلك قد يفتح الباب لتدخل أميركى مباشرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، ثم إن المعركة الكبيرة حين تجىء يجب أن تكون معركة عربية بالكامل وبالتالى فإنه يتوقع أن يصله الطلب بسحب قوات الدعم السوفييتى قبل توقيت المعركة بوقت معقول.

وكان رد « جمال عبد الناصر» واضحًا ومحددًا:

- شكر الاتحاد السوفييتى على حسن استجابته.
- أوضح أن دافعه إلى ما طلب كان مجرد تغطية فجوة زمنية لإتمام تدريب أطقم

الصواريخ المصرية دون أن يترتب على ذلك إبقاء العمق المصرى مفتوحًا للغارات الإسرائيلية.

- إن جبهة القتال سوف تظل مصرية بحتة.
- إنه حين يجىء توقيت المعركة فهو لا يريد لأحد أن يحارب نيابة عن مصر.
- إن التخوف من حساسيات تنشأ عن تواجد «قوات الدعم السوفييتى» ليس له محل لأن الشعب المصرى والأمة العربية ـ وحتى الأطراف الدولية ـ يعرفون جميعًا أن القرار المصرى حر.

□

ولاحظت ـ وأنا منهمك فى تسجيل ملاحظتى على الجلسة ـ أن المناقشة انتقلت من «عبد الناصر» و«بريجنيف» إلى مناقشة بين الفريق «فوزى» والماريشال «جريتشكو» حول توقيتات وصول قوات الدعم السوفييتى، ثم شارك فيها عدد آخر من الماريشالات.

وفجأة أحسست بيد تربت على كتفى من وراء ظهرى. والتفت، وإذا «بريجنيف» واقفًا ورائى وأحد مساعديه يسحب مقعدًا له خلفى، وهممت بالقيام ولكنه ضغط على كتفى يبقينى فى مقعدى ويقول لى:

ـ «جسبادين (السيد) هيكل... لدىّ موضوع أريد أن أحدثك فيه وهو أن ما اتفقنا عليه الآن يجب أن يبقى سرًا لا ينشر عنه أو يذاع شىء».

ولوهلة أحسست بحرج وارتباك شديدين وقلت لـ «بريجنيف»:

ـ «سيادة السكرتير العام هل تتصور أننى سأكتب عما رأيته وسمعته اليوم فى جريدتى أو فى مقالى الأسبوعى «بصراحة»... ظننت أنك تعرف ما فيه الكفاية عن تقديرى للمسئولية...».

وقاطعنى «بريجنيف» بسرعة وبلهجة فيها مزيج من الاعتذار واللوم قائلاً:

ـ «إنك أخذت كلامى على غير محله، لم أكن أتحدث عما يمكن أن تكتبه، كنت أريد أن تساعد فى وضع خطة لضمان سرية «القرار» بحيث يظل خافيًا على كل وسائل الإعلام».

ثم أردف «بريجنيف» يقول لى :

ـ «إنك تعرف الكثير عن الإعلام الغربى وهم أناس مزعجون، ولن يتركوا حجرًا فوق حجر إذا تسرب إليهم أن صديقنا ناصر كان عندنا وأننا اتفقنا معه على ما اتفقنا اليوم ....».

ثم سألنى:

ـ «هل تستطيع أن تبحث المشكلة مع «أندروبوف» وتعثران معًا على أسلوب وطريقة تبقى كلامنا اليوم بعيدًا عن هؤلاء الفضوليين؟».

ولم يترك لى «بريجنيف» فرصة وإنما طلب من مساعده الواقف بجواره أن يستدعى «أندروبوف». وجاء على الفور، وقمت من مقعدى ووقفنا نحن الثلاثة فى ركن فى القاعة وراح، «بريجنيف» يشرح لـ «أندروبوف» ما كان يحدثنى فيه، و«أندروبوف» صامت يهز رأسه ثم يرفع يده يحك ذقنه بينما عيناه معلقتان بما يقوله رئيسه.

والتفت إلىّ «بريجنيف» بعد أن أنهى حديثه لـ «أندروبوف»، وكانت هذه اللحظات قد أتاحت لى فرصة للتفكير بسرعة، ووجدتنى أقول لـ «بريجنيف»:

ـ «سيادة السكرتير العام... إننى أخشى أن «سر» هذا اليوم لن يظل سرًا إلى وقت طويل. وأنا لا أعرف كيف تحافظون على الأسرار فى الاتحاد السوفييتى، ولكنى أعرف الظروف فى مصر.

إنك كنت تتكلم عن حوالى خمسة آلاف من العسكريين السوفييت وعن حوالى ستة وثلاثين بطارية صواريخ وعن قرابة ثمانين طائرة، وأنا لا أتصور أن يجىء هذا كله إلى مصر ثم لا يشعر به أحد. إن لدينا فى القاهرة والإسكندرية أكثر من مائة

وأربعين سفارة ومفوضية وقنصلية، وكلها تضم رجالاً مهمتهم أن يتابعوا ويراقبوا. ثم إن لدينا أكثر من مائتى مراسل صحفى أجنبى معتمدين فى القاهرة، وهؤلاء هم الذين نخشاهم، أنا أتحدث عما أعرفه ولا أتحدث عن غيره مثل الأقمار الصناعية والجواسيس المحترفين والعملاء المتطوعين... وغير ذلك كثير.

من هنا أخشى أن «السر» الذى تحرص عليه لن يظل مكتوما إلى وقت طويل. تقديرى الشخصى أنها فترة أسبوعين ـ على أكثر تقدير ـ بعد وصول هذه القوات إلى الإسكندرية ثم يشعر من يعنيهم الأمر بأن شيئًا ما قد حدث.. ومن ثم تبدأ التكهنات والإشاعات.. ثم تتحول كلها إلى أخبار...».

وبدا على «بريجنيف» أنه فوجئ بما كنت أقول، فقد قاطعنى وهو يهز رأسه بشدة:

ـ «إننى لا أستطيع أن أقبل ذلك... لا بد أن تكون هناك وسيلة»!

ثم التفت ناحية «أندروبوف»، والتفت معه قائلا:

ـ «إننى تكلمت فى حدود خبرتى كصحفى، وربما كان لدى صديقنا «أندروبوف» من واقع خبرته هو شىء غيره؟»!

ورد «أندروبوف» بهدوء موجها حديثه إلى «بريجنيف» قائلاً:

ـ «أخشى أننى أوافق صديقنا هنا على رأيه... إننى أعتقد أن كل شىء سوف يتسرب حتى قبل أن تصل قوات الدعم إلى مصر»!

ولم يكن «بريجنيف» فقط هو الذى فوجئ بما قاله رئيس الـ «كى. جى. بى»، ولكن المفاجأة كانت بالنسبة لى أكبر.

بدا لى على الفور ما قاله غريبًا على التفكير السوفييتى التقليدى حتى على مستوى القمة، ثم بدا لى غريبا صدوره عن رئيس أكبر هيئة للعمل السرى فى أكبر الدول وأكثرها حرصًا على الكتمان!

وكان الرئيس «جمال عبد الناصر» قد قام من مقعده واقترب ناحيتنا، ودعاه «بريجنيف» ليقول له بضيق:

ـ «صديقنا «ناصر».. هذان السيدان لا يعرفان كيف يمكن المحافظة على «سر» ما اتفقنا عليه. إننى ألححت كثيرًا على السرية كما سمعتنى فى الجلسة، وتصورت أن «السيدين» هنا يستطيعان المساعدة كل منهما بمحصلة خبرته، لكن الاثنين استسلما فى المعركة قبل أول طلقة»!

وسألنى الرئيس «جمال عبد الناصر» باللغة العربية:

ـ «لماذا يتعين أن تتسرب أخبار اتفاقنا اليوم؟...».

وقلت «إننى لم أقل إنه «يتعين»، وإنما قلت إنه «يحتمل». وصحيح أننى رجحت هذا الاحتمال، لكن ما أدهشنى أن «أندروبوف» وافق معى على رجحانه... ليس فقط بالنسبة لمصر ولكن بالنسبة لهم أيضًا».

ثم رحت أعيد على الرئيس ما قلته سابقًا لـ «بريجنيف» عن الدبلوماسيين والصحفيين... إلى آخره.

وسألنى الرئيس بالعربية أيضًا:

ـ « ألا تعتقد أنه يمكن إيجاد وسيلة تحفظ الموضوع سرًا ولو لفترة محددة... تسعة أشهر أو ستة؟ ـ فهذه هى المدة التى أريدها لتغطية فجوة الدفاع عن العمق... لا يهمنى بعد خروجهم أن يتسرب الموضوع، لكن من المهم أن نحصل على مهلة زمنية كافية؟».

وعاد «بريجنيف» إلى الإمساك بدفة الحديث يقول:

ـ «إننا لن نسمح لهذين السيدين بأن يجلسا معنا على مائدة العشاء إلا إذا قدما إلينا تصورا يمكن تنفيذه ويضمن السرية».

ثم أضاف:

ـ «لديكما من الآن قبل موعد العشاء أكثر من ساعة. وعليكما أن تجلسا معا لبحث هذا الموضوع..».

ثم استطرد مفصلا :

ـ «أمامكما نقطتان للبحث وعليكما تقديم إجابة عنهما للرئيس «ناصر» ولى قبل العشاء :

١ ـ كيف يمكن الاحتفاظ بما قررناه الآن سرًا لا ينشر ولا يذاع ؟

٢ ـ وإذا حدث ـ وهو ما لا نريده الرئيس ناصر وأنا ـ أن تسرب الموضوع فكيف يمكن الرد عليه ؟» !

وتوجه الزعيمان نحو الماريشالات ووجدت نفسى وجها لوجه مع «أندروبوف». كنت أريد أن أجره إلى حوار لأستكشف فكر «رجل المستقبل فى الكرملين». وكنت أنا الذى وقع فى الحفرة، فقد وجدت نفسى طرفًا فى شبه تفاوض معه، فى ظرف لم أسع إليه ولا كنت أريد أن أتدخل فيه !

□

وقال لى «أندروبوف» بنصف ابتسامة :

ـ «تعالى نبحث عن غرفة خالية هنا نتكلم فيها... لن يستغرق الأمر طويلاً وسوف نلحقهما قبل العشاء».

وعثر «أندروبوف» على غرفة خالية، ودخلنا إليها وفى يد كل منا فنجان قهوة وفى رأسه شواغل بثقل أطنان، فيما يتعلق بى على الأقل !

كان أول ما لاحظته، ونحن نتخذ مقاعدنا فى ركن من القاعة التى وجدها، أنه استغنى عن المترجم وطلب إليه أن ينصرف لأى عمل آخر قد يحتاج إلى جهده، ثم قال بإنجليزية لا بأس بها :

ـ «أظن أننا نستطيع أن نجد لغة مشتركة نتحدث بها مباشرة».

وأبديت ترحيبى، وذكرته بأننى حاولت أن أجرب ذلك معه مباشرة قبل عامين ولكنه لم يستجب.

وقال بنصف الابتسامة ذاتها:

- «فى سنتين تتغير أشياء كثيرة»!

وانتظرت أن يستطرد ولكنه لم يفعل (ولاحظت أن استعماله للكلمات مرتبط بما يريد التعبير عنه بالضبط وبلا تزيد أو إخلال).

وقلت:

- «يبدو لى أن أمامنا جدول أعمال يتكون من بندين.... أو هما سؤالان وضعهما أمامنا الرئيس «بريجنيف»:

أولهما: هل يمكن المحافظة على «سر» ما اتخذ اليوم من قرارات؟

والثانى: ما العمل إذا تسرب «السر»؟

وإذا بدأنا بالبند الأول، وإذا كان فهمى صحيحًا لما سمعتك تقوله أمام الرئيسين «ناصر» و«بريجنيف»، فإنك تتفق معى على صعوبة المحافظة على «السر» بعد حد معين... تقديرى أنه أسبوع أو أسبوعان على الأكثر بعد وصول قوات الدعم إلى الإسكندرية ثم يكون كل شىء على «الهواء» أو على «الورق»!».

ولاح نصف الابتسامة على شفتية مرة أخرى وقال:

- «لماذا تتصور «أنهم» سوف ينتظرون الوصول إلى الإسكندرية؟.. عندما تصل أول كتيبة صواريخ إلى رصيف الشحن فى أوديسا « فإنهم» سوف يعرفون.

لم يعد ممكنا إخفاء أية تحركات، ولكن ربما كان الذى يمكن إخفاؤه هو «النوايا» - أى ما هو قصدك من أية تحركات يمكن أن تحدث....».

ولم أتمالك نفسى فقلت له:

- « الحقيقة أننى كنت أتوقع أن يختلف رأيك عن رأيى. إننى حتى هذه اللحظة لا أستطيع أن أصدق أن رأى صحفى - مهمته أن ينشر - يمكن أن يتفق مع رجل مهمته أن يكتم . إضافة إلى ذلك فلست أخفى عليك أن انطباعًا تكون لدىّ - من خلال

تجارب مباشرة ـ أنكم فى الاتحاد السوفييتى على غرام بالغموض حتى فيما لا يقتضى ـ أو لا يسمح ـ بالغموض. أحيانًا شعرت أنكم حولتم الغموض إلى طقوس وعبادات».

وقال «أندروبوف»:

ـ «إنك تحدثت عن «رأيى» و«رأيك»... لو كنا نتحدث عن آراء لجاز أن تختلف لدينا المواقف، ولكننا فيما قلناه ـ أنت من زاوية رؤيتك وأنا من زاوية رؤيتى ـ لم نكن نبدى آراء وإنما كنا نقرر واقع حال... طبائع أشياء».

وقلت:

ـ «إذن فنحن على اتفاق فيما يتعلق بالإجابة عن السؤال الأول. سوف نذهب ونقول للرئيسين إنه لا يمكن المحافظة على «السر» عند نقطة معينة ـ «أوديسا» أو «الإسكندرية» يستوى الأمر.

وإذن ننتقل إلى البند الثانى. السؤال الذى يقول: وإذا تسرب «السر» ما العمل؟».

وسألنى:

ـ «ما هو رأيك؟».

وقلت:

ـ «الواقع أننا أمام مشكلة عويصة لا أستطيع أن أتصور حلاً لها. فأنا لا أتصور مثلا أنه سوف يكون فى استطاعتنا ـ أنتم فى موسكو أو نحن فى القاهرة ـ أن نصدر بيانات تكذيب. مثل ذلك لا يقنع. ثم هو لايفيد. وأخيرًا فهو يضع العاصمتين فى موقف دفاع ميئوس منه يسىء إلى مصداقيتهما ولا ينفى شيئًا».

وقال «أندروبوف»:

ـ «إننى أوافقك... ليس هذا هو السبيل».

وقلت:

ـ «إذن ما هو فى رأيك السبيل؟».

قال:

ـ «أريد أن أسألك لماذا يتعين علينا أن نفعل شيئًا علي الإطلاق؟».

وراح يشرح نظريته:

« إن أية محاولة للإخفاء والتمويه سوف تكون هى بالضبط ما يلفت النظر إلى العملية مبكرًا. سوف يكتشفون أية محاولة للإخفاء والتمويه وسوف يدفعهم ذلك إلى التساؤل والبحث.

دعهم يكتشفون كتائب الصواريخ على الرصيف فى أوديسا. شحنة سلاح عادية. دعهم يعرفون أن وجهتها هى الإسكندرية. صفقة طبيعية مع مصر. دعهم يكتشفون أن معها عددًا أكبر من الخبراء. سوف يأخذون وقتًا فى استنتاج حقيقة مهمتهم. دعهم يكتشفون وصول طائرات سوفييتية إلى مصر يقودها طيارون سوفييت. سوف يتصورون فى البداية أنها عملية تسليم وتسلم. عندما يكتشفون وينشرون ويذيعون دعنا نعامل كل ما حدث على أنه شىء يتم فى إطار التعامل الطبيعى والعادى لصفقات السلاح بيننا. عندما ينشرون ويذيعون دعنا لا نرد. منذ متى كنا نناقش معهم علنا تفاصيل صفقات الأسلحة إلى مصر أو إلى غيرها؟

دعنا نتصرف فى الأمر كله على أنه «تعامل» طبيعى. نحن نشعر بخطورة القرار الذى اتخذناه ، وإذا دفعنا ذلك إلى التصرف بطريقة غير عادية فسوف يكون كل ما فعلناه هو أننا لفتنا نظرهم مبكرًا إلى خطورة ما اتخذناه من قرار.

هذا هو الحل فى تقديرى.

أن نتصرف طبيعيا... عاديًا».

ثم أضاف «أندروبوف»:

ـ «حتى فى مواقف الخطر فإن التصرف طبيعيًا وعاديًا هو خير سبيل لإخفاء نواياك. ثم إنه كفيل بأن يرد عنك الشعور بالعصبية وهى أقرب الطرق إلى الخطأ.

وحتى حين يبدأ الآخرون فى التصرف بطريقة غير طبيعية، فإن تصرفك الطبيعى سوف يضبط إيقاع العلاقات بينك وبين الآخرين»!

وبدا لى ما قاله «أندروبوف» معقولاً. وبدا لى ذكيًا لكنه كان مفاجئًا.

ورحت أتأمل ما قاله لحظة شربت فيها بقية فنجان قهوتى مرة واحدة ثم قلت له:

ـ «وماذا نقول للرئيسين؟!».

قال:

ـ «نفس ما قلناه هنا. أنت تقوله للرئيس ناصر وأنا أقوله للرفيق بريجنيف»!

قلت له مترددًا:

ـ «هل أستطيع أن أرجوك أن تتولى أنت القول للرئيسين معا؟ أريد أن يسمع الرئيس ناصر منك مباشرة؟».

وسألنى باستغراب عن السبب.

وقلت:

ـ «لدىّ مشكلة مع الرئيس ناصر أحيانا. هو يتصور أن تركيبتى الصحفية تغلب هواى. فأنا دائما من «أهل النشر» ولست من «أهل السر»، وخشيتى أن يخطر بباله أن هواى غلب مسئوليتى فى أمر على هذه الدرجة من الخطورة»!

ثم نظرت فى ساعتى وقلت له:

ـ «مازال أمامنا وقت قبل العشاء. وأغلب الظن أن كلا من الرئيسين الآن فى غرفته يجهز نفسه للعشاء، وأنا أريد أن نذهب إليهما عندما يكونان معًا استعدادًا لدخول قاعة العشاء لكى يسمعا منك فى نفس الوقت ما اتفقنا عليه. هل لديك مانع أن نطلب فنجان قهوة آخر ثم نواصل كلامنا حتى يحين موعد العشاء؟ لدىّ كثير أسألك فيه، وأوله سؤال عنك شخصيًا؟».

ولم يمانع.. وربما كانت رغبتى فى سؤال عنه شخصيًا لمست نقطة ما فيه.

وسألته على الفور:

- «لماذا أنت مختلف عن غيرك؟».

قال:

- «لا تصدق كل ما تسمعه».

قلت:

- «إننى أصدق فقط ما دار بيننا فى هذه الجلسة... أنت على وجه القطع تفكر بطريقة تختلف عن غيرك من الزعماء السوفييت. إننى تعاملت مع «خروشوف» عن قرب، وتعاملت مع «بريجنيف» و«كوسيجين» و«بادجورنى» و«ميكويان» و«سوسلوف». أنت على نحو أو آخر أكثر تحررًا. أكثر اتصافًا بما هو «عادى» و«طبيعى»... أليست هذه ألفاظك فى حديثنا عن حفظ «السر» وما الذى نفعله إذا تسرب للآخرين؟».

قال «أندروبوف»:

- «لا أظنه اختلافا فى الفكر، وربما كان اختلافا فى التجربة التاريخية».

ثم استطرد:

- «لاحظ أن عددًا من الرفاق عاصروا بداية الثورة السوفييتية وما تلاها.

كانت ظروفًا صعبة.. ظروف العمل السرى قبل الثورة أولاً. ثم الحصار الذى فرض عليها بعد قيامها بما فى ذلك محاولات الغزو من الخارج والداخل.

فى وقت من الأوقات - فى الثلاثينيات - كان العالم كله ضدنا. الغرب الديمقراطى - كما يسمونه - والغرب الفاشيستى - النازى. «روزفلت» و«تشرشل» من ناحية، و«هتلر» و«موسولينى» من ناحية أخرى - كانوا على اختلاف ما بينهم يرون أن عدوهم الأول هو الدولة السوفييتية.

حتى حينما كنا ضمن الحلفاء فى المعركة ضد «هتلر»، كان «روزفلت»

و«تشرشل» يريدان أن تنتهى الحرب ليس فقط بنهاية «هتلر» ولكن أيضا بنهاية الدولة السوفييتية.

كان علينا بعد الحرب أن ندافع عن أنفسنا وعن المعسكر الاشتراكى كله. وقد أرغمنا على الدخول فى سباق للتسلح كان فى الواقع - من جانبنا - حربًا من أجل البقاء.

وأنت تعرف الحرب الباردة وما جرى فيها. وأنت تعرف أيضًا حجم حملات الدعاية السوداء التى وجهت إلى الاتحاد السوفييتى.

إننا - أكثر من ذلك - كان علينا ليس فقط حماية أمن الكتلة الشرقية بما فيها الصين - بعض الوقت - وإنما كان علينا أيضًا دفع التنمية الاشتراكية فى كل هذه البلدان.

فوق ذلك فقد تحملنا مسئوليات كبيرة فى المستعمرات السابقة لمساعدة حركة التحرر الوطنى فى الحرية والتنمية المستقلة.

نتيجة ذلك كله أن جزءًا كبيرًا من مواردنا استنزف، وهو أمر أثر على المواطن السوفييتى نفسه. هناك كلام كثير فى الاتحاد السوفييتى حول حجم مساعداتنا لكم بالذات - مثلا - فى بناء السد العالى.

وإذن فنحن أمام حالة حصار. ونحن أمام حالة استنزاف.

بالطبع هذا كله أثر على كثير من رفاقنا.

الأمر الآن يختلف. القوة السوفييتية لها الحق أن تشعر بالثقة فى نفسها».

وسكت ونظر إلىّ يحاول - فيما بدا لى - استطلاع أثر ما قاله علىّ. وقلت:

- «ولكن هل يمكن أن يكون تدخلكم العسكرى لقمع ثورة المجر تعبيرًا عن هذه الثقة بالنفس؟ إننى أعرف أنك كنت فى المجر فى ذلك الوقت من سنة ١٩٥٦. كنت سفيرًا فى المجر. وقيل لى إنك دعوت وزير الدفاع المجرى ليلة التدخل إلى عشاء فى بيتك ثم تم القبض عليه هناك فى بيتك، وكان القصد من ذلك شل أية فاعلية للقيادة المجرية حتى لا تكون هناك مقاومة للتدخل السوفييتى؟».

قال:

ـ «لا أظن أن ما قالوه لك دقيق. المجر قصة أخرى. كان هناك تحريض أمريكى لبعض الناس فى المجر ووعود بالتدخل معهم إذا قاموا ضدنا. كانت إذاعات ما يسمونه «أوروبا الحرة» من ميونيخ ـ وهى إذاعات تمولها المخابرات الأمريكية ـ تحرض المجريين علنا على الثورة، ولم يكن فى وسعنا ترك المتآمرين يحققون أهدافهم».

ثم توقف «أندروبوف» فجأة فى مجرى حديثه، مقاطعًا نفسه فى الواقع وقائلاً:

ـ «ومع ذلك فأنتم فى مصر «آخر ناس» يحق لهم أن يسألونا عما حدث فى المجر.

لقد أردنا حسم الموقف فى المجر بسرعة لكى نكون على استعداد للوقوف معكم فى السويس. إن أعداءكم كانوا يريدون انتهاز فرصة انشغالنا فى المجر لكى ينفردوا بكم هناك فى السويس... ألم يكن ذلك ما حدث وقتها؟ هل كان صوابا أن نترك جبهتين مفتوحتين فى نفس الوقت؟.. جبهة مفتوحة بالتحريض فى المجر وجبهة مفتوحة بالعدوان فى السويس؟.. جبهة «يهددون» منها الكتلة الاشتراكية فى أوروبا وجبهة «يضربون» منها حركة التحرر الوطنى فى العالم العربى؟»!

وكان الوقت قد أزف لموعد العشاء. وقال «أندروبوف»:

ـ «دعنا نذهب إلى الرجلين الكبيرين ونقول لهما ما استقر رأينا عليه».

قلت له ضاحكا: «إنك «أنت» الذى ستقول لهما ولسنا «نحن»».

ولاحت نصف ابتسامته مرة أخرى وقال: «سوف أجرب»!

وتوجهنا نحو قاعة العشاء. وحين وصلنا إلى «الرجلين الكبيرين» وجدت «أندروبوف» يبدأ فيتحدث مع «بريجنيف» باللغة الروسية. وسألنى الرئيس «جمال عبد الناصر» بالعربية: «ما الذى توصلتما إليه»؟.

وقلت: «إن السيد «أندروبوف» سوف يشرح لك».

وبدت الدهشة على الرئيس «عبد الناصر» وسألنى بالعربية أيضًا:

ـ «ها هو أندروبوف يحكى لبريجنيف فلماذا لا تقل لى أنت ؟».

وقلت للرئيس «إننى أفضل أن يسمع هو الآخر من أندروبوف».

وقال الرئيس عبد الناصر : «غريبة»!

وأنقذنى «أندروبوف» من مأزق أحسست فيه بالحرج أمام «جمال عبد الناصر» وراح يشرح له بدوره وباللغة الإنجليزية مباشرة.

وراح «بريجنيف» مع «عبد الناصر» يديران فيما بينهما ما سمعاه ثم التفت إلىّ الرئيس«عبد الناصر» وقال:

ـ «ولكن لماذا لم تقل لى أنت منذ البداية ؟».

وقلت:

ـ «لسببين: أولهما ·أن المنطق كله فيما وصلنا إليه كان لـ «أندروبوف» وقد اقتنعت به، وتصورت أنه يستطيع أن يشرحه لك أحسن منى.

والثانى: أننى ـ بصراحة ـ خشيت أن يخطر ببالك أنها تركيبتى الصحفية غلبتنى».

وابتسم الرئيس «عبد الناصر». وكان تعليقه: «إن حساسيتى الزائدة هى نفسها تعبير عن عقدة الذنب الصحفى»!

وقبل أن نفترق يومها سألت «أندروبوف» بعد العشاء عما إذا كانت تطورات الأمور المحتملة تقتضى اتصالاً تاليًا بيننا؟... وكان رده:

ـ « لا تقلق.. دع المسألة كلها لنا وسوف نتصرف. وفى كل الأحوال تستطيع الاتصال بسفيرنا فى القاهرة إذا خطر لك شىء تريد أن نتشاور فيه»!

□

وعدت إلى القاهرة، ثم بدأت التطورات تثير مع كل يوم دهشتى أكثر!

نزلت بطاريات الصواريخ السوفييتية من البواخر فى الإسكندرية ووضعت صواريخها على حاملات ضخمة، ثم بدأت القوافل تقطع الإسكندرية وعلى طريق الكورنيش من رأس التين إلى المنتزه ثم إلى أبى قير حيث واحدة من قواعد الصواريخ الرئيسية.

والغريب أن حاملات الصواريخ كانت تحمل أيضا بعض العسكريين السوفييت. وصحيح أنهم كانوا يرتدون ملابس مدنية ولكن أى عين لم يكن فى مقدورها أن تخطئ تبين هويتهم!

ثم جاء يوم ١٨ أبريل ١٩٧٠، ودخل المجال الجوى المصرى تشكيل طائرات إسرائيلية، وإذا تشكيل مقاتلات سوفييتية - من المكلفة بالدفاع عن العمق - تخرج لمطاردتها، لكنها لا تشتبك معها عمليًا بل تكتفى بالمطاردة. وأغرب من ذلك فإن الطيارين فى التشكيل السوفييتى كانوا ينسقون مطاردتهم على الراديو المفتوح وباللغة الروسية وبطريقة لا تدع مجالاً للطائرات الإسرائيلية المغيرة إلا أن تعرف على وجه اليقين أنها على وشك مواجهة طيارين سوفييت.

واستدارت الطائرات الإسرائيلية بسرعة وعادت من حيث أتت. ومن يومها توقفت غارات العمق داخل مصر.

وكان الرئيس «جمال عبد الناصر» هو الذى اتصل بى تليفونيا يروى لى تفاصيل هذا المشهد الغريب بين الطائرات الإسرائيلية والطائرات السوفييتية. وسألنى بدهشة:

- «هل قال لك «أندروبوف» شيئًا من هذا عندما بحثتما موضوع إخفاء «السر» فى موسكو؟».

وأجبت بالنفى وقلت:

- «إنه طلب إلىّ أن أترك له علاج الموضوع كله. وقد عالجه فعلاً على طريقته».

ثم أضفت:

- «إننا فى الواقع نشهد لغة جديدة فى الحوار الصامت بالرموز بين حقائق القوة فى العلاقات بين القوتين الأعظم.

كل منهما على استعداد لأخذ مخاطرات محسوبة. لكن كلا منهما حريصة على ألاّ تترك القوة الأخرى فى جهل بنواياها حتى لا يحدث صدام فى الظلام».

وكان تعليق جمال عبد الناصر «إنه الآن يكاد يقطع بأن السوفييت قاموا مبكرًا بإخطار الأمريكيين بقرارهم إرسال دعم عسكرى سوفييتى لمصر فى مواجهة غارات العمق».

ثم أردف: «إن ذلك فى الواقع لا يؤثر فى خططنا. لقد كان بين مطالبى فى الإلحاح على الدعم السوفييتى فى هذه المرحلة ما هو أبعد من مجرد تغطية فجوة الوقت اللازمة لتدريب أطقم الصواريخ المصرية.

إن التواجد السوفييتى العسكرى رفع درجة المواجهة فى أزمة الشرق الأوسط من النطاق الإقليمى: العرب وإسرائيل، إلى احتمال مواجهة بين القوتين الأعظم، وهذا سوف يحدد حرية حركة الأمريكيين فى مساندة إسرائيل لأنهم سوف يعرفون أن الاتحاد السوفييتى مستعد للتصعيد».

ورحت أفكر طويلاً فى أسلوب إدارة الصراعات الحديثة. ورحت أتأمل إلى أى مدى تغير التفكير السوفييتى على مستوى القيادة. ثم سرحت خواطرى فى «أندروبوف»:

لا بد أن كل ما شهدناه أخيرًا من فكره ومن صنعه.. أى رجل هو ذلك الذى قد نستيقظ ذات يوم فإذا هو على رأس القيادة السوفييتية يقرر ويحكم فى الكرملين.

□

وما هى إلا شهور قليلة ثم وضعتنى الظروف وجهًا لوجه أمام «يورى أندروبوف»... مرة أخرى.

كان ذلك فى يوليو - نفس العام - ١٩٧٠.

وكان «جمال عبد الناصر» فى آخر زيارة له إلى الاتحاد السوفييتى، وكنت معه - هذه المرة - عضوًا فى الوفد الرسمى للمفاوضات بوصفى وزيرًا للإرشاد القومى. كان قد عهد إلىّ الوزارة فى ذلك الوقت تمهيدًا لمرحلة من العمل السياسى والعسكرى اقتضت - فى رأيه - أن يكون المسئول عن الإعلام شخصًا شديد القرب منه بحيث يستطيع أن يفهمه بسرعة تتلاءم مع سرعة إيقاع الحوادث ودرجة خطورتها.

وكانت تلك أول مرة أذهب فيها إلى موسكو عضوًا فى الوزارة، وأقبل بعض الزعماء السوفييت يهنئوننى، ومن بينهم «أندروبوف».

ثم وقعت مفاجأة فى جلسة المحادثات الأولى من تلك الزيارة!

كان «جمال عبد الناصر» مازال يطلب مزيدًا من الخبراء السوفييت لتكثيف التدريب قبل المعركة، وكان فى ذهنه - وقالها صراحة للزعماء السوفييت - إنه سوف يقبل «مبادرة روجرز» التى نصت لأول مرة على «الانسحاب»، وكان يعرف أن إسرائيل لن تقبلها. وفى كل الأحوال فقد كان يدرك أن المعركة المسلحة قادمة على الطريق. وأنه صدّق قبل مغادرته القاهرة على خطة باسم «جرانيت رقم (١)»، وهى خطة عبور قناة السويس على خمسة محاور، وهى نفس الخطة التى نفذت بعد ذلك بالضبط - على الأقل فى مراحلها الأولى - تحت اسم «بدر» فى حرب أكتوبر.

ورد بريجنيف على طلب جمال عبد الناصر بقوله «إنه لا يحبذ زيادة فى التواجد السوفييتى فى مصر سواء بالنسبة لقوات الدعم أو بالنسبة للخبراء الملحقين بتشكيلات القوات المسلحة المصرية».

وكان رأيه فوق ذلك «أن زيادة التواجد السوفييتى يمكن أن تؤخذ على أنها عنصر ضغط على مصر، ثم إن زيادة الخبراء قد تفسر على أنها تحكم فى مواقع داخلية مصرية. وهذا كله قد يؤدى إلى امتعاض شعبى فى مصر».

ورد جمال عبد الناصر بأنه «يعرف شعبه ويعرف أن شاغله الأكبر هو المعركة،

ثم إن شعبه يعرفه ويعرف أنه لن يقبل تدخلا فى الشئون الداخلية المصرية أو مظنة ضغط».

ثم أضاف لدهشة بريجينف «أنه إذا أحس لحظة أن التواجد السوفييتى يشكل عنصر ضغط على مصر أو يثير حساسية لدى جيشها أو شعبها؛ فإنه سوف يأمر بوضع كل الأفراد السوفييت فى مصر على ظهر باخرة واحدة تحملهم إلى أوديسا مع كل التقدير والشكر لما قاموا به».

ثم تساءل جمال عبد الناصر:

- «إننى لا أعرف من أين جئتم بهذا الذى تقولونه؟».

ورد بريجنيف على الفور:

- «إن السيد هيكل يعرف ذلك مباشرة. لأن وزارته قامت باستقصاء للرأى العام فى مدينة المحلة الكبرى وظهرت نتيجته وكانت معارضة لزيادة التواجد السوفييتى».

وتحولت كل الأنظار إلىّ.

تطلع الرئيس جمال عبد الناصر نحوى. ومعه استدارت رءوس بقية أعضاء الوفد المصرى - السيد «على صبرى» عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى والسيد «محمود رياض» وزير الخارجية والفريق «محمد فوزى» وزير الحربية.

فاجأنى الموقف على غير انتظار أو توقع. وسألنى الرئيس عبد الناصر بالعربية:

- «هل ذلك صحيح؟».

وقلت على الفور:

- «على حد علمى ليس صحيحًا».

ولم يسكت بريجنيف وإنما قال:

- «أنا واثق من صدق المعلومات التى تحدثت بناء عليها».

وقال الرئيس عبد الناصر بالعربية موجهًا حديثه إلىّ:

- «حاول أن تتحقق من أصل الحكاية بأسرع ما يمكن»!

والتفت ناحية «أندروبوف»، فلم يكن لدىّ شك على الإطلاق فى أن جهازه - على نحو أو آخر - هو مصدر هذه «الحكاية»، ولكن «أندروبوف» لم يكن ينظر إلىّ. كان مكبًا على ورق أمامه يرسم عليه خطوطًا وأشكالاً وكأنه بعيد عما يجرى حوله.

واتصلت تليفونيًا من موسكو بالقاهرة أسأل مكتبى فى وزارة الإرشاد القومى عن «الحكاية» وعما إذا كان لها أصل.

وبعد الظهر عاد الدكتور «عبد الملك عودة» رئيس هيئة مكتبى - فى ذلك الوقت - يتصل بى ليروى لى ما تصور - وتصورت معه بعد أن استمعت إلى تقريره المبدئى - أنه «أصل الحكاية».

كان «أصل الحكاية أننى فى بداية قيامى بمسئولية وزارة الإرشاد القومى حاولت إجراء دراسة معمقة عن أجهزتها المختلفة، وبينها هيئة الاستعلامات. وشكلت لجنة - لدراسة عمل هذه الهيئة - تضم كلا من الدكتور «أسامة الباز» والدكتور «تحسين بشير» والأستاذ «سميح صادق». ثم لاحظت أن الهيئة كانت تقدم للمسئولين فى الدولة يوميًا تقريرًا عن اتجاهات الرأى العام، وطلبت بحثًا حول الأسلوب الذى تتبعه مكاتب الهيئة فى قياس الرأى العام لكى نستطيع أن نحكم على مدى صدق تقاريرها فى التعبير فعلاً عما تدعى أنها تعبر عنه.

وذهب «تحسين بشير» و«سميح صادق» إلى عدد من مكاتب الهيئة فى الأقاليم ومن بينها المحلة الكبرى. والتقيا برئيس مكتب الاستعلامات هناك وبحثا معه طريقة استقصائه لاتجاهات الرأى العام.

وحاول «تحسين بشير» أن يسأل رئيس مكتب الاستعلامات تفصيلا عن الأسئلة التى يطرحونها على الناس لاستكشاف آرائهم ومن ثم اتجاهاتهم.

سأله مثلا: كيف تقيسون موقف الناس من قضايا التموين؟

سأله مثلا: هل توجهون إليهم أسئلة سياسية مباشرة؟

سأله مثلا: ما هى الموضوعات التى تختارونها للسؤال وعلى أى أساس تختارون أسئلتكم؟ كيف تسألونهم مثلا عن رأيهم فى سير الحرب؟ عن رأيهم فى سياسة الولايات المتحدة؟ عن رأيهم فى السوفييت ودورهم فى مساعدة مصر بالتواجد المباشر على أرضها (موضوع كان مطروحًا بشدة فى الإذاعات والأخبار الخارجية مع تسرب ونشر أنباء الدعم السوفييتى العسكرى لمصر، وقد أثار ضجة فى هذا الوقت).

أكثر من ذلك لم يكن هناك شىء. وطلبت تقريرًا مفصلاً بالوقائع يكون جاهزًا حين عودتى للقاهرة.

ثم ذهبت إلى مقر إقامة الرئيس «جمال عبد الناصر» أحيطه علمًا بما سمعت، وكان تعليقه:

ـ «إذن فإن الحكاية لها أصل ولكن الغريب أن تصل واقعة من هذا النوع مشوهة، ثم تكون فى علم القيادة السوفييتية على أعلى مستوى فى ظرف مدة لا تتجاوز أسبوعين»!

وقلت للرئيس:

ـ «ذلك «شغل» صديقنا أندروبوف ليس غيره. وسوف أتحدث إليه فى الموضوع».

وقال الرئيس:

ـ «لا بد أيضًا أن تثيره مع بريجنيف فى أول اجتماع للوفدين».

وطلبت موعدًا عاجلاً مع «يورى أندروبوف ».

□

وتحدد الموعد وأبلغت به.. في اليوم التالي مباشرة ٢ يوليو ـ لكن الذي استلفت نظري أن موعدي مع «أندروبوف»سوف يكون في مبنى اللجنة المركزية. كنت أتمنى فيما بيني وبين نفسي ـ وربما هي التركيبة الصحفية ـ أن يكون الموعد في مبنى الـ «كي. جي. بي». بشارع «درزجينسكي». على الأقل أكون قد دخلت إلى هذا الحصن الحصين للعمل السري السوفييتي وأدرت فيه ولو نظرة سريعة. لكن ما تمنيته لم يحدث، وإنما جاء موعدي في مكان عرفته من قبل ودخلته مرات للقاء «خروشوف» و«بريجنيف»!

وبدأت كلامي مع «أندروبوف» من هذه النقطة مباشرة. قلت له بدون مقدمات «إنني توقعت أن يكون موعدي معه في مكتبه الرسمي».

وقال وكأنه لم يدرك مغزى ملاحظتي «إنني الآن في مكتبي الرسمي». وقلت «إنني أقصد مكتبه الرسمي الحقيقي كمسئول عن أمن الدولة... الـ «كي. جي. بي».»

وقال «أندروبوف»:

ـ «إن عملي في أمن الدولة مجرد مهمة من المكتب السياسي. إن كل أعضاء المكتب السياسي ـ حتى الأعضاء المناوبين (وكان من بينهم في ذلك الوقت) ـ مكلفون بمهام محددة. هناك من يشرف على الزراعة، وهناك من يشرف على الصناعة، وهناك من يشرف على الإنتاج الحربي... وهكذا. وإذن فإن عملي الأصلي هنا في المكتب السياسي، ولكن ضرورات تقسيم مسئوليات الإشراف على مختلف القطاعات هي التي جعلتني بالمصادفات مسئولا عن أمن الدولة هذه مهمة سياسية أؤديها كعضو مناوب في المكتب السياسي».

استطرد «أندروبوف»:

ـ «ومع ذلك فلو أن موعدنا كان في «المبنى الآخر» (اكتفى بهذا التعبير المجرد دون تحديد اسم) لما وجدت فيه ما تظن أنك واجده. لا تصدق صحف أمريكا وأفلام السينما والتلفزيون فيما يقولونه عنا. لن تجد بيتا «للأخطبوط» في موسكو يمد أذرعته السوداء إلى كل مكان في العالم ويفترس ويبتلع»!

وسكت، وتكلمت نصف ابتسامته الشهيرة.

ورأيت أن أدخل فى الموضوع الذى جئت من أجله، فقلت له «إنه بلا شك تابع ما حدث فى اجتماع الوفدين المصرى والسوفييتى أمس، وأننى تحريت من مكتبى فى القاهرة بسرعة عن «أصل الحكاية»، وأنه بالتأكيد عرف بتفاصيل ما قاله لى مكتبى بعد ذلك على التليفون عن «أصل الحكاية» (لم يعلق «أندروبوف» بكلمة من هذا الإيحاء الواضح بأنهم استمعوا إلى تليفوناتى مع القاهرة)، وأننى رأيت أن أناقش الموضوع معه مباشرة، وأن تلك مبادرة منى وليست بتعليمات من الرئيس ودافعى إليها هو الحرص على العلاقات بين البلدين».

كان «أندروبوف» يسمعنى باهتمام، ولم يكن فى المكتب الكبير أحد سوانا، ولم يقاطعنا أحد، ولم يدق جرس تليفون فى الغرفة منذ بدأنا حتى انتهينا.

وبدأت أشرح ما يعنينى فى الموضوع. قلت له «إنه لا شك عندى فى أن جهازه كان مصدر المعلومات التى وصلت إلى الرئيس بريجنيف....»

وقاطعنى قائلاً: «ليس بالضرورة»!

وقلت «إننى أرجوه أن يمكننى من شرح وجهة نظرى. إننى فيما قلت لا أقصد الشكوى أو العتاب، فإن جهازه له كل الحق فى أن يحصل على ما يشاء من معلومات، وله الحق فى تبليغها إلى من يشاء من السلطات المختصة التى هو مسئول أمامها، وله الحق فى الطريقة وفى التوقيت الذى ينقل به معلوماته. ذلك كله لا أناقشه وليس لى حق مناقشته وأنا أعرف حدودى وألتزمها، لكن ما يشغل بالى هو شىء آخر».

واستطردت «إن العلاقات بين البلدين فى مرحلة بالغة الأهمية والخطورة. والمنطقة كلها أيضًا مقبلة على تطورات فى منتهى الأهمية والخطورة. ومن أول أهداف إسرائيل ــ والقوى المؤيدة لها ــ أن تخلق أسبابًا لسوء الفهم بين الاتحاد السوفييتى ومصر خصوصًا فى هذه المرحلة وهذا التوقيت، وهو شىء يجب علينا جميعًا تفويت فرصته على الذين يحاولون».

ثم قلت إن «أصل الحكاية» فى موضوع المحلة الكبرى نقل بطريقة مشوهة. ورفع إلى أعلى مستويات القيادة السوفييتية على نحو يمكن أن يخلق أسبابًا لسوء الفهم لا داعى لها. والواقع أننى لا أتصور أن حديثًا عابرًا فى المحلة الكبرى ينقل فى أسبوعين ثم يثار على مستوى بريجنيف وعبد الناصر بالشكل المثير الذى حدث أمس. وما يعنينى الآن معه ليس الأمس ولكنه الغد، وهذه هى المشكلة».

كان «أندروبوف» يسمعنى ساكتًا. وفرغت مما لدىّ مؤقتًا أنتظر رده، وهز رأسه وراح يهزها ساكتًا لبضع ثوان، ثم بدأ يرد. قال:

ـ «إننى أريد أن أكلمكم بصراحة قد لا تسمعونها من غيرى.

إنك تقول لى بناء على معلومات لديك إن هناك تشويهًا حدث فى نقل حكاية المحلة الكبرى. وهناك آخرون غيرك يقولون إن ما «نقل» إلى الرفيق بريجنيف صحيح.

وربما كان ما تقولونه صحيحًا وربما كان ما قالوه هنا هو الصحيح. كل هذه تفاصيل.

وبصرف النظر عن هذه التفاصيل كلها فإننى أعرف من معلومات وثيقة أن زيادة التواجد السوفييتى فى مصر تثير حساسيات حتى لدى ضباط الجيش المصرى. التفاصيل قد تكون موضع خلاف، ولكن هناك وراء التفاصيل حقيقة لا يصح تجاهلها».

وتوقف ثم دقق النظر فىّ وسألنى:

ـ «هل تنكر أن هناك حساسية بين ضباط الجيش المصرى وبين الخبراء السوفييت؟».

قلت:

ـ «إنك تحدثت معى بصراحة لا أخفى أنها جديدة علىّ من واقع تجربة طويلة مع غيرك من الزعماء السوفييت. وأقل ما أستطيع تكريمًا لصراحتك أن أتحدث معك بمثلها.

نعم.. هناك حساسية، ولكن علينا أن ندرك أسبابها لكى نستطيع تقدير الموقف على نحو سليم. الحساسية ليست بالضبط ضد الخبراء السوفييت. منشأ الحساسية الموجودة فعلاً أن القوات المسلحة المصرية تشعر على مستوى التشكيلات المقاتلة أنها ظلمت فى حرب سنة ١٩٦٧، وأنه كان فى مقدورها أن تقاتل على نحو أفضل لولا أن قيادتها العامة لم تتصرف على المستوى الذى كان يجب أن تتصرف عليه. كثيرون من ضباط الجيش المصرى يشعرون أن تعليمهم وتدريبهم لم يكن هو المسئول. ولكن المسئولية كانت على الأوامر الصادرة إليهم من قيادة عجزت عن إدارة المعركة. ولو أن الخبراء الذين جاءوا إلى الجيش المصرى جاءوا من المريخ لقال ضباط الجيش المصرى ــ ولهم العذر ــ «لم يكن التدريب هو السبب». هناك حساسية إذن، لكنها ليست ضد الخبراء السوفييت باعتبارهم خبراء سوفييت.

إن الرئيس جمال عبد الناصر بالطبع يدرك هذه النقطة. وهو يضغط عليكم، وعلى الجيش المصرى أيضًا، لسبب واحد هو أنه يرى أن حجم المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل قد أدى إلى نقلة موضوعية كبيرة فى قوة إسرائيل. ثم إنه يرى أن المعركة القادمة لا تحتمل غير نتيجة واحدة هى إزالة آثار العدوان، ولهذا فهو بدوره يعتبر أية حساسيات هنا أو هناك من باب التفاصيل. وعلى أى حال فإن معركة ناجحة نقوم بها سوف تعفى الجميع من كل أسباب للحرج»!

وسكت أنتظر رد «أندروبوف». ولم يطل انتظارى (وبأثر رجعى الآن فإنه يبدو لى وكأنه يقرأ الغيب المجهول) قال:

ــ «إن المعركة مرهونة بظروف لا تستطيع أنت وأنا أن نقدرها. وقد تنشأ ظروف تفرض تأجيلها. وإذا حدث ذلك ــ ونحن نتمنى معكم ألا يحدث ــ فإن الوجود العسكرى السوفييتى فى مصر يمكن أن يصبح عبئًا ثقيلاً لا تحتمله طبيعة الأحوال.

إننى لا أخفى عليك أن القلق يساورنى بشأن يوم يحدث فيه خلاف بيننا بسبب

الوجود السوفييتى فى مصر. ساعتها سوف تنسى «الأسباب» التى دعتنا إلى تكثيفه وتبقى أمامنا فقط«كثافة» وجوده.

لو دعوت أخًا لك إلى بيتك ثم طالت إقامته فيه لضايق أهل البيت حتى وإن ظللت ترحب به كل يوم».

ثم استطرد:

ـ «هناك أيضًا وجه آخر للقضية وهو الوجه الدولى. هناك كثيرون لا يحبون وجودنا عندكم. سوف يحاولون خلق أسباب لسوء الفهم، أو استغلال دواع لسوء الفهم، فإذا نفذت ذخيرتهم فإننى أخشى أن يجىء يوم يتحول فيه وجودنا إلى صفقة. خروجنا فى مقابل ثمن؟»!

قلت له:

ـ « أنت تعرف أن جمال عبد الناصر ليس رجل صفقات من هذا النوع. ومع ذلك فدعنى أسألك: لنفرض أن يوما جاء ـ كما تقول ـ ووجدنا أمامنا عرضًا بخروجكم وخروج الإسرائيليين فى نفس الوقت. أنتم لا تريدون البقاء، فهل يضايقكم أن يخرج الإسرائيليون فى نفس الوقت؟....».

وقاطعنى بسرعة:

ـ «ذلك وضع مختلف. مثل ذلك إذا حدث لا بد أن يكون بقرارنا معًا. إنك هنا تتحدث عن دولة عظمى لها هيبتها، ولا يحق لأحد ـ ولا حتى أقرب أصدقائها ـ أن يبيع فيها ويشترى بهذه البساطة. هيبة الاتحاد السوفييتى فى مثل هذه الحالة أساسية. وضروراتها تفرض علينا أن نكون شركاء معكم فى تقرير مثل هذا الافتراض الذى طرحته. ليس هذا فقط، بل إن اشتراكنا فى القرار يجب أن يكون معروفًا للآخرين حتى لا يخطئ أحد فى حساباته. ومعنى اشتراكنا معكم فى القرار أنه سيكون لدينا رأى وصوت فى الموضوع، وهذا قد لا يعجبكم، وقد يكون هناك فى مصر ـ أو خارجها ـ من يرون فيه قيدًا على حرية تصرفكم.

إننا لا نريدكم أن تتعرضوا للضرورات التى قد تفرضها هيبة دولة عظمى فى صراع عالمى شامل. هيبة دولة عظمى هى البديل المعنوى لخوض الحرب فعلاً، وهذا ما لا يحتمله أحد» !

ورحنا نخوض فى أحوال العالم، والواقع فيه والمحتمل، وطال حديثنا ساعتين وعشر دقائق !

. . . .

. . . .

(من مفارقات القدر أن الحالة التى تحسب لها «أندروبوف» سنة ١٩٧٠ طرأت فعلاً سنة ١٩٧٢ . والكارثة أنه لم تكن هناك صفقة ولم يكن هناك ثمن. وانتهى الوجود السوفييتى العسكرى فى مصر ولم يكن ذلك مربوطًا بنهاية الاحتلال العسكرى الإسرائيلى فى سيناء. وصعق كثيرون. أولهم «هنرى كيسنجر» مستشار الرئيس الأمريكى «ريتشاد نيكسون» لشئون الأمن القومى وقتها !).

. . . .

. . . .

وخرجت يومها من مبنى اللجنة المركزية وهذا الرجل «يورى فلاديميروفتش أندروبوف» يشغل فكرى، وظل أمره يشدنى إلى التفكير فيه مرات كثيرة حتى أصبح «رجل المستقبل» فى الاتحاد السوفييتى هو «رجل الساعة» فى الكرملين بعد وفاة «بريجنيف».

كان نوعا يختلف عن غيره ممن عرفنا وتعاملنا معهم على القمة فى الكرملين .

كان مقدمة أولى لجيل جديد من القادة السوفييت .الجيل الرابع.

فى البداية كان هناك جيل المثقفين الذين قادوا الثورة البلشفية : «لينين» و«تروتسكى» على سبيل المثال .

تلاهم جيل الفلاحين والعمال: «ستالين» و«خروشوف».

ثم جاء جيل الفنيين من أبناء مدارس الحزب: المهندسون الثلاثة «بريجنيف» و«كوسيجين» و«بادجورني».

ثم كان الدورعلى جيل رابع لكنه بدا لسنوات أن هذا الجيل قد لا يجيء. الأجيال فى الاتحاد السوفييتى لا تتحرك بسهولة.شىء ما حدث لدولة الثورة الشيوعية الاولى فى العالم .أصيبت حيوية السلطة فيها بنوع من تصلب الشرايين المبكر فى شبابها. جعلت الدم لا يتجدد كثيرًا عند الرأس، فى الدماغ وداخله .

باسم مطلب سيطرة الحرب ، سيطرت لجنته المركزية، وباسم سيطرة اللجنة المركزية، سيطر مكتبها السياسى . وباسم سيطرة المكتب السياسى سيطر رجل واحد أو مجموعة قليلة من الرجال على مقدرات الأمور فى الكرملين.

وتحت شعار الديمقراطية المركزية ـ ديمقراطية الحرب ـ استطاعت قيادته أن تملك نواصى الأمور ، فقد كانت هى التى تختار مرشحى الحزب ابتداء من اللجان العامة فى أقاصى سيبيريا إلى اللجنة المركزية فى عاصمة السلطة والحكم .

هكذا ساد نظام يتسم بجمود يسمح بظهور جماعات رفض تسهل إزاحتها على هامش النظام ، وقد يسمح أيضًا بظهور رأى عام داخل النظام لكنه رأى عام يحس تأثيره دون أن تكون له القدرة على فرض إرادته... شىء يشبه، القلق فى دوائر الحزب والحكم . لكن القرار يبقى فى النهاية على القمة، والقمة تريد التمسك بالقمة. وليس هناك سبيل إلى تغيير إلا بالموت أو المؤامرة.

«لينين» أبعده المرض ثم الموت. «ستالين» أبعده الموت. «خروشوف» أبعدته المؤامرة. « بريجنيف» ظل خمس سنوات على الأقل يموت . وطوال سنوات الموت الخمس ظل على القمة لأن أحدًا لم يكن جاهزًا للمؤامرة . وكذلك لم يكن أحد جاهزًا حتى لفكرة المعاش . نهاية الخدمة!

ويستلفت النظر مثلا أن «بريجنيف» ظل على القمة فى الكرملين طوال فترة

تعاقب فيها أمامه خمسة من الرؤساء الأمريكيين فى البيت الأبيض فى واشنطن: «جونسون» و«نيكسون» و«فورد» و«كارتر» و«ريجان».

يستلفت النظر أيضا أن رجلاً مثل «جروميكو» كان مسئولاً عن السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى فى مواجهة سبعة من الرؤساء الأمريكيين وثلاثة عشر من وزراء الخارجية وأحد عشر من مستشارى الأمن القومى للرئيس!

لكن هذا الذى قد يستلفت النظر سياسيًا، يصبح هو طبيعة البشر إنسانيًا عندما تنعدم وسائل التغيير بالطريق الدستورى - كالانتخابات العامة بين أحزاب متعددة وفى فترات محددة لا دخل فيها لا جتهادات الأفراد. أو عندما تختفى النصوص القاطعة على مدد الرئاسة بحيث لا يستطيع أحد - حتى لو أراد - تجاوزها.

طبيعة البشر إنسانيًا، خصوصًا فى الاتحاد السوفييتى حيث يقوم مجتمع لا يعرف الامتيازات الطبقية.

بدلاً من الامتيازات الطبقية تحل امتيازات سياسية. امتيازات يحصل عليها المنصب نفسه ولكن شاغل المنصب هو الذى يستمتع بها طالما هو فيه.

إن كل واحد من قادة الاتحاد السوفييتى له بيته فى موسكو-أو غيرها - شأنه شأن آخرين من الناس.

لكن «المنصب» له مسكن رسمى. و«المنصب» له استراحة فى الريف لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. و«المنصب» له بيت يطل على شاطئ فى مصيف. و«المنصب» له حق حصص طعام فاخر وله حق مقاعد فى مدارس ممتازة.

بل أحيانا تكون «للمنصب» غابات لصيد الحيوانات البرية وبرك لصيد الأسماك. أتذكر أننى كنت والدكتور «محمود فوزى» ضيفين على بركة لصيد الأسماك مخصصة لـ«بريجنيف»، ونزلنا إلى البركة فى قارب يصحبنا حارس صيد، وإذا سنارة الدكتور «فوزى» تمسك بأكثر من مائة سمكة فى أقل من ساعتين، وقال لى الدكتور «فوزى» وقد استبد به الملل من سهولة الصيد: «دعنا

نعود. هذه بركة سياسية. السمك مكلف بأن يقوم بوظيفة ضابط علاقات عامة»!

ومن الذى يستطيع ـ بالطبيعة البشرية ـ أن يترك هذا كله ويذهب إلى المعاش... يفقد هذا كله، وينزل عليه الظل والظلام ويصبح نسيًا منسيًا فى شهور أو أسابيع بعد أن تتحوّل عنه دائرة الضوء العام؟!

□

هكذا يظل متوسط العمر فى المكتب السياسى ـ القمة فى الاتحاد السوفييتى ـ خمسة وسبعين عامًا. كل شىء ينتظر الموت إذا غابت المؤامرة. وظروف اليوم لا تسمح كثيرًا بمغامرات المؤامرات.

الموت أو المؤامرة. وفى هذه الحالة يحدث التغيير... أو بمعنى أصح نصف التغيير...

هناك شىء لا يتغير وهو ضرورات الأمن القومى فى عالم تسوده علاقات صراعات بين اثنتين من القوى الأعظم تسيطران فيه. وهكذا ينمو دور المؤسسة العسكرية السوفييتية وينمو باستمرار. وهكذا أيضًا يظهر فى الاتحاد السوفييتى ـ ولضرورات الأمن والصراع على مستوى العالم ـ تحالف عسكرى صناعى كذلك التحالف المسيطر فى الولايات المتحدة الذى حذر منه «أيزنهاور» فى خطاب الوداع المشهور الذى كان آخر كلماته قبل أن يغادر مقعد الرئاسة سنة ١٩٦٠.

ونمو هذا الدور لا يمكن حصره ـ بمنطق الأشياء ـ فى الأمن القومى والصراع العالمى، وإنما هو يمد أثره دون شك إلى مشاكل الحكم والسلطة فى الداخل أيضًا.

ولقد سمعت بنفسى «خروشوف» وهو يروى كيف أن أعضاء المكتب السياسى ـ بعد وفاة «ستالين» ـ حاكموا زميلهم «ليفرنتى بريا» وزير الداخلية الرهيب بعد غياب سيده الحديدى. حاكموه فيما بينهم وحكموا عليه بالإعدام ونادوا على الفور جنرالاً فى الجيش ـ هو الجنرال «موسكالينكو» ـ فدخل إلى قاعة اجتماع المجلس يقبض على «بريا»، وأخذه وتولى تنفيذ حكم الإعدام فيه بنفسه!

وكان الماريشال «جوكوف» حليف «خروشوف» الكبير فى تصفية ما سمى بأعداء الحزب، وقد شملوا معظم قادة العهد الستالينى وبينهم «مولوتوف» و«كاجانوفيتش» و«مالنكوف» وغيرهم.

وقام الماريشال «جريتشكو» بدور مماثل لهذا الدور فى عملية إقصاء «خروشوف».

ثم إن الماريشال «أوستينوف» كان حليف «أندروبوف» ـ فيما بعد ـ حينما تقدم بثبات إلى القمة وأزاح «تشرنينكو» ـ مرشح «بريجنيف» لخلافته ـ وجلس على مقعد سكرتير عام الحزب ورئيس الدولة فى الاتحاد السوفييتى.

هناك شىء آخر يتغير.. مقابل شىء لا يتغير.

الذى يتغير هو سياسة الداخل.. وتلك من طبائع الحكم المطلق.

ذلك أنه إذا كان الأمن القومى ثابتا وغير قابل للتغيير بحكم استمرار الصراع العالمى؛ إذن فإن المجال الوحيد للتغيير ـ بعد المؤامرة أو بعد الموت ـ هو التوجهات الداخلية، ففيها وحدها الميدان الصالح للفرصة المتاحة.

وهكذا جاء «خروشوف» بعد موت «ستالين» ليفضح التجاوزات اللا إنسانية لدكتاتوريته التى استمرت ثلاثين سنة، وكان ذلك من خلال تقريره الشهير إلى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى سنة ١٩٥٦.

ثم جاء «بريجنيف» ومجموعته بعد المؤامرة على «خروشوف» سنة ١٩٦٤ لكى يكشفوا مزالق حكمه الفردى بعد أن جلس بغير منازع على القمة فى الكرملين من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦٤.

ثم جاء «أندروبوف» ليوحى بهدوء أنه يريد أن يعوض سنوات من الجمود سببها الموت البطىء لـ «بريجنيف»!

وكان ذلك كله ـ فى تعبير متواضع ـ مدعاة للاستغراب الشديد. فالحكم فى

الاتحاد السوفييتى ليس لفرد واحد وإنما الحكم لحزب واحد... والحزب هو هو منذ بدأت ثورة أكتوبر الشيوعية. والفكر الشيوعى لا يعرف الفرد وإنما يعرف المجموع، وتجسيد هذا المجموع هو الحزب وليس غيره.... وإذن ماذا؟

إذن هناك خلل بشكل ما فى مكان ما.

وأظن أن الخلل ومكانه معًا فى منطق الحكم المطلق ذاته.

. . . .

. . . .

[وفى بعض بلاد العالم الثالث، ومصر بينها على سبيل المثال، فإن القصة كررت نفسها، وأحيانا كان التكرار شبه كاريكاتورى.

كان «جمال عبد الناصر» يمثل فى ظرف معين ثورة ٢٣ يوليو، وقد ربط الديمقراطية السياسية بالديمقراطية الاجتماعية، وراح يحدث تغييرات بعيدة الأثر فى بنية المجتمع المصرى.

ثم جاء «أنور السادات» وكأنه لا ينتمى إلى النظام الذى عاش فيه وشارك من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٧٠.

ولقد أعلن خروجه على ما أسماه حكم الفرد الواحد وادعى جهله بكل ما جرى ثمانية عشر عاما.

ولم يكن فى هذا بأس. بعضه يمكن تصوره بصرف النظر عن فهمه.

المشكلة أصبحت كاريكاتورية فعلا، حين أعلن «السادات» جهله بحقائق الموقف الاقتصادى، قائلاً إنه اكتشفها فجأة قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ بأسابيع.

ثم عاد فقال مرة أخرى إنه لم يعرف بحقائق الأرقام عن الموقف الاقتصادى إلا عندما أخبره بها الدكتور «عبد العزيز حجازى» عندما عهد إليه بتشكيل الوزارة سنة ١٩٧٤.

ثم عاد مرة ثالثة سنة ١٩٧٥ وقال إنه لم يعرف بحقائق الأرقام عن الموقف الاقتصادى إلا عندما أخبره بها السيد «ممدوح سالم» الذى تولى الوزارة بعد الدكتور «عبد العزيز حجازى».

ثم عاد مرة رابعة سنة ١٩٧٧ ليقول إنه لم يعرف بحقائق الأرقام عن الموقف الاقتصادى إلا عندما أخبره بها الدكتور «مصطفى خليل» الذى تولى الوزارة بعد السيد «ممدوح سالم».

هناك بداية جديدة مع كل زعيم على القمة ـ بالموت أو بالمؤامرة ـ وكأن الحزب ليس هو الحاكم المستمر.

وهنا بداية جديدة مع كل وزارة وكأن حكم الرئيس ليس عهدًا واحدًا يتحمل هو كامل مسئوليته؟!].

. . . .

. . . .

□

فى أول الأمر لم أكن أظن أن الجيل الرابع ـ الجديد ـ على القمة فى الاتحاد السوفييتى سوف يبدأ بـ «أندروبوف». ورغم أننى تنبهت ـ أو نبهت ـ مبكرًا بأن «أندروبوف» هو رجل المستقبل فى الكرملين ـ فقد هيئ لى من مجمل الأوضاع كما بدت فى أوائل السبعينيات على القمة السوفييتية أن «ألكسندر شليبين» ـ وكان عضوًا كاملاً فى المكتب السياسى قبل «أندروبوف» وكان قبله أيضًا مسئولاً عن الأمن، ثم أصبح مسئولاً عن اتحاد العمال ـ هو الرجل التالى، أو على الأقل فإن دوره سوف يسبق دور «أندروبوف»، أو ربما يتصارع الاثنان عند نقطة معينة.

كان كلاهما ـ «أندروبوف» و«شليبين» ـ من تلاميذ «ميخائيل سوسلوف» مسئول المكتب السياسى المختص بشئون الفكر، وكانت هذه المسئولية تتشعب فى الحزب

والحكومة والجيش ونقابات العمال، فهى المسئولة مباشرة عن التثقيف السياسى، وهى المسئولة عن التوجيه فى أكاديمية العلوم واتحادات الكتاب والصحفيين، وعن الإذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما. كان «سوسلوف» فى مركز يسمح له بأن يلمح من بعيد حركة «مشروعات النجوم» فى كل المجالات. وساعده بقاؤه على القمة قرابة نصف قرن بغير انقطاع، فقد امتدت مسئوليته عن شئون الفكر فى المكتب السياسى قرابة خمسين سنة (كان عمره حين مات قبل ثلاث سنوات ـ ٨٢ سنة) امتدت على عصور «ستالين» و«خروشوف» و«بريجنيف».

لكن مسار نجم «شليبين» راح يتعثر فى مجراه لغير سبب ظاهر فى أواخر سنة ١٩٧٣ وأوائل سنة ١٩٧٤، وقيل وقتها إن سوء الطالع الذى اعتراه مبعثه أزمة الشرق الأوسط، فقد كان «شليبين» متحمسًا للاندفاع السوفييتى نحوه، ثم ضاع الرهان كله. ولم أكن واحدًا من المقتنعين بهذا التفسير.

. . . .

. . . .

[كنت أعرف آراء «شليبين» فى أزمة الشرق الأوسط. ثم إننى كنت أعرف أن السياسة السوفييتية فى الشرق الأوسط لم تكن سياسة «شليبين». ثم إن مشاكل من نوع أزمة الشرق الأوسط لا تستطيع إسقاط عضو فى المكتب السياسى لأن تحميله باللوم وحده مخالف لمقولة «القيادة الجماعية»].

. . . .

. . . .

وقيل أيضًا إن سوء طالع «شليبين» يعود إلى أنه لم يستطع أن يمنع فرار ابنة «ستالين» ـ «سفيتلانا» ـ إلى الغرب. لم يعرف به ولم يحل دونه ـ بل كان هو الذى أعطاها التصريح بالخروج من روسيا لحضور جنازة زوجها السابق ـ وكان ممثلاً هنديًا معروفا. (ولم يكن ذلك هو السبب فيما أظن أيضًا).

وفجأة ـ سنة ١٩٧٥ ـ طار «شليبين» من المكتب السياسى، ومن سماء السياسة السوفييتية كلها، وانفتح الطريق أمام «أندروبوف».

ويبدو أن نهاية «شليبين» جاءت نتيجة لـ «عجلته واندفاعه وتهوره» ـ على حد التفسير الذى أعطاه «سوسلوف» نفسه فى اجتماعات سرية مع بعض القادة الشيوعيين فى أوروبا:

« أصيب «بريجنيف» فى صيف سنة ١٩٧٥ بنوبة قلبية حادة، وظل لأيام معلقًا بين الحياة والموت، وكان معظم أطبائه متشائمين. ورأى «شليبين» أن يتحرك لاستباق الحوادث حتى لا يفاجأ المكتب السياسى بفراغ فوق رأسه. فبدأ يعقد اجتماعات ويقوم بمشاورات لترتيب أوضاع الخلافة.

وذات صباح اختلفت الأمور ، فالرجل الذى كان يستعد لاستقبال الموت بدأ يتماثل للشفاء ويشعر بعودة الحياة. ثم إذا هو يسمع من بعض الرفاق بما جرى من «شليبين»، وراح يحس أن «شليبين» رتب لإرثه وهو حى وأعد لجنازته قبل أن يموت.

ولم يطق «بريجنيف» بعدها أن يرى وجه «شليبين» . ولم يره أحد بعدها.

وأصبح حرص «بريجنيف» على صحته هو نفسه نوعا من المرض. وأكثر من ذلك فقد أوضح رغبته فى من يخلفه حتى لا يترك لأحد فرصة ـ كانت رغبته أن يخلفه «تشيرنينكو». وكان «تشيرنينكو» يقوم ـ تقريبًا ـ بدور مدير المكتب لـ «بريجنيف»».

وتعلم «أندروبوف» الدرس .. تعلم درس الحرص... كل خطوة فى غير أوانها خطر على صاحبها حتى ولو كانت بدعوى توقى خطر على ما هو أكبر من صاحبها!

وصباح يوم ١٠ نوفمبر ١٩٨٢ كان «بريجنيف» يتناول طعام الإفطار فى فراشه، وقام بعد الإفطار فقصد إلى الحمام وغاب فيه أكثر من نصف ساعة، وذهبت زوجته ـ وقد أحست بشىء من القلق ـ لتراه، فإذا هو على الأرض فى غيبوبة كاملة.

ودعت زوجته رئيس الحرس الذى تولى دعوة الطبيب المقيم معه، وهرول الطبيب المقيم إلى استدعاء «شازوف» ـ كبير أطباء القلب فى الاتحاد السوفييتى وطبيب «بريجنيف» الخاص ووزير الصحة فى نفس الوقت ـ وأبلغ أعضاء المكتب السياسى، وبينهم «أندروبوف»، وقصد بعضهم إلى بيت «بريجنيف». وكان رأى الأطباء أن النوبة قاضية وأن «بريجنيف» مات «إكلينيكيا» ـ طبيا ـ ولم يتعجل «أندروبوف» فى شيء وإنما قصد إلى مكتبه وظل ينتظر فيه حتى أبلغ ـ بعد عشر ساعات ـ بأن «بريجنيف» مات طبيعيًا ـ بعد موته طبيًا ـ ولم يعد فى جثته نفس يدخل أو يخرج. ومع ذلك ظل «أندروبوف» يتصرف بحذر: تشاور تليفونيًا مع أعضاء المكتب السياسى فى إعلان حالة الطوارئ فى الحزب والجيش. وبأن تأخذ قوات الأمن الخاصة فى موسكو مواقعها داخل العاصمة. ثم أخطرت الحكومة بأن تكون على استعداد لنبأ مهم. ثم صدر أمر إلى الراديو والتليفزيون بإلغاء البرامج العادية والانتقال إلى الموسيقى الكلاسيكية، ثم طلب إلى مذيعات الأخبار فى التليفزيون أن يرتدين ملابس سوداء ويضعن على رءوسهن أوشحة سوداء تغطى الشعر والرقبة. ثم جرت طباعة نص النعى الرسمى، وعرف العالم ـ بعد أربعة وعشرين ساعة ـ أن «بريجنيف» مات!

□

تعلم «أندروبوف» درس الحرص ولكنه لم يهمل درس الاستعداد للطوارئ، وليس من ضرورات الاستعداد أن تظهر اللهفة التى أودت بآمال «شليبين» ومستقبله!

وفى اللحظة التى مات فيها «بريجنيف» وأذيع نبأ موته اتضح مرة واحدة أن رجلاً واحدًا كان على استعداد للحظة.

. . . .

. . . .

[ومن الخطأ ـ أو لعله إسراف فى سوء الظن بالنفس البشرية ـ أن يتصور أحد أن طموحات الفرد هى مجرد مطامع شخصية له، فذلك ينزل بصناعة التاريخ من مستوى العمل السياسى إلى مستوى العمل الإجرامى ويجعل من القيادات السياسية صورة مزوقة لعصابات المافيا.

كذلك فإن هناك تعنتا شديدًا ـ بعض الأحيان ـ فى النظر إلى ظاهرة تجميع السلطات فى يد واحدة. ومع أن التجميع مكروه فى حد ذاته لمزالق كثيرة ينطوى عليها، فإن التاريخ يعرف أحوالاً كثيرة كان تجميع السلطة فيها طلبًا لشىء أكثر من مجرد تعزيز النفوذ الشخصى لفرد من الأفراد.

إن أى سلطة هى أداة ـ مجرد أداة ـ لإحداث حركة معينة... تسيير أمور بطريقة أكفأ أو إجراء تحوّل لصالح جماعة أوسع.

وفى مراحل الانتقال فى حياة المجتمعات، شعوبًا أو أممًا، فإن التركيز يكون فى بعض الأحيان ـ ولأسباب طارئة ومؤقتة ـ ضرورة تفرضها ـ أو تقتضيها ظروف التحوّل والخطر يحل عندما يصبح تركيز السلطة مطلوبًا فى حد ذاته!

السلطة أداة .... أو سلاح. والأداة يجب أن تعمل، والسلاح مصنوع لكى يقاتل.

وسلطة لا تعمل وسلاح لا يقاتل أدوات معطلة لا تلبث أن تصبح عبئًا على أكتاف لا تعرف ماذا تفعل بها، وهى تريد أن تحملها وحدها كنزًا غير قابل للصرف أو لمجرد حرمان الآخرين منه!].

. . . .

. . . .

وإذن كان «أندروبوف» ـ فى اللحظة الحاسمة ـ رجلاً على استعداد للسير على الجسر من عصر «بريجنيف» إلى ما بعده. أعد نفسه لهذا الجسر منذ سنوات دون أن يلحظ أحد حتى جاءت اللحظة المناسبة. لكنى أتصور أنه كان طموحًا ولم يكن مجرد طمع.

كان قد قضى فى رئاسة الـ «كى. جى. بى» قرابة خمسة عشر عامًا، وخلالها استطاع أن يستوعب أكبر قدر من المعلومات بمنطق أن المعرفة هى القوة. ولم يكن «أندروبوف» خبيرًا بما يجرى فى الاتحاد السوفييتى وحسب، ولكنه كان على رأس جهاز هائل فى دولة عظمى مهمته أن يعرف أكبر كم من المعلومات عن الدنيا وعن العصر.

(قال لى هو بنفسه إنه كان يقرأ ست ساعات كل يوم).

ومن هذا الموقع ـ خمسة عشر عامًا ـ فإن «أندروبوف» تصرف وهيأ ورتب للحظة الحاسمة:

■ كانت مشكلة الرفض أكبر المشاكل التى تواجه الاتحاد السوفييتى فى الغرب من الناحية المعنوية، وكان الإعلام الغربى يتلقف أخبار رجال مثل الكاتب الكبير «سولجنستين» وينشر آراءهم مبالغة وتهويلا، وجاء «أندروبوف» بحل بسيط غاية فى بساطته وعرضه على المكتب السياسى وحصل على موافقة أعضائه عليه: «ماذا لو سمحنا لهؤلاء جميعًا بالذهاب إلى الغرب... حتى لو اضطررنا إلى شحنهم شحنا إلى هناك. الغرب هو نموذجهم فليذهبوا إليه. إذا ذهبوا قد تثور الضجة من حولهم يوما أو يومين ثم تهدأ. بعد ذلك لا يعود لديهم ما يقولونه (أليس ذلك ما حدث لـ «سفيتلانا» ابنة «ستالين»). ثم إن هؤلاء الكتاب بعيدًا عن روسيا سوف يفقدون جذورهم فى تربتهم الوطنية وسوف يعجزون عن الإبداع ولن يهتم بهم بعدها أحد.

(ذلك ما حدث فعلا لـ «سولجنستين» بعد خروجه من روسيا. وأظننى أصدق ما قاله «أندروبوف» ـ علنا ـ عن «المنشق» الكبير الآخر «ساخاروف» من أنه لم يسمح له بالخروج من الاتحاد السوفييتى لأنه يعلم الكثير عن أسراره النووية ـ وإلا لخرج هو الآخر إلى الغرب أو شحن إلى هناك).

وكانت لـ «أندروبوف» نظرية تستثير التأمل فى موضوع «الانشقاق» كله، وقد سمعتها منه فى حديثنا الممتد فى مبنى اللجنة المركزية، قال:

ـ «إن الغرب يهلل لأى لأجئ إليه من عقائدنا السياسية، ويعتبر كل واحد من الذين يختارون الذهاب إليه والبقاء فيه دليلاً عمليًا على فشلنا. ينسون أن الذين يختارون عقائدنا فى الغرب أكثر ملايين المرات. اللاجئون من هنا إلى هناك حفنة محدودة. وظروف التجائهم للغرب تحيط بها ملابسات، بينما الأحزاب الشيوعية فى الغرب تضم ملايين اختاروا بمحض إرادتهم عقائدنا.

لكن قوة الإعلام الغربى قادرة على قلب الحقائق».

(كانت القيادة السوفييتية فيما سبق تخفى رأسها حيرة وخجلا من موضوع «الانشقاق»، لكن «أندروبوف» عالجه بمنطق عصرى، وعملى وبسيط!».

■ ثم شعر «أندروبوف» بحساسية قادة القوات المسلحة السوفييتية تجاه السياسيين، كثيرون من القادة العسكريين وجدوا أن جهد الانتصار على النازية يؤخذ منهم كل يوم ليضاف إلى رصيد أى زعيم سياسى يصعد إلى القمة فى الكرملين: «ستالين» كان بطل الحرب كلها، «خروشوف» بعد أن صعد إلى القمة اكتشف فجأة أنه كان بطل «ستالينجراد» حيث كان قوميسيرًا سياسيًا أثناء الحرب، «بريجنيف» جرى تضخيم دوره بعد أن صعد إلى القمة فإذا هو مهندس زحف «جوكوف» على برلين، ولولاه لما تغير مجرى الحرب (كان «بريجنيف» فى النهاية يعلق على صدره ٢٧٠ وشاحًا ووسامًا)!

ولقد كان عمل «أندروبوف» فى الـ «كى. جى. بى» يجعله قريبًا من القوات المسلحة، فالجهاز الذى يشرف عليه هو أكبر مصدر للمعلومات عن الخصم. عن سلاحه وعتاده وخططه. وهو أيضًا الجهاز الذى يتولى استطلاع التطور العسكرى والعلمى لدى الطرف الآخر.

ثم إن «أندروبوف» وجهازه هما البوصلة التى تقيس وتحسب اتجاهات الفكر السياسى والإستراتيجى فى العالم، والجيش السوفييتى يريد أن لا تفوته ومضة تلمع بسرعة ثم تختبئ فى أى مكان عبر كل القارات والمحيطات.

وهكذا أصبح «أندروبوف» أقرب القادة السياسيين إلى قادة القوات المسلحة، ثم

توثقت صداقته مع الماريشال «أوستينوف» الرجل الذى كان وزيرًا للإنتاج الحربى زمن الحرب ثم أصبح وزيرًا للدفاع.

(فى اللحظة الحاسمة كان وقوف «أوستينوف» إلى جانب «أندروبوف» عنصر الترجيح فى استبعاد «تشيرنينكو» من خلافة «بريجنيف»).

■ ثم بدأ الـ «كى. جى. بى» - و«أندروبوف» على رأسه - يقوم بالدور الأساسى فى مكافحة الفساد فى البيروقراطية السياسية السوفييتية.

هو الذى حصل على تفاصيل فضائح التعامل فى النقد، وكانت ابنة «بريجنيف» بين الضالعين فيها... وبشكل ما تسرب النبأ إلى الغرب!

ثم إنه هو الذى حصل على تفاصيل تصرفات «رومانيف» عضو المكتب السياسى الذى برز بعد سقوط «شليبين» وعلا ذكره فى «ليننجراد» ثم دُعى إلى موسكو ليقيم وسط القيادة العليا للدولة السوفييتية.

كانت ابنة «رومانيف» سوف تتزوج، واستعار أبوها من متحف «الأرميتاج» طقم المائدة الذى كانت تستعمله «كاترين العظيمة»، وتكسرت بعض القطع النادرة منه فى مهرجان الحفل وصخبة. وتملص أمناء المتحف من المسئولية عندما عاد «رومانيف» يرد إليهم ما استعاره منهم!

ثم إن الـ «كى. جى. بى» - و«أندروبوف» على رأسه - هو الذى حصل على تفاصيل فضائح تصدير الكافيار السوفييتى. كانت هناك عصابة فى وزارة التجارة الخارجية تصدر الكافيار داخل علب كبيرة كتب عليها ما يفيد أنها مجرد زيوت تشحيم، وكان سعر الكافيار فى الغرب موازيا لسعر الذهب!

■ ثم راح «أندروبوف» (المسئول عن الأمن والحماية والسلامة) يضم إلى دائرته مجموعة من الشباب الجدد المتحمسين للحركة والسرعة والتغيير.

كانت مشكلة سن القيادة السوفييتية تشغل باله، وقد لمح إليها من بعيد فى حديثه معى.

ولم تكن هذه مشكلة خاصة، وإنما كان رأيه فيها أن تلكؤ الشيوخ فى الذهاب يحجب الشباب عن المجىء، وأهم من ذلك يعرقل طريقهم إلى تجربة إدارة الصراعات.

كانت خشيته أن يواجه الاتحاد السوفييتى فجوة أجيال. يجىء يوم فإذا الشباب فى الاتحاد السوفييتى غريب عن إدارة الأزمات لأنه لم يمارس عمليا إدارتها.

(وكان «جورباتشوف» ـ النجم الصاعد فى الاتحاد السوفييتى الآن، والذى لفت الأنظار بزيارته فى شهر ديسمبر ١٩٨٤ إلى لندن ـ أحد تلاميذ «أندروبوف». وفى الثالثة والخمسين أصبح «جورباتشوف» عضوًا فى المكتب السياسى ومسئولا عن الزراعة فيه).

□

طوال هذه الفترة لم ألتق بـ «أندروبوف» وإنما كنت أحاول متابعته من بعيد.

تلقيت نقلا عنه رسالة واحدة فى مايو سنة ١٩٧٨ حملها إلىّ أحد معاونيه من خبراء اللجنة المركزية، وكان موضوعها كتاب صدر لى فى ذلك الوقت بعنوان «القيصر وأبو الهول»، وترجم إلى العربية تحت عنوان «حكاية العرب والسوفييت»، وكان موضوعه بالفعل قصة العلاقات العربية السوفييتية فى عشرين عاما بين سنة ١٩٥٥ ـ صفقة الأسلحة الأولى ـ وسنة ١٩٧٥ ـ إلغاء المعاهدة المصرية السوفييتية، وكان مضمون الرسالة « أنه قرأ كتابى، وفى حين أن أغلبية فى القيادة السوفييتية ترى الكتاب معاديا للسوفييت، فإنه هو شخصيا يختلف معهم وتقديره أن الكتاب ليس معاديًا للسوفييت وإنما هو فى مجملة رؤية من منظور عربى للعلاقات بين الطرفين بكل ما تحتمله وتنطوى عليه هذه العلاقات من خلافات ومشاكل».

والحقيقة أننى أضفت ما سمعته إلى تباين شخصية «أندربوف» عن غيره على القمة السوفييتية. فالزعماء السوفييت عادة لا يتصلون بمعارف أو أصدقاء قدامى

فى العالم الخارجى. ثم إنهم فى العادة أيضًا لا يبدون رأيهم فى كتب يقرءونها أو يصل إلى علمهم محتواها.

والغريب أن خبير اللجنة المركزية الذى سمعت منه ما نقل إلىّ عن «أندروبوف» كان مفتوحًا فى حديثه إلى درجة لم أتعودها من قبل مع المسئولين السياسيين السوفييت.

«الأحوال فى الاتحاد السوفييتى ليست على ما يرام. بيروقراطية الحزب والحكومة عاجزة لأن القيادة مشلولة بالشيخوخة والمرض. الزراعة والصناعة فى حاجة إلى عملية تطوير وتجديد شاملة، لكن أحدا لا يستطيع أن يتحرك وإلا بدا أنه يرتب لمرحلة ما بعد «بريجنيف». والشيوخ المرضى فى الكرملين يسمحون بأنواع من الفساد لا ضرورة لها لكنهم يشترون بها سكوت الآخرين، وهذا خطر على معنويات الشعوب السوفييتية. ثم إن مشكلة القوميات فى الاتحاد السوفييتى عادت تطل برأسها دون مواجهة مستنيرة، والمواجهة بقوة السلطة وحدها يمكن أن تقود إلى مآزق، ثم إن أحدًا ليس جاهزًا لمثل هذه المآزق وإنما الأغلبية سكوت. وبين اللجنة المركزية والبارزين من قيادات الحكومة ـ خصوصًا فى قطاعات الصناعة والزراعة والإنتاج الحربى ـ جماعة تشعر بضيق مكتوم ولا تعرف ماذا تفعل، فهى تخشى التعبير عن نفسها حتى لا تتهم، وهى ـ من ناحية أخرى ـ تتهم نفسها بقبول السكوت!

وفى هذا المناخ فإن الولايات المتحدة وجدت الميدان فسيحًا لتفعل فى العالم ما تريد، بل وتحاول مد يدها إلى المعكسر الاشتراكى نفسه مركزة على بولندا مستغلة وجود «بابا» بولندى فى الفاتيكان ومستغلة ظهور منظمة التضامن فى وارسو نفسها».

وسمعت هذا كله وأنا لا أخفى دهشتى. لم يكن فى موضوعه ما فاجأنى، وإنما كانت المفاجأة فى أنه يقال بمثل هذه الدرجة من الصراحة لغريب. ثم أن يقال لهذا الغريب بعد أن ينقل إليه كلام أحد الأعضاء الكبار فى المكتب السياسى ـ وهو «يورى أندروبوف» ـ الأمر الذى يؤدى بالربط المنطقى إلى تصورات بعيدة المدى.

□

ويوم مات «بريجنيف» وأعلن للعالم نبأ موته، كانت كل المعلومات من موسكو تؤكد أن شخصا ما يتحرك فى الكرملين بأسلوب حاسم وقاطع.

والحقيقة أن جثمان «بريجنيف» ألقى فى قبره إلقاء، ولم ينزل إليه بالجلال المتوقع. أفلت النعش بثقله من الحامل واصطدم بأرض القبر وانكسر، ولم يحفل أحد بما حدث فقد بدا أن الكل لا يريد أن يدفن رجلا ميتًا فحسب وإنما يريد أن يدفن مرحلة بأكملها طالت بأكثر مما كان لازمًا لكفاءتها، وحتى لاحترامها وهيبتها.

ثم بدأت التحركات فى الكرملين تترى. ولم تمض غير ساعات إلا وعرفت الدنيا أن «أندروبوف» هو الآن رجل القمة فى الاتحاد السوفييتى. ثم وقف يلقى أول خطاب فى اجتماع اللجنة المركزية وتحددت على الفور أولوياته: تطور أو تثوير الإدارة فى الزراعة والصناعة والخدمات، ومواجهة الفساد، وتأكيد المشاركة فى القرار، إفساح المجال لعناصر الشباب الطالع. وبعد ظهر نفس اليوم كان ينتهز فرصة وجود زوار على مستوى عال فى موسكو لحضور الجنازة ويتحدث معهم عن المستقبل.

● اهتم بالوفد الأمريكى الذى كان يرأسه «جورج بوش» نائب الرئيس الأمريكى. الموضوع الرئيسى معه سباق التسلح. منطق «أندروبوف» فيه أن الحرب النووية مستحيلة واستمرار سباق التسلح استنزاف لكل الأطراف.. لم يعد هناك طرف يستطيع تحمله، وإذا تصورت الولايات المتحدة أنها ستجر الاتحاد السوفييتى - بمثل هذا السباق - إلى سحب موارده من مجالات الإنتاج والخدمات إلى مجال الأمن القومى فهى تقامر على المجهول، وفى كل الأحوال فإن الاتحاد السوفييتى لن يتخلف فى السباق وسوف يظل مصممًا على المساواة.

● وركز على وفود أوروبا الغربية، وأظنه استطاع أن يزرع شكوكًا فى لندن وباريس - على الرغم من كل ما قيل أو يقال - فقد أبرز نقطة مهمة «إذا توصل الأمريكيون إلى سلاح مضاد للصواريخ يلاقيها فى الفضاء الخارجى (ما أسماه «ريجان» بعد ذلك بـ « حرب النجوم» فإن الاتحاد السوفييتى سوف يضطر

اضطرارًا إلى ملاحقة الأمريكيين. لكن فرنسا وبريطانيا لن تقدرا، وفى هذه الحالة فإن الرادع النووى المستقل لفرنسا وبريطانيا سوف يفقد قيمته، وسوف تجد كلتاهما نفسها مضطرة إلى قبول دور المحمية الأمريكية،مهما ادعت خلاف ذلك. ثم إن تحوّل فرنسا وبريطانيا إلى محميات سوف يمد أحكامه إلى القارة الأوروبية كلها.

● وتوجه إلى الوفد الصينى بنفسه يحاول إزالة الخلافات بين أكبر دولتين شيوعيتين فى العالم، وكانت رسالته بدء صفحة جديدة دلل عليها بأنه مستعد - وعلى الفور - لسحب جزء كبير من القوات السوفييتية المتمركزة على الشرق فى مناطق الحدود مع الصين، فهو لا يخشى غزوًا صينيًا وليس فى خطط الاتحاد السوفييتى تحرش عسكرى بالصين. وكان منطقة حصر موضوعات الخلافات بين البلدين وحصر موضوعات الاتفاق، ومحاولة تضييق رقعة ما هو مختلف عليه بمفاوضات هادئة، وفى نفس الوقت محاولة توسيع رقعة موضوعات الاتفاق بمفاوضات هادئة أيضًا.

● ثم حرص على أن يستقبل الجنرال «ضياء الحق» رئيس باكستان يتحدث إليه فى قضية أفغانستان. فهو يريد التوصل إلى اتفاق تنسحب بمقتضاه القوات السوفييتية من أفغانستان. كان الأمريكيون هم الذين خالفوا قواعد اللعبة فى هذا البلد الذى كانت الإمبراطوريات كلها تريده منطقة حرام لا يسعى للسيطرة المنفردة عليها أحد. لكن الأمريكيين أخلوا بقواعد اللعبة وحاولوا اصطياد أفغانستان، ثم جاءت الثورة الإيرانية تحدث تأثيراتها على الجمهوريات الإسلامية فى جنوب الدولة السوفييتية، وهكذا أصبح التدخل العسكرى بغير بديل (وقد تم - على أى حال - بناء على طلب من الحكومة فى كابول!). ثم إن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية هى التى تتولى تمويل المقاومة فى أفغانستان. ومن هم عناصر المقاومة: مجموعة من الإقطاعيين السابقين، ومجموعة من زراع وتجار الأفيون، ومجموعة من موردى السلاح الذين يريدون أموال بعض الدول العربية التى تدعى الاهتمام بأفغانستان المسلمة وبمصيرها تحت إلحاح من الأمريكيين.

وتساءل «أندروبوف»: «لماذا يتباكى كل هؤلاء (أولهم «ريجان») على أفغانستان ولا يفعلون شيئًا لفلسطين».

ثم قال لـ «ضياء الحق»: إن الولايات المتحدة تعرقل كل محاولات الوصول إلى حل لأنها تريد أن تصور للعالم أن أفغانستان هى فيتنام الاتحاد السوفييتى. وسأل «ضياء الحق» مباشرة عما إذا كان بخبرته العسكرية يجد سبيلا إلى عقد مقارنة بين فيتنام وأفغانستان؟.

ومع ذلك - قال «أندروبوف» لـ «ضياء الحق» - إن الاتحاد السوفييتى لا يريد أن يترك سببًا لسوء فهم بينه وبين العالم الإسلامى، ولذلك فهو على استعداد للانسحاب فورًا من أفغانستان فى اللحظة التى يتوقف فيها التدخل العسكرى من خارج أفغانستان (من حدود باكستان).

● وكانت الملاحظة أن «أندروبوف» لم يُضع وقتًا مع أحد من رؤساء وفود العزاء التى جاءت من الدول العربية. وكان تقديره - فيما أظن - أن الاتحاد السوفييتى لدغ مرة فى العالم العربى ولا يريد أن يلدغ من نفس الجحر مرتين. ثم إن الأوضاع فى العالم العربى يجب أن تترك وشأنها، وأن تفاعلاتها الطبيعية والتاريخية مازال أمامها وقت طويل، وعلى الاتحاد السوفييتى أن يكتفى فى هذه المرحلة بالمراقبة من بعيد على أن يظل محتفظًا - بأقل قدر من التكاليف - ببعض نقط الحضور حتى لا يتم ترتيب نهائى بغير اشتراكه، وهو شىء غير محتمل - على أى حال - فى المستقبل المرئى أو المنظور.

. . . .

. . . .

[لم يعرف العرب مع الأسف - وحتى فى أيام «جمال عبد الناصر» - كيف يتعاملون مع الاتحاد السوفييتى كقوة عظمى مشتركة على قدم المساواة فى النظام الثنائى الذى يمسك بموازين العالم المعاصرة سواء بالاتفاق أو الشقاق.

وأكاد أجزم بأن الاتحاد السوفييتى مع الأسف - وحتى فى أيام «جمال

عبدالناصر» ـ لم يعرف كيف يتعامل مع العرب. لم يستطع أن يفهمهم كشعوب ودول، ولا استطاع أن يفهمهم كمشروع أمة ومشروع نظام.

وهكذا حدث سوء تفاهم تاريخى محزن سوف تبقى عواقبه محسوسة لسنوات طويلة فى إستراتيجيات المنطقة وما يحيط بها. ومن سوء الحظ أن الجزء الأكبر من هذه التكاليف سوف يدفعه العرب، فهم الذين يحتاجون أكثر من غيرهم إلى «توازن قوى» يمسك بالتهاوى السريع والمتداعى لإمكانيات القوة العربية.

وليست هناك فائدة ترجى من محاولة إنكار حقيقة أن الكرملين لا يريد أن يسمع شيئا من العالم العربى فى الوقت الراهن، فهو يشعر ـ صوابًا أو خطأ ـ أنه عومل من العرب بأقل مما يستحق وأنه طعن من الوراء بينما هو واقف فى الخنادق العربية التى كانت جميعا تحارب بسلاحه، وكان سلاح غيره موجها ضدها. وأظنهم فى الكرملين ـ خصوصا أيام «أندروبوف» ـ راجعوا موقفهم وقرروا أن لا شىء يدعوهم للهرولة إلى العرب، لأن العرب سوف يهرولون إليهم ذات يوم.

وقد شكا لى أحد خبراء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ذات مرة أنه فى بداية أيام «أندروبوف» طاف بالعالم العربى، ثم عاد وكتب تقريرًا عن أحوال المنطقة قدمه إلى مكتب «أندروبوف»، ثم أتيح له أن يرى بنفسه تقريره بعد أن خرج من مكتب السكرتير العام ـ «أندروبوف» ـ وعليه تأشيرة بخطه معناها أن «هؤلاء الذين يدّعون الخبرة بالشئون العربية قد أثبتوا أنهم ليسوا خبراء فى أى شىء».

وقد علق محدثى على ذلك بقوله: «من يومها أدركت أن أبواب مكتب السكرتير العام مغلقة فى وجهى وفى وجوه زملائى إلى فترة طويلة!».

وأعترف أن العلاقات العربية السوفييتية شغلتنى ـ ومازالت تشغلنى وحاولت مرات عديدة فى موسكو أن أتقصى بعض الجوانب المحيطة بها عند الجذور. وأحاول هنا أن أورد قائمة بـ «الأخطاء العشرة» كما يرونها منسوبة الى أصحابها كلما أمكن ذلك:

١ ـ «إنكم تجيئون إلى الاتحاد السوفييتى بعد أن تذهبوا إلى الغرب ثم تصلون

معه إلى حالة اليأس. تجيئون إلينا دائما مضطرين كأنما نحن أمامكم بديل تقبلون به حين لا يتبقى أمامكم غيره» (السفير السوفييتى السابق فى القاهرة فلاديمير فينوجرادوف).

٢ ـ «إنكم تجيئون إلينا وتحاولون مخاطبة الغرب من فوق رءوسنا. كل واحد منكم أتى إلينا بدأ كلامه العلنى فى موسكو بالضغط على اختلاف عقائده مع عقائدنا. ولم نتصور نحن أن عقائدكم يمكن أن تتفق مع عقائدنا. ثم إن غيركم فى العالم لايفعل ما تفعلونه فى هذا الشأن. وأن تصروا عليه دواما فذلك معناه شىء واحد وهو أنكم من عندنا توجهون رسالة اعتذار إلى الغرب عن مجرد وجودكم عندنا» (ميخائيل سوسلوف).

٣ ـ «لا أعرف لماذا تحدث حملات اعتقالات الشيوعيين فى العالم العربى بعد زيارات يقوم بها زعماؤه إلى الاتحاد السوفييتى. كأن زياراتهم صك براءة يعطيهم الحق فى تغطية اعتقالاتهم للشيوعيين. الغريب أنه لا أحد غير العرب يفعل ذلك»(بوريس باناماريوف).

٤ ـ «فجأة عندما يزورنا زعيم عربى يخطر على باله أحوال المسلمين فى الاتحاد السوفييتى !ولا نعرف لماذا لا يهتمون أيضًا بأحوال المسلمين فى غير الاتحاد السوفييتى؟ فى الولايات المتحدة مثلا؟ وكنا نقبل ذلك ونقدّر ـ أو نحاول التقدير ـ لكن المسألة زادت إلى حد أنها أصبحت تحتمل التأويل على أنها تدخل فى شئوننا الداخلية ، وهو شىء غريب . إن أحد الزعماء ذات مرة اختار أن يصلى فى قاعة المحادثات فى الكرملين .حان موعد الصلاة فقطع الكلام وقام يسأل أين اتجاه الكعبة فى مكة ،وشعرنا أنه فى الواقع يبحث عن اتجاه البيت الأبيض فى واشنطن». (بوريس باناماريوف).

٥ ـ نتصرف معهم أحيانا وكأنهم ليسوا مثل القوة العظمى الثانية يملكون وسائل معرفة كل شىء تقريبًا. لقد ذهب «بوريس باناماريوف» يوما سنة ١٩٧١ إلى الرئيس « السادات» ـ بعد محاولة انقلاب فاشل فى السودان ـ يرجوه أن يتدخل

لإنقاذ حياة زعيم نقابى كبير فى السودان هو «الشفيع». ووعده الرئيس « السادات» أن يبذل مساعيه لدى الرئيس «نميرى». واتصل الرئيس «السادات» بالفعل تليفونيا بالرئيس «نميرى» ولكنه لم يبذل مساعيه الحميدة وإنما طلب الخلاص من الثعبان («الشفيع») ورأسه. وكان الرأس هو «عبد الخالق محجوب» زعيم الحزب الشيوعى السودانى.

(شهدت الواقعة بنفسى. ولنا أن نتصور ردود الفعل السوفييتية عندما تلقوا تسجيل نص المحادثة بين القاهرة والخرطوم. وليس سرًا بالطبع أن هناك عددًا من الدول ـ فى مقدمتها الدولتان الأعظم ـ تقوم بمتابعة وتسجيل كل المحادثات التليفونية عبر البلدان وعبر القارات، بل داخل البلدان وداخل العواصم ذاتها).

٦ ـ «إن بعضكم يتصوّر أنه يستطيع أن يتعامل مع الاتحاد السوفييتى وكأنه تاجر سلاح، وهذا نزول بعلاقاتنا عن مستواها المطلوب. عندما قررنا مع جمال عبدالناصر تسليح العرب فقد كنا نتعامل بمنطق مساعدة حركة استقلال وحركة تحرر وطنى، وإلا لكانت لنا حسابات أخرى. ومع ذلك فإذا شئتم أن تقبلوا مستوى تجارة السلاح فليكن ما تريدون. إن المصانع السوفييتية لن ترفض عقدًا تجاريًا معكم طالما أنه ليس موضع اعتراض سياسى. لكن هذه حالة تختلف فى حدودها وأبعادها عما تطلبونه منا كثيرًا» (ليونيد بريجنيف).

٧ ـ «إنكم تصورون لأنفسكم ولغيركم وكأن السلاح السوفييتى هو المسئول عن التفوق الإسرائيلى، وهذا ظلم فادح. لماذا حارب السلاح السوفييتى فى فيتنام وانتصر؟ إنكم سنة ١٩٧٣ حاربتم بسلاح سوفييتى وحققتم ما حققتموه، ولكنكم فى هذه الحالة فقط أعطيتم الفضل لرجالكم وليس للسلاح الذى كان فى أيديهم مع أن الإنجاز كان مشتركًا بين الاثنين.

إن بريجنيف كان على حق عندما صاح فى الرئيس بومدين ذات مرة قائلاً له «إن بعض الوحدات العسكرية العربية ألقت سلاحها أمام الإسرائيليين بغير قتال

فحصلوا عليه بدون عناء وحاولوا أن يحلوا أسراره ويستكشفوا قدراته وأن يستعملوه ضدكم وضدنا أيضًا».

والمشكلة أنكم بعد هذا كله كنتم تجيئون إلينا تطلبون منا «تعويض الخسائر» كأنما نحن مسئولون عما جرى!

هل أقول لك شيئًا آخر؟ إن الرئيس السادات أمر بتسليم طائرتين من طراز «ميج ٢٣» - وهى آخر ما حصلت عليه مصر من تكنولوجيا السلاح السوفييتى - للولايات المتحدة. ونفس الشيء حدث بالنسبة لصواريخ «سام ٦» وصواريخ «سام ٧» وصاروخ الـ «مولوتكا» المضاد للدبابات. إن ذلك لم يسبب لنا ضررًا كبيرًا فحسب وإنما سبب لنا جرحًا نفسيًا عميقًا» (خبير اللجنة المركزية الذى نقل إلىّ تعليق أندروبوف على كتابى حكاية العرب والسوفييت).

٨ - «لقد كنتم تحاولون فهم الغرب وأنتم تتعاملون معه. معه كنتم تقدّرون أن هناك حساب تكاليف يفرض أثقاله. ثم إنكم مع الغرب كنتم تقدّرون أن هناك رأيًا عامًا له ضغطه المحسوس. معنا نحن لم يكن هناك أثر لذلك. لا حساب للتكاليف وإنما بئر بلا قاع. ولا رأى عام وإنما إملاء فوق كل المصالح والمشاعر! إنكم تتصرفون كما تريدون دون تشاور معنا، وهذا حقكم لا نجادلكم فيه، ففى يدكم أنتم أن تضعوا العلاقات على درجة السلم التى تريدونها ونحن نقبل لأننا نتفهم حساسياتكم، لكننا نجد أنفسنا ملزمين بالنتائج دون أن نكون طرفًا فى المقدمات. وأنتم لا تفعلون ذلك مع الغرب» (السفير السوفييتى فلاديمير فينوجرادوف).

٩ - «إن الاتحاد السوفييتى قدم كل ما قدم للعرب ولكفاحهم ولم يستفد على الإطلاق من ثرواتهم. بل إنه لم يعامل كما يعامل الآخرون حين تدفقت أموال النفط. كان هناك باستمرار «فيتو» عربى على أى استثمار أو توظيف للأموال فى الاتحاد السوفييتى، كأنه قرار بالمقاطعة أقوى وأفعل مما كان على إسرائيل. والغريب أن البعض حاول تبرير ذلك بأنه موقف أيديولوجى للمملكة العربية السعودية. ينسون أن المملكة العربية السعودية فى عهد الملك عبد العزيز كانت أول بلد طلب مساعدة

السوفييت وحصل عليها وجاءنا الأمير فيصل مرتين فى موسكو سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٣٢! من أين ومنذ متى ظهر هذا الحاجز الأيديولوجى؟» (شيراكوف - عضو اللجنة المركزية).

١٠ - «ما إن تسنح فرصة للالتحاق بالولايات المتحدة وتركنا نحن فى الهواء الطلق حتى ينتهزها البعض من أصدقائنا العرب. نحن لسنا ضد أى علاقات طيبة بينكم وبين الأمريكيين، وفى مرات كثيرة فقد كنا ننصحكم بتحسين علاقاتكم مع واشنطن.

إن الرئيس «أندروبوف» توقف أمام تعبير فى كتابك عن العلاقات بين العرب والسوفييت. تعبير قلت فيه «إن بعض دول العالم الثالث تصنع معجزة تغيير الطائرات فى الجو. تقلع مع الاتحاد السوفييتى وتنزل إلى الأرض مع الولايات المتحدة».».

(خبير اللجنة المركزية الذى نقل إلىّ كلام أندروبوف)].

. . . .

. . . .

إن الاتحاد السوفييتى له أخطاؤه التى يمكن عدها مع العرب - وقد تكون أكثر من عشرة - فى مقابل أخطاء العرب - وقد عددتها عشرة - مع الاتحاد السوفييتى. وربما طال الشرح، وما يهمنى هو أن يعرف العرب - بالدرجة الأولى - وليس من شواغلى أن يعرف السوفييت!

ولكنى أعود إلى قصة «أندروبوف» وقد جلس على القمة فى الكرملين... لحظة استعد لها وأحسن الاستعداد.

□

كانت حركة التغيير فى الكرملين نشيطة فى غير ضجة، واسعة المدى فى غير هرولة.

وفجأة اختفى «أندروبوف» عن الأنظار، ولستة أشهر راح هو الآخر يموت ببطء.

وكان التساؤل المحير هو: أين وصلت حركة التغيير؟. وهل بلغت مدى يستحيل معه أن تعود الأمور إلى سيرتها الأولى أم إنه مازال ممكنا اللحاق بها وإعادتها إلى حيث كانت حين تركها «بريجنيف»؟!

وبدأ بعد إعلان وفاة «أندروبوف» أن هناك حلاً وسطًا توصلوا إليه في الكرملين. جيل العواجيز لا يستطيع أن يحمل أمتعته ويرحل. ثم إن جيل الشباب ليس على استعداد لأن يتخلى ويستسلم.

هكذا جاء «قسطنطين تشيرنينكو» - الرجل الذى كان «بريجنيف» يريده خلفًا له - ليحتل مقعد القمة رغم أن المحيطين بـ «أندروبوف» كانوا يعتبرونه مجرد «وصيف خاص» لـ «بريجنيف».

ثم احتل المركز الثانى «ميخائيل جورباتشوف» أقرب تلاميذ «أندروبوف» إليه.

ترتيب يعطى فسحة من الوقت للعواجيز كى يذهبوا بهدوء وللشباب كى يجيئوا بهدوء أيضًا.

لكن فترات الانتظار - فى العادة - قلقة ومتوترة خصوصًا فى بلد وصفه «ونستون تشرشل» ذات يوم بقوله: «إن الاتحاد السوفييتى بلد من الألغاز الملفوفة بالأسرار المسربلة بالغموض»!!

وعلى الدنيا أن تنتظر!

«الفيلد مارشال مونتجمرى»

الحرب.. والسلام!

كان من أمانى صباى الباكر أن ألتقى ذات يوم، وجهًا لوجه، مع أحد الماريشالين الكبيرين، أو كليهما إذا أمكن:

الماريشال «برنارد مونتجمرى» الإنجليزى والماريشال «أروين روميل» الألمانى، وهما بطلا معركة العلمين الشهيرة التى دارت على الأرض المصرية وكانت نقطة تحول أساسية فى مسار الحرب العالمية الثانية.. آخر صراع ساخن على مستوى الدنيا كلها. وأظنه سوف يظل «الآخر» أيضًا لأن الصراعات الساخنة على مستوى الدنيا لم تعد قضية مطروحة فى العمر النووى، إلا إذا قررت الإنسانية كلها فى لحظة جنون مطبق أن تنتحر الحياة ذاتها وأن يذهب الكوكب الوحيد الذى اتسع لها فى نطاق الكون كله إلى الجحيم معها!!

كانت متابعة معركة العلمين ـ سنة ١٩٤٢ ـ أول تجربة صحفية حقيقية أخوضها. وكان عمرى تسعة عشر عامًا. وذهبت بناء على اقتراح من رئيس تحرير جريدة «الإجيبشيان جازيت»، وكنت ملحقا للتدريب بها وقتها.

كان اقتراح رئيس تحريرنا «هارولد إيرل» أنه يريد رؤية مصرية لحرب عالمية تجرى على أرض مصر. وتطوعت بحماس الشباب للمهمة، ووجدت نفسى بعد يومين فى معسكر لتدريب المراسلين فى «الدخيلة» ـ قرب الإسكندرية ـ وبعد ثلاثة أسابيع كنت ضمن قافلة عسكرية تتقدم إلى ميدان القتال فى صحبة «ستيفن باربر» المراسل الأصلى للجريدة والذى كان مفروضًا أن أكون مسئولا أمامه فترة وجودى فى الميدان (وقد أصبح فيما بعد عميد المراسلين الأجانب فى واشنطن باعتباره مراسل الـ «ديلى تلجراف» فى العاصمة الأمريكية. واستقر

«باربر» فى واشنطن أكثر من عشرين عامًا حفظ فيها كل أروقة ومسالك السياسة فى الولايات المتحدة).

والحقت بالكتيبة الواحدة والعشرين من الفرقة الهندية الخامسة. لكنى وصلت إلى مواقع الكتيبة قرب منطقة «الحمام» فإذا هى ممزقة نتيجة ضربة ألمانية مفاجئة. وسألنى «ستيفن باربر» - ربما مشفقًا - إذا كنت أريد أن أعود مع الكتيبة التى صدرت لها الأوامر بإخلاء مواقعها لكى تلتقط أنفاسها وتعوض خسائرها؟ وقلت محتجًا: «ولكننى لم أر شيئا من الحرب بعد!» - وهكذا وجدت نفسى ملحقًا بالكتيبة التاسعة من الفرقة النيوزيلاندية الثانية التى كان يقودها جنرال مشهور هو الجنرال «فرايبرج».

وظلت تجربة هذه الحرب محفورة فى أعماق الأعماق من وجدانى، وشدتنى إلى تجارب حروب أخرى. فقد رحت - فيما بعد - أتابع الحروب حيث تكون وأقصد ميادينها وأرى وأسمع وأتابع وأكتب، معتقدًا أن الحرب هى ذروة المأساة الإنسانية وأن أجواءها مجالات لمعارف وخبرات واسعة عن التاريخ والصراعات والإنسان لمن يملك تشوق أن يتعلم!

كانت العلمين هى الفاتحة، وظلت أطيافها وأجواؤهات وحكاياتها وأبطالها معى، ولا تزال حتى الآن. وظل قادتها يلهبون خيالى، وبالذات «مونتجمرى» على ناحية الحلفاء و«روميل» على ناحية المحور.

وذات مرة لمحت من بعيد سيارة قيادة «مونتجمرى»، لكنها كانت طلقة برقت وذهبت فى ثوان. وفى نفس الوقت فإن «روميل» كان أسطورة حتى فى الجيش الثامن الذى ضم كل قوات الحلفاء، وكان اسمه ملء الدنيا حينئذ باعتباره قائد الفيلق الأفريقى الشهير الذى كان على وشك اقتحام آخر معاقل الصحراء إلى ضفاف النيل!

ومن سوء الحظ أن «روميل» أرغم على الانتحار قبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها، وبالتالى ضاع علىّ احتمال أن ألتقى به فى يوم من الأيام وإلى الأبد.

لكن الماريشال الآخر - «مونتجمرى» كان مازال بين الأحياء، وبالتالى فإن احتمال لقائه ظل قائمًا.. ينتظر فرصة ملائمة!

□

وفى شهر ديسمبر عام ١٩٦٦ تلقيت رسالة من الصديق السير «دنيس هاملتون» - وكان وقتها رئيس تحرير الـ «صنداى تيمس» (وهو الآن رئيس مجلس إدارة وكالة «رويتر» للأنباء) - يعرض علىّ اقتراحًا وجدته مثيرًا.

كان اقتراحه أن ذكرى مرور ربع قرن على معركة العلمين أوشكت أن تحل قريبا (سنة ١٩٦٧م)، وقد فكرت الـ «صنداى تيمس» أن تحتفل بالذكرى على نحو جديد. وفكرتها أن تدعو الفيلد مارشال «مونتجمرى» لكى يعود إلى أرض معركته الشهيرة فى تلك المناسبة ثم أن يستعيد - على الطبيعة والمواقع - قصة المعركة وظروفها وحتى روائحها، ثم تكون من ذلك مجموعة مقالات تنشرها الـ «صنداى تيمس».

وكان «دنيس هاملتون» يسألنى رأيى فى الفكرة - أولا. ثم يسألنى - ثانيًا - عما إذا كان تحقيقها مناسبًا فى هذه الظروف. وكانت الظروف التى يقصدها أن العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة ولندن مقطوعة بسبب ما حدث فى روديسيا وتضامن مصر مع مجموعة الدول الأفريقية فى قطع العلاقات مع بريطانيا. ثم يسألنى - ثالثًا - عما إذا كان فى استطاعتى أن أقوم بجهد يساعد على تحقيقها.

وحملت رسالة «دنيس هاملتون» معى فى أول مقابلة مع الرئيس «جمال عبد الناصر»، فقد كانت «العقدة» تحتاج قرارًا سياسيًا على أعلى مستوى. فـ «مونتجمرى» ليس مجرد ماريشال بريطانى يجىء كسائح ثم يمضى ولايشعر به أحد، وإنما هو رئيس سابق لهيئة أركان حرب الإمبراطورية البريطانية، ثم هو شخصية مرموقة فى التاريخ المعاصر، وأخيرًا فإن زيارته لمصر فى ذكرى معركته الكبرى - العلمين - سوف تكون مجالا لنشر تصل أصداؤه إلى كل مكان.

وقلت للرئيس جمال عبد الناصر ـ وأنا أعرض عليه خطاب دنيس هاملتون ـ «إننى أتمنى لو وافق على الفكرة وأعطى الإذن لـ «مونتجمرى» بزيارة مصر لأسباب عديدة شرحتها أمامه. ثم أضفت إليها سببًا شخصيا وهو أننى كنت من زمن طويل أتشوق للقائه وجهًا لوجه».

وكان رد «جمال عبد الناصر» فوريًا ومباشرًا، «فهو الآخر معجب بـ «مونتجمرى»، ثم إنه كمقاتل قديم لا يستطيع أن يصد حنين مقاتل آخر إلى أرض معركته المنتصرة، ثم إنه هو أيضًا متشوق لكى يسمع منه».

وخرجت من مكتب «جمال عبد الناصر» أبعث برقية عاجلة إلى «دنيس هاملتون» مؤداها أنه ليست هناك عقبات سياسية على الإطلاق تمنع «مونتجمرى» من المجىء إلى مصر ومن الذهاب إلى العلمين.

ومن هذه اللحظة بدأت علاقتى بالماريشال.

[ ]

وبتاريخ ١٦ يناير ١٩٦٧ تلقيت رسالة من الماريشال «مونتجمرى» نصها:

«عزيزى.......

علمت من صديقنا المشترك دنيس هاملتون أنك حصلت من الرئيس ناصر على موافقة خاصة بأن أزور مصر فى شهر مايو القادم فى مناسبة مرور ربع قرن على معركة العلمين.

إننى أقدم لك شكرى وتقديرى العميق على جهودك الناجحة رغم ظروف العلاقات بين بلدينا.

هناك عدة نقط أضعها أمامك وأريد أن أسمع فى القريب تقييمك لها:

أولا: إننى أنوى البقاء فى مصر أسبوعًا، منه أربعة أيام فى العلمين.

ثانيًا. إننى لا أستطيع أن أجىء وحدى، فإذا كان علىّ أن أقوم بالمهمة التى أعرف أن

صديقك دنيس قد شرحها لك تمامًا، فإن الضرورات تقتضى أن أصحب عددا من معاونىّ. وفى الوقت الحاضر فإننى أفكر فى أن يصحبنى كل من:

١ ـ الماجور جنرال السير فرانسيس دى جينجاند رئيس أركان حربى فى العلمين.
٢ ـ الليوتاننت جنرال السيرأوليفر ليس الذى كان رئيسًا لأركان حربى فى العلمين.
٣ ـ الجنرال السير بريان هوروكس الذى كان مديرًا لعملياتى فى العلمين.
٤ ـ البريجادير جيوفرى مانسيرج الذى كان مديرا لمخابراتى فى العلمين.

ثالثًا: إذا كانت الصورة التى أعرفها عن العلمين مازالت صادقة فإن إقامتنا فيها لمدة أربعة أيام سوف تحتاج إلى ترتيبات (غرف أو خيام ـ وتسهيلات مواصلات).

رابعًا: إننى أطمح أن أقابل الرئيس ناصر لو اتسع وقته، كذلك أتمنى لو أتيحت لى الفرصة للالتقاء بعدد من قادة القوات المسلحة المصرية.

بقى أن أكرر لك شكرى على كل ما حملتك به، وأنتظر أن أسمع منك».

واستلفت نظرى توقيع الخطاب، فقد وقعه الماريشال الكبير باسم «مونتى» وهو اسم التدليل ـ اختصار «مونتجمرى» ـ الذى كانت القوات تطلقه عليه بعد أن ذاقت معه حلاوة النصر فى العلمين وما بعدها.

ولم ألبث أن تلقيت خطابا آخر من السير «دنيس هاملتون» يقول لى فيه «إن الأنباء عن عودة «مونتى» إلى العلمين قد أشعلت حماسة مفاجئة فى بريطانيا وفى أمريكا وفى الغرب عامة، وأن عددًا كبيرًا من الصحف ـ ومنها صحف ألمانية ـ اشترت من الـ «صنداى تيمس» مقالاته مقدمًا، ثم إن عددًا آخر منها طلب إرسال مندوبين ومصورين لتغطية قصة عودة الماريشال إلى أرض معركته التاريخية».

ثم قال «دنيس» فى خطابه «إن هناك طاقمًا من المحررين والمصورين من الـ «صنداى تيمس» نفسها سوف يجيئون مع «مونتجمرى»»، وإنه قرر إرسال مساعده الخاص «دريك جول» كطليعة متقدمة تبحث الترتيبات كلها.

ولم يكن ذلك كل شيء، بل إن «دنيس هاملتون» أخبرني في خطابه أنه هو أيضًا قرر المجيء مع المجموعة. ولم أستغرب ذلك فقد كنت أعرف العلاقة الحميمة بين أسرة «هاملتون» كلها وبين الماريشال الكبير، وهي علاقة بدأت منذ كان «دنيس» - كمجند في الحرب - قائد أول كتيبة دبابات في جيش «مونتجمري» تقتحم الشاطئ الفرنسي في عملية عبور بحر الشمال لإعادة تحرير أوروبا بعد ثلاث سنوات من الاحتلال النازي والسيطرة الهتلرية..

ثم أضاف دنيس «أن مونتي يريد أن تنضم إلينا في العلمين وتقضي معنا أيامه الجديدة فيها، وقد حدثته أنا عن تجربتك القديمة في ميدانه !».

□

ومرة أخرى كان لا بد من عرض الأمر على الرئيس «جمال عبد الناصر». وحملت في أوراقي خطاب «مونتجمري» وخطاب «دنيس» وقلت للرئيس: «يظهر أن «مونتجمري» حوّل زيارته لمصر إلى حملة كاملة، فهو قادم ومعه أركان حربه القدامى ومؤخرة طويلة من الصحفيين والمصورين».

وكان «جمال عبد الناصر» متفهمًا ومجاملاً، بل وتطوع فقال:

- «هناك فندق جديد في سيدي عبد الرحمن، وفي شهر مايو فإنه لا يكون مزدحمًا. وأنا أعرف أن الفندق يضم - إلى جانب مبناه الرئيسي - مجموعة من الفيلات ويمكن تخصيص واحدة منها له، وثانية لأركان حربه، وثالثة لصديقك هاملتون وأنت إذا شئت أن تنضم إليهم. ثم إن أي عدد من الصحفيين والمصورين يستطيعون الإقامة في غرف الفندق وهي كثيرة».

- «إن مونتجمري بشخصيته وتاريخه يستحق التكريم، وسوف أطلب من القوات المسلحة أن تضع تحت تصرفه عددًا من السيارات الصالحة للسير في الصحراء وطائرة هيلوكوبتر لكي يستطيع في المدة القصيرة التي سيقضيها في مصر أن يعود إلى ما يريد أن يعود إليه في ساحة العلمين.

وكان هذا أكثر مما تصورت. وبادرت سريعًا إلى إخطار «مونتى» و«دنيس» بما قرره الرئيس، وكانت سعادة الاثنين - من ردودهما علىّ - غامرة. وقدّرت أنه لم يعد لدىّ فى هذا الأمر غير انتظار موعد وصول الماريشال وكبار أركان حربه ومعه صديقى «دنيس».

وكنت مخطئا فيما قدّرت.

يوم ٤ إبريل ١٩٦٧ تلقيت مظروفا من لندن يضم خطابين، أولهما من السير «دنيس هاملتون» وكان نصه:

«صديقى العزيز

إننى أرسل لك مع هذا خطابا من الماريشال مونتجمرى. وقد آثرت إرساله كما هو، فقد حرص على أن آراه قبل إرساله لحساسية ما فيه. وأنا لا أبدى رأيًا فى الموضوع ولكنى أترك الأمر بكامله بين يديك تتصرف فيه كما تشاء. وإذا وجدت أنك محرج فى إثارة ما فيه مع الرئيس ناصر فأنت بالطبع أقدر منا هنا على الحكم.

إننى وعدت مونتى بأن أرسل إليك خطابه، وها أنذا أفعل وبغير تعليق، ولك الكلمة الأخيرة.

مع كل الحب».

وتناولت الخطاب الآخر فى المظروف وقد ثار فضولى. وقرأته وفوجئت بما فيه:

«عزيزى.....

إننى أخذت من وقتك أكثر مما هو حقى لكنى أتصور أنك بتجربتك كمراسل حربى قديم تستطيع أن تفهمنى.

إننى سوف أصل إلى القاهرة فى الأسبوع الأول من مايو القادم فى طريقى إلى زيارة معالم معركتى القديمة فى العلمين،وأنا أرغب - كجندى قديم - أن أنزل من الطائرة مرتديًا ملابسى العسكرية الرسمية - ربما لآخر مرة فى حياتى - ملابس فيلد ماريشال فى قوات صاحبة الجلالة الملكة. ولست واثقًا من أن ذلك يمكن قبوله

من جانبكم. وفى كل الأحوال فإن الأمر يقتضى موافقة الرئيس ناصر، فقد لايرغب فى أن يمشى زى عسكرى بريطانى على أرض مصرية فى الظروف القائمة.

إننى أتمنى أيضًا لو كان فى استطاعتى أن أضع علم قيادتى على السيارة التى تحملنى من القاهرة إلى العلمين. وربما لا تودون فى هذه الظروف أيضا رؤية علم عسكرى بريطانى على سيارة تحمل فيلد ماريشال قديم فى شوارع مدنكم.

أتصور أنك ستفهمنى، ولكنى أتصور أكثر أن الرئيس ناصر قد يستشعر - كجندى قديم - مشاعر جندى قديم.

أنتظر أن أسمع منك، مع كل التحية والتقدير، وأتطلع إلى لقائك وانضمامك إلى مجموعتنا خلال أيامنا فى العلمين وأرجو ألاّ تكون وقتًا ضائعًا بالنسبة لك.

«مونتى..».

□

ورفعت سماعة التليفون أتصل بـ «دنيس هاملتون» فى الـ «صنداى تيمس» فى لندن أستفسر منه عن السبب الذى دعا الماريشال أن يطلب ما طلب؟ وكان رده «أنك تعرف مزاج هؤلاء النجوم العسكريين الذين يتصورون أنهم قطع حية من التاريخ. وعلى أية حال فلماذا لا تعرض على الرئيس ناصر خطاب مونتى»، وقلت لدنيس «إننى أخشى أن أعرض الخطاب فيرفض الرئيس طلبات مونتى، وبعدها سوف تكون زيارته كلها لمصر مشوبة بنوع من الأسى وربما المرارة، وهو ما لا أريده».

واقترح «دنيس» أن أتصل بـ «مونتى» فى هامبشير - فى مزرعة قدمتها ملكة بريطانيا هدية بعد الحرب لماريشالها المنتصر لتكون مقرًا له وبيتًا، وكان فيها بالفعل وسط الحدائق بيت جميل.

وهكذا التقيت مباشرة لأول مرة مع الماريشال «مونتجمرى» على التليفون، وكان رجاؤه فى النهاية أن أعرض الأمر على «الرئيس ناصر»، وعلى أية حال فإنه يحس مقدمًا «أنه سيفهم ويقدر».

وفاجأنى «جمال عبد الناصر».

قدمت إليه خطاب «مونتجمرى» وقرأه، وإذا هو يقهقه ضاحكًا ثم يقول:

- «أنت لا تعرف هؤلاء العسكريين الكبار. هم أحيانًا مثل الطواويس تحب أن تنفش ريشها الملون خيلاء وزهوًا...

ثم أردف:

- « ابعث فقل له إننى لا أمانع فى أن يرتدى ملابس فيلد ماريشال. ولا أمانع فى أن يضع علم قيادته على سيارته. ولن أمانع حتى فى أن يجىء معه بـ «فرقة» موسيقى تعزف أمامه «مارشات» النصر!».

ولم أكن أصدق نفسى. ولم يصدق «دنيس هاملتون» حين اتصلت به تليفونيا أخبره بما حدث. وأما الماريشال «مونتجمرى» فقد قال لى بسعادة يختلج بها صوته: «ذلك ما كنت أتوقعه» وكرر الجملة مرتين!.

وهكذا نزل «مونتجمرى» من الطائرة بزى فيلد ماريشال فى الجيش البريطانى. وكانت السيارة التى تنتظره ترفع علم قيادته، وقد أرسله قبل أن يجىء هو ببضعة أيام.

ولم أذهب إلى المطار، فقد خشيت أن يفسر ذهابى لاستقبال «مونتى» على نحو لا أريده. واكتفيت بإرسال سيارتى وأحد مساعدى لكى يجىء بـ «دنيس هاملتون» إلى مكتبى. ودخل «دنيس» - وهو فى العادة هادئ وقور - متحمسًا ومنفعلاً يقول لى:

- «كان يجب أن ترى الماريشال. كان فرحًا مثل عصفور على غصن بعد العاصفة.

وقف ثلاث دقائق أمام مرآة الحمام فى الطائرة ليتأكد من بذلته وربطة عنقه وقبعته وعلامات الرتب على كتفه وشارات النياشين بالعشرات تغطى صدره!».

□

ووصلت إلى فندق سيدى عبد الرحمن فى اليوم التالى. كان «مونتجمرى» وقافلته كلها قد سبقوا فى الصباح الباكر. ولم يمكث الماريشال فى الفندق أكثر من دقائق، ثم طلب أن يركب الهليوكوبتر فى جولة عامة حول أطراف ميدان القتال، وكان معه رئيس أركان حربه ـ الجنرال «ليس» ـ ومدير عملياته ـ الجنرال «هوروكس» ـ ومدير مخابراته ـ البريجادير «مانسيرج».

وكان أول من لقيت فى ردهة الفندق اللواء «حسن البدرى» ـ وهو يومها المؤرخ الرسمى للجيش المصرى، وأحد أساتذة التاريخ العسكرى الكبار فى مصر ـ وكانت قيادة القوات المسلحة قد اختارته مرافقا وضابط اتصال مع مجموعة الماريشال «مونتجمرى». وسألت اللواء «البدرى» عن الماريشال، ورد بنبرة استلفتت نظرى قائلا:

ـ «سوف تجده هناك مع أصدقائه على الشاطئ أمام الفيللا المخصصة له».

وسألته عما إذا كان هناك شىء؟ وانفجر اللواء «البدرى» كما لو أنه كان ينتظر من يسأله لكى يقول كل ما عنده مرة واحدة. لم يكن راضيًا عن الطريقة التى يتصرف بها «مونتجمرى» معه ومع مساعد له من الضباط المصريين وقال اللواء «البدرى» بشىء من الضيق:

ـ «إنه يتصرف كما لو أنه الإسكندر الأكبر أو نابليون.

لقد ذهب إلى الهليوكوبتر فركبها مع ضباطه ولم يدع أحدًا منا معهم. ثم عاد إلى الفندق لتناول غدائه وجلس هو وضباطه على المائدة وحدهم ولم يطلبوا إلى أحد منا الانضمام إليهم».

ثم أضاف اللواء «البدرى» بغضب:

ـ «الشهرة أدارت رأسه دون مبرر حقيقى. ورأيى أن «روميل» كان عسكريا أعظم منه. ورأيى أيضًا أنه أخذ حق غيره، فإن انتصاره فى العلمين كان فى الواقع من صنع الجنرال «أوكنلك» الذى سبقه على رأس الجيش الثامن، وجاء «مونتجمرى» فحصد ثمار ما زرع «أوكنلك»، وهو الآن يتباهى ويتصرف كأنه البطل الوحيد للعسكرية فى الحرب العالمية الثانية!».

وقلت للواء البدرى «إننى أفهم مشاعره، وربما فاتت «الأصول» على الماريشال بالسهو أو لعلها «جليطة» ماريشالات. ومع ذلك فإننى سوف أجد وسيلة لإزالة الحساسيات».

وتوجهت نحو شاطئ البحر أسير على الرمال، وهناك أمامى كان ماريشال العلمين وسط مجموعة من خمسة رجال: ضباطه الأربعة و«دنيس هاملتون».

ولم يكن «مونتجمرى» يرتدى زى فيلد ماريشال، وإنما يرتدى بنطلونًا وقميصًا وفوقه بول أوفر كاكى اللون.

وبينما كان «دنيس» يقدمنى له لاحظت على الفور قصر قامته، ثم أنفه البارز المدبب، ثم صوته ونبرة الصوت ـ الطبقة مرتفعة والنبرة سريعة وقال لى «مونتجمرى» على الفور.

ـ «عرفت أنك كنت هنا أيام المعركة، فكيف لم نلتق؟»

وقلت:

ـ «فيلد ماريشال.. لقد كنت أنا مساعد مراسل صحفى تحت التدريب وكان عمرى تسعة عشر عامًا، وأنت وقتها قائد الجيش كله..»

وقال هو بسرعة

ـ «كان عمرى وقتها ثمانية وخمسين عامًا، وكنت جنرالا فقط»!

وجلست معهم على شاطئ البحر، وطالت جلستنا أكثر من خمس ساعات، حتى الساعة العاشرة!

| |

بعد الدقائق العشرة الأولى من الجلسة كدت أشارك اللواء «حسن البدرى» فى نفوره من «مونتجمرى». بدا لى رجلا يمارس قوة تاريخه وشهرته على نحو يكاد يصل إلى حد التسلط. مازال يعامل جنرالاته الذين جاءوا معه ـ بعد ربع قرن من

المعركة ـ وكأنه مازال فوقهم والمعركة من حولهم. صحيح أنهم جميعًا كانوا ينادونه «مونتى»، ولكن الحب الواضح كان مختلطًا برهبة واضحة هى الأخرى. وكانت عباراته سريعة وحركة يديه تتابع إيقاع عباراته وأحيانًا تسبقها، ثم طبقة الصوت ونبرته.

ولقد بدأ كلامه معى بمجاملات عادية لجهدى فى ترتيب زيارته. سعادته بالمجىء إلى العلمين بعد كل هذه السنين. شكره «للرئيس ناصر» على استجابته لما طلب. تقديره للجيش المصرى الذى عامله منذ اللحظة الأولى كـ «فيلد ماريشال»: بعثة لاستقباله فى المطار ـ مرافقان عسكريان وسيارات وهليكوبتر ـ وتصريح بأن يذهب حيث يشاء بدون قيود.

ولم تكن هناك مشكلة فى شىء من هذا كله، ثم ما لبثت المشكلة أن جاءت حين واصل سياق كلامه:

ـ «بالتأكيد إن الجيش المصرى الآن مختلف تمامًا عما عرفته. ربما لا تعرف أننى خدمت فى مصر سنة ١٩٣٣. كنت قائد كتيبة معسكر «مصطفى باشا» فى ستانلى وقضيت فى الإسكندرية فترة من الزمن سعدنا بها».

(وأدركت أن صيغة الجمع هنا تعود عليه وعلى زوجته «بيتى» التى ماتت بعد الإسكندرية بثلاث سنوات).

ثم استطرد «مونتجمرى»:

ـ «هل يقدم الروس للجيش المصرى ما يحتاجه من أسلحة حديثة؟... هناك خبراء روس عندكم فهل يعطون خبرتهم بدرجة مرضية؟».

ولم ينتظر منى ردًا، وإنما واصل كلامه:

ـ «لا أظن أن الروس لديهم كثير يعطونه لكم. ليس لأنهم لا يريدون ولكن لأنه ليس لديهم منه شىء.

ما تحتاجونه أسلحة سرعة لأن الصحارى من حولكم مفتوحة.

وما تحتاجونه هو تدريب حرب صحراء لأن معارككم كلها سوف تكون فى الصحراء.

الصحراء مثل البحر فضاء مفتوح لا بد فيه من المناورة الواسعة والسريعة، والروس لا يفهمون ذلك، فهم لم يحاربوا فى الصحراء وبالتالى لم يفكروا فيها ولم يستعدوا لها ولم يصنعوا من أجلها أسلحتهم.

الروس تعوّدوا تاكتيك «وابور الزلط»، كتلة ثقيلة تزحف ببطء وتهرس كل ما تجده أمامها.. تسويه بالأرض، وهذا لا يصلح للصحراء. بالطبع ليس ذنبهم وإنما هى تجربتهم تعلموا منها، ولا يتعلم أحد إلا من تجربته».

ثم بدأت «جليطة الماريشالات».

قال «مونتجمرى» وعيناه تلمعان بشقاوة فى شمس الغروب وهى تنزلق وراء البحر:

ـ «لقد سمعت حكاية عنكم وعنهم وقت حرب السويس، ولا أعرف إذا كانت صحيحة أم لا؟

تذكر أن الإسرائيليين هجموا عليكم آخر أكتوبر سنة ١٩٥٦، ويقال إن قيادتكم أرسلت إلى القيادة السوفييتية فى موسكو تسألها: «لقد هاجمنا الإسرائيليون، وبدأت القيادة المصرية تقلق فأرسلت إشارة ثانية إلى موسكو: «الإسرائيليون يتقدمون فماذا نفعل؟» وجاء الرد: اتركوهم يتقدمون»!ـ ووصل الإسرائيليون إلى قناة السويس واستبد القلق بالقيادة المصرية وعادت تبعث إلى الروس إشارة تقول: «وصل الإسرائيليون إلى قناة السويس وهم مازالوا يتقدمون، ماذا نفعل؟» ـ وجاء الرد: «نحن الآن فى أوائل نوفمبر وسوف يبدأ هطول الثلوج وسوف يستحيل تقدمهم بعد ذلك، إن الجيش الإسرائيلى كله سوف يقع فى حصار الجليد ولن يقدر على الحركة، وعندها تبدءون فى استنزافه»!

تصوروا.. الثلوج فى سيناء... كأن سيناء هى سيبيريا!»

وراح «مونتجمرى» يضحك وتابعه الآخرون، ولم أجد فى نفسى ما يدعوننى إلى مشاركتهم فيه. والحقيقة أن القصة بدت لى غليظة حتى كنكتة!

وقلت لـ «مونتجمرى»: إن الجيش المصرى سنة ١٩٥٦ حارب فى سيناء وبشجاعة إلى الحد الذى كان مطلوبًا منه بالضبط، لأن المعركة الأساسية كانت فى مواجهة الغزو البريطانى الفرنسى لمنطقة القناة».

وبدت لى هذه الجملة التى قلتها دفاعية، ومع أنها كانت صادقة فى تصوير ما حدث إلا أن رنينها فى أذنى بعد أن قلتها بدا لى «إنشائيا»! وزاد شعورى بعدم الارتياح. وأحس «مونتجمرى» بشعورى لأنه استطرد يقول:

«إننى بالطبع أعلم أن القصة لم تحدث كواقعة، لكنها رويت لى كنكتة. وربما سمعت عن موقفى من حرب السويس. لقد علمت بالخطة وأنا فى حلف الأطلنطى أقود قواته البرية فى أوروبا، وأبديت اعتراضى عليها، وكان أول أسباب اعتراضى أنه ستكون حربا لا أخلاقية».

وحاولت أن أساعد على تجاوز جو الحرج فى محاولة لإنقاذ الحديث حتى لا يتعثر فى الدقائق العشر الأولى من سياقه، وهكذا سألت «مونتجمرى» عن العلاقة «بين الحرب والأخلاق» ـ وتدفق «مونتجمرى» وتجلى. وأعترف أننى استعدت إعجابى به قبل أن تنتهى الجلسة التى طالت خمس ساعات على شاطئ البحر وسط ميدان معركته التاريخية العظمى التى كانت هى و«ستالينجراد» مفترق الطرق فى الحرب العالمية الثانية!

□

قال الماريشال «مونتجمرى»:

ـ «الناس عادة لا يفهمون الحرب.. يظنون أن الحرب هى ما يرونه على ظاهر الحوادث فى ميادين القتال... ممارسة للعنف عند الحد الأقصى منه... صدام بالنيران الكثيفة تتدفق منه دماء غزيرة. وهذه ليست القضية.

إنك سألتنى عن علاقة الحرب بالأخلاق.. أليس كذلك؟

نعم العلاقة وثيقة. أخلاقية الحرب هى التى تصنع مشروعية الحرب. ومشروعية الحرب تحقق لك على الفور ميزتين أساسيتين لا تستطيع أن تحارب بغيرهما.

الميزة الأولى: أن الرأى العام فى وطنك يكون مقتنعًا أنك تقوده إلى الحرب لأنها الوسيلة الوحيدة الباقية أمامك للدفاع عن حقوق مشروعة: أمن أو مصالح. مهم جدًا أن يكون الرأى العام فى وطنك معبأ بالكامل وعن اقتناع بأن الحرب لم يكن منها مفر. إنك لم تدخل الحرب للحرب، ولم تدفع تكاليفها من الأرواح والثروات عبثًا، ولكن فى طلب حقوق مشروعة. لا تستطيع أن تشن الحرب لمجرد أنك رفعت العلم وطلبت إلى الأمة أن تتبعك. الحماسة بنت لحظتها، ثم تتبدد شأنها شأن أى حالة نفسية، والحرب ليست حالة نفسية وإنما هى عبء طويل ممتد لا بد أن يتقبله الناس وأن يضحوا فى سبيله، ولن يفعلوا إلا إذا آمنوا بيقين أن الحرب مشروعة، أى أخلاقية.

والميزة الثانية: أن مشروعية الحرب تعزل عدوك عن بقية العالم. ليست هناك أمة فى هذا العالم وحدها خصوصًا فى هذا العصر. أخلاقية الحرب - مشروعية الحرب - تجعل حتى الحلفاء العسكريين لعدوك يترددون قبل دخول المعركة معه لأنهم لن يستطيعوا إقناع شعوبهم. التاريخ ملىء بحروب خاسرة ضاعت لأن الذين شنوها عجزوا عن تقديم أسباب مشروعيتها لشعوبهم ولغيرها من الشعوب قبل أن تبدأ الطلقة الأولى. الصراع على العقول يبدأ قبل الصراع على الأرض. إذا اقتنع العقل مشى وراءه الضمير ودخلت الأمة إلى الحرب واثقة من هدفها.

بالطبع أنا أعرف أن كل طرف من أطراف أى حرب يرى لها مشروعية خاصة بها. والرؤى تتصادم.

خذ حالة صراعكم مع إسرائيل.. الصراع العربى الإسرائيلى.

فى إسرائيل يعتقدون أن لديهم مشروعية - أخلاقية - تحقيق حلم وطنى قومى لليهود يجمعهم من الشتات فى كل أنحاء العالم.

من ناحية أخرى أنتم ـ العرب ـ تعتقدون أن لديكم مشروعية ـ أخلاقية ـ الحفاظ للشعب الفلسطينى على أرضه، ثم تحقيق امتداد وحدة العرب، إذا كان فهمى صحيحًا.

هنا يتصادم ما قد يبدو مشروعيتين متناقضتين للحرب.

المهم أى الطرفين يستطيع أن يرسخ يقينه بمشروعيته أكثر؟ ثم أى الطرفين يستطيع نقل هذا اليقين إلى غيره على نطاق أوسع؟

أنت ودنيس (مشيرا إلى «دنيس هاملتون») تتصورون أن ما تكتبونه فى مقالاتكم ليس مهما عندما تجىء الحرب. ليس هذا صحيحًا. أنا لا أحتاج إلى أن «ألمع» غروركما كصحفيين. كل الصحفيين لديهم غرور أنهم يعبرون عن رأى عام ضخم أو يقودون هذا الرأى العام الضخم. غرور الصحفيين أكبر من غرور الجنرالات وحتى الماريشالات! ـ أنا لا أحتاج كما قلت أن «أحسس» على هذا الغرور، ولكنى أقول عارفًا ما أقول إن ما تكتبونه مهم. إذا استطاع أن يقنع وإذا استطاع أن يعبئ. لماذا؟ لأنه كما قلت لا تنجح الحرب دون الإقناع العميق بمشروعيتها ـ بأخلاقيتها.

طبيعى أن مشروعية الحرب ـ أو أخلاقيتها ـ لا تكفى لتأكيد النصر فيها ـ أعرف ذلك. التاريخ أيضا ملىء بأهداف مشروعة عجزت عن الوصول إلى ما تمنته رغم أخلاقية ما تمنت.

أنا أقول شيئا واحدًا ليس أكثر: أقول إن مشروعية الحرب هى الأرض التى يتحتم أن يتم النصر على أساسها... بدونها يمكن أن تكون لطرف ما «غلبة»، لكن «الغلبة» غير «النصر»، و«الغلبة» معتمدة على القوة ومستغنية عن المشروعية لا تصنع سوى أنها تنهى قتالا لكى تفتح الباب لقتال جديد حين يتمكن المغلوب بالقوة من توفير أو استعادة بعض أسبابها فى يده».

□

واستطرد «مونتجمرى»:

- «تلاحظ هنا أننى فرقت بين القتال والحرب.

القتال جزء من الحرب.. هو الجانب الدموى للحرب.

إن «كلاوزفيتز» كان على حق فى مقولته قبل قرابة قرنين من الزمن «إن الحرب هى الدبلوماسية بوسيلة أخرى».. هذا صحيح تمامًا.

الدبلوماسية والقتال كلاهما وجه مختلف لقصة الحرب.

الحرب - بما فيها الدبلوماسية والقتال - جهد سياسى من أجل تحقيق الهدف الإستراتيجى لدولة من الدول. تحقيق الهدف الإستراتيجى هو الحرب. القتال شىء قد يكون ضروريًا فى لحظة من اللحظات على طريق تحقيق هذا الهدف الإستراتيجى.

أنت تحاول إقناع خصمك بمشروعية مطلبك. وتحاول أن تفرض عليه هذا الاقتناع. وتقاتله لكى يقبل، إذا عجز عن الاقتناع بالدبلوماسية.. كلها خطوات على طريق واحد. طريق الحرب بالفكرة أو بالمدفع.

متى تحقق الحرب هدفها؟ عندما يضطر عدوك إلى القبول برأيك أو عندما يخضع له بالمدفع، ثم يتواصل العمل السياسى لكى «يختم» ما توصل إليه الرأى أو المدفع.

الحرب ليست دبابات تتصادم، وليست مدافع تهدر، وليست جنود مشاة يحتلون مواقع، وإنما هى إرادة تعلو فوق إرادة.

هذا هو الفارق بين القتال والحرب.

بالطبع إن الحرب يجب أن تكون لها أطرها ترسمها جميعًا مشروعية الحرب، أخلاقيتها.

إذا كانت مشروعية الحرب كما قلت هى التعبير الصحيح عن أمن ومصالح، إذن فهى نفسها التى ترسم الأطر.

الأمن والمصالح تحدد إستراتيجية الدولة العليا. هذا إطار. يجىء بعده إطار ثان هو إطار الإستراتيجية فقط.

يجىء بعده إطار ثالث وهو إطار التاكتيك، الدبلوماسية والقتال والإعلام وغيرها وغيرها.

سوف أضرب مثالا عمليًا بنا نحن فى الغرب.

الإستراتيجية العليا لدينا هى مجتمع الأطلنطى.. ما عبّر عن نفسه بحلف الأطلنطى. أمم وشعوب على جانبى المحيط فى أمريكا الشمالية وفى أوروبا الغربية ترى أن أمنها مترابط ومصالحها متصلة... مشروعها هو مجتمع على الناحيتين من الأطلنطى حر وقوى وقادر بحيث يستطيع أن يواجه مجتمعًا آخر يهدده (تمثله الكتلة الشرقية يعبر عنها حلف وارسو). نحن نريد صنع هذا المجتمع الأطلنطى، ونريد إزالة تناقضاته الداخلية وتدعيم قوته لكى يواجه «الآخرين» عليه أولا أن يواجه «الآخرين»، وعليه ثانيًا أن يحصل على تأييد غيرهم، وعليه ثالثًا أن يمنع هؤلاء «الآخرين» من الحصول على ميزات مع الغير تكون على حسابه».

وسألنى «مونتجمرى»فجأة:

- «ما هى إستراتيجيتكم العليا هنا؟».

وقلت:

- «تحقيق الوحدة العربية بين شعوب الأمة الواحدة على أى مستوى تسمح به الظروف الموضوعية لهذه الشعوب العربية.

وأومأ «مونتجمرى» برأسه وقال:

- «معقول...»

ثم استدرك بسرعة:

- «أنا أقول «معقول» من موقع نظرى فقط، لكنى لا أوافق أو أعارض، فأنا لا أعرف، وأنتم أدرى بضروراتكم... لكنى أسألك هل بين الشعوب العربية ما يكفى لتحقيق هذا المشروع الكبير لإستراتيجيتكم العليا؟... فى الغرب تماثلت مجموعة القيم الاجتماعية والسياسية وتماثلت المصالح وتماثل الأمن بعد صراعات داخلية طويلة أصبحت درجة النمو بعدها متماثلة أو متقاربة».

وقلت:

- «فى العالم العربى أكثر مما لديكم فى مجتمع الأطلنطى.. ألا تكفى اللغة الواحدة والثقافة الواحدة والجغرافيا والتاريخ؟».

وقاطعنى:

-«تكفى بالتأكيد. ولكن لماذا لم تتحقق الوحدة حتى الآن ولو حتى فى إطار مبدئى؟»

وقلت:

- «هى نفسها النقطة التى وحدت بينكم بعد طول الصراعات.. أقصد أن درجة النمو كانت متماثلة عندكم، ونحن هنا مازلنا نعيش فى مرحلة الصراعات الداخلية فى قلب مشروع النظام. لاحظ أن مشروع مجتمع الأطلنطى نما ونضج عبر قرنين من الزمن تقريبًا ، من «نابليون» إلى «هتلر».

وأما المشروع العربى فقد بدأ بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية. تستطيع أن تقول إن البداية العملية والفعلية جاءت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ فى مصر... ربما بالتحديد بعد السويس».

وأومأ «مونتجمرى» مرة أخرى برأسه، ثم عاد إلى مجرى حديثه الأصلى.

انتقل - بعد الإستراتيجية العليا - إلى إستراتيجية الخطوات الكبرى الأساسية على طريق تنفيذ الإستراتيجية العليا.

كان المثال الذى ضربه لتجسيدها هو سياسة «ونستون تشرشل» لبناء علاقة

خاصة بين بريطانيا والولايات المتحدة... دعامة على هذا الجانب من المحيط ودعامة أخرى على الشاطئ المقابل، والعلاقة الخاصة مرتكز للجسر بعرض المحيط.

ثم قال «مونتجمرى»:

- «وبعد هذا كله يجىء إطار الجهد التنفيذى.. فيه القتال وفيه الدبلوماسية وفيه حركة كل يوم على نفس الطريق إلى ذات الهدف.. هدف الإستراتيجية العليا الذى هو السلام. نظام للسلام يؤكد مشروعية - أخلاقية - أمنك ومصالحك.

تجد فى النهاية أن الحرب هى لصنع السلام. وتجد أن القتال نفسه هو فى الواقع لتقريب يوم السلام».

ثم هز «مونتجمرى» رأسه وكأنه يتذكر. وقال:

- «إننى قاتلت كثيرًا فى حياتى.. شبعت من القتال... هنا فى هذا المكان قاتلت... قاتلت بشراسة ... لكنى فى العلمين ساعدت على تقريب يوم السلام».

وتوقف فجأة، ثم صاح:

- «أوليفر (يقصد الجنرال «أوليفر ليس») أطلب لى كوب ماء»!

□

كان الظلام قد نزل على البحر وعلى الشاطئ، وكنا مانزال جالسين فى مقاعدنا على الرمال والضوء يصل إلينا من أنوار الفيلا التى ينزل فيها الماريشال.

وسألنى «مونتجمرى»:

- «هل تعرف القصة الحقيقية لمجيئى إلى العلمين؟».

قلت:

- «سمعت وقرأت بعض أطرافها، لكن القصة عندك بالتأكيد أدق وأشمل».

وهمهم الماريشال بنبرات حادة ثم قال:

- «حسنًا سوف أرويها لك. إننى لم أكن مرشح ونستون (يقصد «ونستون تشرشل») لقيادة الجيش الثامن. جيش الصحراء. كنت مرشح بروك (يقصد الماريشال «آلان بروك» رئيس أركان حرب الإمبراطورية وقتها). كانوا يبحثون عن جنرال يقود الجيش الثامن أمام «روميل».

فى البداية كان هناك «ويفل» قائدًا عامًا و«كننجهام» قائدًا ميدانيًا، واستطاع «روميل» أن يلعب بهما.

واضطرت وزارة الحرب إلى تغيير الاثنين. وجاء «أوكنلك» ومعه «ريتشى» أولهما قائد عام والثانى قائد ميدانى. ومرة ثانية لعب بهما «روميل»؛ ساقهما أمامه من الغزالة فى ليبيا حتى هنا فى العلمين.

وراحوا يفكرون فى قيادة جديدة.

كان «وينستون» عندكم هنا فى القاهرة ومعه «آلان بروك». كانا فى بيت السفير البريطانى «لامبسون». أصبح اسمه بعد الحرب «لورد كيلرن». كان سفيرًا عظيمًا ولو أنكم فى مصر كنتم تكرهونه.

طرح «آلان بروك» على «تشرشل» اسمى، ورفض «تشرشل» وقال إننى لا أعرف شيئا عن حرب الصحراء، وهو يريد خبيرًا فى حرب الصحراء.

اقترحوا عليه اسم الجنرال «كوربيت»، وكان أكبر قادة الجيش فى مجموع الجيش الثامن، لكن «بروك» اعترض عليه وله الحق. كان فى رأس «كوربيت» قطعة من الشحم وليس مخًا. «بروك» كان على حق.

قرر «تشرشل» بعد ذلك اختيار الجنرال «جوت»، وكان أيضًا من مساعدى «أوك» (يقصد الجنرال «أوكنلك») وأرسلت إشارة إلى «جوت» أن يجىء من العلمين إلى القاهرة لمقابلة «تشرشل» لكن طيارًا ألمانيًا أصاب الطائرة التى استقلها من مطار فى «برج العرب» إلى مطار «هليوبوليس» فى القاهرة، وقتل المسكين (الجنرال «جوت») وهو فى الطريق إلى القاهرة لمقابلة «تشرشل».

وهكذا وجد «تشرشل» نفسه على مضض يقبل اسمى قائدًا للجيش الثامن بناء على إلحاح «آلان بروك».

مسرح الصحراء استهلك كل الجنرالات قبلى..

كانت مصر تستهلك جنرالات بسرعة غريبة... أليس كذلك؟!».

وتوقف «مونتجمرى» وأحسست أنه خلال الظلام النازل يحاول أن يستطلع على ملامحى شيئا، وعاد يكرر:

- «غريبة... أليس كذلك؟».

ولم أعلق بشىء. وعادت إليه نبرة طفل يحاول أن يستمتع بشقاوته. وراح يلح:

- «لماذا حدث لهم هذا فى مصر؟».

قلت وأنا أحاول أن أشده إلى الحديث بأقل تكلفة:

- «ربما هو سحر النيل»!

قال بسرعة:

- «آه... وصلت إلى النقطة الحساسة. «كليوباترة» ضيعت «مارك أنتونى». كان من أعظم قادة الرومان لكن غرامه فى مصر أنساه روما.

قيل لى - وهى مجرد إشاعات - إن الجنرال «ريتشى» كان واقعًا إلى قمة رأسه فى غرام سيدة مصرية».

قلت:

- «سمعت ذلك أيضًا، وسمعت غيره.. كان «ويفل» - طبقًا لما سمعت والعهدة على الرواة - غارقًا فى غرام سيدة مصرية مشهورة، وكان يبعث لها بقصائد شعر عاطفى كل صباح مع باقة من الورد يقطفها بنفسه.. هناك شريحة فى مجتمع القاهرة لها القدرة على إفساد القديسين وليس الجنرالات فقط».

قال:

- «لقد كان من أول قراراتى حين جئت إلى هنا أن أبتعد عن القاهرة. ميدانى فى

الصحراء وحياتى يجب أن تكون فيها. أنا لا أشرب ـ كما تعرف ـ ولا أدخن ولا أحب السهر، والطبقة العليا فى مصر تلك الأيام كانت لها حياة مترفة وحافلة».

قلت:

ـ «خصوصًا فيما يتعلق بجنرالاتكم... فى ذلك الوقت كان هناك صراع بين القصر وحكومة الأغلبية، حكومة حزب «الوفد». وكلاهما كان يحاول أن يكسب الإنجليز إلى صفه. وفى حين أن «الوفد» ركز على السفارة وعلى «لامبسون»، فإن القصر ركز على القادة العسكريين فى مصر، وهكذا أصبح الجنرالات ضيوفًا شبه دائمين على الأمراء والنبلاء... والأميرات والنبيلات وسيدات المجتمع الراقى! أيضًا. واختلطت الحدود».

وقال «مونتجمرى»:

ـ «اختلاط الحدود يمكن أن يسبب كوارث... دعنا نعود إلى ما كنا نتحدث فيه»!

□

وشرب الماريشال «مونتجمرى» كوب الماء الذى جاءه مرة واحدة... ولكن ببطء شديد. ثم استأنف من حيث توقف.

ـ «إن ونستون («تشرشل») أصدر قرار تعيينى قائدًا ميدانيًا للجيش الثامن، ثم اختار الجنرال «ألكسندر» قائدًا عامًا. طلبت من «ألكسندر» أن يبقى فى القاهرة ولا يجىء إلى الميدان إلا إذا دعوته.. لاحظ أن «ألكسندر» كان تلميذى فى كلية أركان الحرب، وأن يصبح رئيسى فإن ذلك لا يغير من الحقائق شيئا. كنت أستاذه وهذا يكفى، وتحددت علاقتنا منذ اللحظة الأولى.

عندما أصدر «تشرشل» قرار تعيينى بعد موافقة وزارة الحرب، سافر من مصر إلى الهند ولم أكن أنا قد وصلت بعد إلى القاهرة. وهكذا لم ألتق به يومها. كان راجعًا إلينا من الهند بعد عشرة أيام قبل أن يعود إلى بريطانيا.

قبل أن يرجع إلينا ـ أى فى مدة عشرة أيام ـ كانت أحوال الجيش الثامن كلها قد

تغيرت. إن روح أى جيش من صنع قائده وليس فقط من محصلة عدد الفرق والألوية والكتائب.

كانت بريطانيا تحتاج إلى نصر، فقبل العلمين لم تحقق جيوشها أى انتصار ضد «هتلر». وكنت أشعر أنني أستطيع أن أعطى بريطانيا النصر الذى تريده. وفعلت. بريطانيا التى لم تذق حلاوة النصر قبل العلمين، لم تذق مرارة الهزيمة بعد العلمين.

كان ونستون («تشرشل») هو الآخر يحتاج إلى نصر لكى يعزز موقفه إزاء الأمريكيين الذين دخلوا الحرب أخيرًا. وكان «تشرشل» يبنى إستراتيجية الحرب كلها على أساس القوة الأمريكية وضخامة مواردها.

«تشرشل» كان فى موقف ضعيف فى بريطانيا، لكن رصيده فى أمريكا كان لا يزال كبيرًا، وأهم بند فى رصيده أن فرانكلين («روزفلت») - الرئيس الأمريكى - كان معجبًا به.

كان «تشرشل» يعرف كيف يعامل «روزفلت» ويستثير خياله.

تعرف كيف التقى الاثنان لأول مرة أثناء الحرب على ظهر بارجة بريطانية فى وسط المحيط قرب «نيوفوندلاند» وأصدر بيان الأطلنطى الشهير سنة ١٩٤١ (البيان الذى أعلن باسم الحلفاء أن هدف الحرب هو تحرير البشرية من الظلم والجهل والمرض.. إلخ!!).

جاء «روزفلت» إلى ظهر البارجة البريطانية، واستقبله «تشرشل» وصحبه إلى جناحه واتفقا على اللقاء قبل العشاء. لكن «روزفلت» لم يطق صبرًا. كان - كما تذكر - مشلولا يتحرك على كرسى ذى عجلات. وراح يدفع عجلات كرسيه إلى جناح «تشرشل» وأفسح له الحرس، ومنعهم من إخطار رئيس الوزراء.

ودخل الجناح فعلاً ولكن «تشرشل» لم يكن فى غرفة النوم وإنما كان فى الحمام عاريًا كما ولدته أمه يمسك فى يديه فوطة يجفف بها ما بقى من قطرات الماء على جسمه وشعر رأسه. ولم ينتبه «تشرشل» إلا و«روزفلت» يقهقه بأعلى صوته إعجابا بالوضع الذى ضبط فيه مضيفه، ثم قال له سعيدًا وجذلانًا:

ـ «لقد فاجأتك على غير انتظار».

ورد «تشرشل» بسرعة قائلاً:

ـ «سيدى الرئيس.. إن رئيس وزراء صاحب الجلالة الملك ليس لديه ما يخفيه عن رئيس الولايات المتحدة».

وراح «روزفلت» طوال الليل يروى القصة. كان فى استطاعة «تشرشل» أن يأخذ كل شىء من «روزفلت» بعدها.

وكان «تشرشل» محتاجًا أن يأخذ. وأخذ!

«تشرشل» كان يواجه نقدًا عنيفًا حتى داخل حزبه: هزائمنا فى أوروبا كانت معلقة على أكتافه، وكذلك هزائمنا فى الشرق الأوسط. وكانت الهزيمة فى اليونان جرحًا بالغًا.. كان التدخل فى اليونان حماقة كبرى جرته إليها نصائح «أنتونى إيدن». «إيدن» رجل لا يصلح لشىء ولا أعرف كيف أصبح رئيسًا للوزراء بعد «تشرشل».

«تشرشل» فى ذلك الوقت حقق هدفين كبيرين بسبب علاقته الخاصة بـ «روزفلت».

الهدف الأول هو إشراك أمريكا فى الحرب. وقبلها كان قانون الإعارة والتأجير وحجم المساعدات الأمريكية الكبيرة فى مجهودنا الحربى.

والهدف الثانى أن «ونستون» («تشرشل») أقنع «روزفلت» بأهمية مسرح العمليات الأوروبى وأولويته على المسرح الآسيوى. كانت هناك مدرسة فى أمريكا يتزعمها الجنرال «ماك آرثر» وأصدقاؤه تريد أن تركز على اليابان أولاً فى المحيط الباسيفيكى وفى آسيا، لكن «ونستون» («تشرشل») نجح فى إقناع «روزفلت» بأن أوروبا أولاً و«هتلر» قبل «توجو» (رئيس وزراء اليابان الذى قادها إلى الحرب).

كانت العملية «تورش» أول عملية كبيرة يقوم بها الأمريكيون («تورش» الاسم الرمزى لعملية نزول قوات الحلفاء فى شمال أفريقيا) وكان الإعداد لها قد استكمل

وعهد بقيادتها إلى «آيك» (الجنرال «دوايت أيزنهاور»). كان مفروضًا فى البداية أن أكون نائبًا لـ «أيزنهاور» فى العملية «تورش». وفجأة تغيرت أوامرى وتلقيت تعليمات بالسفر إلى القاهرة لقيادة جيش الصحراء.

فى اللحظة التى وصلت فيها إلى مصر كنت أعرف أن مسار الحرب كله قد انتقل إلى يدى.

سوف أشرح لك لماذا؟

فى تلك الفترة كان البحر الأبيض هو بؤرة الحرب كلها.

الألمان كانوا يتقدمون فى روسيا وقد وصلوا إلى القوقاز، وإذا اندفعوا منها فقد يستطيعون عبور إيران والعراق وسوريا إلى فلسطين.

و«روميل» يستعد لهجوم حاسم فى العلمين يصل به إلى النيل ـ الإسكندرية والقاهرة ثم السويس وسيناء وفلسطين ـ وإذا التقى هناك بالقوات الزاحفة ممن القوقاز وقع الشرق الأوسط كله تحت السيطرة الألمانية.

كان لا بد من وقف هذه الاحتمالات وعكس اتجاهات التيار، وكانت خططنا المضادة كما يلى:

الأمريكيون سوف ينزلون فى شمال أفريقيا بالعملية «تورش».

إذا استطعت بالجيش الثامن أن أضرب «روميل» وأن أخرج القوات الألمانية من شمال أفريقيا كلها، فإن قواتى سوف تلتحم بالقوات الأمريكية المتقدمة من المغرب إلى تونس.

ساعتها أيضا سوف يصعب على الألمان أن يفكروا فى الاندفاع من القوقاز حتى فلسطين.

وإذا خرج الألمان من شمال أفريقيا وتوقف زحفهم فى القوقاز فإن البحر الأبيض سوف يصبح كله تحت سيطرتنا ويخف الضغط على مالطة، وهى قادرة على أن تسيطر على قلبه ـ من حيث موقعها ـ تمامًا.

هكذا كانت الصورة العامة كما رأيتها. وبالنسبة لى لم يكن هناك بديل غير النصر»

والتفت الماريشال مرة أخرى إلى الجنرال «ليس» يقول له:

- «أوليفر.. هل تذكر حين قابلتنى أول مرة فى العلمين وأطلعتنى على كل الخطط التى كانت معدة للانسحاب من العلمين؟».

وقال الجنرال «أوليفر ليس» بحماسة:

- «أذكر يا سيدى.. أذكر تمامًا»!

وعاد «مونتجمرى» يوجه حديثه إلىّ:

- «كانت «لديهم» خطط ليس للهجوم ولكن للانسحاب إلى الدلتا أولا - يظنون أن شبكة الرى فيها تعطيهم فرصة لتعطيل قوات «البانزر» (الألمانية) - وبعد الدلتا تنقسم القوات جزأين: جزء ينسحب إلى الجنوب (صعيد مصر) ثم وادى حلفا وحتى الخرطوم، والجزء الثانى إلى منطقة القناة ثم سيناء ثم فلسطين.

عندما مررت بالقاهرة ليلة واحدة فى طريقى إلى العلمين استضافنى «لامبسون» (السفير البريطانى) فى السفارة، وكانوا يحرقون الأوراق المهمة والحساسة.. ورأيت بعينى حالة الانهيار السريع».

وسألنى «مونتجمرى» على غير انتظار:

- «هل كنتم تعرفون بما يجرى؟ هل كنتم على استعداد لمعارك تجرى فى الإسكندرية والدلتا والقاهرة والقناة؟».

قلت.

- «إذا صحت معلوماتى فإن الوزارة القائمة بالحكم وقتها لم تكن تعرف حقيقة الموقف العسكرى، وكانت لديها من السفارة دائمًا أخبار مطمئنة، ومع ذلك فإن رئيس الوزراء ساورته الشكوك يومًا، وهكذا اتصل بمحافظ الإسكندرية (كان

رئيس الوزراء هو «مصطفى النحاس» باشا، ومحافظ الإسكندرية هو «عبد الخالق حسونة» باشا) وسأله عما لديه، ولم يكن لديه كثير سوى أن أصداء المدفعية تسمع الآن فى سكون الليل فى الإسكندرية. وقال رئيس الوزراء للمحافظ: «إنه يتعين عليه إذا وجد الألمان يتقدمون أن يحول دون وقوع معارك فى الإسكندرية، وعليه أن يخرج من المدينة ليقابل الماريشال «روميل» ويسلمه مفاتيحها ويطلب إليه اعتبارها مدينة مفتوحة!

وبعد أن انتهى رئيس الوزراء من إلقاء تعليماته ـ وكانت على التليفون ـ وجد المحافظ نفسه أمام موقف محير:

فكيف يتسنى له أن يعرف بتقدم الألمان إلى الإسكندرية؟

وما وسيلته للحيلولة دون أن تصبح الإسكندرية ميدان قتال؟

ثم أنى له أن يذهب لمقابلة «روميل» فى وسط المعركة؟

ومفتاح المدينة؟ إن المحافظ لا يعرف أن المدينة لها مفتاح!».

وراح «مونتجمرى» يضحك، ثم أستأنف حديثه·

ـ «عندما راجعت الخطط وجدت أن هناك فرقتين بالكامل تحت اسم جيش الدلتا، وكان فى الخطط أنه إذا انسحب الجيش الثامن من مواقعه فى العلمين فإن خطوته الأولى سوف تكون «الالتحاق بجيش الدلتا». وسألتهم. «ماذا يفعل جيش الدلتا الآن؟» فقالوا لى «إنه يحتل مواقعه على ضفاف النيل وفروعه وقنوات الرى المتصلة بها ليخوض معركة تعطيل ريثما يستطيع الجيش الثامن أن يتم انسحابه ثم يتوزع: نصفه فى اتجاه فلسطين إلى الشرق ونصفه فى اتجاه السودان إلى الجنوب»!

واتصلت بالقائد العام «إلكسندر» فى القاهرة وقلت له: إن الجيش الثامن لن ينسحب إلى الوراء. هذه العقلية التى تؤثر التراجع على القتال انتهى وقتها وليس لها فى جدولى موضع» ـ وقال لى: «حسنًا.. كلنا نتمنى ذلك» ـ وقلت له «إن الجيش الثامن سوف يقاتل فى العلمين ويموت فى مكانه أو ينتصر فى مكانه» ـ قال «إننى

سعيد بما تقوله» ـ رددت عليه بأننى لم أقصد إسعاده ولكنى أريد موافقته على أن يلتحق «جيش الدلتا» بـ «الجيش الثامن» فى العلمين ولا داعى لتضييع فرقتين بالكامل فى الدلتا تنتظران جيشًا لن ينسحب إليهما» ـ «ألكسندر» فقد صوته. لم يستطع أن يرد. صحت فيه أوقظه من صمته: «ألكيس.. هل تسمعنى؟ أريد جيش الدلتا هنا مع جيش الصحراء ليشترك معنا فى ضرب روميل. هل فهمتنى؟» وأجاب كأن صوته يصدر من قاع بئر: «حسنًا يا سيدى».. وبدأ جيش الدلتا تحركه إلى مواقعنا للقتال. مجرد وصول طلائع جيش الدلتا إلينا جعل كل القوات تعرف أنه فعلا «القتال حتى الموت أو حتى النصر»، أما أن يقاتل جيش من الجيوش وعيونه فى ظهره فمعنى ذلك أنه لم يعد يفكر فى القتال. حذار من وضع جيش فى موقف تكون عيونه فى ظهره. سوف يجرى فى اتجاه رؤيته تمامًا عند أول لحظة خطر!

أوليفر!...»

نادى الماريشال رئيس أركان حربه فجأة كما لو كان نداؤه عليه تكملة مباشرة لحديثه، ثم سأل:

ـ «كم الساعة الآن؟».

وقال الجنرال السير «أوليفر ليس»: «العاشرة إلا خمس دقائق».

وقال الماريشال: «لقد حان موعد النوم. هيا إلى فراشكم وحذار أن يذهب أحد منكم إلى الفندق ليكمل السهرة فيه. أمامنا غدًا يوم من العمل ويجب أن تكونوا مستعدين».

وقام من مكانه، وقمنا، وسألنى: «أنت معنا غدًا؟».

وقلت بلهجة قلدت جنرالاته: «نعم سيدى الماريشال»!

وقال بجد وهو يتجه إلى غرفة نومه: «حسنا. إنك تتعلم الانضباط العسكرى بسرعة»!

□

صباح اليوم التالى كانت نقطة التجمع هى ردهة فندق سيدى عبد الرحمن والتقيت باللواء «حسن البدرى» وكان لا يزال ناقدًا لـ «مونتجمرى» ولكن لسبب جديد. ذهب إليه فى الصباح الباكر يناقش معه عمل اليوم وكان فيه بندان: طيران بالهليوكوبتر ونزول وصعود بها فى عديد من المواقع طبقًا لرغبة الماريشال وجنرالاته، ثم زيارة لمقابر قتلى الحرب البريطانيين والألمان والطليان. لكن الماريشال قال إنه لن يزور مقابر الحرب من الألمان والطليان، وقال للواء «البدرى»: «إنهم لم يكونوا رجالى. لم يحاربوا من أجل بريطانيا». وكان رأى اللواء «البدرى»: إن الحرب قد انتهت من عشرين سنة ولا بد أن تكون لدى الماريشال مكارم أخلاق تغفر ما مضى، فكلهم الآن فى الرمال جنود قاتلوا ودافعوا عن شرف أعلامهم.. ثم إنه هو الرجل الذى انتصر».

وسألنى اللواء «البدرى» عن رأيى الخاص فقلت له: «الحقيقة أننى أفهمك تمامًا. وإلى حد ما فإننى أستطيع أيضًا أن أرى وجهة نظر «مونتجمرى» فيما قرر».

وكنا لا نزال فى الحديث حين أقبل «مونتجمرى» إلى ردهة الفندق متأهبًا مع جنرالاته لبرنامج اليوم. سوف يركبون السيارات من باب الفندق إلى مربض الهليوكوبتر ثم ينطلقون.

ولست أعرف لماذا آثرت فجأة أن أتخلى عن «انضباط» الأمس.

قال «مونتجمرى» بسرعة: «هيا بنا».

وتلكأت. ولاحظ وسألنى: «ألست قادمًا معنا لزيارة مقابر «أبطال الحرب»؟».

و[illegible] «إننى أرجوه أن يأذن لى فى التخلف عن هذا الجزء من برنامج اليوم؟».

واستغرب وسألنى عن السبب، واستعملت نفس كلماته تقريبًا للواء «البدرى»، قلت له «إنهم لم يكونوا رفاقى. لم يحاربوا من أجل مصر».

وعلق باقتضاب «حسنًا... حسنًا سوف نلتقى فيما بعد».

وبالطبع لم تكن السعادة تبرق عل[illegible] [illegible]لامحه. لكن اللواء «البدرى» بدا لى سعيدًا.

والحقيقة أننى رحت أراجع تصرفى.. لعلى اندفعت على عجل وربما بتلقائية تأثرت بـ «فروسية» ضابط عسكرى مصرى كبير كانت الحرب العالمية بالنسبة له تاريخًا ولم تكن حياة. لكنى بعد تأمل طويل وجدتنى مستريحًا إلى ما فعلت: إن الماريشال من جانبه قصر زيارته وحددها فيمن كانوا رجاله وفيمن حاربوا من أجل بريطانيا. لو أنه ذهب لزيارة «مقابر الجميع» لاختلف الموقف واكتسبت زيارة مقابر قتلى الحرب طابعًا إنسانيًا. أما وقد اختار جنود الإمبراطورية وحدهم؛ إذن فلم يعد لمثلى مكان!

□

ودعيت بعد الظهر إلى مجلس الماريشال فى نفس مكاننا بالأمس. على الرمال وشاطئ البحر. فنجان شاى بعد أن عاد من جولته وأخذ دشًا باردًا ثم ارتدى البنطلون والقميص والبول أوفر الكاكى وقصد إلى حيث كان ينتظره جنرالاته لمواصلة الحديث.

وحاولت بسرعة أن أطبق واحدة من أهم أصول علم الحرب وفق مدرسة «كلاوزفيتز» وهو المبادأة. وهكذا قلت للماريشال «مونتجمرى» وأنا آخذ مقعدى أمامه: «لعلك لم تسئ فهم موقفى هذا الصباح»؟.. وأدهشنى رده قال: «إن العلاقة مع «البطل» نوع من العبادة ولا يستطيع أحد أن يصلى إلا فى كنيسته»!

وتذكرت أنه من عائلة «قسس». كان أبوه قسيسًا وكان مفروضا أن يكون هو الآخر قسيسًا لكنه اختار الجندية وصمم على اختياره. وعلى أى حال فإنه مارس الجندية حين مارسها بمنطق «صليبى»!

وراح «مونتجمرى» يحاول شرح ما أجمله:

ـ «بالنسبة إلىّ فإن الجنود والضباط الألمان والطليان الذين تضمهم المقابر كانوا أعدائى وكنت أحرض جنودى على قتلهم. القتال ليس لعبة رياضية وإنما هو أن تقتل عدوك أو يقتلك. كانت هيئة أركان الحرب الإمبراطورية تلفت نظرى دومًا إلى

أننى أستعمل تعبير «قتل العدو» فى أوامرى اليومية إلى جيوشى بالحال، ولم تتمكن من إقناعى. وأن أجىء الآن وأزور قبور الذين طلبت من جنودى أن يقتلوهم وأطاعونى، فمعناه أننى أتلاعب بالمواقف.

إن بيننا وبين الألمان الآن سلام، لكن هؤلاء الألمان الذين تربطنا بهم الآن علاقة سلام ليسوا هم الألمان الذين تضمهم قبور العلمين. الألمان الأحياء قبلوا سلامنا ورضخوا له وروضوا أنفسهم على الحياة جزءًا من أوروبا، مشروع الأطلنطى. وأما الآخرون هنا فهم «ألمان هتلر»، وهؤلاء لا مساومة معهم أحياء أو أمواتًا. لا يهمنى أنها أوامر صدرت إليهم ولم يكن أمامهم غير تنفيذها. لقد قتلناهم وهم ينفذونها. وليس من شأنى أن أبحث عما كان فى قلوبهم ـ هل كانوا مقتنعين حين قاتلونا أو لم يكونوا؟.. قاتلونا وقاتلناهم وكنا نحن الذين قتلناهم وفرضنا سلامنا.

هذا هو الموضوع.

بالنسبة لك قد يكون الأمر على «خلاف ذلك»، وأما بالنسبة لى فإنه لا يحتمل «خلاف ذلك».

ولم يسكت، وإنما راح يلح على تفاصيل وجهة نظره:

ـ «فى الحرب لا بد أن يكون جنديك مقتنعًا بمشروعية قتاله ـ المسألة التى كنا نتكلم فيها أمس ـ لا بد أن يكون مقتنعًا بأن قتله لعدوه هو عمل أخلاقى. لا بد أن يكون جنديك معبأ بالكامل ـ عقلا وفكرًا وشعورًا ـ وهذه المسألة لا تحتمل درجات من النسبة وإنما تتطلب اليقين المطلق.

لا يستطيع أحد أن يتلاعب بالتعبئة العقلية والفكرية والنفسية لرجاله. درجة ساخنة ودرجة باردة ودرجة بين بين ـ هذا لعب بالتاريخ. تعبئة الشعب لمواجهة عدوه يجب أن تستمر ويجب أن تترسخ كل يوم وبلا هوادة. وهى أهم من السلاح فى رأيى. هى قبل السلام بلا أدنى شك. عملية يجب أن تستمر وتترسخ، ولا يجب أن تؤثر فيها قصاصة ورق يسمونها معاهدة أو اتفاقًا أو ما

تنشاء من التسميات. الفيصل فى الأمر أن تصل إلى سلام. إلى سلامك. السلام الذى تراه محققًا لأمنك ومصالحك، وإلا فأنت تقامر على حسن نوايا الآخرين.

بالطبع هذه العملية لا تأتى من الهواء وإنما هى تأتى من أصول محددة ومن جذور عميقة فى جغرافيا وتاريخ أى بلد.

لابد له قبل أى تعبئة أن يحدد من هو الطرف الآخر؟

نحن باستمرار فى صراع مع طرف آخر. هذا قانون الحياة.

لابد أن يكون «موضوع» الصراع واضحًا ومفهومًا بلا أدنى لبس.

لابد أن يكون هناك تحديد لدرجة هذا الصراع.. هل هى درجة المنافسة؟ هل هى درجة الخصومة؟ هل هى درجة العداء؟

كل درجة من هذه الدرجات لها أدواتها عند ممارسة الصراع. لها أدواتها الحالية ولها أدواتها المحتملة فى المستقبل. إذا لم تكن لديك الوسائل الآن فإنك لا تخرج من الصراع وإنما تحاول تقريب المحتمل.

هذه كلها قضايا مهمة وهى فى صميم مسألة الحرب».

. . . .

. . . .

[عدت إلى حديث «مونتجمرى» فى هذه النقطة بعد ذلك بسنوات طويلة. سنة ١٩٨٢. كان «دنيس هاملتون» ضيفًا علىّ فى مصر وذهبت معه إلى أسوان والأقصر. ورأينا معًا جماعات من السواح الإسرائيليين.

وسألنى «دنيس»: «ما هو شعور المصرى العادى تجاه الإسرائيليين الذين يراهم الآن بينه؟».

وتنهدت من أعماق قلبى وقلت له:

«هل تذكر حديث «مونتجمرى» ونحن على الرمال قرب شاطئ البحر فى العلمين سنة ١٩٦٧؟

أكثر ما يحزننى فى كل ما جرى منذ زيارة القدس حتى الآن أن التعبئة العقلية والفكرية والنفسية للشعب المصرى قد جرى فكها.. على الأقل جرى التلاعب بها دون أن يجىء السلام.

لا أعرف يقينًا كيف يحس المصرى العادى وهو يرى هؤلاء السواح الإسرائيليين على أرضه. إذا كنت صادقًا فى فهم الشعب المصرى فأنا أظن أنه فى حالة شك بكل شىء. أمامه واقع لكنه على غير أساس. وهو يرى الواقع بعينيه لكنه بالعقل والفكر والوجدان لا يستطيع التسليم به.

وعندما تنكشف الحقائق ذات يوم، ولا بد أن تنكشف لأن أحكام الجغرافيا والتاريخ والمصالح والأمن تفرض نفسها مهما حاول الآخرون تغييبها، يومها ماذا سيحدث؟ هل سيكون ممكنًا إنقاذ السلام من وسط الفوضى والضياع.. هل سيكون ممكنًا استعادة التعبئة من وسط الشكوك والحيرة؟

لا أعرف؟ ولكنى أشفق على أهلى من لحظة الحقيقة»!]

. . . .

. . . .

□

كان «مونتجمرى» ما زال يتحدث ونحن على الرمال وشاطئ البحر. كان كشأنه بالأمس فى نوبة كلام، قال:

- «هل تعرف أهم ما فاتك اليوم؟ ليس المقابر. ولكن البترول تصور البترول!

بينما نحن فى الهليوكوبتر فوق الصحراء شاهدت هيكلاً كبيرًا من الحديد - سألت «ما هذا؟» - قالوا «حقل بترول عثر عليه المصريون فى العلمين»- وصحت «بترول فى العلمين؟!» - أول انطباع لدىّ كان هو أنه ليس من حقهم إفساد ميدان عملياتى. كان يجب تركه كما كان شاهدًا على الحرب.. على نقطة التحول فى الحرب كلها.

رد فعلى الثانى مباشرة بعد ذلك: أليس غريبًا أن أزمتنا الحقيقية - أنا و«روميل» - كانت بسبب الوقود. كان الوقود شحيحًا بالنسبة للطرفين.

بالنسبة لنا كان الوقود يجىء من البحر، وكذلك كان الحال بالنسبة لـ «روميل». وقبل أن تبدأ المعركة الفاصلة طلبت من الطيران أن يركز على ناقلات البترول القادمة فى البحر لـ «روميل»، وأن يركز أيضًا على حاملات البترول إلى تشكيلات القتال.

كنت أعرف من «الترا» (الاسم الرمزى لآلة فك الشفرة الألمانية وكانت أكبر أسرار الحرب العالمية الثانية) أن «روميل» يستعد لشن هجوم علينا عندما يكتمل القمر فى أواخر سبتمبر ١٩٤٢.

كنت أنا أيضًا أستعد للهجوم. كانت خطتى أن أتركه أولا يهاجم وأستوعب هجومه وأضرب مدرعاته المتقدمة ثم بعدها أبدأ هجومى.

كانت خطتى كما شرحتها لضباطى - ««فرانسيس».. هل تتذكر؟» (موجهًا حديثه للجنرال السير «فرانسيس دى جينجاند» رئيس أركان حربه وكان يجلس الآن إلى جانبه).

ورد «فرانسيس» بسرعة: «نعم يا سيدى».

وواصل «مونتجمرى»:

- «كانت تعليماتى أن على قوات الجيش الثامن أن تظل فى مواقعها - بما فيها المدرعات - وتتمسك بهذه المواقع وتدافع عنها باستماتة. لا ينبغى لأحد - كما كنا نفعل دائما - أن يخرج إلى الألمان ليقاتلهم خارج مواقعه. وحتى إذا تراجعوا فليس ينبغى لأحد أن يخرج لمطاردتهم. لنتركهم يناورون ويتحركون ويروحون ويجيئون على هواهم. أريد لـ «روميل» أن يحرق وقوده كله.

«روميل» نفسه لم يكن فى العلمين عندما بدأت المعركة الفاصلة وإنما كان هناك نائبه الجنرال «شتوم». عندما أحصى خسائره فى أول يوم أصابته نوبة قلبية

ومات. وتولى القيادة بدله الجنرال «فون توما» وبعد يومين من القتال كان الجنرال «فون توما» أسيرًا فى أيدينا. وهرول «روميل» على عجل إلى العلمين.

بنظرة واحدة على ما حدث كان هو الذى فهم خطتى. وأما «ونستون» («تشرشل») فى لندن فإنه لم يفهم ما أريد، وإنما استشاط غضبًا كعادته وبعث إلىّ رسالة يقول فيها: «إننى لا أتصور أنك تخوض معركة دفاعية.. لا بد أن تتحرك بالهجوم. تقدم».

«فرانسيس» (يقصد الجنرال السير «فرانسيس دى جينجاند») هل تذكر البرقية التى أمليتها عليك لترسلها إلى «ونستون» («تشرشل»)؟ ـ لقد كان نصها تقريبًا «إننى أرجو أن يظل رئيس الوزراء فى مكانه وأن يترك لى مكانى ـ مونتى».

واستطرد «مونتجمرى»:

ـ «إننى لا أحب الساسة حين يتحولون إلى جنرالات. وأيضًا لا أحب الجنرالات حين يتحولون إلى ساسة»!

وعلى غير انتظار ـ وحواسى كلها معه ـ اندفع «مونتجمرى» فى عملية اختراق مفاجئة لخطوطى ـ سألنى:

ـ «لماذا يتحول الجنرالات عندكم إلى ساسة؟».

وحاولت أن أكسب وقتًا فسألته:

ـ «أى جنرالات؟».

قال بسرعة:

ـ «ناصر وزملاؤه».

قلت:

ـ «إن «ناصر» ليس جنرالا، وآخر رتبة وصل إليها فى الجيش هى رتبة الكولونيل فقط».

قال مشددًا الهجوم:

ـ «حسنًا.. سوف أعدّل سؤالى. لماذ يتحوّل الكولونيلات إلى ساسة؟».

قلت:

ـ «حلمك.. ودعنى أشرح لك القصة بالتفصيل».

ورحت أحدثه عن ظروف مصر ومراحل تطورها، والظروف التى أحاطت بالثورة، وكيف أن الذين قاموا بها مجموعة من شبان الجيش، قاموا بها بوصفهم شبابًا وطنيين لا ضباطا فى الجيش، بل وكانت مهمتهم الأولى فى الثورة هى الاستيلاء على مقاليد الأمور فى الجيش لكى يمنعوا الملك من استخدامه ضد ثورة الشعب، ثم يضعونه هم تحت تصرف الثورة الشعبية لتأمين أهدافها. ثم استعرضت ظروف العالم الثالث كله ودور الجيوش فيه باعتبارها المؤسسات الوحيدة القادرة على كفالة الاستمرار فى أوقات الأزمات الكبرى.

وقال «مونتجمرى»:

ـ «إنك لن تستطيع أن تقنعنى».

وقلت:

ـ «إننى لا أحاول إقناعك. وكيف أستطيع أن أقنعك بشىء أنا نفسى غير مقتنع به. إننى كنت أشرح لك ملابسات حالة، ولم أكن أقنن قاعدة.

على وجه اليقين أنا لست من أنصار تدخل العسكريين فى السياسة.

لا أريد للجنرالات أن يصبحوا ساسة بنفس المقدار الذى لم ترد فيه أنت للساسة أن يصبحوا جنرالات.

لكن أمامنا فى مصر ـ وفى العالم الثالث كله تقريبًا ـ ظاهرة لا بد لها من تفسير. وحين أفسر فإننى لا أبرر».

وقلت:

ـ «على أى حال إنك سوف تقابل الرئيس «ناصر»، وأقترح أن توجه إليه نفس السؤال».

وقال «مونتجمرى»:

ـ «ألا يغضبه السؤال؟».

قلت:

ـ «لا أظن».

قال بعد تردد:

ـ «إننى قد أكون على استعداد لفهم موقف «ناصر». لكن هناك ضمن المجموعة ضابط آخر أصبح «ماريشالا سياسيًا» (يقصد المشير «عبد الحكيم عامر»). ليست هناك حاجة على الإطلاق لـ «ماريشال سياسى». الماريشالية لا تكون إلا بقيادة الجيوش فى الميدان وليس من أى سبب آخر؟».

قلت مقاطعًا:

ـ «قد لا أختلف معك كثيرًا، ومع ذلك فلماذا لا تسأله هو الآخر حين تلقاه؟».

وقال:

ـ «هل أستطيع أن أسأله هذا السؤال فعلاً إذا لقيته.. وهل يغضبه السؤال؟».

وقلت ضاحكًا:

ـ «لا أعرف».

(أشرت إلى هذا الحوار مختصرًا فيما نشرت فى حينه عن لقائى بـ «مونتجمرى» فى العلمين، ورغم اختصار ما نشرت فإنه أثار ضجة وسبب مشكلة).

واستعاد «مونتجمرى» زمام الحديث عندما بدا وكأنه تذكر شيئًا وقال:

ـ «عندما كتب إلىّ «آيك» («أيزنهاور») بأنه ينوى أن يقبل ترشيح الحزب

الجمهورى له لرئاسة الولايات المتحدة كتبت إليه أنصحه أن يبتعد. قلت له إن مثل ذلك لا يحدث فى بريطانيا مطلقًا. ولا يجب أن يحدث، ولكن «آيك» قبل ونجح وأصبح رئيسًا للولايات المتحدة. «آيك» لم يكن جنرالا عظيما. الحقيقة أنه كان محاميًا فى ملابس جنرال. محام يريد أن يصل إلى صياغة توفيق حتى بين جنرالاته. لقد واجهتنا مصائب فى أوروبا بسبب صياغاته التوفيقية بين الجنرالات».

وتوقف عن شروده وراء «أيزنهاور» وعاد إلى سياق قصته عن العلمين:

- «تصور أنا و«روميل» كنا نحاول توفير آخر قطرة بترول فى خزانات مدرعاتنا، ولا ندرى أننا نحن الاثنان نتحرك على بحر من البترول فى بطن الأرض. مفارقات قدر!

حرق «روميل» بتروله بسرعة وأصبحت قدرته على الحركة مقيدة. سمعت من الجنرال «فون توما» - الذى أسرناه - أن «روميل» كان دائم التساؤل: «لماذا لا تخرج مدرعاتنا للقاء مدرعاته؟» - كان يتصور أننا لن نستفيد من أخطائنا السابقة حين كانت دباباتنا تتسابق إلى مواقعه من أول محاولة استدراج فإذا هى فريسة لعمليات التطويق السريعة من الجوانب!

ليلة أسرنا «فون توما» دعوته إلى العشاء فى مقر قيادتى. تعشى معى وتكلمنا. تكلمت معه بصراحة فى خطتى، وفتح فمه من الدهشة والذهول. لم أكن أخشى أن يسمع منى شيئًا عن خططنا، فهو على أى حال فى أسرنا ولن تتاح الفرصة ليبلغ ما سمع. قلت له إننا بعد أن نفرغ من العشاء سوف أدعو البوليس الحربى ليأخذه إلى المعتقل. طلبت له زجاجة نبيذ شربها وحده. طلب منى فى النهاية شيئًا واحدًا أن لا أضعه فى المعتقل مع ضابط إيطالى لأنه يكره الطليان. لاحظ أنهم كانوا حلفاء.

القائد العام للمحور فى أفريقيا - فوق رأس «روميل» - كان إيطاليًا.. «جرازيانى». ترك لوحة على طريق العلمين قبل أن يهربوا أمامنا لتكون نصبًا تذكاريا من الرخام لمأساتهم. حفروا على الرخام كلمة من «جرازيانى» يقول فيها «لم تكن الشجاعة تنقصنا ولكنه الحظ تخلى عنا». الحرب ليس فيها حظ.

كانت حربنا أكثر أخلاقية ومشروعية من حربهم.

كان رجالنا أفضل من رجالهم، وكذلك سلاحنا.

وكانت خططنا أحسن، وكذلك كان جنرالاتنا أكفأ.

ليست مسألة حظ ولكننا نلقى على الحظ ما لا دخل للحظ فيه».

□

واستطرد «مونتجمرى»:

- «روميل كان قائدًا عظيما. كان يفكر. استغربت عندما أرغموه على الانتحار، لكنى لم أحزن، قلت لنفسى على الأقل تخلصنا منه. هم الذين خلصونا منه. وجوده أو غيابه لم يكن قادرًا على التأثير فى نتيجة الحرب.

فى العلمين كان له شأن آخر.

عندما جئت كان اسمه أسطوريًا بين جنود الجيش الثامن، جيشى. وكان «أوك» (يقصد الجنرال «أوكلنك») قد أصدر أمرًا يحرم الجنود أن يذكروا اسمه بينهم.

وحين جئت قلت إن هذا الأمر سخيف. ما يجب أن نفعله ليس حذف اسمه. ولكن استبدال اسمى باسمه ليس بالأمر، ولكن بأن يشعر المقاتلون أن قائدهم قادر على مواجهة قائد العدو، على أن يتفوق عليه لأنه جنرال أحسن، على أن يهزمه ويطارده ويقتله إذا تمكن منه.

هل تعرف أننى كنت أضع صورة له فى مركز قيادتى. صورة لـ «روميل» فى غرفتى أتأمله دائمًا وأحاول أن أستشف من ملامحه ما الذى يفكر فيه إزاء ما أفعله.. كيف يكون رد فعله إزاء فعلى؟

حينما بدأنا نحن الهجوم أدرك «روميل» من أول ليلة أنه انتهى. بعثو إلىّ من لندن رسالة حصلوا عليها عن طريق «الترا». استطاع «روميل» حتى وضربتنا تنقض عليه أن يقدر الموقف تقديرًا صحيحًا. كتب إلى القيادة الألمانية يقول لها «إنه إزاء خسائره

الفادحة فإن النتيجة المحققة هى الانسحاب من أفريقيا كلها وإلا فإن الفيلق الأفريقى الألمانى سوف يقع بين فكى كماشة» ـ قواتنا الزاحفة من العلمين والقوات الأمريكية الزاحفة من المغرب.

الـ «الترا» ـ جهاز فك الشفرة الألمانية ـ كانت من أهم أسلحتنا فى الحرب. جعلتنا نعرف باستمرار ما يفكرون فيه وما يخططون له، وهكذا كنا دائمًا نسبقهم بخطوة واحدة على الأقل. لا تخطئ فى تقديرك. كل الأجهزة فى الدنيا لا تغنى عن الإنسان، الجندى والضابط والجنرال. ليس المهم أن تكون لديك المعلومات، المهم أن تعرف كيف تتصرف بالمعلومات. كيف تدير ما لديك من معلومات.

«أوليفر» (يقصد الجنرال السير «أوليفر ليس») كم الساعة الآن؟».

ورد الجنرال «ليس»: «التاسعة والنصف وخمس دقائق».

وقال «مونتجمرى»: «حان موعد النوم».

ولم يقم على الفور، وإنما سكت لحظة وقال:

ـ «غدًا سنعود إلى القاهرة.. هل أستطيع أن أعود بالقطار؟».

وقلت:

ـ «إن القطار يقطع المسافة من الإسكندرية إلى القاهرة فى قرابة الثلاث ساعات.. الطائرة أسرع».

وقال بنبرة بدت طارئة فى كل حديثه:

ـ «لا يهم.. أريد أن أعود بالقطار».

ثم استطرد بعد قليل يقول:

ـ «عندما كنا فى الإسكندرية فى الثلاثينيات كانت «بيتى» (زوجته التى ماتت) تحب السفر إلى القاهرة بالقطار. كان منظر الدلتا الخضراء من القطار يريحها ويسعدها... أريد أن أعود بالقطار كما كانت تحب. وأتذكرها. أرى خضرة الدلتا مرة أخرى بعينى وعينيها».

ووقفنا. ولم أقل شيئًا. وإنما شعرت بالاحترام لمشاعر إنسان تفجرت فجأة من خيلاء ماريشال منتصر!

□

حضرت بعد ذلك في القاهرة لقاءه مع «جمال عبد الناصر»، وهي قصة أخرى لا دخل لها بأحاديثي معه.

ثم سمعت بعد ذلك في لندن قصة آخر معركة خاضها (على حد تعبيره).

سمعت القصة من «أوليف» ـ «ليدي هاملتون» ـ قرينة السير «دنيس هاملتون».

ذهبت مع زوجها («دنيس») ذات يوم لزيارة الماريشال في بيته الريفي في «هامبشير». ولم يكن «مونتي» في البيت. وسألا عنه. وقال لهما حارس حديقة البيت «إن الماريشال ذهب إلى القرية وسوف يعود بعد قليل».

وفوجئنا بعد قليل بـ «مونتي» يدخل وهو يرتدي حلة الماريشال.

واستبدت بهما الدهشة، وراح «مونتي» يشرح لهما القصة ـ قال لهما:

ـ «لقد انتظرت في أول الشهر أن يصلني شيك المعاش الشهري، وإذا به يتأخر. ثم علمت أن مكتب البريد في إضراب ـ مع عمال البريد في بريطانيا كلهم في فبراير ١٩٧٦ ـ واتصلت بمكتب البريد أقول للموظف المكلف به إنني أرجوه في إرسال شيك المعاش لأنني أعتمد عليه وليس لي مورد غيره. ولم يصلني الشيك. وهكذا ارتديت ملابس الماريشال وذهبت إلى مكتب البريد. حينما رآني الموظف أدخل عليه ارتجف.

وقلت له آمرًا:

ـ «أيها الشاب.. أعطني شيك معاشي».

وقال لي:

ـ «لكن يا سيدي نحن في حالة إضراب»

وصحت:

- «أيها الشاب إننى دفعت حياتى تقريبًا لكى أستحق معاشى.. جئنى به فورًا».

ولم يكن فى وسعه إلا أن يفتح درجة يبحث فيه ثم يخرج مظروفًا يضم الشيك. وأخذته».

وقال «مونتجمرى» بعد أن فرغ من رواية قصة آخر مغامراته موجهًا حديثه لـ «ليدى هاملتون»:

- «أوليف.. هكذا حاربت آخر معركة فى حياتى.. وانتصرت»!

ومات الفيلد ماريشال «برنارد مونتجمرى» فيكونت العلمين بعدها بشهور قليلة، فى ٢٤ مارس ١٩٧٦.

واختفى من المسرح آخر العمالقة من ماريشالات الحرب العالمية الثانية!!

«ألبــرت آيــنشتــين»

النسبيــة، القنبــلة، وإسرائيــل!

بين كل الذين أتيحت لى فرصة مقابلتهم يظل «ألبرت آينشتين» ـ عالم الطبيعيات الأكبر وصاحب نظرية النسبية، التى فتحت آفاق الكون أمام عقل وعين الإنسان ـ رجلا أتمنى لو كان فى استطاعتى أن أسترجع الأيام ـ والأقدار ـ وأقابله مرة أخرى.

إن مثل ذلك الشعور يراودنى فى حالة كثيرين ممن عرفت ـ لكنه فى حالة «ألبرت آينشتين» بالذات أكثر ظهورًا وأقرب إلى البال.

لماذا «ألبرت آينشتين» بالذات؟

هناك بالطبع سبب واضح وهو أن «آينشتين» كان ـ ولا يزال ـ أكبر «نجم» فى سماء العلم فى القرن العشرين الذى أثبت فعلا أنه «قرن العلم» ـ قبل وبعد أى نسب آخر.

لكن هذا السبب الواضح فى ظنى ليس وحده، أو ليس وحيدًا، ولا بد أن تكون بعده أسباب أخرى تفسر ذلك الشعور لدىّ إزاء «ألبرت آينشتين» ـ ما هى بالضبط ـ أو على وجه التقريب ـ هذه الأسباب؟

● ربما كان بينها ـ هكذا أحلل شعورى الآن ـ أننى لم «أستوعب» الرجل بالقدر الكافى قبل لقائى معه فى ١٢ ديسمبر ١٩٥٢، وإنما حدث ذلك بعد مقابلتى له فعلا.

وعندما «استوعبته» فقد اكتشفت أننى لم أسأله فيما كان يمكن أن أسأله فيه كله، ولم أسمع منه ما كان يمكن أن أسمعه كله!

● ربما كان من بينها أن تطورات الحوادث بعد لقائى معه لم تسمح لى بفرصة عرض صورة وافية لحديثنا، فقد وجدت فى أوراقى ثمانى عشرة صفحة سجلتها بخط يدى ـ عن لقائى به ـ فى القطار العائد بى من «برنستون» حيث قابلته إلى

نيويورك. ثم استغربت أن ما نشرته من هذا الحديث فى حينه لم يزد على ثلاثة أرباع صفحة فى مجلة «آخر ساعة» التى كنت أرأس تحريرها فى ذلك الوقت.

● وربما لأننا كنا على شبه موعد نلتقى فيه من جديد أو على الأقل نظل على اتصال بشكل أو آخر - ولم أفعل لأن بعض الظروف شغلتنى بأحداث أخرى، ثم إن بعض الظروف ألزمتنى بقيود معينة حدّدت مجال الحركة حتى بالاتصال.

وربما، وربما، وكلها الآن من باب التمنى، فقد ذهب الصوت ولم يعد باقيًا غير الصدى، وليس فى مقدورى إلا أن أمد السمع إليه الآن من بعيد!

□

لابد أن أعترف أن مقابلة «ألبرت آينشتين» لم تكن فى حسبانى وأنا أعد برنامج رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى نوفمبر سنة ١٩٥٢.

كانت اهتماماتى فى تلك الرحلة تتركز فى نقطتين رئيسيتين:

أولاهما: متابعة أول انتخابات رئاسية فى الولايات المتحدة، تجرى بعد الثورة المصرية فى يوليو ١٩٥٢.

والثانية: متابعة مقدمات المفاوضات المصرية الأمريكية لعقد صفقة سلاح. وكان الظن فى القاهرة وقتها أن الجو فى واشنطن ممهد والأبواب مفتوحة لعقد مثل هذه الصفقة إثر زيارة قام بها إلى القاهرة - قبل شهر واحد - «ويليام فوستر» وكيل وزارة الدفاع الأمريكية.

وربما لحقت بهاتين النقطتين الرئيسيتين، ثالثة إضافية وهى محاولة استكشاف أثر قيام الثورة المصرية فى يوليو ١٩٥٢ على المحافل الدولية كما هى ممثلة فى نظام الأمم المتحدة، خصوصًا بالنسبة لمفاوضات الجلاء بين مصر وبريطانيا، وكانت على وشك أن تبدأ رسميًا. والحقيقة أن هذه النقطة الثالثة الإضافية كانت على الحافة لأن مجال الأمم المتحدة قد يصلح لتحسس اتجاهات ولكنه لا يصلح لما هو أكثر من ذلك تحديدًا أو تفصيلاً!

ولقد طرأت فكرة اللقاء مع «آينشتين» مصادفة أثناء عشاء فى نيويورك حضره جمع من شيوخ الدبلوماسية المصرية وجمع من شبابها الذين أصبحوا فيما بعد من أعمدتها.

كان معنا على العشاء فى تلك الليلة من الشيوخ الدكتور «محمود عزمى» والسيد «أحمد فراج طايع» والسفير «جلال عبد الرازق».

وكان الشباب، أعمدة أيام قادمة، يضمون «إسماعيل فهمى» و«أشرف غربال» و«نجيب قدرى» و«محمد رياض» و«عبد الحميد عبد الغنى».

وتشعب حديثنا طوال السهرة فطاف بموضوعات شتى: الانتخابات الأمريكية - المفاوضات المصرية البريطانية - إسرائيل - السلاح النووى الجديد - قضية تسرب أسرار القنبلة الذرية إلى الاتحاد السوفييتى، وكان وقتها موضوع الصفحة الأولى فى كل جرائد أمريكا.

واقترح أحدهم أن نجتمع مرة ثانية - بقضنا وقضيضنا - على غداء فى عطلة نهاية الأسبوع فى مطعم ريفى خارج نيويورك، وأبديت اعتذارى لأننى سوف أكون خارج نيويورك فى عطلة نهاية الأسبوع. ثم قلت إننى فى عطلة نهاية الأسبوع سوف أكون فى جامعة «برنستون». وإذا بالدكتور «محمود عزمى» يسألنى متهللا.

- «إذن فأنت ذاهب لمقابلة «آينشتين»؟».

وقلت له:

- «الحقيقة أننى على موعد مع الدكتور «جورج جالوب» أقضى معه عطلة نهاية الأسبوع لأنى أريد أن أتعرف على منهجه فى قياس الرأى العام».

وصاح الدكتور «محمود عزمى»:

- «وهل هذا معقول... تذهب إلى جامعة «برنستون» ولا تلتقى مع «آينشتين»؟!».

. . . .

. . . .

[كان «محمود عزمى» أستاذًا لكثيرين منا وكان حرصه بالغًا حتى على توجيه قراءاتنا، وكان من أشد جيل الرواد صفاء فكر ورجاحة عقل، وربما من أكثرهم سوء حظ أيضًا، فقد كان أولى برئاسة الوزارة من كثيرين غيره لكنهم سبقوه. وتخلف «محمود عزمى» لأنه لم يستطع أن يجد مكانا لنفسه فى معادلة القوة المعقدة بين القصر الملكى والسفارة البريطانية. ولم يحصل «محمود عزمى» على بعض ما يستحق إلا حين اختاره «جمال عبد الناصر» ممثلا دائمًا لمصر فى الأمم المتحدة أواخر سنة ١٩٥٣. ثم استشهد على منبر مجلس الأمن فى أواخر سنة ١٩٥٤. . . . أصابته نوبة قلبية وهو يتحدث عن حقوق مصر فى خليج العقبة وعليه].

. . . .

. . . .

ونزلت بعد العشاء مع الدكتور «محمود عزمى» نتمشى فى الشارع الخامس نحو سنترال بارك أصحبه إلى فندقه ثم أواصل المشى بعد ذلك إلى فندقى. وكانت شوارع نيويورك أيامها لا تزال مأمونة.

وخلال سيرنا فى شوارع نيويورك قرب منتصف الليل كان «محمود عزمى» لا يزال فى حكاية «آينشتين» وكيف أذهب إلى جامعة «برنستون» لأقابل «جالوب» وأنسى «أعظم الأحياء فى عصرنا»؟.. وطمأنته إلى أن أول شىء أنوى عمله فى الصباح أن طلب إلى ممثل وزارة الخارجية الأمريكية الذى يرتب رحلتى مساعدتى فى طلب موعد مع «آينشتين» يتوافق مع فترة وجودى فى «برنستون».

□

كان الرد الذى جاءنى عند ظهر اليوم التالى أن وزارة الخارجية الأمريكية بذلت كل ما فى وسعها مع جامعة «برنستون»، وقد نجحوا فى تحديد موعد لى مع «آينشتين» ولكن بشرطين: أن يكون موعدى معه خلال فترة رياضته بالمشى فى الغابات المحيطة

بجامعة «برنستون»، فهذا هو الوقت الوحيد الذى تسمح به ظروفه، وقد قبل - استثناء - أن يتحدث إلى صحفى مصرى أثناء رياضته اليومية التى لا تنقطع، بينما هو فى العادة يفضل أن يجعلها فترة تفكير حر يترك لخواطره فيها العنان.

والشرط الثانى: إن مدة الرحلة - أى مدة اللقاء - لن تزيد عما بين ربع الساعة أو نصف الساعة - يتوقف على مزاج «آينشتين».

وللحظة فكرت أن أعتذر لأن الشروط مغالية فى تعنتها، وربما أحسست أنها متعالية فى هذا التعنت.

ثم راجعت نفسى وقبلت.

كان علىّ أن أكون أمام بيته فى الساعة الثالثة بعد الظهر. أدق الجرس وأنتظر. سوف ينفتح الباب ويخرج «آينشتين». أقدم نفسى إليه وأمشى إلى جانبه، والباقى متروك لى وبقدر ما أستطيع.

وذهبت أستكشف البيت قبل أن أتوجه للغداء مع الدكتور «جالوب» فى أحد مطاعم الجامعة، فقد كنت أريد أن أكون أمام باب بيت «آينشتين» على النقطة - كما يقولون - بحيث لا تفوتنى من الوقت المخصص لى ثانية واحدة، ثم إننى أصبحت متشوقًا إلى استطلاع أمر هذا الرجل مع شعور غريب بالتمرد عليه لهذين الشرطين على لقائى به: أن ألقاه ماشيًا، ثم ألاّ يزيد لقائى به عن ربع أو نصف الساعة على الأكثر إذا سمح مزاجه!

ومن المصادفات الغريبة أننى فرغت من الغداء بسرعة وتهيأت لموعدى وإذا بى وجهًا لوجه أمام صديق أعرفه من مصر، وهو الناقد الأدبى الكبير الدكتور «لويس عوض». وأبدى «لويس عوض» دهشته وهو يرانى أمامه على غير انتظار فى أحد مطاعم جامعة «برنستون»، وكان هو يومها يقيم فيها لمناقشة دراسة الأدب الإنجليزى.

وسألنى - وأجبت - وأضاف «لويس عوض» بحماسة:

- «نعم.. «آينشتين» هو الخالد الأكبر من أهل هذا الزمن الذى نعيش فيه».

وسرنا معًا لدقائق تبادلنا فيها حديثًا سريعًا عن تطورات الأمور فى مصر ثم افترقنا. فقد كان علىّ أن «أهرول» وإلا فاتتنى دقائق أو ثوان.

عدت مرة أخرى «زائرًا» للبيت الذى جئته قبل ساعة ونصف الساعة «مستكشفًا»... شارع ممتد... ثم شارع متفرع منه... ثم بيت أقرب ما يكون إلى الكوخ الريفى.. جميل فى بساطته. وضغطت على جرس، وفتح الباب. ولم أجد أمامى «آينشتين» وإنما وجدت سيدة عجوزًا لا تنتظر حتى أسألها وإنما تقول لى على الفور:

- «إن «البروفيسور» قادم للقائك.. إننى شقيقته».

ثم اختفت وراء سلم يدور فى صالة البيت ليصعد إلى الدور الثانى ووجدت نفسى وحيدًا فى قاعة الاستقبال فى بيت «ألبرت آينشتين».

ورحت أتأمل ما حولى.

قاعة كبيرة وراء المدخل. تفضى إلى باب مغلق على كل ناحية. والقاعة الكبيرة تسبح فى الضوء يصلها من الحديقة المحيطة بالبيت عبر جدران من النوافذ. الحوائط الأخرى كلها كتب. مائدة عريضة فى طرف القاعة عليها إناء عتيق من المعدن تملؤه مجموعة زهور برية صغيرة متنوعة الألوان. ساعة قديمة كبيرة تقف فى جانب آخر من الغرفة بجوارها مقعد عليه آلة كمان، وبجوار المقعد حامل عليه دفترة نوتة موسيقية.

واقتربت أكثر من رفوف الكتب واستلفت نظرى أن معظمها باللغة الألمانية ورحت أحاول استطلاع عناوين بعضها، ولم أكد أفعل حتى سمعت صوتًا خافتًا من خلفى يسألنى:

-«هل تعرف الألمانية؟».

واستدرت بسرعة. ووجدته أمامى.

«ألبرت آينشتين»... الرجل الذى أعطى الدنيا - بنظرية النسبية - مفتاحًا جديدًا

لفهم الكون وفتح الباب لعصر جديد هو العصر النووى. إذن فهذا هو «أعظم الأحياء فى عصرنا» طبقًا لتعبير «محمود عزمى» - و«الخالد الأكبر من أهل هذا الزمن» طبقًا لتعبير «لويس عوض» !

ولم يكن فى شكله - على الفور - ما يوحى بشىء من هذا كله.

أقصر مما تصورت. أنحف أيضًا.

ملامحه كما أعرفها من الصور. شاربه المتهدل أكبر.

ملابسه لا علاقة لها بجسمه كأنها صنعت منذ عشرات السنين لرجل غيره ثم اختلفت مقاييسها مع الزمن عن حجم لابسها الآن.

وكان صوته خفيضًا ونبرته غريبة عندما راح يتحدث بإنجليزية ملكونة (كان يفضل اللغة الألمانية، وظل يختار الكلام والكتابة بها كلما أمكن حتى نهاية حياته).

وسألنى بابتسامة فيها كثير من التردد والحياء:

- «هل أنت على استعداد للمشى؟».

وقلت: «إننى قبلت كل الشروط ، وهى تذكرنى بـ «معاهدة فرساى» لكن قبلتها لأننى لم أكن أستطيع تضييع فرصة للقاء معه وهو «أعظم الأحياء فى عصرنا»!

ورد بنفس التردد والحياء:

- «أنتم تعطوننى أكثر مما أستحق. بعض الناس يبالغ فى تقديره لما فعلته. لا بأس. المهم أن تكون لذلك نتيجة صالحة».

ثم تذكر احتجاجى المبطن - على ما يبدو - وسألنى:

- «لماذا تقول إنها «شروط فرساى»؟.. أنا لم أفرض أى شرط سوى أن أقابلك أثناء رياضتى اليومية. الواقع «أنهم» اتصلوا بى على عجل لترتيب هذه المقابلة، ولقد كنت أنا الذى بحث فى جدولى لأجد الوقت الذى ألقاك فيه لأن لدىّ سؤالا أريد أن أطرحه عليك...».

وأظهرت دهشتى وكانت حقيقية.

كنا مازلنا بعد فى قاعة الاستقبال بالبيت نتأهب للخروج، ويبدو أنه تذكر شيئًا فعاد إلى المكتب وأخذ من فوق طبق معدنى عليه غليونا احتفظ به فى يده وعاد. ولم أتحرك من مكانى، وعبرّت عن دهشتى بقولى «إنه لم يخطر لى أن لديه ما يسألنى فيه.. الطبيعى أن أسأله أنا خصوصًا وأن وقته بالكاد يتسع لعدد محدد من الأسئلة»!

وقاطعنى بهدوء يقول:

ـ «سوف أوضح لك المسألة. عندما حددت لك موعدًا بعثت إلىّ سكرتارية الجامعة بملف عنك. استلفت نظرى فيه قصاصة بتصريح نشرته لك صحيفة فى نيويورك جاء فيه قولك «إن نجيب لم يصنع الثورة فى مصر ولكن الثورة فى مصر هى التى صنعت نجيب». (كان اللواء «محمد نجيب» وقتها واجهة النظام الثورى الذى قام فى مصر). لقد وجدت كلامك هذا معقولاً. قرأت فى نفس الحديث أيضًا، وضمن مقدمة الجريدة له، ما يفيد أنك تعرف بعض شباب الضباط الذين يعملون معه.. فهل هذا صحيح؟».

وقلت: «إننى إلى حد ما... أعرف بعضهم».

وقال: «هذا ما أريد أن أسألك فيه. هل تعرف ما الذى ينوون عمله بأهلى؟».

ومرة أخرى كانت دهشتى حقيقية. ولاحظ. وأضاف مفسرًا: «أهلى من اليهود... هؤلاء الذين يعيشون فى إسرائيل».

وتذكرت لحظتها فقط ـ حقيقة! ـ أنه يهودى. كان فى وعيى وفهمى وتقديرى باستمرار أنه «العالم»، ولم أصنفه فى خواطرى على أساس دينى أو عرقى.. وها هو الآن يسألنى عن «أهله فى إسرائيل». وأول سؤال!

□

وتحرك «آينشتين» نحو باب البيت يفتحه، وتبعته صامتًا أحاول أن أرتب تفكيرى

لمفاجأة سؤاله. واتجه إلى طريق دائرى يقود إلى طريق آخر ممتد وسط صفوف من الأشجار الباسقة مستها أصابع الخريف وحوّلتها إلى مهرجان ضوء ولون فى تناسق بديع. كانت أرض الطريق نفسه مغطاة ببساط من أوراق الشجر الملوّن بكل ظلال الأحمر والأصفر والأخضر. وكانت بعض الأوراق ندية وبعضها جاف، وكانت أقدامنا تدوس عليها ونحن نمشى جنبًا لجنب فى وسطه. وخطانا تحدث أصواتًا خافتة متناغمة.. صوت كأنه يميل من طراوته، وصوت آخر يرد عليه كأنه ينكسر من جفافه.

وأعتقد أننى لم أخطئ الظن كثيرًا عندما تصورت أنه يشعر بحرج هو بالتأكيد رد فعل لما لاحظه من دهشتى لسؤاله لأول. بعد مسافة قصيرة من سيرنا تغلب على شعوره بالحرج وقال:

- «يظهر أننى أقلقتك بما قلت، وتعجلت اللحظة المناسبة له. ويستحسن الآن أعود إليه موضحًا. إننى كنت على وشك أن أطلب إليك أن تنسى سؤالى مؤقتًا وتدخل فى أسئلتك على أن أحتفظ أنا بسؤالى إلى النهاية، لكنى أتصور الآن أن سؤالى سوف يظل معلقًا فوق حديثنا ما لم نواجهه صراحة ثم نضعه فى مكانه الصحيح.

سوف أقول لك....

اهتمامى باليهود إنسانى، وكذلك اهتمامى بإسرائيل إنسانى. إننى عشت معهم ما تعرضوا له فى ألمانيا قبل الحرب. عشت معهم بدايته لكنى تركتهم مبكرًا وخرجت قاصدًا هذه البلاد (يقصد أمريكا). إننى جئت إلى أمريكا أول مرة فى صحبة (حاييم) «وايزمان». كان وقتها رئيسًا للوكالة اليهودية وأصبح بعدها أول رئيس لدولة إسرائيل. مجيئى إلى هنا لأول مرة سنة ١٩٢١ كان مع «وايزمان».

لقد أراد أن أشارك فى حملة لجمع تبرعات لصالح الجامعة العبرية فى القدس، ووافقت. هم أهلى وأنا أعرف الناس بما تعرضوا له، وكنت أشاركهم حلم الوطن. أن يكون لهم وطن لا يضطهدهم فيه أحد.. هل أنا واضح؟.. دعنى أستكمل جملتى. بنفس الوضوح فأنا أقول لك إننى لا أريدهم بدورهم أن يضطهدوا أحدا. فعرب

فلسطين لهم حق فى الوطن الوحيد الذى عرفوه، لا يستطيع أحد أن ينكره عليهم. ما كان يحزننى فيما جرى فى ناحيتكم من العالم سنة ١٩٤٨ أنه بدا لى صراعا بين حقين. ما حدث سبب لى أزمة ضمير. أنا أحدثك بما أعتقد. لقد أسعدنى قيام دولة يهودية فى فلسطين. وأحزنتنى المأساة التى تعرض لها العرب فى فلسطين. وكان فى ظنى أن القوى الدولية المعنية تستطيع أن تعالج هذه المحنة. ولكن هذه القوى لم تستطع، ولعلها أرادت ـ لمصالحها ـ تعميق المشكلة بدلا من محاولة حلها.

هل قرأت الخطاب الذى شاركت فى توقيعه إلى محرر الـ «نيويورك تيمس» احتجاجًا على زيارة «مناحم بيجين» لهذه البلاد فى نهاية ١٩٤٨؟ لقد وصفناه بأنه سفاح وإرهابى ولا يصح أن يسمح له بزيارة أمريكا. إنه جاء وقد قاطعت كل المناسبات التى أقيمت أثناء زيارته واعتذرت عن استقباله فى بيتى عندما أراد أن يجىء، ومع أنه بعث إلىّ خطابًا يقول لى فيه إنه يريد أن يسمع منى ويتعلم كتلميذ، فإننى كنت أدرك أنه لا درس يجدى مع هؤلاء الذين يؤمنون بالعنف. لا أحد يستطيع أن يشفيهم.

باختصار.. موقفى إزاء اليهود إنسانى. موقفى إزاء إسرائيل إنسانى. نفس موقفى إزاء العرب وإزاء فلسطين. إذا أردت أن تناقش هذا الموضوع بتوسع أكثر فأنا على استعداد عندما نفرغ من المشى ونعود إلى البيت.

وربما كان فى استطاعتى لحظتها أن أطلعك على بعض«الأشياء». ربما كان فيها بعض ما يهمك أن تطلع عليه».

وكنا مازلنا نمشى على الطريق. وحين سكت عن الكلام لم يعد مسموعًا إلا وقع خطانا فوق الأوراق الطرية والجافة التى تفرشه بألوانها المتنوعة المتداخلة. وعاد إلى الكلام من تلقاء نفس ودون سؤال منى:

ـ «الحقيقة أننى لا أريد«لليهود» أن يقعوا فى إسار الوطنية الضيقة. أخشى عليهم من ذلك. طوال تاريخهم كانت حياتهم وأفكارهم عالمية. تعرضوا للاضطهاد بسبب الجهل والتعصب وربما لظروف اقتصادية وثقافية، وأحيانًا حصروا أنفسهم فى

أحياء خاصة بهم (الجيتو)، لكن ذلك كان ضرورة حماية وليس ضرورة حياة. إنهم أحسوا بحاجتهم إلى وطن يحميهم وكان هناك الحلم القديم - أو الوعد القديم - بفلسطين، وقد ذهبوا إليه. الذين ذهبوا أقلية بين اليهود. الذين ذهبوا هم الذين قرروا أن الإنسانية ليست قادرة بعد على حمايتهم وأن الوطن قد يقدر. هناك منطق معيّن في هذا الكلام لكن وراء المنطق مشكلة. الوطن اليهودى محصور والعرب لا يريدونه بينهم. لاحظ أن هناك يهودًا كثيرين لا يريدونه أيضًا فى فلسطين ولا فى غيرها. مشكلة منطق الوطن - كما أراها، وفى حالة الحصار والرفض - أنها تستدعى حالة من«الوطنية الضيقة» كما قلت لك.«الوطنية الضيقة» عادة تصاب بما يمكن أن نسميه«اختناق المكان»، وهذا يخلق نزعات عدوانية تعيش على العنف وبه، وهذا يفسد روح أى شعب ويفسد بالتالى سياسته - منهجًا وأسلوبًا. لا أريدك أن تنشر هذا الكلام الآن على الأقل. قد يثير مشاكل لا لزوم لها ويعقد ما لا داعى لتعقيده الآن. سوف نتكلم عن ذلك فيما بعد. لقد أردت أن يكون موقفى فى إطاره الحقيقى لكيلا يحدث لبس فى حديثنا من أول لحظة....

يهودى... نعم أنا يهودى بالطبع. وبالمعنى الإنسانى.

صهيونى... لا أعرف؟ أظننى أوافق على أن يكون لليهود بيت ووطن يذهب إليه من يريد منهم. من يجد أن سلامه الحقيقى هناك. كنت معجبًا بـ«وايزمان»، و«بن جوريون» يحيرنى أحيانًا، لكن«مناحم بيجين» يستفزنى إلى أقصى الحدود لأنه يذكرنى بالنازيين.

إسرائيلى... لا أظن. إننى أتعاطف مع الفكرة إنسانيًا وأخشى من عواقب تنفيذها عمليًا لأن«الوطنية الضيقة» - كما قلت لك - قد تحولها إلى بؤرة عنف تتناقض مع الفكرة. عندما تتصادم أسس أى فكرة مع عملية تجسيدها فإن هذا التصادم فى حد ذاته يجب أن يدلنا على أن هناك خللاً ما فى مكان ما. لا بد أن نبحث عنه. وأن نكتشف موضعه. ثم نحاول إصلاح الخلل. هل هو«عندنا». هل هو«عندكم». أو هو«عضوى» فى الفكرة ذاتها؟

هذا هو موقفى. هذه هى مخاوفى!

ربما تختلف معى. أعرف أنك سوف تختلف معى . دع موضوع اليهود وإسرائيل كله إلى آخر حديثنا. دعنى أسمعك فيما كنت تريد أن تسألنى فيه».

□

قلت لـ«آينشتين»:

ـ «دعنى أولاً أسألك فى موضوع شكلى. إننى لا أعرف كيف أوجه الخطاب إليك، فهل أستطيع أن أستعمل لقب«بروفيسور»؟.. إننى كنت حائرًا فى هذا الموضوع وأنا أضغط زر الجرس على باب بيتك. كنت أفاضل بين مناداتك بـ«الدكتور آينشتين»، «المستر آينشتين»، لكن شقيقتك التى فتحت لى الباب قدمت لى على الفور ما أتصور أنه حل موفق. أشارت إليك بلقب«البروفيسور».. فهل أستطيع أن أستعمله أنا أيضًا؟».

ورد على عجل وبنفس الحياء والتردد:

ـ «لا بأس. لا بأس».

قلت ما مؤداه «إننى كنت أريد أن أسأله فى عدة قضايا. بينها نظرياته. وبينها حياته. وبينها القنبلة الذرية. وبينها سلام العالم فى ظلها. وبينها كل هذه القصص والقضايا والمحاكمات عن تسرب أسرار«القنبلة» إلى الروس وعلاقة ذلك بما يسمونه «ثورة العلماء». ثم جو الهيستيريا الذى رأيته يجتاح أمريكا هذه الأيام. ثم ما أحسست به من بدايات حملة عليه هو شخصًا. وقد لاحظت أنه يفضل الحديث المفتوح والمرسل، ولهذا فأنا أطرح رءوس قضايا أريد أن أسمعه فيها، محتفظًا بحقى فى أسئلة محددة إذا وجدت لذلك ضرورة فى سياق الكلام».

وقال«البروفيسور»:

ـ «هذا أسلوب لا بأس به، والحقيقة أننى لا أحب طريقة الاستجواب. الاستجواب يحيط أى حديث بأسلاك شائكة».

وسكت لحظة ثم استأنف حديثه:

ـ «إنك أثرت قضايا كثيرة، بعضها متشابك. الحقيقة أن كل القضايا متشابكة. كلها متصلة. الأصل في كل القضايا واحد. الطبيعة والإنسان. الحياة في الكون.

أنت سألت عن نظرية النسبية، وهذا تفصيل. هل تهمك معادلات النظرية؟ أستطيع أن أعطيك كتابًا عنها. لكن ذلك ليس مهما. هناك ما هو أهم منه....».

وتنحنحت قبل أن أعترض بسؤال:

ـ «لم يكن ذلك ما أردت معرفته. لم أقصد المعادلات الرياضية. قصدت اكتشاف النظرية نفسها. هذا الاكتشاف الذى حقق لك مكانتك فى عالمنا؟».

وقاطعنى«البروفيسور» بدوره:

ـ «حسنا...حسنا. لا بأس. أريدك أن تعرف أنه ليس هناك إنسان فى الدنيا يجلس إلى مكتبه أو فى معمله وفى قصده أن يكتشف نظرية. مثل ذلك لا يحدث.

أظننى أوافق على رأى«برتراند راسل» (الفيلسوف وعالم الرياضيات البريطانى الكبير الذى قاد حملة السلام العظمى بعد القنبلة الذرية). «برتراند راسل» يقول إن اكتشاف أى نظرية فى أى جانب من الجوانب معلق بمعادلة رياضية صاغها على النحو التالى: إرادة إنسانية + خيال طليق + علم بموضوع البحث عميق، ثم انتظار لحظة إلهام تعطيك تصوّرًا مترابطًا تطرحه للاختبار.

ذلك ما يحدث. ذلك ما حدث لى. هذا أيضًا يدخل فى باب التفاصيل. أريد فى الإجابة عن كل أسئلتك أن أعود إلى ما كنت أحدثك فيه عندما فتحت معك موضوع اليهود فى إسرائيل. إننى قلت لك إن شواغلى بهذا الموضوع وغيره إنسانية. كنت أحدثك عن مخاوفى من الوطنية الضيقة. ليس فى إسرائيل وحدها وإنما باتساع العالم كله. على امتداد التاريخ كله.

مشكلتنا الآن هى نفس المشكلة القديمة: أن قوة الإنسان سبقت يقظة ضميره. وأن نمو عضلاته جاء قبل نمو تفكيره».

(كان هذا هو الجزء الذى ركزت عليه فى حديثى مع«آينشتين». حينما نشرت أجزاء من حوارى معه فى حينه فى مجلة «آخر ساعة»، ومنه كان عنوانه الرئيسى).

□

وقاطعت«البروفيسور» بسؤال مرة أخرى:

ـ «هل أسألك بصراحة. إنك تلح كثيرًا على مخاطر الوطنية الضيقة. كأنك تتحدث عن عالم بغير حدود وطنية.. فهل ترى ذلك متاحًا أو ممكنًا فى يوم من الأيام؟

إن هذه النظرة العالمية الشاملة تجعلنى أتساءل عن جذورها فى تفكيرك؟

هل مرجعها إلى يهوديتك التى لم تعرف وطنًا؟

هل مرجعها إلى طبيعة عملك كعالم مهتم بالكون وقوانينه التى لا تعرف الحدود الوطنية؟

أليست الحدود الوطنية واقع مجتمعات«إنسانية» ـ إذا جاز لى استعمال تعبيرك ـ وأليست هذه المجتمعات الوطنية أطرافًا فى صراعات متعددة المظاهر. اقتصادية ـ اجتماعية ـ حضارية... إلى آخره؟».

وأمسك«البروفيسور» بذراعى وضغط عليه، ثم قال:

ـ «هذه هى النقطة المهمة.

إنكم الآن فى زمن جديد تمامًا. فى زمن الطاقة النووية. كل الصراعات التى عددتها يجب أن تختفى لأنكم لا تملكون القدرة على إدارتها فى ظل«القنبلة». إنكم لا تعرفون ما تتحدثون عنه. تتحدثون عن السلاح الذرى وعن عصر القوة النووية وأنتم لا تستطيعون ـ ولا حتى فى أقصى حالات جموح خيالكم ـ أن تلموا بأطراف الحقيقة. ببساطة لا تستطيعون».

قلت:

ـ «لماذا توجه لى الحديث بـ «أنتم»؟ نحن فى مصر أو نحن العرب ليست لدينا أسلحة ذرية أو نووية».

قال بنفاذ صبر:

ـ «ما زلت تتحدث بمفهوم الوطنية الضيقة. لم أتحدث عنكم فى مصر ولا عنكم كعرب، ولا عنهم كإسرائيليين أو أمريكيين أو روس. أتحدث عنكم كجنس بشرى. أتحدث عن أجيال جديدة من الجنس البشرى. إنك شاب وسوف تكون هناك عندما تتضح وتتأكد لكم حقائق القنبلة، أما أنا فلن أكون هناك. لهذا استعملت التعبير «أنتم». أنتم سوف ترون فى يوم من الأيام أن الحرب العالمية إذا وقعت مرة أخرى فلا يمكن أن تدور بغير استعمال «القنبلة»، ثم إنكم أيضًا سوف تتأكدون فى يوم من الأيام بأنه إذا استعملت «القنبلة» فى حرب عالمية فلن يتبقى بعدها عالم.

أكرر لك أنكم لا تعرفون ما تتحدثون عنه.

إن كلامًا كثيرًا فى الصحف الآن يكتب عن مفاوضات لتقييد إنتاج واستعمال السلاح الذرى والنووى، وأنا أشك فى أن أى مجموعة من المتفاوضين من أى جنسية وعلى أى درجة من الكفاءة يستطيعون اليوم أو غدًا أن يتحدثوا بثقة عن «القنبلة» وأن يجلسوا ليشرعوا لها حدودًا.

لا أعرف كيف؟ .. ببساطة هذه مهمة تفوق طاقة البشر!

الحل الوحيد هو نزع السلاح تمامًا أو تكون النتيجة كارثة محققة، وليس هنالك حل وسط»!

. . . .

. . . .

(لم نكن أيامها قد عرفنا بعد ما نعرفه الآن.

كل ما كنا نعرفه فى ذلك الوقت هو بعض النتائج الأولية من انفجار القنبلة

الذرية فوق«هيروشيما» فى ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥، ثم انفجار قنبلة ذرية ثانية فوق«نجازاكى» بعدها بيومين.

وكنا نعرف أن عدد القتلى فى«هيروشيما» كان قرابة مائة ألف. ومع ذلك فإن هذا الرقم لم يستلفت نظرنا بأكثر من ضخامته العددية.

فيما بعد عرفنا قوة الإبادة المتعددة: إبادة الانفجار. إبادة تساقط الغبار الذرى. إبادة الإشعاع. وأخيرًا سمعنا عن الإبادة التى يمكن أن يحدثها ما يسمونه الآن«الصقيع النووى».. إن مخلفات الانفجار سوف تحجب أشعة الشمس عن الأرض وتعيد الدنيا إلى عصر من الجليد والظلام تتجمد بهما الحياة البشرية إلى الأبد!

فيما بعد عرفنا نظريات«الردع الشامل» و«التدمير المتبادل» والصواريخ العابرة للقارات والمحيطات. والكامنة فى أعماق البحار والمتربصة فى أبعاد الفضاء.

فيما بعد عرفنا وتعلمنا عملية حساب بسيطة تقول لنا إن السباق النووى بين أطراف هذا السباق يصنع ـ ومنذ إلقاء القنبلة على «هيروشيما» ـ قنبلة مثلها فى كل ربع ساعة، أى قرابة مائة قنبلة من هذا العيار كل يوم!. ومن يوم«هيروشيما» إلى الآن أربعون سنة. أى أن المخزون الجاهز الآن فى العالم يساوى مليون وأربعمائة وستون ألف قنبلة من طراز«هيروشيما» التى نعرف الآن أن ضحاياها من القتلى أكثر من مائتى ألف. غير كوارث الإشعاع وهى ما زالت فاعلة حتى اليوم).

. . . .

. . . .

□

ولمحنى«البروفيسور» أحاول أن أسترق النظر إلى ساعتى. وسألنى(لم يكن يحمل ساعة) عن الساعة الآن وقلت:«الثالثة والنصف إلا خمس دقائق»!

وتطلعت إليه أسمع حكمه على الوقت وقال:«لا بأس. سوف نبدأ العودة. سأختار

طريقًا آخر أطول، إلا إذا كنت تعبت من المشى»؟. ونفيت ظنه. وبدأنا طريق العودة وعاد هو أيضًا إلى حديثه، قال:

ـ «إنك سألتنى عما إذا كانت نظرتى العالمية راجعة إلى يهوديتى أو إلى اشتغالى بالطبيعة.

لا أعرف. ومع ذلك فإنى آمل أن تفهمنى إذا قلت لك إننى لست متدينًا. اليهودية بالنسبة لى هوية ثقافية.... مواريث حضارية إنسانية بالتالى. العلم كذلك.... شاغلى حضارى إنسانى. ليست هناك مثل هذه الخطوط الحادة تقسم وتفرق وحدة الكون والحياة ووحدة القانون الذى ينتظم الكل فى حركته.

بالطبع إن أفكارنا تتأثر بتجاربنا.... تتبلور وتركز بهذه التجارب.

إننى عشت فى ألمانيا أيام القيصر وعشت فيها بداية أيام«هتلر» وكان أول شعور اكتشفته فى نفسى هو كراهية الحرب.... لم تكن هناك«القنبلة» بعد.

ما كنت أكرهه لم يكن الدم الذى يسيل والأجساد التى تسقط والانفجارات التى تدوى.

لم يكن ذلك، ولكن الفكرة نفسها.

فكرة إن تأخذ أحسن عناصر شعب. شبابه. ثم تعلمه شيئين: إطاعة الأوامر ـ أية أوامر ـ دون مراجعة، ثم أن يمارس القتل المنظم حين يصدر إليه الأمر بذلك.

فكرة الحرب معناها بعد ذلك قيام مؤسسة للحرب تعطى نفسها حقًا فوق أى فكرة وفوق أى تعبير وفوق أى عمل.

هكذا فإن فكرة الحرب تقتل أولاً فكرة الحرية.

ثم إن فكرة الحرب تقتضى ما يسمونه تعبئة كل الموارد، وهكذا يستنزف البشر والطبيعة والموارد.

ليس هناك رجل يستحق أن يكون مسيحيًا أو يهوديًا أو مسلمًا إذا كان مستعدًا للقتل إذا صدر إليه الأمر بالقتل.

وليست هناك قضية تتعلق بالإنسان يطاوعنى قلبى على تركها فى يد جنرال!

فى ظل«فكرة الحرب» ـ الفكرة ذاتها ـ تفقد المجتمعات الإنسانية إنسانيتها. تفقد أجمل ما فيها حتى العلم والأدب والفكر.

العلم يبيع نفسه لصالح الحرب، والأدب يبيع نفسه لحساب السياسة، والفكر يبيع نفسه لقيود الوطنية الضيقة».

□

كان«البروفيسور» متدفقًا ولم أكن أريد مقاطعته. لكنى لم أتمالك نفسى أن أعلق على ما سمعت،فقلت ما معناه«إن ما أسمعه رائع لكن مشكلته هى أنه فى المطلق يتغافل عن الواقع«الإنسانى»، ثم إنه أيضًا يتناسى«فكرة القانون» الذى يحكم تناقضات المصالح فى حالة غياب فكرة الحرب.

وقال«البروفيسور» بسرعة:

ـ «تماما.. ولهذا فإننى فى الوقت الذى دعوت فيه لنبذ فكرة الحرب دعوت أيضًا لفكرة الحكومة العالمية، وهو ما دفعنى أن أجىء إلى أمريكا.

إن كثيرين يعتقدون أننى جئت إلى أمريكا لاجئًا من النازية، ولم يكن ذلك دقيقًا. لم أكن أحب النازيين ولا أظنهم كانوا يحبوننى. تفكيرهم كله كان قائمًا على فكرة الحرب. إنهم لم يتعرضوا لى بشىء أستطيع أن أمسك به دليلاً ضدهم، ولكن الجو المحيط بى كله كان ضاغطًا بسبب فكرة الحرب واختلاطها بفكرة الوطنية الضيقة!

إننى قلت لنفسى إن القارة القديمة كلها(أوروبا) ليست قادرة على فهم واستيعاب الحقائق الجديدة، ولكن القارة الجديدة(أمريكا) تفور بالقوة والشباب والتفتح.

وحينما جئت إلى أمريكا نهائيًا فى سنة ١٩٣٢ أحسست أن المناخ العام مختلف عنه فى أوروبا. تركونى أتحدث بحرية عن فكرة حكومة عالمية، وتركونى أوجه نداء إلى شباب العالم بأن يرفض الخدمة العسكرية ـ كان رأيى أن ذلك سوف يضع الساسة والجنرالات فى مأزق. سوف يصدرون أوامر ولن يطيعها أحد».

وتوقف«البروفيسور» وانحنى يلتقط قرنًا جافًا سقط على الأرض من فرع شجرة وكسر طرفًا منه وتساقطت بعض البذور فى راحة يده، ثم قال:

- «أنت لا تعرف أية حياة بديعة يمكن أن تنبثق من هذه البذور عندما تحتضنها تربة الأرض؟».

وابتسمت، وأدرك ما اتجه إليه تفكيرى وقال:

- «كثيرون غيرك اتهمونى بأننى شاعر خيالى وحالم. إنكم تأخذون الطبيعة قضية مسلمًا بها. هى موجودة فقط. مجرد وجود. تنسون أنها حية تحكمها نفس القوانين التى تحكمكم. لها روح ولها عقل. هذا الطائر(أشار بيده إلى طائر يحلق أمامنا) يعرف عن الجغرافيا أكثر مما نعرف. يطير مئات الأميال ثم يعود إلى بيته، ويهاجر فى الربيع والخريف ثم يعود من حيث أتى. لا يفقد اتجاهه. أما نحن فقد فقدنا الاتجاه لأن الفرد أسلم نفسه لفكرة الدولة كأن الدولة هى التى صنعت الإنسان وليس الإنسان هو الذى صنع فكرة الدولة.

ليس مثالية ما أحدثك فيه الآن وليس خيالاً، وعلى أى حال فإذا كان مثالية أو خيالاً قبل«القنبلة»، فإنه الآن بعد«القنبلة» لم يعد يصح أن يكون مجالاً لخلاف!

لا يجوز أن نختلف الآن. الاختلاف يجوز فى قضية فكر لأنها موضوع «اجتهاد»، لكن الخلاف غير جائز فى قضية علم لأنها موضوع«قانون»، وفى كل الظروف فإن علينا أن نتحمل المسئولية الاجتماعية والإنسانية. على الذين يفكرون ويعرفون أن يتحملوا مسئوليتهم الاجتماعية والإنسانية. أنا هنا لا أتحدث عن الالتزام السياسى للمفكر أو العالم. ذلك مفهوم أكرهه. ليس الالتزام وإنما المسئولية».

. . . .

. . . .

(فى ظروفنا القريبة والراهنة فى العالم العربى عدت مرات إلى حديث «البروفيسور» حول قضية المسئولية الاجتماعية والإنسانية للمفكر والعالم.

الحقيقة أن هذه القضية شغلتنى زمانًا طويلاً، ولو تركت رؤيتى لها تجرى على الورق مفصلة لما كفتها بقية هذا الكتاب كله. ولعلى أجازف بعرض بعض تأملاتى فيها مختصرة وملخصه كما يلى:

● أولاً: أجدنى على استعداد لأن آكون أكثر رفقًا بـ «العالم» العربى وأقل رفقًا بـ «المفكر» العربى.

والسبب فى اختلاف مقاييسى مع الاثنين ـ فيما أظن ـ واضح. ذلك أن «العلم» عائد إلى بلادنا ولا أقول وافد، فلقد ازدهر فيها زمانًا طويلاً ثم طاردته جهالة عصور بعض المماليك والعثمانيين من بعدهم وأخيرًا تمكن من العودة على استحياء. وعلى أية حال فهو مازال تابعًا لأنه بعد فى مرحلة النقل.

هكذا نجده غير قادر حتى الآن على تحمل مسئولية اجتماعية أو إنسانية، وهذا ـ إلى حد ما ـ طبيعى. من هذا التصور فإننا نجد العلم فى واحد من ثلاثة مواقف.

١ ـ العلم وظيفة مكتبية يؤديها صاحبها فى الحدود الضيقة للوظيفة المكتبية.
٢ ـ العلم سلم للصعود السياسى بالشكل المباشر وأقصاه منصب الوزارة.
٣ ـ العلم زيادة فى السعر وليس زيادة فى القيمة. وسيلة إلى غنى وثروة وحياة مترفة(جزء كبير من قصة بعض العلميين فى مصر مثلاً).

وقلت إن ذلك إلى حد ما طبيعى، فتلك قد تكون بدايات حائرة لعائد مازال يتحسس طريقه ولم يصل بعد إلى موقعه ودوره.. من هنا الرفق بـ «العالم» العربى!

● ثانيًا: فإذا وصلنا إلى «المفكر» العربى فإن دواعى الرفق تصبح أقل، ذلك أن الفكر فى بلادنا لم يخرج. لقد أرغم على السكون فى بعض لحظات تاريخنا، ولكنه لم يهاجر. ولقد عرف تاريخنا القريب نماذج عديدة من «المفكر» الذى استطاع تمييز مسئوليته الاجتماعية والإنسانية وحمل أعباءها: «رفاعة رافع الطهطاوى» و «على مبارك» فى الدعوة إلى التعليم. الشيخان العظيمان «جمال الدين الأفغانى» و «محمد عبده» فى حمل لواء التنوير والتحرير. بل وإلى سنوات قليلة كان بيننا «طه حسين» بصيحته العظيمة بأن المدرسة حق لكل الناس مثل الماء والهواء.

لكن انكسارًا ما فى خط التقدم حدث فى ظروف الحرب العالمية الثانية، فقد انفتحت كل الأبواب فى العالم العربى على مصاريعها لتيارات وقوى عالمية اقتحمت الأبواب والنوافذ واكتسحت فى طريقها ركائز ورواسى كثيرة، حتى بعض التضاريس والمعالم الطبيعية فى عوالم الفكر والثقافة.

ووجدنا أنفسنا وسط حالة خلط مخيف.

ولقد حاولت الحركة القومية - خصوصًا بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - أن تعيد ترتيب الساحة العربية - لكن قوى السيطرة المسلحة تصدت بالعنف، ثم لحقتها الموجة العاتية لسيولة أموال النفط بالغواية، وعادت الساحة العربية أكثر ما تكون فوضى وضياعًا.

وكانت أعمدة الفكر تهتز.... ثم راحت تعوم.... ووجدنا أنفسنا أمام الصورة التى تطالعنا الآن والتى لا سبيل إلى إنكار حقيقتها الكبرى وهى أن «الفكر» تخلى، وأتردد كثيرًا قبل أن أقول إن «الفكر» خان. ولا أظن أن طلب الرأفة هو دافع ترددى فى الحكم وإنما الدوافع موضوعية:

١ - لا ينبغى أن نحسب على «الفكر» ما ليس منه. فليس من «الفكر» كل هذا الذى ينشر فى الصحف السيارة كل يوم. فالصحافة فى العالم العربى - شأن الصحافة فى العالم كله - جزء من الحياة السياسية لمجتمعاتها. كما هى السياسة تكون الصحافة. والباقى مفهوم أو يمكن فهمه!

٢ - لا ينبغى أن نحسب على «الفكر» ما نراه كل يوم من محاولات «حكاية» التاريخ وإعادة كتابته. كل هذه ليست محاولات «فكر» يبحث عن الحقيقة ولكنها محاولات سياسة تخوض معارك سياسة. ولو أن الذين كتبوا قدموا مجرد شهادات موثقة للتاريخ لكان جهدهم فى نطاق معقول ومقبول. ولكن أن يتصدوا للتاريخ ليقولوا الكلمة النهائية فى كل شىء وهم لم يعيشوا الوقائع ولم ينتظروا سجلاتها ولم يحللوا منطق الحوادث ذاته - فإن الأمر يصبح غير مقبول أو على الأقل غير مستساغ. وفى كل الأحوال فإننا لا نستطيع اعتباره محاولات «فكر» فضلاً عن أن يكون موقف مسئولية اجتماعية أو إنسانية.

٣ ـ لا ينبغى أن نتعسف ونتصور أن «المفكر» يستطيع أن ينعزل عن «القيم» السائدة فى زمانه، وإذا كان السعر قد حل محل «القيمة» فى عصر النفط فإن علينا أن نأخذ هذا فى الحساب. ولا أريد أن أطيل فى هذه النقطة لأن هدفى أن أشرح وليس هدفى أن أجرح!

٤ ـ لا ينبغى أن ننسى أنه ـ رغم الطوفان ـ مازالت هناك بيننا مراكز لـ «فكر» يحاول أن يتمسك بما يظن أنه مسئوليته الاجتماعية والإنسانية. لكن مشكلة هذه المراكز أنها فى معظمها«عقائدية». بعضها مجاله الدين السماوى وبعضها مجاله النظريات الوضعية، والمأزق الذى تجد هذه المراكز نفسها فيه هو حكم النصوص. لكن المحاولات فى هذه المراكز مازالت يقظى وإن كانت أحيانًا عصبية!

للإنصاف أكثر فإنه مازالت هناك «أصوات» تحاول أن تقول شيئًا لكنها مازالت بعد فى مرحلة الهمس المنفرد كعصفور يطل برأسه من داخل عشه فى جذوع الشجر ليرى إذا كانت عواصف الشتاء قد انقشعت وظهرت بعدها تباشير الربيع. وتكتشف العصافير أن ليل الشتاء مازال مظلمًا ومازال صقيعًا!

٥ ـ ولا بد لنا من القول إنصافًا وعدلاً إن «الفكر» ـ شأنه شأن الفن ـ لا يستطيع أن يضرب بجذوره فى الأرض دون رعاية. لكى تستطيع البذرة أن تتحول إلى شجرة باسقة فإنها تحتاج ليس فقط إلى شمس وماء وإنما تحتاج أيضًا إلى عناية ورعاية.

وفى تجربة أوروبا كانت الرعاية فى يوم من الأيام الكنيسة، ثم تحوّلت من الكنيسة إلى الأمير، ثم قامت البورجوازية بالمهمة أحقابًا متصلة، وفى العصر الحديث عرفنا دور «المؤسسة» حتى استقرت الرعاية أخيرًا فى يد الناس. خاصة الناس وعامتهم.

ولقد تشابهت ـ إلى حد ما ـ تجربتنا مع تجربتهم وإن تأخرت عنها زمانًا طويلاً.

شيوخ الفكر والفقه الإسلامى كانوا فى حمى أعمدة المسجد، وأعلام النهضة الأوروبية فى معظم المجالات كانوا فى حماية أبراج الكنيسة.

ولم يكن «ميكيل أنجلو» ممكنًا فى عصر النهضة بغير أسرة«مديتشى»، ولا كان«محمود مختار» ـ مثال نهضة مصر ـ ممكنًا بغير «هدى شعراوى».

ولم يكن «شوقى» ممكنًا بغير الخديو. ولا كان «لطفى السيد» و «طه حسين» و«على عبد الرازق» جميعًا ممكنين بغير الطبقة الوسطى التى أفرزتها ملكية المصريين للأرض الزراعية فى أواخر القرن الماضى وبدايات القرن العشرين، بل إن الجامعة نفسها لم تكن ممكنة!

وإذا جاز لى أن أتحدث عن تجربة ذاتية فلقد حلمت فى يوم من الأيام بأننا فى العصر الذى يتحتم فيه على «المؤسسة» أن تقوم بدور «رعاية» الفكر.

ولقد تشرفت بأن الظروف أتاحت لى فرصة أن أجمع فى «الأهرام» معظم رءوس الفكر والفن فى مصر. ولم يكن السبب هو مجرد احتياج صفحات الجريدة لأقلامهم، لكن هدفى كان أبعد. كان حلمى أن ثقة الناس أعطت لـ «الأهرام» وضع «المؤسسة»، وهذا يحملها ـ فوق الدور الصحفى ـ دورًا آخر أكبر منه قريبًا من مجال اهتمامها.

ومن سوء الحظ أن المحاولة تعرضت لظروف غير مواتية، لكنها تظل محاولة تستحق الدراسة المتأنية فى يوم من الأيام.

٦ ـ إن الأعاصير جرفت فى مصر ـ وفى غيرها من العالم العربى ـ دور «رعاية الفكر». ذهب الأمير، وتبعثرت بورجوازية ملاك الأرض، ولم تتمكن المؤسسة ولا استطاعت الجامعة، وانتقل الزمام إلى أيد لا تعرف ـ وربما لا تريد ـ فكرًا أو فنًا. ولقد وجد الناس ـ خاصتهم وعامتهم ـ أنفسهم فى حال غريب ضاع فيه المشروع العام (المسئولية الاجتماعية والإنسانية) ولم يبق إلا المطلب الفردى (ممثلاً فى الغنى الشخصى) ـ وحين أصبح كل واحد ونفسه، وكل واحد فى مقابل الآخرين (لغياب رابطة المشروع العام) ـ وجد «الفكر» نفسه وحيدًا أمام الرياح الهوج وعليه تدبير أمره. وتاهت حقائق وضاعت رؤى وانكسرت أعلام.

أصبح الحديث ـ فى هذا المناخ ـ مجرد الحديث عن المسئولية الاجتماعية والإنسانية لـ «المفكر» ـ نوعًا من التطفل والتزيد على الأمر الواقع !!).

. . . .

. . . .

□

كنا قد وصلنا فى مسيرتنا إلى مفترق طرق بين غابات الشجر، وكان هناك عدد من شباب وشابات الجامعة يقفون فى ناحية من الباحة التى وصلنا إليها. وعرفوا «البروفيسور» واقتربت منه فتاة تطلب توقيعه على دفتر أخرجته بسرعة من حقيبة يدها. ولم يكن معه قلم يوقع به وناولته قلمى وراح يوقع والشباب يتطلعون إليه وكأنهم فجأة أمام واحدة من الأساطير تجسدت حية وسط غابات الشجر.

ومشى ومشيت بجانبه إلى طريق فرعى كان هو الذى اختاره وصلة إلى بيته. وكانت خشيتى على الدقائق الباقية لى معه ولم أسأله فى كل ما أريد. وقطعت الصمت. سألته:

ـ «لقد كنا نتحدث عن المسئولية الاجتماعية والإنسانية للعلم، وكنت تشير إلى بعد جديد لهذه المسئولية فى العصر النووى. أليس العلماء ـ وأنت فى مقدمتهم ـ هم الذين فتحوا الباب للهول النووى ثم عادوا بعدها يبدون الندم على ما جرى ويحاولون تصحيح آثاره بأساليب يبدو بعضها عجيبًا إذا صدقنا كل ما يقال فى معرض الحديث عن قضية «روزنبرج»؟

. . . .

. . . .

(كنت بذلك أشير إلى قضية مشهورة كانت شاغل الناس فى أمريكا وقتها، وقد حوكم فيها عدد من الأشخاص، بينهم «جوليوس روزنبرج» وزوجته «رشيل»

اللذان صدر عليهما حكم بالإعدام على الكرسى الكهربائى. كانت التهمة الموجهة إلى الجميع وبينهم «روزنبرج» وزوجته ـ أنهم سلمو إلى الروس أسرارًا عن القنبلة الذرية مكنتهم من إنتاجها بسرعة واللحاق بالولايات المتحدة فى امتلاكها. وكانت بعض التيارات فى أمريكا وأوروبا تحاول أن تحمل لواء «روزنبرج» وزوجته وتدافع عنهما كقديسين فى العصر النووى وليس كجواسيس لأنهما ـ ومن معهما فى القضية ـ كانوا مدفوعين فيما فعلوا بضرورات هذا العصر وليس بأى شىء آخر).

ويبدو أن سؤالى هذا الأخير لم يرق لـ «آينشتين»، فقط قطب حاجبيه وراح يهز رأسه نفيًا بشدة، ولعلها كانت المرة الوحيدة التى ظهر فيها ضيقه طوال حديثنا.

قال:

ـ «لا. لا. لا.. (كررها ثلاث مرات أو أربع وهو يهز رأسه نفيًا) أنت أقحمت ثلاثة موضوعات على بعضها دون مقتضى!

لابد من عملية فرز لهذه الموضوعات، وفصل لكل واحد منها عن الآخر وإلا عجزنا عن الوصول إلى نتيجة سليمة.

هناك أولاً موضوع مسئولية العلماء وأنا بينهم فى فتح الباب النووى. اسألنى عن هذا الموضوع سؤالاً منفردًا واضحًا وأنا أجيبك.

وهناك ثانيًا موضوع ما تسميه أنت قضية «ندم العلماء» بعد القنبلة. اسألنى عنه سؤالاً منفردًا واضحًا وأنا أجيبك.

أما موضوع القضية التى أشرت إليها فهو موضوع ثالث لا تسألنى فيه لأننى لا أعرف له إجابة، وهو لا يخصنى».

وقلت له:

ـ «هل تطلب منى أن أوجه إليك سؤالاً منفردًا عن كل واحد من هذه الموضوعات؟».

وقال:

ـ «أنا لا أطلب.... أنت تطلب إذا كنت تريد؟».

ورحت أعيد تقسيم وصياغة سؤالى على النحو الذى ارتآه. وكان «آينشتين» يسمعنى وهو يهز رأسه بالطول وليس بالعرض هذه المرة، بالموافقة وليس بالنفى كما حدث فى بداية سؤالى الأول المجمل والعام.

قال «البروفيسور»:

ـ «لقد كانت صلتى بـ «القنبلة» من ناحيتين كلتيهما غير مباشرة.

عملى الأصلى لم يكن له دخل بـ «القنبلة» لكن بعض ما توصلت إليه حول النسبية أثبت أن تكسير الذرة ممكن.

من ناحية أخرى ـ عملية ـ فإننى قمت بمحاولة لتنبيه «الحلفاء» إلى احتمالات القنبلة.

لقد كنا فى صيف سنة ١٩٣٩ ولم تكن الحرب العالمية الثانية قد بدأت بعد لكن كل شىء فى الجو الدولى كان يجعلها أمرًا شبه محتوم. فى هذا الوقت كان عدد كبير من أصدقائنا المشتغلين بالعلوم يتحركون بسرعة. كل واحد منهم لا يريد أن تنزل عليه ظروف الحرب فى مكان لا يريد أن يتواجد فيه. كل واحد يجرى بسرعة «ليضع الريش فى العش الذى يناسبه على الشجرة التى يفضلها» قبل أن ينقلب الجو.

فى تلك الظروف كان كثير من أصدقائنا فى القارة يعبرون المحيط إلى هنا مقدرين أن عملهم هناك معرض للانقطاع وهنا يستطيعون المواصلة. وبالفعل جاء كثيرون منهم ورتبوا أمورهم فى جامعات أمريكية رحبت بهم وفتحت كل تسهيلاتها لعملهم.

كلنا كنا مأخوذين بالحرب التى قد تنشب فى أى لحظة. وأنا شخصيًا كنت أقضى ساعات فى مكتبى أفكر فيما عسى أن يكون مطلوبًا أو مقررًا على العلم فى الحرب الجديدة. تصوّرت احتمالات كثيرة فى خيالى ولم يكن بينها احتمال استخدام التفجير النووى كسلاح حربى. غاب عنى هذا الاحتمال. لم أضعه فى قائمتى.

بعض الأصدقاء نبّهوني إليه بطريقة أثارت مخاوفي. رووا لي تفاصيل عن أعمال اثنين من زملائنا في ألمانيا (يقصد العالمين «أوتو هاهن» و«فريتز ستراسمان») وأنهما نجحا في تكسير ذرة اليورانيوم. وانتابني القلق، فلو أن «هتلر» استطاع أن يستخدم التفكير النووي في الحرب لكانت تلك كارثة على الجنس البشري بغير حدود. إذا لم يستعملها وبسط سلطانه على الدنيا في ظل التهديد بها فهي العبودية الكاملة للجنس البشري. وإذا ركب رأسه واستعملها في الحرب فهو الدمار الشامل للجنس البشري.

بعض زملائنا علموا أن ألمانيا تحصل على اليورانيوم من الكونجو البلجيكي، وكانوا يعرفون أن علاقة صداقة تربطني من قديم بالأسرة المالكة البلجيكية، وطلبوا إليّ أن أتدخل لدى أصدقائي لوقف حصول النازيين على اليورانيوم. وكنت أفكر في مثل هذه الخطوة فعلاً. جاء إليّ أحد زملائنا يقول لي إنه علم أن «هتلر» أوقف صادرات تشيكوسلوفاكيا من اليورانيوم بعد أن ضمها إليه هي الأخرى. وبدأت أتأكد من أن النازيين يفكرون فعلاً في صنع «قنبلة».

وجلسنا ساعات طويلة نناقش المخاطر والعواقب، وكان رأيهم أن أكتب في هذا الموضوع مباشرة لـ «روزفلت» (الرئيس الأمريكي «فرانكلين روزفلت»). وبالفعل كتبت إليه.

كان خطابي إلى «روزفلت» مختصرًا. عرضت أمامه مجمل الأبحاث حول تفجير الذرة واحتمالات صنع قنبلة ذرية بقوة تدمير هائلة. ونبهته إلى الجهود الألمانية في هذا المجال. واقترحت عليه أن تهتم الولايات المتحدة بعدة أشياء: أبحاث مجموعة العلماء المختصين بهذا النوع من العلم في أمريكا وإعطاء هذه الأبحاث دفعة قوية، ثم البحث عن مصادر كافية لأنواع من اليورانيوم الجيد وكان هناك الكثير منها في مناجم كندا، ثم إيجاد جهاز مهتمه إدارة هذا الجهد بهدف أن يسبقوا «هتلر» أو يلحقوا به على الأقل!

لم أعرف ماذا حدث لخطابي لكن «روزفلت» رد عليّ بعد ثلاثة شهور تقريبًا

بخطاب أبدى فيه اهتمامه بما قلت، وقد استغربت أن رده تأخر كل هذه المدة، فأنا كتبت إليه قبل قيام الحرب بشهر كامل وهو رد علىّ بعد إعلانها بشهرين.

المهم أنهم اهتموا بالموضوع.

تعاونوا مع إنجلترا - وكانت مهتمة بالموضوع - ومع كندا وأنشئوا مجمعًا لأبحاثها وصنعها فى صحراء نيو مكسيكو أعطوا إدارته العلمية لـ «أوبنهيمر المسكين» (عالم الطبيعة الشهير «روبرت أوبنهيمر» وزميل «آينشتين» فى جامعة برنستون. وكان «أوبنهيمر» يتعرض وقتها - ١٩٥٢ - لحملة عنيفة فى الصحافة الأمريكية وكان قد أقصى من هيئة الطاقة الذرية الأمريكية فى جو من الشك يتهمه بأنه أغمض عينيه بينما أسرار «القنبلة» يجرى تسريبها إلى روسيا).

□

- «لم آكن قريبًا من عملية إنتاج «القنبلة» ولكنى كنت أتابع تقدم المشروع من بعيد، وكان أكثر ما يعنينى ألاّ يسبق «هتلر» إلى صنعها.

المشروع كان يتقدم على نحو مرض، وكذلك كانت الحرب ضد النازية.

واستسلمت النازية - كما تعلم - ولم تكن هناك حاجة إلى استعمال «القنبلة» على فرض أنها كانت جاهزة للاستعمال. وتنفست وتنفس غيرى - من الذين كانوا يعرفون - بارتياح !

بعض أصدقائى، «زيلارد» بالتحديد (يقصد العالم الشهير «ليو زيلارد» أستاذ الطبيعة فى جامعة كولومبيا) - عاد يطلب منى أن أكتب للرئيس الأمريكى الجديد («ترومان») الذى خلف «روزفلت» بعد وفاته بالامتناع عن استعمال القنبلة الذرية لأنه لم يعد لذلك داع.

الحرب ضد الفاشستية كانت قد انتهت تقريبًا. النازيون استسلموا. وحلفاؤهم فى طوكيو لم يعد فى مقدورهم الوقوف وحدهم، ثم إنهم لم يكونوا طرفًا فى السباق على التفجير النووى.

لم أتحمس للكتابة لـ «ترومان»، فالناس غيرنا أيضًا لهم عقول، وما دمنا نحن نرى أن دواعى استخدام «القنبلة» قد انتفت فلا بد أن الآخرين - خصوصًا إذا كانت فى يدهم مسئولية القرار - يعرفون أيضًا!

وفوجئنا بإلقاء القنبلة الذرية الأولى على «هيروشيما»، ثم القنبلة الذرية الثانية على «ناجازاكى».

إننى أصبت بحالة من «الغضب» و «القرف» عندما سمعت الأخبار. لم يكن هناك ما يحتم ذلك لأن الحرب كانت قد انتهت فعلاً. وأن يزيح أى إنسان بيده الستار عن الرعب النووى فهذه قضية فظيعة.... فظيعة....».

وسكت «البروفيسور» وانتهزت الفرصة لأبدى ملاحظة أقول فيها «إننى عندما كنت فى نيويورك - قبل أن أجىء إلى برنستون لمقابلته - سمعت من أحد كبار الدبلوماسيين المصريين فى الأمم المتحدة(كنت أقصد الدكتور «محمود عزمى») أن المندوب السوفييتى الدائم فى الأمم المتحدة «فيشنسكى» قال له - للدكتور «محمود عزمى» - إن «ترومان قرر استخدام القنبلة الذرية ضد اليابان لإرهاب الاتحاد السوفييتى - بفعل المستقبل - وليس لإخضاع اليابان - بالفعل الماضى - لأن اليابان كانت جاهزة للخضوع تمامًا وكانت توسط الاتحاد السوفييتى - حليف أمريكا - لبحث شروط الاستسلام».

ورد «آينشتين»:

- « لا أعرف على أى أساس بنى «فيشنسكى» كلامه لصديقك. هذه نقطة لا أستطيع أن أفصل فيها. أنا أتحدث عما أعرفه. نوايا «ترومان» الحقيقية لا أعرفها.

أنا أعرف شيئًا واحدًا. أعرف أنه لو خطر ببالى أن «هتلر» سوف يتعثر فى مشروعه لصنع قنبلة ذرية، وأن الاستسلام سوف يفرض عليه بقوة الأسلحة التقليدية - لما كنت كتبت لـ «روزفلت» ألفت نظره إلى «القنبلة». إننى لا أقول إن هذا كان كفيلاً بتغيير مجرى التاريخ، لكنه على الأقل كان يبرئ ضميرى.

يبرئه ولا يعفيه من المسئولية، فنحن لسنا فقط مسئولين عما نصنعه بأيدينا وإنما علينا المسئولية إزاء ما يصنعه الكل وما يلحق بالكل. أغلب الظن أن «القنبلة» كانت قادمة على الطريق. هناك أشياء يحين وقتها. وعندما يحين فليس هناك سبيل لوقف تدفق التيار. لكننا لا نستطيع أن نترك التيار يجرفنا إلى الهاوية ونحن لا نفعل شيئًا.

حتى الآن ـ أنا أصر على ذلك ـ لا يعرف معظم الناس حقائق الزمن النووى، تفجير الذرة، وإمكانية السيطرة على هذا التفجير، وتوجيه استخدامه عسكريًا قبل كل شىء. لم تعد الحرب ممكنة. ببساطة ليست ممكنة. مجرى التاريخ كله يختلف. لم تعد له علاقة بالماضى. كل ما يقال عن فكرة الحرب، وفكرة الدولة، وحتى فكرة السيادة أصبح فى حاجة إلى مراجعة.

كان علينا «نحن» أن نتحمل المسئولية الاجتماعية والإنسانية. لماذا؟.. لأننا نعرف أكثر من غيرنا ـ بحكم عملنا ـ نوعية المخاطر الكامنة.

حاولنا، اجتمعنا مرات عديدة ثم كتبنا تقريرًا نشر وقتها بعنوان «عالم واحد أو لا شىء». إذا لم تكن قد اطلعت عليه فسأطلب إليهم فى برنستون أن يبعثوا لك بنسخة منه (لم أكن قرأته، ولحقتنى فى نيويورك بالفعل نسخة منه بعد أيام).

كان ملخص ما قلناه فى هذا التقرير «إن الحرب مستحيلة فى العصر النووى، وإن سر القنبلة الذرية لا يمكن الاحتفاظ به طويلاً حكرًا لدولة واحدة، ولم يعد ممكنًا حفظ السلام فى نظام حكومات ذات سيادة وطنية. وإن الدولة الوطنية فى ظل التهديد بالحرب النووية سوف تجد نفسها ـ حتى إذا لم ترد ـ سلطة دكتاتورية. ثم إنه لم يعد فى مقدور أى دولة أن تحمى مواطنيها من أهوال الحرب. وأخيرًا فإن الأوضاع الجديدة تقتضى نظامًا عالميًا جديدًا.

ولم نترك ما قلناه دون تحديد، وإنما اقترحنا أن تتحوّل الأمم المتحدة إلى حكومة عالمية يكون أول اختصاصاتها الإشراف على الطاقة النووية وكل ما يتصل بها.

مرّ علىّ «أوبنهيمر المسكين» هنا فى البيت. كان قد جاء إلى «برنستون» يحاول

أن يلغى انتدابه للإشراف على «المشروع»، وكان فى حالة اكتئاب لأن قرارًا صدر بوضع الطاقة النووية تحت إدارة الخدمة العاملة فى إطار الجيش الأمريكى. كان ذلك معناه أن هناك من يتعاملون مع «القنبلة» على أنها مجرد سلاح آخر. مثل الدبابة والمدفع والغواصة. عندما أسرّ إلىّ بما عنده قلت له: «هذا جنون مؤكد يقدم عليه ناس لا يعرفون شيئًا».

بعثت برسالة إلى «ترومان» مع صديق شخصى له. عاد إلىّ هذا الصديق باقتراح لقاء مع وزير الخارجية «آتشيسون». التقينا على عشاء فى نيويورك فى بيت «باروخ» («برنارد باروخ»). حدثت «آتشيسون» بمخاوفى لكنه تكلم كسياسى. كانوا يتصوّرون أن سر «القنبلة» يمكن أن يبقى حكرًا لهم. وكانوا يحلمون أن ذلك سوف يمكنهم من فرض إرادة عالمية واحدة. وكانوا يتوهمون أن «السلام» يمكن فرضه على هذا النحو!

كل ذلك كان خطأ فى خطأ.

«آتشيسون» طلب منى فى هذا اللقاء - لست متأكدًا مما إذا كان الطلب منه أو باسم الرئيس - أن «أقلل» من نشاطى فى لفت الأنظار إلى خطر «القنبلة» وإلى استحالة احتكارها، وإلى ضرورة قيام حكومة عالمية. قال لى إن آخرين يستغلون هذا النشاط وإن هناك «حمرا» (شيوعيين) كثيرين يروجون لدعوة تسليم «القنبلة» إلى آخرين لكسر احتكار امتلاكها باعتبار أن ذلك وحده هو الكفيل بمنع استخدامها بسبب التوازن الذى يمكن أن ينشأ بعد ذلك إذا انكسر الاحتكار الأمريكى.

قلت له (لـ «آتشيسون») إننى لا أوافق على إعطاء سر «القنبلة» للروس مثلاً، ولكنى أطالب بإعطائه لحكومة عالمية، ولا أرى سبيلاً غير ذلك مع القوة الجديدة ومخاطرها.

كان رأيه أننى «عالم حالم» ولست «سياسيًا عمليًا» - مثلهم.

ولم يكن «آتشيسون» يشك فى مقاصدى، ولكن يظهر أن الشكوك بدأت تراودهم فى شأن غيرى. على أية حال فإن الهستيريا بدأت فى أمريكا واتسعت بسرعة.

الأمريكيون ـ الذى تعبوا من الحرب ـ كانوا يظنون أن «القنبلة» و «احتكار سرها» سوف يعطيهم أخيرًا إمكانية فرض سلامهم على الدنيا.

خطأ. خطأ. لم يستطيعوا الإمساك بأطراف الحقائق الجديدة».

□

وقاطعت «البروفيسور» أسأله مرة أخرى «عما إذا كان الخوف من احتكار سر «القنبلة» والرغبة فى إحداث توازن دولى هو الدافع الحقيقى وراء موقف العالم البريطانى «كلاوس فوخس» فى تسليم أسرار «القنبلة» إلى الروس»؟ (كان «فوخس» قد قبض عليه فعلاً وحوكم وحكم عليه بالسجن عشرين سنة، وكان دفاعه عن نفسه فى محاكمته السرية أنه لم يسلم للروس سر «القنبلة» لقاء مال وإنما سلمه بدافع الضمير الإنسانى الذى حرك ثورة العلماء الذين صنعوا «القنبلة» ووضعهم أمام «جريمة» ما ابتلوا الإنسانية به. ثم إنهم مع استحالة قيام الحكومة العالمية رأى بعضهم أن الحل الوحيد هو إعطاء سر«القنبلة» إلى المعسكر الآخر حتى ينكسر الاحتكار وتنفتح الفرصة أمام توازن يحول دون استعمال «القنبلة»).

ورد «آينشتين» بسرعة:

ـ «أستطيع أن أقول إن موقف «فوخس» وغيره من هؤلاء الذين شاركوا فيما تسميه أنت وغيرك ثورة العلماء، كان «خطأ». أما أنه كان «جريمة» فلست أنا الذى يستطيع أن يفصل فى هذا الأمر. لم يكن الحل فى رأيى هو أن نعطى سر «القنبلة» للروس وإنما كان يجب إعطاؤه لنظام عالمى جديد.

كان هذارأيى ومايزال.

إذا «كانوا» قد عجزوا عن استعياب فكرة الحكومة العالمية فقد كان الخطأ فى عقول الرجال وليس فى صواب الفكرة.

لكن أمريكا لم تكن على استعداد لأن تسمع أفكارًا فى جو الهستيريا الذى سادها. نزعات السيطرة والخوف والأمل التى صاحبت تفجير «القنبلة» واحتكار سرها.

حكاية «فوخس» وحكاية «روزنبرج» فتحت الأبواب فى أمريكا لهستيريا مخيفة. نوع من محاكم التفتيش الفكرية بعثت من جديد فى العالم الجديد، وانطلقت كلاب الصيد تبحث عن فرائس من العلماء والمفكرين تتهمهم جميعًا بـ «النشاط المعادى لأمريكا».

جنون. لا أعرف ما الذى ساقهم إليه فى هذا البلد الذى قام أساسًا على فكرة حرية الاختيار وقام أساسًا على فكرة حرية الفرد.

لم يتعرضوا لى مباشرة، ولكن قيل لى أخيرًا إن أحد أعضاء مجلس الشيوخ قام وهاجمنى بدعوى أننى «طرى» فى نظرتى إلى الخط الشيوعى وأننى أتصدى لمشاكل لا أفهمها. فى رأيه أننى «قاصر» سياسيًا يتطاول على أمن وسلامة الولايات المتحدة وهو أجنبى غريب عنها.

أليس هذا عجيبًا؟.. الآن يشيرون إلى أصلى الألمانى. كلهم هنا من أصول أوروبية. لم يكن هناك «أصليون» فى أمريكا غير الهنود الحمر - فلماذا يعيّرنى أحد بأصلى الألمانى. أنا أخترت أمريكا باختيارى الحر ولست نادمًا على ذلك، لكننى خائف على أمريكا من هستيريا القوة».

□

كان بيت «البروفيسور» قد ظهر لنا بين غابات الشجر. لقد انتهت رحلة المشى وبالتالى انتهت مقابلتى معه. ونظرت فى ساعتى وكنت قد أخذت ساعة وخمس دقائق من وقته. وتوقعت أن يصافحنى وأن أتركه عائدًا إلى محطة القطار فى برنستون أعود به إلى نيويورك، لكنه دعانى إلى داخل البيت. إلى فنجان شاى لأن «دوره قد جاء ليسألنى فيما أراد منذ بداية لقائنا أن يسألنى فيه».

ودخلت وراءه. وسألنى ببساطة شديدة - وقد تحوّل من عالم عظيم إلى مجرد مضيف كريم - إذا كنت أريد أن أذهب إلى الحمام ريثما يذهب هو إلى المطبخ لإعداد الشاى!

وسألته إذا كان سيعد الشاى بنفسه.. ورد بالإيجاب وأضاف بأنه ليس فى البيت غيره وغير شقيقته، وهى أكبر منه، وهى ترعاه، لكنه فى الحقيقة يحرص ألا يرهقها بـ «تواقه الأمور»، ولهذا فهو حريص على أن يفعل لنفسه كل ما يستطيع أن يفعله بنفسه.

ولم يلتفت إلى دهشتى وإنما ذهب إلى باب تحت السلم دخل منه ثم عاد بعد دقائق يحمل صينية عليها إناء للشاى وفنجانان وطبق صغير عليه قطعتان من البسكويت الجاف. وتقدمت أحاول أن أصب الشاى لكنه سبقنى. ثم جلس على مقعد أمامى وراح يحشو غليونه ـ لأول مرة أثناء لقائنا ـ بالتبغ ثم يشعله بينما كنت أدقق النظر فيه أحاول سبر أغوار هذا الرجل «أعظم الأحياء فى زماننا» و «أول الخالدين فى هذا العصر» على حد تعبير الدكتور «محمود عزمى» والدكتور «لويس عوض».

وظللت صامتًا أنتظره هو ليفتح الموضوع من أى نقطة يشاء، ولم يطل انتظارى. قال:

ـ «أريد أن أعود بك إلى موضوع اليهود وإسرائيل. لكنى أريدك أن تعرف أن اهتمامى «إنسانى». إننى قلت لـ «وايزمان» (يقصد «حاييم وايزمان») حتى من قبل سنة ١٩٤٨ «إننى أريد بيتًا ووطنًا لليهود ولكنى لا أتمنى ذلك على حساب شقاء العرب الفلسطينيين». وحين أجابنى «وايزمان» بأن «الله وعد اليهود بهذه الأرض»؛ كان ردى عليه «إننا يجب أن نترك «الله» خارج هذه المناقشة، فالكل يرى أن «الله» معه. إذا كان «الله» قد أعطى اليهودى وعدًا فى فلسطين فإن «الله» هو الذى أسكن الفلسطينيين فيها».».

ولم أعلق بشىء. وواصل حديثه بسؤال:

ـ «إنك قلت لى إنك تعرف الجنرال «نجيب»... فهل تعرفه جيدًا؟.. الصحف تقول إنك قريب من الجنرال وضباطه... فهل هذا صحيح؟ وإلى أى حد؟».

ورددت بأن كل ما أستطيع قوله الآن هو ما قلته فى بداية لقائنا هو «إننى أعرف

الجنرال «نجيب» إلى حد ما. كما أننى أعرف عددًا من الضباط الذين قاموا بالثورة فى مصر».

وقال «آينشتين»:

ـ «إننى قرأت فى إحدى الصحف أن الجنرال هو «واجهة»، وأما السلطة الحقيقية فإنها فى يد شباب الضباط. فهل هذا صحيح؟».

قلت «إنه ليس هناك سر فى ذلك، فالجنرال فعلاً هو واجهة وقع عليها الاختيار، وأما قائد الثورة الحقيقى فهو كولونيل شاب اسمه «جمال عبد الناصر»».

وقال «آينشتين»:

ـ «لم أسمع اسمه من قبل. لم أقرأه. هل تعرفه؟».

قلت مكررًا نفس تعبيرى السابق «نعم.... إلى حد ما».

وعاد يسألنى:

ـ «ماذا يريد هذا الكولونيل الذى ذكرت اسمه؟».

ورحت أشرح له باختصار أوضاع مصر وقصة الثورة ودور شباب الضباط من الثوار. ثم شخصية «جمال عبد الناصر».

وقال:

ـ «من كلامك يظهر أنك تعرفه جيدًا. لكنك لم تقل لى ماذا يريد من اليهود ومن إسرائيل؟».

وقلت «إننى لا أظن أن الكولونيل «عبد الناصر» أو الجنرال «نجيب» أو غيرهما من شباب الضباط لديهم مشكلة مع اليهود كيهود. المشكلة مع إسرائيل الدولة وخططها العدوانية ضد الفلسطينيين والتوسعية ضد بقية العرب. هنا المشكلة».

وقال «آينشتين»:

- «مع «ناس» مثل مناحم بيجين وما فعله فى دير ياسين معك حق. لكن هؤلاء «الناس» ليسوا اليهود وليسوا فكرة إسرائيل. هؤلاء «الناس» نازيون فى فكرهم وتصرفاتهم. أنا أتحدث عن غيرهم».

وقلت ما معناه «إن بن جوريون ليس أقل نازية من مناحم بيجين».

وقاطعنى «آينشتين» قائلاً:

- «لا. لا. إن بن جوريون يختلف عن بيجين، ثم إن هناك ناسًا كثيرين «طيبين» فى إسرائيل».

وقلت ما معناه «إننا لم نستطع حتى الآن أن نعثر على هؤلاء «الطيبين» !».

وقال:

- «ربما أنتم لا تستطيعون، ولكن أنا أستطيع إذا كانت هناك فرصة».

ثم دخل مباشرة إلى ما ظهر لى أنه شاغله الحقيقى.

سألنى:

- «هل تستطيع أن تنقل رسالة إلى الجنرال «نجيب» أو إلى هذا الكولونيل الذى كنت تتحدث عنه؟ ما هو اسمه الذى ذكرته لى؟».

قلت: «جمال عبد الناصر».

قال:

- «نعم.. نعم.. هل تستطيع أن تنقل إلى الاثنين - الجنرال والكولونيل - رسالة منى؟».

قلت ما معناه «إنه يشرفنى شخصيًا أن أحمل رسالة من «ألبرت آينشتين» كما أنى أظن أن «الجنرال والكولونيل» كلاهما يسعده أن يتلقى منه رسالة. وإن كان لا بد أن أضع أمامه مقدمًا أن الأمر كله يتوقف على طبيعة الرسالة وفحواها».

ولمحت على وجه «البروفيسور» علامات تردد، ثم وجدته ينهض فجأة ويتجه نحو مكتبه ثم يعود - وفى يده مظروف كبير - إلى مجلسه أمامى بينما كنت أتابع حركاته وخلجات وجهه بإحساس مشحون بالترقب والفضول.

أمسك المظروف الذى أتى به فى يده ثم قال:

- «طبعا تعرف أن «وايزمان» («حاييم وايزمان» أول رئيس لدولة إسرائيل) مات فى أوائل الشهر الماضى».

وهززت رأسى علامة أننى «بالطبع أعرف». وواصلت النظر إليه وكانت أصابعه قد راحت تفتح المظروف وتخرج ما فيه من أوراق. وراح يرتبها فيما بدا لى ثم ناولنى واحدة منها وقال: «اقرأ أولاً هذه البرقية».

وناولنى برقية أسرعت أولاً إلى نهايتها أستكشف شخصية مرسلها. كان التوقيع«آبا إيبان» سفير إسرائيل فى واشنطن.

وبدت الدهشة على ملامحى وقال لى هو بحماسة ساذجة: «اقرأ.. اقرأ». وقرأت وزادت دهشتى.

ثم ناولنى خطابًا كان هو الآخر بتوقيع «آبا إيبان». وصلت به دهشتى إلى قمتها.

ثم كان هناك خطاب ثان بتوقيعه هو «ألبرت آينشتين»، وتنفست الصعداء.

وكان الدور عليه هو الآن لكى يتأمل ملامحى يوقع ما قرأته لتوى من تعبيراتها.

ووضعت الأوراق الثلاث التى كانت فى يدى: البرقية. برقية«آبا إيبان». والخطابين. خطاب «آبا إيبان» ورده هو(«آينشتين») عليه، ولم أجد على لسانى إلا قولى ما معناه «إن ما قرأته كان جديدًا علىّ».

وقال بنفس الحماسة التى بدت لى ساذجة: «لم أتوقعه على الإطلاق أنا أيضًا».

واستطرد وقد زالت عنه فجأة نبرة الحماسة التى بدت لى ساذجة:

- «إننى فوجئت عندما وجدتهم يعرضون علىّ رئاسة الدولة فى إسرائيل بعد

«وايزمان». أعرف طبعًا أنهم يريدون «اسمى» وليس «جسمى»، فهم فى مشكلة بعد غياب شخصية معروفة ولامعة مثل «وايزمان» ـ لكننى لم أستطع القبول . واعتذرت لهم بأسف حقيقى لأننى أعرف نفسى. لست مخلوقًا لكى أرأس دولة. هذا شىء خارج عن كل ما أعرفه، بعيد عن كل خبرتى، اعتذرت لهم كما ترى لكنى لا أظن أنه بوسعى ـ وقد طلبوا إلىّ ما طلبوه ـ أن أكتفى بالاعتذار. لابد أن أفعل ما هو أكثر من ذلك. لو استطعنا أن نفعل شيئًا من أجل سلام إسرائيل وسلام الفلسطينيين أيضًا فإننا نكون قد أدينا مهمة طيبة ومفيدة.....».

وكنت أتابعه صامتًا. أحسست أن طوارئ الموقف تفرض علىّ نوعًا من التحرز والحيطة، فلم أكن أريد فى مطلق الأحوال أن أجد نفسى فى أرض محرمة أو ملغومة.

وأحس قطعًا بتحفظى، وقال:

ـ «كل ما أريده منك أن تنقل رسالة منى إلى الجنرال «نجيب». وإلى هذا الكولونيل ـ ما هو اسمه الذى ذكرته لى؟ ـ لم أعد أستطيع بسهولة حفظ الأسماء».

وقلت له باسمًا.

ـ «عبد الناصر.... جمال عبد الناصر»!

وقال: «نعم.... نعم».

ثم راح يحاول تحفيظ نفسه مقاطع الاسم ويكرره أكثر من مرة.

وعاد يسألنى:

ـ «هل تستطيع أن تحمل رسالة منى إليهما؟

لدىّ ثلاثة أسئلة محددة.

هل هما مستعدان للسلام مع إسرائيل؟ ... وإذا كان الرد بالإيجاب فما هى الشروط الواجبة ـ أو الممكنة ـ على الطرفين لتحقيق هذا السلام؟ ثم ما هو الأسلوب

الذى يقترحانه لبحث القضية مباشرة بينهما أو عن طريق أى جهة دولية فى البداية ؟... إننى لا أريد أن أعرض نفسى وسيطًا فأنا لا أصلح لذلك. ربما كنت ـ كما يقولون فى الكيمياء ـ أصلح كعامل مساعد. لا أريد أن أقوم بدور سياسى. ما أريده هو أن أقوم بالدور الإنسانى.تحقيق الاتصال ثم ترك التفاصيل لمن يعرفون أو من يقدرون أو من هم مهيئون لذلك!».

□

وأحسست بحيرة حقيقية. من ناحية لم أجد ضررًا محتملاً فى حمل ثلاثة أسئلة من «ألبرت آينشتين» إلى «محمد نجيب» أو «جمال عبد الناصر». ومن ناحية أخرى فإننى كنت أخشى أن أفتح بابًا لا أعرف إلى أين يقود.

وأحس «البروفيسور» بحيرتى، وأثبت أن باعه فى السياسة لا يقل، رغم تواضعه، عن باعه فى العلم، وإذا هو يقول.

ـ «إذا كنت توافق على حمل هذه الرسالة فأنا لا أمانع فى أن تنقل صورًا من هذه الأوراق لكى يعرفوا فى القاهرة أننى لا أقترح من فراغ».

وسألته:

ـ «هل أستطيع فعلاً أن أنقل صورًا من هذه الأوراق؟».

وقال دون تردد:

ـ «بالطبع.. لكنى أريد كلمة منك، وبضمير الإنسان، ألاّ ينشر شىء منها أو يستغل سياسيًا مهما كان ردهم فى القاهرة».

ودعانى إلى الجلوس على مكتبه كى أنقل أوراقه مستريحًا. وجلست وأنا أقول له ضاحكًا ما معناه «إننى أشعر على مقعده ووراء مكتبه أننى عالم كبير يستطيع أن يلم بأسرار الكون».

وقال ببساطة:

ـ «لم تخطر لى فكرة ذات قيمة وأنا جالس إلى مكتبى. أهم ما خطر على فكرى خطر لى وأنا أمشى بين الشجر» !

ولاحظته ـ مستغربًا ـ وهو يحمل إلىّ فنجان الشاى من حيث كنت أجلس معه إلى حيث جلست الآن على مكتبه، ثم يكتشف أن الشاى فى الفنجان قد برد ويأخذه بنفسه ليفرغ ما فيه فى المطبخ ثم يعود به خاليًا ليملؤه من جديد بشاى ساخن. ورجوته ـ صادقًا ـ ألاّ يزعج نفسه . وقال:

ـ «أنت الذى ستقوم الآن بالعمل الشاق. نقل الأوراق عمل ممل. كنا نستطيع تصويرها، لكن ذلك يقتضى إرسالها إلى سكرتارية الجامعة ومعنى ذلك احتمال أن يتسرب مضمونها».

ورحت أنقل الأوراق وهو جالس أمامى يتابع ما أفعل.

البرقية أولاً:

«البروفيسور ألبرت آينشتين.

معهد الدراسات المتقدمة ـ برنستون.

إن حكومة إسرائيل طلبت إلىّ أن أتعرف على رد فعلكم إزاء مسألة شديدة الأهمية وعاجلة. وسوف أكون ممتنا لكم إذا استطعتم استقبال نائبى الوزير المفوض «دافيد جويثين» فى برنستون فى أى موعد تحددونه غدًا الثلاثاء، وبعدها فإننى أرغب فى زيارتكم بنفسى يوم الأربعاء لكى أحصل على ردكم. وأكون شاكرًا إذا أبرقتم إلىّ بموافقتكم. مع كل الاحترام.

«آبا إيبان»

سفير إسرائيل ــ واشنطن»

ونحيت البرقية التى فرغت من نقل نصها. وقال «آينشتين» موضحًا:

ـ «إننى قلقت من هذه البرقية واتصلت بـ «آبا إيبان» تليفونيًا وأخبرنى بما لديه

واعتذرت له فى لحظتها، وأصر على طلبه فى البرقية بأن أستقبل نائبه الذى يحمل إلىّ خطاب حكومة إسرائيل بعرضها الرسمى علىّ قبول رئاسة الدولة.

قابلت الرجل فعلاً وتسلمت خطابه وسلمته فى نفس اللحظة خطابى بالاعتذار... كلاهما أمامك».

ورحت أنقل الخطاب الأول - خطاب «آبا إيبان» متضمنا العرض الرسمى لحكومة إسرائيل:

«سفارة إسرائيل

واشنطن

عزيز البروفيسور آينشتين

إن حامل هذا الخطاب هو المستر «دافيد جويثين» من القدس هو الآن يخدم هنا كوزير مفوض لسفارة إسرائيل، وسينقل إليكم سؤالاً من رئيس الوزراء «دافيد بن جوريون» عما إذا كنتم على استعداد لقبول رئاسة الدولة فى إسرائيل إذا عرض ترشيحكم على الكنيست ولقى موافقته. إن ذلك يتطلب موافقتكم مقدمًا على حمل الجنسية الإسرائيلية.

إن رئيس الوزراء يؤكد لكم أن قبولكم لهذا المنصب الذى يعرض عليكم لن يؤدى إلى تعويق حريتكم فى مواصلة عملكم العلمى العظيم، وبالعكس فإن الحكومة والشعب فى إسرائيل سوف يبذلان كل جهد لتمكينكم من ذلك إدراكًا منهم للأهمية القصوى لهذا العمل. إن المستر «دافيد جويثين» سوف يكون تحت تصرفكم فى أية أسئلة تودون توجيهها إليه عن الظروف والترتيبات العملية لما يسألكم فيه رئيس الوزراء.

إننى أفهم دواعى التردد التى أعربتم عنها حيث تحدثنا معًا بالتليفون هذا المساء، ولكنى أريد أن أؤكد لكم من ناحية أخرى أنه مهما كان ردكم النهائى على هذا العرض فإن مجرد التفكير فيه يحمل فى طياته أعمق احترام الشعب

اليهودى لواحد من أعظم أبنائه. إن إسرائيل دولة صغيرة برقعتها ولكنها ليست صغيرة بما تمثله من معان وتقاليد روحية وفكرية فى زمننا الحديث. إن رئيسنا الأول كما تعرف قد علمنا كما تعلمنا منك أنت أيضًا أن نرى أقدارنا فى مثل هذه المعانى الكبيرة.

ومهما يكن مجرى تفكيرك الآن فإننى آمل أن تكون كريمًا فى تقديرك لهؤلاء الذين دعتهم دوافع نبيلة إلى مثل هذا الطلب إليك فى لحظة مهمة من تاريخ شعبنا.

مع فائق الاحترام

«آبا إيبان»

وبقيت الورقة الثالثة. الخطاب الثانى.. رد «آينشتين». ورحت أنقل:

«مركز الدراسات المتقدمة

برنستون

مكتب البروفيسور ألبرت آينشتين

عزيزى السفير

إننى تأثرت إلى أبعد مدى من عرض حكومة إسرائيل، وفى نفس الوقت فإنى حزين إلى درجة الشعور بالعار لأنى لا أستطيع قبوله. إننى تعاملت طول حياتى مع أشياء موضوعية وإنى لأفتقر إلى أى استعداد طبيعى للتعامل كما ينبغى مع الناس ومع المهام الرسمية، ولهذا السبب فإننى لا أعتقد بصلاحيتى لهذا المنصب الكبير، يضاف إلى ذلك أن عمرى لا يسمح لى ببقية قوة أعطيها لما تعرضونه علىّ.

إننى حزين لأن أتخذ هذا القرار لأن علاقاتى الإنسانية بالشعب اليهودى مستمرة. كما أننى أتفهم الظروف الحرجة التى تحيط بدولة إسرائيل فى العالم خصوصًا وأننا فقدنا الرجل الذى استطاع أن يقود شعبه أمام كل العقبات والمخاطر.

وأخيرًا فإننى آمل من أعماق قلبى أن تجدوا خلفًا له يملك الخبرة ويملك المزايا الشخصية التى تمكنه من قبول المسئولية الهائلة للمهمة الملقاة عليه.

مع كل الاحترام

«ألبرت آينشتين»

□

فرغت من نقل الأوراق الثلاثة ثم نهضت من مقعد«البروفيسور» الذى قمت باحتلاله عشر دقائق، وعدت إلى مقعدى الذى كنت فيه قبل أن يدعونى - أو يغرينى - بنقل برقية وخطابين متبادلين بين «آبا إيبان» وبينه.

وكانت نظراته تتابعنى وأنا أطوى الصفحات التى كتبتها وأضعها فى الجيب الداخلى لبذلتى. وراح - وكأنه يحاول أن يسألنى من طرف خفى عن رأيى فيما قرأته ونقلته - يقول:

- «لم يكن أمامى غير الاعتذار. كما قرأت فى رسالتى لـ«إيبان» لا أستطيع - بالمزاج، أو بالضمير، أو حتى بالسن - أن أقبل. لكن أن تعتذر عن وظيفة ليس معناه أن تتنصل من عمل إذا كان ذلك فى مقدورك.

ثم جاء سؤاله المحدد:

- «هل تعتقد أنه يمكن عمل شىء؟».

وقلت:

- «إننى أريد أن نكون واضحين: عندما جئت إلى هناك لمقابلتك لم يكن يخطر ببالى أننى سأخرج بما أنا خارج به الآن؟

ومع ذلك فلقد فهمت أنك تطلب منى حمل رسالة وليس أكثر، لكنك الآن تسألنى «هل يمكن عمل شىء»، فهل تقصد شيئًا بعد الرسالة؟».

قال باستقامة:

ـ «فيما يتعلق بك كنت أتحدث عن الرسالة. ما بعد ذلك أفق آخر، لكنى قصدت بسؤالى عن إمكانية عمل شىء مجرد معرفة رأيك فى «هل السلام مطلوب من جانبكم؟ وهل هو ممكن؟».

وأجبت بما معناه «إن السلام مطلوب باستمرار، لكن صميم القضية هو الجزء الثانى من تساؤله وهو «ما إذا كان السلام ممكنًا»؟ ـ ثم قلت: إن الرد على هذا التساؤل تقع مسئوليته على إسرائيل. وإذا سمحت لنفسى أن أحدثه من واقع تجربتى الشخصية كمراسل حربى عاش سنة ١٩٤٨ كلها وسط معارك الأرض المقدسة فإن تجربتى تقول إن إسرائيل لا تريد السلام».

ورحت أحدثه عما رأيته بعينى قبل بدء المعارك النظامية فى «حيفا» و «يافا» والجزء الغربى من القدس، وماذا فعلته قوات «الهاجاناه» فى المدنيين الفلسطينيين هناك. وحدثته عن خطط الحرب الإسرائيلية كما رأيتها على الأرض. وكيف حاول الجنرال «بيجال آللون» احتلال العريش ليقطع خط الرجعة على المجموعة الرئيسية للجيش المصرى فى «رفح».

وقلت له «إننى خرجت من تجربة حرب فلسطين باستنتاجين رئيسيين:

أولهما: أن إسرائيل لا تريد السلام وإنما تريد كل أرض عربية تستطيع نيران أسلحتها أن تصل إليها.

والثانى: أن إسرائيل تمارس أقصى قدر من العنف فى حربها لأنها تريد خلق أسطورة فزع فيمن حولها، وبالتالى فإن نزعة العنف التى أدانها فى تصرف«مناحم بيجين» فى «دير ياسين» ليست قاصرة عليه وحده، وإنما هى سياسة مجتمع وربما بحكم طبيعة ظروف تكوينه».

كان «البروفيسور» يستمع إلىّ فى صبر، لكن احتماله تخلى عنه فى النهاية فرفع كفيه يحاول أن يسد بهما أذنيه قائلاً:

ـ «لا أريد أن أسمع أكثر من ذلك.... لا أريد على الإطلاق».

ثم استطرد:

ـ «إن لى أصدقاء هناك وبعضهم كتب لى وما سمعته منهم يحمل أوجه شبه مع ما سمعته منك. والحقيقة أنه كان بين أسبابى الداخلية فى الاعتذار الفورى عن رئاسة الدولة. بالتأكيد فإن منطق الدولة فى حد ذاته يستدعى استعمال العنف وأنا ضده، وأظن أننى كنت سأتحمل على ضميرى عبء ما لم أقرره بمحض اختيارى».

ثم استدرك:

ـ «لكنى أريد أن يعرف الجنرال «نجيب» وكذلك الكولونيل الذى تقول إنه القائد الحقيقى للضباط الشبان أن لهم مصلحة فى وقف الانزلاق نحو العنف فى إسرائيل ـ على فرض أن كل ما يقال صحيح.

أنا لا أريد ـ وغيرى أيضًا ـ أن تكسب «فكرة إسرائيل» أرضًا ويكون الثمن أن تخسر «فكرة إسرائيل» روحها».

ثم سألنى واللقاء يصل إلى خاتمته.

ـ «كيف أنتظر أن أسمع منك؟».

وقلت «إننى سوف أجد الوسيلة لذلك، وأغلب الظن أن واحدًا من أعضاء البعثة المصرية الدائمة إلى الأمم المتحدة فى نيويورك سوف يتصل بمكتبه فى «برنستون»».

وتطلع إلى الساعة القديمة فى جانب القاعة الكبيرة التى كنا نجلس فيها، ثم قال.

ـ «هناك قطار بعد خمسة وعشرين دقيقة إلى نيويورك. أنا أعرف هذا القطار. آخذه إذا كان لدىّ عشاء هناك. نادرًا ما أذهب».

ثم راح ينادى شقيقته يطلب منها ـ بالألمانية ـ أن تستدعى بالتليفون سيارة تاكسى تقلنى إلى محطة القطار!

□

وفى نيويورك توجهت على الفور من المحطة إلى فندق «باربيزون بلازا» حيث كان يقيم الدكتور «محمود عزمى» وقتها، وحكيت له كل ما جرى، وكان يسمعنى باهتمام وبين كل مقطع فى روايتى ومقطع كان يردد العبارة الشهيرة التى كانت تجرى على لسانه عندما يهتم بشىء أو يفاجئه شىء: «ما شاء الله!!».

وكان رأيه فى النهاية «أن موقفى كان معقولاً، وأن اهتمام رجل فى مثل مكانة «آينشتين» بمشكلة السلام فى منطقتنا أمر مرغوب فيه. ثم إن هناك احتمالاً كبيرًا أن يكتشف الحقيقة فى شأن إسرائيل بنفسه، وإذا حدث ذلك فى يوم من الأيام فقيمته أكبر من أن تقدر».

وكانت نصيحته «أن أنشر عن مقابلتى لـ «آينشتين» فى أضيق الحدود حتى لا أقطع الطريق على أية إمكانية محتملة فى المستقبل القريب».

وسألنى إذا كنت أريد أن أكتب رسالة «للواء محمد نجيب» أن «البكباشى جمال عبد الناصر» بتفاصيل ما حدث يتولى هو إرسالها بالحقيبة ضمن البريد الدبلوماسى. وقلت إننى أفضل أن أطرح الموضوع بنفسى. ثم سألنى عما إذا كنت أوافق على إرسال برقية بالشفرة إلى وزارة الخارجية فى القاهرة تحوّل لـ «نجيب» أو لـ «عبد الناصر»، ووجدتها فكرة معقولة، واتفقنا على نص رسالة تقول «إننى قابلت «آينشتين» وإنه تحدث إلىّ فى مشكلة إسرائيل وكانت لديه اقتراحات معينة حملها لى». وكان رأينا معًا أن صدى الرسالة فى القاهرة يمكن أن يحدد أمامى ما أفعل. فلو جاء رد باستدعائى للعودة فورًا أو يطلب تفاصيل أكثر تصرفنا على هذا الأساس، وإذا لم يجئ شىء فلا بأس إذن من الانتظار حتى أعود إلى القاهرة.

وانصرفت إلى غير ذلك من أعمالى فى نيويورك ولم تجئ كلمة من القاهرة. ثم قررت السفر إلى كوريا مرة أخرى وراء الجنرال «أيزنهاور» الذى نجح فى انتخابات الرئاسة على أساس التزامه بإنهاء الحرب فى كوريا. ووجدتنى عائدًا إلى القاهرة عن طريق الشرق الأقصى. دورة كاملة حول الكرة الأرضية.

وعندما مررت بنيودلهى ـ عاصمة الهند ـ فى طريق العودة إلى القاهرة وجدت مع السفير المصرى هناك «إسماعيل كامل» رسالة تنتظرنى من القاهرة تقول «إن البكباشى جمال عبد الناصر يريد تفاصيل عن الرسالة التى ذهبت إليه بالشفرة من نيويورك».

كانت رسالتى من نيويورك ـ أو رسالة الدكتور «محمود عزمى» ـ قد أرسلت قبل أكثر من شهر ولم أجد داعيًا لكتابة أية تفاصيل، فبعد أيام قليلة أكون فى القاهرة وتتاح لى الفرصة كى أروى كل الحكاية بنفسى.

□

وكان لدىّ كثير أرويه لـ «جمال عبد الناصر» عن رحلتى الطويلة.

كان تقديرى أن الولايات المتحدة لن تبيع لنا سلاحًا، وكان ذلك تقديره أيضًا دون أن يبرح مكانه فى القاهرة.

وكنت قد سمعت أن الرئيس الأمريكى الجديد الجنرال «أيزنهاور» سوف يعطى أولوية خاصة للصراع العربى الإسرائيلى لأنه يريد أن يدخل التاريخ كصانع سلام فى الأرض المقدسة، فضلاً عن أنه يسعى إلى إعادة ترتيب أوضاع الغرب العسكرية فى المنطقة سواء فى حلف للدفاع عن الشرق الأوسط أو فى إطار حلف عسكرى إسلامى (وكان أحد مساعدى «أيزنهاور» وهو الجنرال «أولمستيد» قد صدع رأسى فى واشنطن بالحديث عن فكرة حلف إسلامى، وحاولت مناقشته فيها وتفنيد رأيه المقتنع بها دون جدوى). وكنت قد عرفت أيضًا بنية «أيزنهاور» إرسال وزير خارجيته الجديد «جون فوستر دالاس» قريبًا إلى المنطقة لبحث قضية «الدفاع عنها».

وأخيرًا وصلنا إلى مسألة لقائى مع «آينشتين» ووجدته يريد تفاصيل اللقاء كله وليس فقط ذلك الجزء الخاص فيه بإسرائيل.

ووضعت أمامه صورة كاملة بكل ما حدث. والغريب أن اهتمامه بالجزء الخاص بأفكار «البروفيسور» كان أكبر من اهتمامه بما يخص إسرائيل.

وفيما يخص إسرائيل كان رأيه أن تظل الصلة معلقة بشكل ما مع «آينشتين» دون أن ندخل فى تفاصيل ما عرض أو نرد على سؤال مما طرح. وكان تقديره أن الموقف فى الصراع العربى الإسرائيلى سوف يتضح أكثر بعد «حملة الربيع الأمريكية» (زيارة «دالاس» المقبلة).

وسألته عن كيفية إبقاء الصلة «معلقة» مع «آينشتين». وكان رده أننى أستطيع بحث «الأسلوب» مع الدكتور «فوزى» (كان الدكتور «محمود فوزى» قد أصبح وزيرًا للخارجية بدلاً من السيد «أحمد فراج طايع» الذى تولاها لعدة شهور فى وزارة اللواء «محمد نجيب» الأولى).

وكان اقتراح الدكتور «محمود فوزى» بعد ذلك أن يتولى الدكتور «محمود عزمى» إخطار «البروفيسور آينشتين» بأن «ما عرضه يجرى بحثه بالعناية اللائقة به فى القاهرة».

□

وانقضى عام وأكثر. ثم جاء «الBانديت جواهر لال نهرو» فى زيارة للقاهرة لأول مرة، ودعيت للغداء مع «جمال عبد الناصر» على مائدة «نهرو» فى مأدبة أقامها سفير الهند فى القاهرة أيامها السردار «بانيكار».

وعلى مائدة الغداء فوجئت بأن «جمال عبد الناصر» مال على «نهرو» وهمس فى أذنه بشىء، ثم التفت نحوى يقول:

ـ «هذا هو الرجل الذى قابل «آينشتين»!».

ودهشت. لكن «جمال عبد الناصر» لم يقل على المائدة أكثر من ذلك. ثم روى لى بعدها أن «نهرو» أطلعه على خطاب من صديقه عالم الرياضيات والفيلسوف الكبير «برتراند راسل» مرفقًا به رسالة من «آينشتين». يرجوه تسليمها إلى «نهرو» كى يحدث «جمال عبد الناصر» فى موضوعها عندما يقابله.

وقال «جمال عبد الناصر» إن «آينشتين» أشار فى رسالته لـ «نهرو» بأنه سبق

له مقابلة أحد أصدقاء «عبد الناصر» وأن نتائج المقابلة ظلت معلقة فى الهواء لم تستقر على شىء.

كان «آينشتين» فى رسالته إلى «نهرو» مازال خائفًا على روح «فكرة إسرائيل» من احتمالات «عسكرة» وطن إسرائيل!

وأتذكر أننى سألت «جمال عبد الناصر» بعدها عما إذا كان مناسبًا أن نرد على «آينشتين». وكان رأيه أن «نهرو» سوف يكتب لـ «برتراند راسل».

كان ذلك فى منتصف شهر فبراير ١٩٥٥. ولم تمض أكثر من عشرة أيام حتى وقعت الغارة الإسرائيلية الشهيرة على «غزة». ولست أعرف كيف كان رد فعل «ألبرت آينشتين» وهو يتلقى تفاصيل ما حدث؟

لقد وقع ما كان يتخوف منه، ولم يعد فى مقدور أحد أن ينقذ«روح إسرائيل» من «وطن إسرائيل».

تورط الدين فى الوطنية الضيقة ولم يعد لهذه الوطنية الضيقة - على غير أساس حقيقى تاريخى (وليس أسطورى) - إلا «فكرة الحرب» بكل ما يترتب عليها من كوارث وأهوال.

وتلك قضية أخرى، لكن الستار نزل على مشهد كان مضيئًا بالفكر والعلم من قصة طويلة عنيفة، معظم فصولها مكتوب بالنار والدم!

«جـواهـر لال نهــرو»

المثقف والسلطـة

لا أظن أن زائرًا للهند، مهما بلغت درجة موضوعيته، يستطيع أن يتخذ لنفسه موقفًا محايدًا إزاءها بحيث ينظر إليها بالعقل المجرد وحده، أو يقيس أمورها بحساب الواقع المرئى ولا شىء غيره، أو يقدر حقائقها ومصائرها بآلية كفتى الميزان دون زيادة أو نقصان، لا أظن!

ذلك لأن الهند كتلة إنسانىة غىر عادىة تشحنها طاقة نفسىة غىر عادىة أىضاً.

ومبعث الغرابة أن الكتلة الإنسانىة فى الهند لىست متجانسة بل متنافرة وهى برغم ذلك متماسكة. ثم إن الطاقة النفسىة لهذه الكتلة الإنسانىة أشد غرابة إذ إن فىها من قوة الجذب بمقدار ما فىها من قوة الطرد.

ومن هنا فإن زائر الهند لأول مرة ـ كما كان حالى سنة ١٩٥٣ ـ لاىستطىع، ولا ىملك، أن ىقف أمامها متوازناً لأن الهند لا تترك زائرها فى حاله وإنما هى تطلق علىه نفسها فإذا هى ممسكة بخناقه تحاول احتواءه فى طاقتها ولىس أمام هذا الزائر للهند غىر أحد منفذىن: أن ىستسلم وىترك نفسه لقوة الجذب تشده فإذا هو من عشاقها، أو ىجفل من محاولة الإطباق علىه وتلحقه قوة الطرد لتدفعه فإذا هو ىبتعد ضىقاً منها وربما كرها لها.

ولىس هناك من حل وسط بىن النقىضىن. كما أنه لاىوجد طرىق ثالث.

إما الوقوع فى غرام الهند وإما الهرب من أشباحها وروائحها!

وأعترف أننى استسلمت لقوة الجذب فى الهند ووجدت نفسى من عشاقها

منذ أول لقاء معها، ومازلت كذلك بعد إحدى عشرة سفرة إليها حتى الآن. وأعترف أيضًا أنني لم أجد جوابًا واحدًا واضحًا لسؤال خطر لي مرات عن سر الهند وسحرها وتأثير الاثنين عليّ!

- هل السبب هو احترامي الشديد للحضارات القديمة في الصين والعراق والهند ومصر وقد أنتجت هذه الحضارات كل ما له قيمة في حياة الإنسان من أيامها وحتى الآن. بعضه صنعته الأيدي كالزراعة والكتابة والبناء وتشكيل المعادن والنحت إلى آخره، وبعضه الآخر حققته الأدمغة وحيًا أو إلهامًا كالتوحيد والفلسفة والقانون والأسطورة والشعر والموسيقى والرسم إلى آخره؟
- هل السبب هو العلاقة الخاصة التي ربطت مصر بالهند في عصور الكفاح ضد الاستعمار والسيطرة، وكان آخره تلك الصداقة الوثيقة التي جمعت بين «جمال عبد الناصر» و«جواهر لال نهرو»، وهي صداقة وضعتني الظروف على نحو أو آخر في مجالها بين البلدين وبين الرجلين؟
- أم ترى يعود السبب إلى ملابسات وأجواء لقائي الأول مع الهند؟

أكاد أقول إنها الأسباب كلها مجتمعة وإن كنت أشعر بميل خاص إلى الأخير منها، فقد كان هذا اللقاء الأول بملابساته وأجوائه بالنسبة لي باب الهند. من خلاله خطوت وعلى عتباته وقفت وتأملت ثم دخلت. ودخلت!

□

وصلت إلى دلهي في أوائل شهر يناير ١٩٥٣ قادمًا إليها من الشرق (من كوريا واليابان وتايوان والهند الصينية وهونج كونج وتايلاند وبورما)، وفي ردهة الفندق الذي نزلت فيه، وهو فندق الـ «سويس كوتيج» - وكانت بعض غرفه مقرًا للسفارة المصرية، وقتها - وجدت نفسي على غير موعد أو توقع وجهًا لوجه أمام السياسي والكاتب والمؤرخ الأشهر الدكتور «محمد حسين هيكل» (باشا) والسيدة قرينته. ولم أستطع إخفاء دهشتي مما دعا «هيكل» (باشا) أن يغرق كعادته في ضحكة واحدة

طويلة ويقول «شد على يدى وأنت تصافحنى حتى تتأكد من أننا بشر ولسنا عفاريت».... واستكمل ضحكته الطويلة وأنا أحاول أن أصوغ مفاجأتى فى كلمات ثم أسمعه يروى لى «أنه فى الظروف المعقدة بعدة الثورة(كان هو رئيسًا لحزب الأحرار الدستوريين) آثر أن يبتعد بعض الوقت، وكانت لديه دعوة قديمة من مركز الدراسات الإسلامية فى الهند (بوصفه مؤلف الكتاب الشهير «حياة محمد ﷺ»)، وقرر قبولها فجاء إلى الهند قبلى بيوم واحد مع قرينته، وصحبهما صديق آخر من مصر هو أستاذ القانون الشهير الدكتور«وايت إبراهيم» تصحبه السيدة قرينته، وإنهم ينوون قضاء فترة أسبوع أو عشرة أيام فى الهند يتعرفون فيها بقدر الجهد على بعض مناحى حضارتها العريقة».

وقال لى الدكتور «هيكل» (باشا): «إذا لم يكن لديك ما هو أفضل فلماذا لا تنضم إلينا فيما نقوم به من زيارات إلى المعابد والمتاحف والجامعات. ثم إنك تستطيع أن تتركنا فى أى وقت إذا جدّت لك ارتباطات لا تعرفها الآن، وعلى أى حال فمن حسن الحظ أن السفارة هنا فى الفندق، ومن يريد الاتصال فسوف يتصل بك هنا وتستطيع السفارة أن تحفظ لك رسائلك وتبلغك إياها».

وكان صعبًا أن أجد ما هو أفضل، ووجدتنى بعد أقل من ساعة فى دلهى خامس مجموعة من المصريين (الدكتور «هيكل» (باشا) وقرينته والدكتور «وايت إبراهيم» وقرينته) نحاول التعرف على حضارة الهند ودليلنا إليها «رادا كريشنان» أستاذ الديانات الهندية الأكبر (وقد أصبح فيما بعد رئيسًا لجمهورية الهند).

وقدمنى الدكتور «هيكل» (باشا) إلى الأستاذ «رادا كريشنان» ثم انحشرنا نحن الستة جميعًا فى سيارة واحدة لا أعرف كيف اتسعت لنا، ثم توجهنا إلى معبد «بيرلا» الذى تقرر أن نبدأ به. وجمعنا الأستاذ «رادا كريشنان» فى ركن من ساحة المعبد وحاول تعريفنا مسبقًا بما سوف نراه، مضيفا إلى ذلك ما وجده ضروريًا من خلفيات، وكان مجمل كلامه «أن كل الأديان السماوية وغير السماوية بما فيها الديانة الهندوكية تلتقى فى أهدافها العظمى، فهى جميعًا تسعى إلى تأسيس العلاقة بين الفرد والكون وبين حياته على الأرض وما بعدها وإن سلك كل منها بعقائده

مسلكًا واتخذ طريقًا ومنهجًا وصورًا تختلف باختلاف تقاليد ومواريث وشخصيات الأمم». ثم أضاف بأنه «يكفينا قبل أن ندخل المعبد أن نذكر بضعة أسماء ونستوعب معانيها، وإذا فعلنا فإن الشرح داخل المبنى سوف يكون أسهل وأقرب إلى الفهم». وكانت الكلمة الأولى هى «البراهمان» أى «روح الكون»، ثم كلمة «الأتمان» وهى «روح الفرد»، ثم كلمة «كارما» وهى «الصراع بين الخير والشر»، وأخيرًا كلمة «موكشا» وهى نتيجة«العمل الصالح».

والعلاقة بين الكلمات الأربعة متصلة، فـ«البراهمان» روح الوجود خالدة لا تتغير، و«الأتمان» روح الإنسان وهى باقية ولكنها تتغير بالتناسخ الأبدى للأرواح، ثم إن«الكارما» وهى صراع الخير والشر هى نضال الإنسان من خلال المعرفة والعمل والجهد والإخلاص للوصول لـ «الموكشا» وهى التى تحقق ارتقاء الروح وتخليصها من أسر الجسد والميلاد والموت وتصلها بروح الكون ترفعها إلى «النيرفانا» أى «النعيم المقيم والحياة الخالدة».

ثم مشينا جميعًا وراء «رادا كريشنان» إلى داخل المعبد بأضوائه الخافتة وروائحه الصارخة من البخور إلى العرق، وأصواته الغريبة تختلط فيها دقات الطبول مع أصوات أدعية الصلاة والأناشيد والترانيم.

ووقفنا أمام التماثيل الثلاثة الكبيرة التى تتصدر كل معبد هندوكى :«براهما» إله الخلق. ثم«فيشنو» إله الحفظ. ثم «شيفا» إله الدمار.

وبدت لى من أول نظرة ملاحظة استلفتت نظرى. فـ«براهما» إله الخلق يكاد أن يكون مهجورًا لا يقرب منه أحد بصلاة أو قربان(كأنما الأحياء لم يعودوا فى حاجة إليه لأن وجودهم أحياء فى حد ذاته دليل على أن«براهما» قام بدوره ولم يعد فى يده بعد ذلك شىء). وأما «فيشنو» فقد بدا لى إلهًا نصف منسى فالصلوات أمامه والقرابين قليلة ومعظمها من بعض ثمار الفاكهة. وأما الإله الثالث إله «الدمار» - «شيفا» - فقد بدا لى محط الاهتمام ومناط الرجاء كله. أمامه كل الصلوات بالهمهمات وبالدموع، وأمامه كل القرابين من الحلوى إلى الحلى الذهبية، والمصلون فى

حضرته كأنهم سمروا فى مواقفهم يطيلون الركوع والسجود ويمدون أصابعهم فى رهبة للمس أقدامه ضراعة وتوسلاً وكل منهم لايريد أن يفسح مجالاً لغيره من المتلهفين لنظرة توسل ورجاء استرضاء لـ«شيفا»!

ومضت الساعات من مشهد إلى مشهد ومن معبد إلى معبد، و «شيفا» إله «الدمار» يثير تساؤلات كثيرة فى فكرى، وكانت كلها تساؤلات مشوبة بقلق.

وحين جلسنا إلى الغداء بعد الطواف الطويل عبرت عن تساؤلاتى أمام الجميع موجهًا حديثى للأستاذ«رادا كريشنان». قلت له إنه «إذا صح فهمى فإن «شيفا» إله الدمار الذى رأيته فى المعابد هو رمز للشر أو للشيطان، وفى كل الأديان السماوية فإن البشر مطالبون بعصيان رمز الشر. وفى الإسلام حيث يرمز«إبليس» لهذا الشر فإن المسلم يثاب بمقدار ما يتحدى الشر، ويدخل الجنة(«النيرفانا» إذا جاز التشبيه) من باب صدامه الكامل مع«إبليس». وطقوس استرضاء الشر واستعطافه والتوسل إليه بالقرابين والدموع كما رأينا اليوم أمام«شيفا» - بدت لى قضية غريبة لا أعرف مدى تأثيرها على الضمير والوجدان والعقل الهندوكى».

وكانت تلك بداية حوار دار بيننا جميعًا على امتداد ساعات وكان الحوار شيقًا عميقًا، لكن تفاصيله الكاملة لها مجال آخر غير هذا الحديث إذا أتيحت فرصة.

□

بعد ثلاثة أيام من المعابد والآلهة والصلوات والترانيم والبخور والعرق امتزجت وتضاربت فيها العقيدة والتاريخ والأسطورة والبشر، وجدت فى فندقى الرسالة التى كنت أنتظرها ردًا على طلب سبقنى إلى دلهى: موعد مع رئيس الوزراء «جواهر لال نهرو» فى الساعة التاسعة من صباح غد فى مكتبه فى «راشترا باتى بهافان» مقر الحكم الرسمى فى عاصمة الهند.

وفى الموعد تمامًا كنت جالسًا على مقعد أمامه.

كان قد دعانى إلى الجلوس أمامه عندما دخلت، لكنه راح ينهى أشغالاً كان

مستغرقًا فيها قبل دخولى ولم يشأ أن يتركنى فى الانتظار خارج مكتبه حتى يفرغ. أشار إلىّ بأنه سوف يكون معى باهتمامه بعد لحظات. وأتاح لى ذلك فرصة أن أتأمله.

كان فى الزى الهندى التقليدى الأبيض شاهق البياض والوردة الحمراء تطل من عروة الصديرى كما عرفها العالم. بدت لى تقاطيع وجهه أكثر انسجامًا من الصور التى تنشر له. وبدا وجهه صبوحًا متسقًا فى ملامحه ومريحًا. وعلى الشفتين الرقيقتين. وكانتا الآن وهو مستغرق فى التفكير مزمومتين ـ لمسة كبرياء لا تحاول التواضع بالتخفى. والحقيقة أن مناخًا كاملاً من الثقة بالنفس كان يملأ القاعة. ولاحظت أنه كان يهمهم لنفسه وهو يفكر. ثم تناول قلمًا وبدا لى أنه شطب فى ورقة أمامه ثم كتب سطرًا آخر بدلاً مما شطب ثم رفع سماعة تليفون وأعادها إلى مكانها على الفور لأنه غيّر رأيه فيما يبدو. ثم فتح درج مكتبه ووضع فيه كل الأوراق التى كانت أمامه وكأنه بت بالتأجيل فيما كان مطروحًا عليه.

ثم راح يوجه حديثه إلىّ، ولاحظت أن فى صوته نبرة تعطى الانطباع بأنها تصدر من أنفه وليس من شفتيه وحدهما، واكتشفت فيما بعد أن هذه النبرة فى صوته تزيد إذا ضايقه شيء أو انفعل أثناء مناقشة.

قال لى:

ـ «هذه أول مرة تزور فيها الهند؟».

وكان جوابى بـ «نعم» ـ وقال «وكيف وجدتها؟» ـ وقلت«إننى أحاول إعادة اكتشافها بعينىّ وليس بعيون الرحالة القدامى والمحدثين!» ـ وعاد يسأل «وهل أعدت اكتشافها وماذا اكتشفت؟» ـ ولاح شبح ابتسامة على طرف شفتيه. وقلت «وهل يستطيع أحد أن يكتشف الهند فى خمسة أيام.. يحتاج المرء أربع سنين على الأقل ليفهم؟».

وقال بلهجة بدت لى مبطنة بشيء من السخرية وبشيء من المرارة «لعلك تنجح

فيما لم أنجح فيه أنا. لقد قضيت حتى الآن أكثر من خمسين سنة أحاول اكتشاف الهند ولم أستطع. عرفت أشياء عن الهند ولكنى لم أكتشف الهند كلها بعد».

ثم قال: «أظنك بدأت من الطريق الصحيح، ففهم الديانة الهندوكية من مفاتيح معرفة الهند الحديثة. هناك مفاتيح أخرى لا تقل أهمية من الهندوكية. لكن الديانة هى أول المفاتيح كلها». ثم استطرد: «فهمت أنه كان معك جمع من المصريين غيرك فى زياراتكم المكثفة للمعابد، فهل هم صحفيون أيضًا؟».

وسارعت أحدثه عن الدكتور «هيكل» (باشا) والدكتور «وايت إبراهيم» وظروف لقائى بهما مصادفة فى دلهى.

وقال:

ـ «ومن سوء الحظ أننا لم نكن نعرف من أحزاب مصر غير حزب «الوفد» ولا كنا نعرف من زعماء هذا الحزب غير «النحاس» (باشا) و «مكرم عبيد» (باشا).

أين هما الآن بعد كل ما حدث فى مصر وماذا يفعلان. إننى لقيتهما مرة سنة ١٩٣٨ حينما زرت مصر بدعوة من «النحاس» لمدة يوم واحد. الحقيقة أننى كنت فى طريقى إلى أوروبا وعرف «النحاس» أننى سوف أعبر قناة السويس على باخرة من الهند إلى فرنسا. وبعث لى خطاب دعوة لزيارته وتركت الباخرة فى السويس وتوجهت إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية وقابلته وركبت نفس الباخرة من الإسكندرية إلى أوروبا.

«النحاس» كان مغرمًا بالتفاصيل الصغيرة. «مكرم عبيد» كان شديد الذكاء.

سألتك عن موقف «النحاس» و «مكرم» الآن وبعد ما حدث عندكم (يوليو ١٩٥٢)، هل لهما صلة صداقة بالنظام الجديد أم هى صلة عداوة؟ ليس الأمر واضحًا أمامى؟».

ثم نفخ نسمة هواء من أنفه وبدت لى لمسة الكبرياء على طرف شفتيه أكثر بروزًا، وقال:

ـ «الحقيقة أننى لا أعرف طبيعة ما حدث عندكم تمامًا. إن مصر تهمنا بالقطع لكنى لا أستطيع وصف الأحداث التى جرت فيها تمامًا، فبعض الأخبار تسميها «انقلابًا» وبعضها تسميها «حركة» وهناك من يقول إنها «ثورة» ـ لكنى من بعيد ـ وقد أكون مخطئًا ـ لا أرى مؤشرات ثورة مع تسليمى بأن مصر كانت فى حالة ثورية. ومع ذلك فأنت تعرف عن ذلك أكثر مما أعرف ولكنك لا تريد أن تقول شيئًا عنه ربما لأنك لا تعرف. كلنا يتصور أنه يعرف وطنه لكنه إذا دخل الامتحان اكتشف أن ما يعرفه قليل».

وأحسست بنوع من الضيق. على الأقل كان يتركنى لأجيب وبعدها يحكم إذا كنت أعرف أو لا أعرف.

ثم سألنى دون انتظار: ما الذى تريد أن تعرفه منى عن الهند فى ربع الساعة الباقية أمامنا؟».

ولم يكن ربع الساعة الباقى كافيًا لحوار حقيقى.

وخرجت من مكتبه بعد قليل وشعورى: أننى أحببت الهند. ولكنى لم أستطع أن أحب زعيمها «نهرو» رغم كل ما سمعت وقرأت عنه!

□

ولم يكن لقائى الثانى مع «نهرو» فى القاهرة سنة ١٩٥٤ بأسعد نتيجة من لقائى الأول معه فى دلهى.

كنت مدعوًا معه على الغداء فى القناطر الخيرية وقد حملتنا إليها فى صحبة «جمال عبد الناصر» الباخرة النيلية «محاسن».

فى طريق الذهاب إلى القناطر كانت الجلسات بين الاثنين مباشرة. وكان المقرر أن ينضم إلى الباخرة على الغداء أثناء رسوها فى القناطر آخرون ثم يعودون على ظهرها فى صحبة «جمال عبد الناصر» و «جواهر لال نهرو».

وحين جلسنا بعد الغداء وبدأت الباخرة تتحرك فى طريق العودة كان «جمال عبد

الناصر» مازال يسأل «نهرو» عن مشكلة التخطيط وكيف استطاعوا حلها فى الهند. من أين بدءوا التفكير فى التخطيط وكيف أعدوا له وماذا أعدوا له، ثم كيف حددوا ورتبوا الأولويات وكيف وضعوا الأطر، ثم كيف تحولت أهداف الخطة إلى مشروعات ثم من ينفذ هذه المشروعات ومن يتابع تنفيذها ومن يقيّم النتائج.. إلى آخره؟

وفى البداية كان «نهرو» يتكلم ولم يكن فى كلامه ما يستلفت النظر، ثم بدا كما لو أن الملل أصابه أو كما لو أنه كان نجمًا مشهورًا يلح عليه المعجبون ليغنى وهو يتدلل ويتمنع ويقول كلمة ويسكت أو يقتضب مقطعًا دون أن يكمله تكاسلاً أو تعاجبًا!

ثم اعتذر «نهرو» بأنه يريد أن ينام ولو لعشر دقائق، وفتحوا له باب مقصورة دخل إليها لينام. وأبديت لـ «جمال عبد الناصر» ملاحظة عن انطباعاتى عن «نهرو»، ودافع عنه بشدة قائلاً: «عندما كنا فى الطريق إلى القناطر وحدنا لم يتوقف عن الكلام وكان عقله مرتبًا وكلامه مفيدًا، وأظن أنه بعد الغداء تعب، وقد قال لى إنه تعوّد أن ينام باستمرار بعد الغداء وربما كنت قد أرهقته قبله!».

□

ثم رأيت «نهرو» بعد ذلك فى القاهرة فى مارس ١٩٥٥، ودعيت إلى فنجان شاى معه وحدنا فى سفارة الهند رتبه السردار «بانيكار» الذى عين سفيرًا للهند فى القاهرة فى فترة بدأ فيها «عبد الناصر» و «نهرو» ينسجان خيوط علاقة خاصة بين مصر والهند بحرص ودقة.

وفى هذه المرة كانت هناك نقطة واحدة تشغله فى الحديث. كانت الدول الآسيوية والأفريقية تعد لعقد مؤتمر «باندونج» (إندونيسيا) بعد شهور. وفوجئ «نهرو» بأن «جمال عبد الناصر» يرفض اشتراك إسرائيل فى مؤتمر «باندونج» رغم أن دول كولومبو الخمس التى أعدت المؤتمر وجهت لها الدعوة باعتبارها دولة آسيوية. وأحس «نهرو» أن «جمال عبد الناصر» سوف يقاطع الاجتماع إذا حضرته إسرائيل، وإذا فعل فإن بقية الدول العربية سوف تحذو حذو مصر. وإذا حدث ذلك فإن أكثر

من عشر دول عربية ـ فى ذلك الوقت ـ سوف تتغيب عنه هى الأخرى وهذا يهز صورة المؤتمر أمام العالم.

وكان «نهرو» حائرًا فى قضية إسرائيل: يجامل الدول العربية بحجب اعتراف الهند عنها ولا يسمح لها إلا بقنصلية فى بومباى، ولكنه فى نفس الوقت لا يرى مبررًا لمقاطعتها تمامًا على النحو الذى أصر عليه «عبد الناصر» خصوصًا فى إطار تجمع آسيوى أفريقى كذلك الذى كان يجرى الإعداد له فى «باندونج».

وحاورنى «نهرو» على الشاى فى هذه النقطة وكان تساؤله: «أليست إسرائيل دولة آسيوية؟».

وقلت: «لنقل إنها تحتل رقعة أرض فى آسيا. لكنها ليست آسيوية بالقطع».

ولقد كان واضحًا فى كلامه إعجاب مستتر بحركة المستعمرات فى إسرائيل يراها وجهًا لتجربة اشتراكية. ثم كان واضحًا فى كلامه أيضًا أن مصر برفضها الاشتراك فى المؤتمر مع إسرائيل ـ إذا دعيت إليه ـ تتمسك بشكليات لا تقتضيها طبيعة الحقائق، ثم إنها تخلط بين مشكلة داخلية وبين قضية عالمية يمثلها مؤتمر «باندونج» الذى يستهدف مواجهة الاستعمار والقضاء عليه وفتح الطريق أمام حركة التحرر الوطنى.

وحين قلت له إن إسرائيل ليست غير رأس جسر للاستعمار على الشاطئ الشرقى للبحر الأبيض وبالتالى فإنها لا تستطيع أن تلعب دورًا فى حركة التحرر الوطنى إلا أن تعوقها إذا استطاعت وغير ذلك ضد الطبيعة ذاتها. لم يبد عليه اقتناع بما قلت.

وعلى أى حال فقد كان على موعد لمواصلة المحادثات مع «جمال عبد الناصر» فى مساء نفس اليوم ولا أظنه اقتنع بعقله وإن كان السياسى فيه قبل بالأمر الواقع. ثم كان عليه أن يتصرف مع بقية زملائه من رؤساء دول كولومبو لكى يسحبوا دعوة أرسلت فعلاً إلى إسرائيل، بكل ما ينطوى على ذلك من حرج خصوصًا وأنه حرج بغير اقتناع!

وحتى هذه اللحظة كنت ما زلت أحسب نفسى بين عشاق الهند دون أن ينسحب هذا العشق على زعيمها الذى كنت ما أزال حائرًا فى أمره لا يستقر لى معه قرار!

□

وجاءت رحلة «باندونج». ورأيت«نهرو» كثيرًا على الطريق إلى هذه البلدة الإندونيسية التى أصبحت علامة بارزة فى التاريخ الحديث لأمم وشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ـ وفى حركة التحرر الوطنى فى العالم عمومًا ـ لكن زحام الحوادث لم يسمح بحديث له قيمة أو معنى بيننا.

وكان الطريق إلى «باندونج» طويلاً. بدأ بزيارة لباكستان لم يكن «نهرو» موجودًا فيها. ثم جاءت زيارة للهند كان «نهرو» هو المضيف فيها لـ «جمال عبد الناصر» والوفد المرافق له. ثم جاءت المرحلة الثالثة من الرحلة بزيارة لبورما، وتحوّل «نهرو» ليصبح ضيفًا بدلاً من مضيف، ولم يكن هو الضيف وحده على «أونو» زعيم بورما، وإنما معه فى الضيافة «جمال عبد الناصر» و «شوين لاى» رئيس وزراء الصين.

وأخيرًا وصل كل الضيوف إلى «باندونج» والمضيف هو «سوكارنو» زعيم إندونيسيا التى انعقد فيها مؤتمر «باندونج» كله على أرضها.

وكنت أتابع«نهرو» ـ كما كنت أتابع غيره ـ عن كثب وأحاول أن أعثر فيه على ما لم أجده فى مرات لقائنا السابقة. وكنت أقول لنفسى دائمًا «لا بد أن فيه أكثر مما بدا لى منه. أو لعله هو الذى لم يبد من نفسه أكثر مما أبدى لسبب. لا بد أن وراءه شيئًا أكبر مما يظهر ـ لى على الأقل ـ فليس يعقل أن يصل شخص ما إلى ما وصل إليه «نهرو» فى المكان والمكانية على غير أساس. ذلك رجل لم يرث دوره بالميلاد إرثًا كالملوك، ولا استولى عليه بالانقلاب مثل عديدين غيره.

وخيل إلىّ أننى اكتشفت بعض الملامح من شخصيته خلال عملية المتابعة على الطريق إلى«باندونج».

● بدا لى أن لديه ثقة بنفسه وهى مرئية فى كل تصرفاته وملحوظة لا يشوبها

غير شيء من القلق وعدم الاستقرار. وكان طبيعيًا أن يكون لثقته بنفسه أساس. فمزيج العائلة الأرستقراطية من صفوة الكشميريين في أحمد آباد. مضافًا إليها أفضل مستوى من التعليم في ذلك الزمان (كلية «هارو» في إنجلترا ثم جامعة «كامبريدج») كفيل بتوفير مثل هذا الأساس، فإذا أضيفت إليه تجربة التلمذة على «غاندى» الذى كان صديقًا مقربًا لوالده «موتيلال نهرو» أحد كبار مؤسسى حزب الكونجرس؛ فإن أساس الثقة بالنفس يزداد قوة، فإذا أضيف فوق ذلك كله صعوده في الكونجرس بسرعة إلى مرتبة الرئاسة وقيادته للحركة السياسية الهندية جنبًا إلى جنب مع القيادة الروحية والمعنوية التى كانت مؤكدة لـ «غاندى»؛ إذن فإن أساس الثقة بالنفس يصبح بناءً متكاملاً، قاعدة وقمة!

ومع ذلك فلماذا لمحة القلق وعدم الاستقرار؟ - ليس واضحًا بعد!

● وبدا لى أيضًا أن صلته بالأفكار وثيقة وأن معرفته بالتاريخ حميمة، فعندما يكون الأمر في الجلسات متعلقًا بالأفكار أو بالتاريخ يجيء للكلام، لكن تدخلاته فى الحوار كانت أحيانًا مشوبة بنوع من نفاذ الصبر خصوصًا إذا قاطعه أحد. ثم إنه حتى فى عرضه للأفكار وللتاريخ - إذا عرض - لا يصل بسامعيه إلى نتيجة محددة وإنما يظل كل شيء في النهاية معلقًا بعنصر شك. وهو لا يركز على هذا الشك فيبرزه ولا يحاول استجلاء غوامضه فيحلها.

وحاولت أن أقنع نفسى بأن ذلك هو «المثقف» فيه تلك شخصيته أو هو مزاجه.

المثقف بطبيعته لا يملك جوابًا نهائيًا لسؤال ولا يتصور مثل هذا الجواب النهائى، ثم إن المثقف فى موقع السلطة ممزق: يراها غيره من الحكام كبيرة، يراها المثقف عاجزة. فغير المثقف يترجم السلطة على أنها القوة فحسب ويريح نفسه ويتعب الآخرين. والمثقف يرى السلطة وسيلة لتحقيق غايات مرجوة فى العمل الاجتماعى والاقتصادى والفكرى والسياسى، والتأثير بطيء بحكم الأحوال والأثقال، وربما الأهوال. وهكذا يشعر المثقف الحاكم أكثر من غيره بالفجوة الهائلة بين الفكرة والعمل، وبين الحلم وتحقيق الحلم.

● ولقد بدت لى ملامح عدم الاستقرار فيه حادة إلى درجة الحيرة. حتى فى الطريقة التى يقلب بها أوراقه. حتى فى الطريقة التى يتعامل بها مع زملائه فى الجلسات. حتى فى الطريقة التى يتردد فيها قبل أن يوجه خطابه لأحد أو يتجه بخطواته فى ناحية. وكانت أكثر الكلمات ورودًا على لسانه قوله: «لا أعرف». «لست متأكدًا». «ربما». «هل تظن!». «لا أظن»... وعبارات من هذا القبيل كثيرة!

وجربت أن أعثر له على تبرير فلا بد أن هناك تبريرًا ما.

تصورت أنه وقع فى حيرة المفكرين السياسيين الذين أثروا على المدرسة الإنجليزية فى السياسة فى بدايات القرن الحالى. وهى الفترة التى عاشها هو فى إنجلترا دارسًا فى «هارو» و «كامبريدج».

كان مفكرو «الفابية» وهى باختصار شديد حلم «بالاشتراكية والديمقراطية» يغزلون خيوط أحلام إنسانية عظمى ورؤى مستقبلية باهرة، لكنهم كانوا يعرفون أن رجل الفكر لا يستطيع أن يخوض معارك السياسة حتى ولو كان هدفه تعليم الجماهير. وكانوا يرون ضرورة وجود دور وسيط بين المفكر والشارع وهو دور «الديماجوج» أو الخطيب السياسى البارع فى اللعب بمشاعر سامعيه وإعادة تشكيلها. كانوا يرون أن على المفكر أن يفكر ثم يجىء «الديماجوج» ويلتقط الأفكار ليحولها إلى حركات شعبية مؤثرة تهز الشوارع والمصانع والقرى وتزحف نحو السلطة. وكان هذا هو الدور الذى قامت به قيادات حزب العمال بين الأبراج العالية لـ «الفابية» حيث كان رجال من أمثال «جورج برنادشو» و «سيدنى ويب» و«هـ. ج. ويلز» - وبين حركات نقابات العمال وصغار الموظفين والفلاحين ممن كانت لهم مصلحة فى الاشتراكية.

لكن تجربة «نهرو» فرضت عليه أن يجمع بين الدورين ولم يعثر على نفسه فى أيهما - على فرض أن تبريرى كان صحيحًا - فلا هو تفرغ لدور «المفكر» ولا هو استطاع أن يقبل أعباء دور« الديماجوج» الأول بدا له أكبر من طاقته والثانى بدا أقل من اعتداده بنفسه.

ربما من هنا حيرته!

● ثم بدا لى شىء آخر فى «نهرو» وأنا أتابع وأرصد من بعيد. بدا لى أن نوعًا من «الغيرة» يعتريه وهو يحاول أن يداريه لكن جهده فى الإخفاء لا ينجح فى كثير من الأحيان.

كان شديد الفرح بـ«عبد الناصر» وهما وحدهما فى الهند. وكان شديد التشوق إلى «شوين لاى» الذى كان ينتظره فى رانجون. وكان هو الذى قدم صديقيه أحدهما للآخر فى مطار رانجون ـ فإذا الاثنان ينسجمان معًا من أول لحظة، وفى المساء كانت أعراض الغيرة على ملامح «نهرو». كان يريدهما أن يتعارفا ولكنه على نحو ما كان يريدهما معًا على شرط أن يكون هو وسطهما طول الوقت.

وعندما وصلت المواكب كلها إلى «باندونج» إذا «شوين لاى» يخطف جزءًا من الأضواء و«جمال عبد الناصر» يخطف جزءًا آخر منها، وإذا بـ«نهرو» يضيق بالأضواء كلها حتى أضواء التصوير، فهو كلما أضيئت كشافات المصورين يبدى ضيقه لأن «هؤلاء الناس يريدون أن يصيبوا أبصارنا بالعمى».

وحتى هذه الناحية من شخصيته حاولت أن أجد لها تعليلاً إنسانيًا فهذه ـ هكذا قلت لنفسى ـ طبيعة النجوم. «نهرو» نجم شاهق دون جدال. وكل نجم يتمنى أن يكون الأكثر ضوءًا وأعلى مدارًا فى الأفلاك. وقبلة كل العيون والقلوب. لكن كل وتر جديد له رنة.

ولم يكن حسدًا لغيره على وجه اليقين فقد كان الكل يعرف له المكان والمكانة، لكنه عجب النجوم فى السماء والغيرة الطبيعية لنجوم الأرض!

[٦]

كانت تلك كلها فرضيات وضعتها للاختبار. لم أعثر عليها جزافًا ولم أتعسف فى عملية تصورها، وإنما كانت نتيجة استنتاجات قامت على الملاحظة والاستقراء ونتيجة المتابعة الدقيقة والرصد. لكنها كانت استنتاجات. مجرد فرضيات.

وعلى غير انتظار فى «باندونج» تجلى أمامى «جواهر لال نهرو» فى كامل شخصيته وعلى حقيقته.

كانت اللجنة السياسية لمؤتمر «باندونج» تعقد اجتماعًا مغلقًا بعد غداء لكى تراجع الصياغة النهائية لإعلان المؤتمر فى الجلسة المفتوحة الختامية.

ودخلت بالصدفة إلى قاعة الجلسة، فلم يكن مفروضًا أن يدخلها صحفى. وشاء حظى أننى اقتربت من بابها فى صحبة وزير خارجية إندونيسيا وتصور الحراس على باب القاعة أننى من أعضاء الوفود ففتحوا الباب أمامى ودخلت بغير تردد.

لم تكن القاعة مزدحمة كما كانت القاعة العامة لجلسات المؤتمر. وكان عدد الرؤساء الحاضرين قليلاً ويظهر أن معظمهم آثروا النوم لبعض الوقت بعد الغداء وقبل الجلسة العامة المسائية والعشاء الرسمى الذى يليها.

لكن «نهرو» كان هناك على مقعده فى رئاسة الوفد الهندى، وكذلك كان «جمال عبد الناصر» فى رئاسة الوفد المصرى. وكان هناك آخرون من الرؤساء لكن الغياب كان هو الظاهرة العامة على مقاعد المقدمة فى حين كان معظم الحشد ممن دونهم من الوفود.

وحين دخلت إلى القاعة متسللاً لم يكن «نهرو» هو المتكلم. وحين عثرت على مقعد ورتبت نفسى لمتابعة ما يدور حولى، لاحظت على الفور أن «نهرو» يرفع يده طالبًا الكلمة ثم إنه يفعل ذلك بحماسة شديدة، ثم إن ملامح جد، يكاد أن يصل إلى حد الغضب، تظهر على وجهه.

وكان منظره العام كله من حيث جلست أخاذًا ومؤثرًا. رداؤه الأبيض مازال كالثلج الشاهق البياض. والوردة الحمراء كأنها جمرة مشتعلة على صدره. والبريق فى عينيه شديد. ويده مرفوعة. وشفتاه تتحركان كأن الكلام المحبوس بينهما على وشك أن يتدفق كالسيل البركانى. وكل ذلك فى جلال ووقار.

وأعطاه رئيس الجلسة حق الكلمة.

ونزلت يده المرفوعة وأنظار الجميع معلقة بشفتيه وإذا هو يحنى رأسه ويروح بقلم فى يده يكتب بينما هو فى نفس الوقت يهز رأسه إشارة شكر إلى رئيس الجلسة إذ أعطاه حق الكلمة. ومرت لحظات و «نهرو» مازال يكتب. وأنفاس القاعة محتبسة فى انتظاره وهو مازال يكتب....

ثم رفع رأسه. ووضع قلمه. ومد يده فأزاح رداء رأسه التقليدى الأبيض وألقاه أمامه على المائدة بغير اكتراث. ثم أدار رأسه العارى إلا من شعره الذى غطاه الشيب وقال وهو يدور بنظره حول القاعة المشدودة الأنظار.

- «أيها السادة... أنتم تثيرون فزعى».

وسرت فى القاعة همهمة ضاحكة، ولم يتوقف«نهرو»:

- «نعم. أنتم تثيرون فزعى وإلى درجة الموت»!

وساد القاعة صمت أمسك بأنفاسها مرة أخرى بينما «نهرو» يتأهل للكلام وهو يضع نظارته الصغيرة بإطارها المعدنى على عينيه ثم يلقيها بعد لحظة أمامه ثم يدير البصر حوله فى القاعة التى تسمرت أنظار الكل فيها عليه.

(ومن سوء الحظ أننى لم أسجل نصوصه وإنما كتبت بعض النقط على ظن إمكانية الحصول على مضبطة للجلسة بوقائعها كاملة ثم فشلت كل محاولاتى).

بدأ «نهرو» وهو مازال يدير البصر فى القاعة حوله عابرًا على وجوه كل الجالسين حول مائدة الاجتماعات الكبيرة مستطيلة الشكل، قال أولاً:

«إن كثيرين من أصدقائنا هنا يتكلمون عن الحرية والاستقلال.... كثيرين خصوصًا من رفاقنا فى أفريقيا.... إننى عددت كلمة «الحرية والاستقلال» فى كلام ممثلى الحركة الشعبية فى كينيا وروديسيا (زيمبابوى فيما بعد) فإذا هى كثيرة... كثيرة جدًا... المندوب المحترم من كينيا كررها تسع عشرة مرة، والمندوب من روديسيا كان أكثر تواضعًا فقد كررها ست عشرة مرة فقط... ليس بين الذين سمعتهم أمس واليوم من لم يكررها عشر مرات على الأقل.

أريد أن أسألكم ماذا تعرفون عن الحرية والاستقلال؟ ـ ماذا نعرف جميعًا عن الحرية والاستقلال؟

إذا تصورنا أنها إعلان المستعمر القديم بأنه سوف يسحب حامياته من أراضينا ثم يوقع معنا قصاصة ورق فهذا هراء. ذلك سهل، وهم على استعداد لأن يفعلوه غداء، ولكن ماذا بعد؟ ـ هل سألتم أنفسكم هذا السؤال؟

قلت لكم إنكم تثيرون فزعى لأنكم لا ترون ما هو أبعد من موقع أقدامكم. تشغلون أنفسكم باللحظة التى مضت وليس باللحظة القادمة.

تطلبون الاستقلال، حسنا. وتطلبون الحرية، حسنًا أيضًا. سوف يعطونكم ما تطلبون، وسوف يوقعون معكم على قصاصات ورق. لم يعد فى ذلك شك لأسباب كثيرة. أولها أنه لم يعد فى مقدورهم أن يسيطروا عليكم بقوة السلاح، ولسبب ثان بعده وهو أنهم لم يعودوا راغبين فى السيطرة عليكم بقوة السلاح.

انتشار الأسلحة الصغيرة بعد الحرب الكبرى الأخيرة جعلكم أقدر على المقاومة المسلحة. واختلاف أوضاع العالم جعلهم فى غنى عن استعمال السلاح.

وإذن فإنهم سوف يتنازلون (قالها بسخرية) ويوقعون معكم قصاصات ورق. حسنا.. ماذا بعد ذلك؟

سوف تتولون المسئولية. سوف تجدون أنفسكم رؤساء لشعوبكم. لديكم قصور رئاسية، ولديكم حرس وناس، ولديكم سيارات رئاسة وربما طائرات. ليس هذا هو المهم!

هل ستجدون لديكم سلطة رئاسات؟ لست متأكدًا.

سوف تجدون لأنفسكم سلطة على رعاياكم ولكن لن تجدوا لأنفسكم سلطة على غيرهم.

رعاياكم سوف يطلبون منكم «جوائز» الاستقلال. من حقهم أن يتوقعوا تحسن أحوالهم بعد الاستقلال... فهل لديكم ما تعطونه لهم؟

أشك كثيرًا.

لماذا؟

لأنكم جميعًا منهوبون. مواردكم نهبت فعلاً أو هى مربوطة بنظم دولية تواصل عملية نهبها!

وإذا لم تكن لديكم سلطة غير سلطتكم على رعاياكم، وإذا كان هؤلاء سوف يطالبونكم بما سوف تكتشفون أنه غير موجود، فماذا ستفعلون؟.. تغيرون اتجاه سلاحكم من أعدائكم القدامى إلى أعداء جدد سوف ترونهم داخل بلادكم؟ ماذا ستفعلون؟

سوف تجدون فى بلادكم طبقات أكثر قوة من جماهير شعوبكم لأنهم تعلموا كيف يتعاملون مع النظام القديم، وفى ظله وحماه كوّنوا ثروات ورتبوا مصالح. إلى من سوف تنحازون؟.. إلى القلة القوية أو إلى الأغلبية المقهورة....؟».

ثم قال «نهرو»:

- «بعضكم سوف يقول إن لديه موارد ولكنها مستغلة بواسطة الآخرين ولصالحهم. حسنا، بعض رفاقنا هنا فى هذه القاعة لديهم بترول، وبعضهم لديهم نحاس، وبعضهم زنك وحديد وذهب وماس أيضًا.. ماذا سيفعلون بهذه الموارد؟ أحدنا قد يتحمس ويعلن أمامنا أنه ينوى استرداد هذه الموارد من أيدى غاصبيها. حسنا، «مصدق» فعلها فى إيران وأمم البترول، فماذا كانت النتيجة؟ وجد نفسه فى طريق مسدود بالحصار ثم وجد نفسه فى السجن حتى الآن بالانقلاب المضاد.

إن مستعمريكم السابقين رتبوا أنفسهم قبل أن يوافقوا على الاستقلال وأقاموا أوضاعًا جديدة تستبدل أعلامهم القديمة بأعلامكم الجديدة، ولكن هل سيغير هذا من واقع الأمر شيئًا؟

سوف تجدون أنفسكم أمام مشاكل، وسوف يندفع بعضكم إلى أن يطلب من

صندوق النقد الدولى أو البنك الدولى قروضًا. فهل سألتم أنفسكم من هم هؤلاء الذين يسيطرون على صندوق النقد الدولى وعلى البنك الدولى؟

نفس جلاديكم السابقين أخشى أن أقول لكم.

أى أنكم سوف تذهبون إلى الأسياد القدامى طالبين منهم أن يساعدوكم على مسئولية الاستقلال.

وأى وضع هذا الذى يستنجد فيه الضحية بالجانى حتى يساعده على تلافى آثار جريمته، جريمة الاستعمار لن تصححها قروضه وإنما سوف تزيدها سوءًا».

ثم قال «نهرو»:

ـ لن تكون هذه هى المشكلة الوحيدة التى تواجهكم. لاحظوا أن حقوق الحرية التى طالبنا بها وناضلنا من أجلها كأوطان سوف تحدث أثرها فى داخل هذه الأوطان نفسها. بمعنى أن جماعات كثيرة داخل أوطانكم سوف تطالب بحقوق فى الداخل سكتت عليها لأنها اختارت ألاّ تكسر الوحدة الوطنية فى ظروف المطالبة بالاستقلال، لكنها بعد توقيع قصاصة الورق سوف تجد أن الفرصة ملائمة لتطالب. أقليات عرقية وعنصرية ودينية سوف تطالب بترتيبات خاصة. نوع من الحكم الذاتى. نوع من تحقيق الهوية الذاتية. وربما يكون هناك تشجيع من قوى السيطرة القديمة فقد تعلمت بتجربتها أن تتعامل مع الأقليات من كل نوع.

هل هذا كل شىء؟

إنكم سوف تجدون أنفسكم بعد الاستقلال فى مشاكل حدود مع جيرانكم. خرائط معظم بلدانكم جميعًا خرائط جديدة رسمها الاستعمار. فى بعض مناطق أفريقيا تحددت خطوط الحدود بالنقطة التى وصل إليها رحالة من هذا البلد أو شركة من بلد آخر أو حامية عسكرية من هنا أو من هناك.

وماذا ستفعلون؟ هل ستدخلون بعد الاستقلال فى حروب مع جيرانكم.. مع بعضكم؟

حسنًا، سوف نجد أنفسنا فى سباق سلاح مع هؤلاء الجيران. سوف نصنع جيوشًا محلية. ولأن كل البنى الاجتماعية والاقتصادية لدينا هشة فإن هذه الجيوش سوف ينتهى الأمر بها إلى أن تأمرنا بدل أن تنتظر الأمر منا».

وقال «نهرو»:

- «سمعت بعضكم يتحدث عن عضوية الأمم المتحدة وكأنها ملكوت الله. تطلبون فتجابون. هل هذا صحيح؟ الأمم المتحدة بلا فاعلية. ربما يقول لى بعضكم إن دخول عدد كبير من الدول حديثة الاستقلال إليها سوف يحقنها بالفاعلية. أخشى أن العكس سيحدث. أستطيع أن أرى المستقبل أمامى بوضوح حين يصبح عدد أعضاء الأمم المتحدة مائة أو مائة وعشرين أو مائة وأربعين عضوًا. ليكن. وليكن أن بينهم مائة دولة حديثة الاستقلال؟ ما هو أثر ذلك؟ أثره كارثة محققة. هل هى مسألة عدد أصوات؟ وماذا سيفعل عدد الأصوات بالأمم المتحدة؟ كيف يمكن أن تقبل الولايات المتحدة أن يتساوى صوتها مع صوت كوستاريكا، أو يقبل الاتحاد السوفييتى أن تصبح قيمة صوته هى نفس قيمة صوت أفغانستان مع اعتذارى للملك «ظاهر شاه» الذى لا أراه معنا فى هذه الجلسة وإن كان رئيس وزرائه السردار «داوود» يجلس الآن فى مقعده.

لن يقبلوا المساواة فى الأصوات. فى قوة الأصوات. وبصراحة شديدة فإننى معهم فالقوة الحقيقية فى العالم لم يمكن أن تتحقق بعملية حساب تجمع أو تطرح فيها الأصوات.

وإذن سوف يتركون لكم الأمم المتحدة تتكلمون فيها على هواكم ثم تكتشفون أنها أصبحت مجرد ناد أو مقهى يذهب إليه المندوبون ليشربوا الشاى ويلعبوا. بدل أن يلعبوا بالورق سوف يلعبون بالكلام....».

وقال «نهرو». وقال. وقال.

ثم تنهد فى النهاية وسكت واضعًا رأسه بين كفيه والقاعة ماتزال معلقة به

مشدودة إليه مأخوذة بالصورة التى رسمها وكأنه ينقلها من أصل ماثل فى خياله حى ومجسد.

ثم قال:

- «إننى لا أقصد أن أزرع اليأس فى قلوبكم ولكنى أريدكم أن تأخذوا قضية الاستقلال جدًا. إنكم - أو بعضكم - على بابه فعلاً ولكن جواز الدخول إليه ليس بقصاصات الورق التى سوف توقعونها مع مستعمريكم القدامى. جواز مروركم إليه أن تكونوا جادين. أن تستشعروا أن كلمة «الاستقلال» وكلمة «الحرية» ليست تعبيرات فرح وإنما هى أثقال مسئولية... مسئولية مخيفة. هذا ما أريدكم أن تفهموه.

إن السيطرة الجديدة لن تكون بالجيوش ولكن بالتقدم.

التقدم هو وسيلة السيطرة الجديد. أنتم متقدمون إذن فأنتم سادة. أنتم متخلفون إذن فأنتم مقهورون مهما وقعتم من قصاصات ورق ومهما رفعتم من قصاصات قماش سميتموها أعلامًا.

وأسألكم ما هو التقدم؟

اجتماعى بالدرجة الأولى.

من منا يستطيع أن يعطى لشعبه نظامًا اجتماعيًا يحقق العدل لجماهيره، وبأى ثمن؟

سوف تأخذنا جميعًا حمى التنمية وسوف نتكلم عنها ونملأ الدنيا كلامًا، لكن هناك سبيلاً واحدًا إلى التنمية وهو العلم. فماذا لدينا منه؟ أخشى أننا سوف نجد مصائر التنمية عندنا فى أيدى بيروقراطيات متعفنة فى بعض البلدان وعاجزة فى بعضها الآخر....».

وراح «نهرو» يتدفق. راح يتحدث عن أوضاع العالم وموازين القوى فيه، وعن الطاقة النووية وسيادتها المقبلة حربًا وسلمًا.

ولم يشعر أحد بمرور الوقت. وفجأة نظر «نهرو» إلى ساعته ثم قال وكأنه قطع كلامه قبل أن يفرغ من كل ما لديه:

- «شكرًا سيدى الرئيس. لقد أخذت من وقت اللجنة الموقرة أكثر من ساعة، لكنى وجدت من واجبى أن أغوص قليلاً فى تبعات الاستقلال بعد أن سمعت رفاقًا كثيرين لنا يتحدثون شعرًا ونثرًا عن مباهجه!».

وساد الصمت....

ثم انفجرت القاعة بالتصفيق وراح «نهرو» ينظر حوله فى دهشة!

لقد أراد أن يثير فزعهم كما أثاروا فزعه «إلى حد الموت» - طبقًا لتعبيره - فإذا هم يصفقون له!

□

لا أظننى أتجاوز إذا قلت إن هذه الجلسة التاريخية فى «باندونج» كانت هى اللحظة التى انزاح فيها الستار أمامى عن جانب من شخصية «نهرو» الحقيقى. ولا أظننى أتجاوز أيضًا إذا زعمت أن تلك الفرضيات التى طرحتها لنفسى عنه قبل هذه الجلسة لم تكن تبعد كثيرًا عما كشفته لى تلك الجلسة فى «باندونج».

هو فعلاً ذلك المزيج من الثقة بالنفس - عند الجذور - والشك فى النفس - فى ذات اللحظة - أمام المتفرعات والمتشابكات والمتناقضات المكدسة أمامه كرئيس لوزراء الهند.

هى فعلاً الحيرة بين تكوين المثقف الذى امتزجت فى تكوينه روحانية الشرق القديم وعقلانية الغرب الحديث. ضاعت الحدود بين الهندوكية والفابية، بين الجيتا والإنجيل ورأس المال لكارل ماركس، بين «براهما» و«فيشنو» و«شيفا» و«لوك» و«لاسكى» و«برناردشو».

هى فعلاً الحيرة داخل النفس ثم بين النفس والواقع. بين المثقف والسلطة. بين الإنسان والحاكم. بين المفكر والمنفذ. بين البراهمى المسالم وحقائق القوة.

ثم هى أيضًا إلى جانب ذلك حيرة الهند تبحث عن غد ولا تستطيع العثور عليه، ويرهقها فى البحث عنه تراث الهند وهو طويل معقد غائر إلى الأعماق، ثم مواريث الإمبراطورية البريطانية وكانت باقية ومؤثرة، ثم حجم الهند وهو راسخ رازح، ثم النموذج الشرقى اليابانى القريب منه يثير والنموذج الشرقى الصينى الملاصق له يحير، إلى جانب التسابق الأمريكى السوفييتى على البلد الذى تتعلق به موازين الصراع على آسيا كلها. فلو أنه اتجه إلى أى من المعسكرين لمالت كفة الميزان لصالحه فى سباق النفوذ على القارات والمحيطات.

وفيما بعد جمعتنى أحداث الخمسينيات وبداية الستينيات بـ «نهرو» عشرات المرات لكنى أستطيع أن أقول إننى قابلته فعلاً (وما يمكن أن أسميه مقابلة فى تعريفى هو ما يكون لقاءً منفردًا ويستمر ساعة على الأقل إذا لم يزد) ثمانى مرات بالتحديد ما بين القاهرة ودلهى ونيويورك وبريونى وباندونج وبلجراد.

وأتصور أننى بدأت أفهمه حتى فى حالات «سخطه الفكرى».

وأتذكر أننى عندما ذهبت لمقابلته فى بريونى يوم ١٧ يوليو ١٩٥٦ ـ وكان هو هناك مع «عبد الناصر» و«تيتو» ـ أنه بادرنى من أول لحظة:

ـ «هؤلاء الصحفيون الحمقى....»

وقاطعته على الرغم منى ابتسامة لم أستطع كبتها على شفتى، فقد كنت واحدًا من هؤلاء الحمقى.

وقال على الفور:

ـ «لا أقصدك أنت... ولكنى أقصدكم جميعًا».

ولم يسمح لشىء ـ حتى ولا لابتسامة ثانية ـ أن يقاطعه، وقال:

ـ «يسمون لقاءنا هنا، ناصر وتيتو وأنا، مؤتمرًا... ويسمونه مؤتمر قمة... ما هذا الهراء؟ هل كلما اجتمع اثنان أو ثلاثة من الأصدقاء يصبح اجتماعهم مؤتمرًا؟.... وهل إذا شاءت الصدف أن يكونوا رؤساء لدولهم أو حكوماتهم يصبح المستوى

مستوى قمة؟ هذا أيضًا هراء.. هناك قمة وحدة فى هذا العالم المعاصر وهى بين الأمريكان والروس، وأن يطلق غيرهم على نفسه وصف القمة فهذا انتهاك لعرض الألفاظ والمعانى».

ثم سألنى «باشمئناط»:

- «ألا تستطيع أن تفعل شيئًا لتصحيح هذا الخلط؟!».

وقلت:

- «وما الضرر فى أن يقال عن لقائكم هنا إنه مؤتمر وإنه على مستوى القمة؟».

وقال بسرعة:

- «الضرر أنه خطأ. ثلاثة لا يصنعون مؤتمرًا. ومع احترامى للهند ومصر ويوجوسلافيا فالقمة ليست هنا».

ولقد تجددت المناقشة بعد ذلك فى الجلسات عندما اقترح الرئيس «تيتو» مشروع بيان عن «المؤتمر الثلاثى» فى بريونى، وقال «نهرو» «باشمئناط»: «أى بيان ولماذا؟ هل قررنا شيئًا؟ إننا جلسنا معًا كأصدقاء وتبادلنا الرأى فى أحوالنا وأحوال العالم، ثم إن كلاً منا سوف يعود إلى بلاده وانتهى الموضوع؟ بيان؟ ما هو لزوم البيان؟ أخشى أن الآخرين سوف يرون أننا نأخذ أنفسنا بجد أكثر مما هو لازم. خطر أن يأخذ الناس أنفسهم بجد أكثر مما هو لازم».

وتضايق الرئيس «تيتو» وقال لـ «نهرو» بحدة:

- «لماذا تريد أن «تبطط» flatten أهمية اجتماعنا؟».

ورد «نهرو» على الفور:

- «أنا لا أريد أن «أبطط» شيئًا ولكنى لا أريد أن أنفخ الهواء فى بالون».

وتدخل «جمال عبد الناصر» ليفض مشادة كان يمكن أن تتفاقم. وعلى نحو ما فقد كنت أحس أننى أفهم «نهرو».

وفى بلجراد سنة ١٩٦١، أثناء انعقاد قمة دول عدم الانحياز الأولى، تكرر

المشهد بصورة أخرى. كنت بالمصادفة عضوًا فى لجنة من خمسة عهد إليها أن تعد مشروع إعلان دول عدم الانحياز (كانت هناك ورقة معدة من قبل بالخطوط العريضة لما هو مطلوب فى الإعلان أعدها اليوجوسلاف ثم أرسلت لدلهى والقاهرة لإبداء ملاحظات عليها). وتقرر أن نجلس جميعًا مع الرؤساء الثلاثة نسمع منهم ما يريدون للإعلان أن يتضمنه. وشرح لنا الرئيس «تيتو» ما يريد و«نهرو» يسمع. ثم شرح لنا الرئيس «عبد الناصر» ما يريد و«نهرو» يسمع أيضًا. وجاء الدور على «نهرو» فإذا كل مطالبه بالحذف وليست بالإضافة. ومرة أخرى تضايق «تيتو» وقال لـ «نهرو»:

ـ «لو أخذنا بكلامك لحذفنا كل شيء. لما كان هناك إعلان على الإطلاق».

ورد «نهرو»:

ـ «هل تتصور أن العالم لديه وقت ليقرأ مائة صفحة عن عدم الانحياز؟ عندما جئنا إلى هنا أول أمس كان الاتحاد السوفييتى قد أعلن عن استئناف تجاربه النووية فى الفضاء. وهكذا فإن موضوع السلام والحرب هو الموضوع الوحيد الذى يريد العالم أن يسمع فيه شيئًا. لا داعى لكل هذا الكلام الطويل المكرر والمعاد. لنقل عشرة سطور عن مشكلة السلام والحرب، أليس هذا هو جوهر قضية عدم الانحياز وجوهر قضية مصير البشرية كله؟».

ثم تعقدت الأمور أكثر حين اقترح الرئيس «تيتو» أن تكون هناك سكرتارية مؤقتة لقمة عدم الانحياز تتابع قراراته حتى ينعقد مرة ثانية وتقدم تقريرها له ثم تنفض. وصاح «نهرو»:

ـ «هذا معناه أننا نحوّل عدم الانحياز من فكرة إلى منظمة، والعالم لا يحتاج إلى منظمات جديدة... ثم إن هذا معناه أن نحوّل أنفسنا إلى كتلة بينما نحن نقف ضد الكتل».

وقال «تيتو»:

ـ «إننى لا أتكلم عن سكرتارية دائمة ولا عن مقر. أتكلم عن ثلاثة أو أربعة يقومون بالمتابعة».

وأصر «نهرو» على موقفه لم يتزحزح عنه. وراح يقول لـ «تيتو»: «إذن أنت تريد منظمة.... إذن أنت تريد كتلة». وراح «تيتو» ينفى أنه يريد منظمة وينفى أنه يريد كتلة، ولكنه يريد حلاً لمشكلة المتابعة بين اجتماعين لرؤساء الدول غير المنحازة!

وكان «نهرو» يهز رأسه نفيًا... وبشدة!

□

ثم جاءت آخر مرة قابلت فيها «نهرو»، وهى المقابلة التى أركز عليها فى هذا الحديث، وكانت فريدة من نوعها فى تجربتى معه ـ وربما مع غيره ـ فريدة فى جوها وفريدة فى وقائعها.

ذهبت إلى الهند فى شهر فبراير ١٩٦٤ وأنا أعرف سلفًا أننى لن أقابل «نهرو». فقد كان مريضًا. أصابته نوبة قلبية فألزمته الفراش وأعلن رسميًا أن أطباءه حجبوا عنه الأوراق والناس حتى تكتمل نقاهته.

وفرغت من معظم ما أردته فى الهند. وكان آخره لقاء مع «كريشنا مينون» الذى سألنى: «هل زرت «البانديتجى» ـ ويقصد «نهرو»؟». وقلت إننى لم أفعل لأنه مريض. وقال «كريشنا مينون»: «لم أقصد مقابلته ولكن قصدت زيارة بيته.... تترك له بطاقة أو توقع باسمك فى الدفتر تحية له». قلت: «إننى سأفعل ذلك».

وعدت إلى السيارة وسألت مرافقى من وزارة الخارجية الهندية عما إذا كنا نستطيع أن نمرر على بيت رئيس الوزراء لنترك له بطاقة أو كلمة تحية؟ واتجهت بنا السيارة إلى البيت، ودخلت غرفة السكرتارية ولمحت ابنته السيدة «أنديرا غاندى» واقفة فى ردهة البيت الداخلية تتحدث مع أحد مساعدى والدها. وأشارت، واتجهت إليها وفى ذهنى أنها خير رسول يحمل تحيتى لـ «نهرو».

ووقفنا نتحدث بما يتحدث به الناس عادة فى هذه المناسبات: متى جئت إلى دلهى ومتى أغادرها؟ قصة مرض والدها؟

وعلى غير انتظار سألتنى: «هل تريد أن تراه؟».

وقلت على الفور: «أتمنى.... ولكن....».

وقالت: «هو الآن أحسن. الأطباء يبالغون فى تعليماتهم. وأنا أحس أحيانًا أن أكثر ما يضايقه هو الوحدة والملل».

ثم أضافت:

- «دعنا نصعد إلى غرفته.... سوف أقول إنك موجود وسوف تدخل لتحيته. دعنا نرى مزاجه. من جانبك لا تفعل أكثر من التحية فإذا دعاك للجلوس فاجلس، وسوف أشير إليك طبقًا لما أراه من حالته فنبقى دقائق أخرى أو نخرج على الفور».

ورحت أصعد السلم بجانبها إلى الدور الأول حيث غرفة نوم «نهرو» وفتحت باب الغرفة ودخلت وسمعتها تقول له:

- «بابو»... صديق من مصر جاء لتحيتك».

(كانت تدلله وتناديه «بابو» وكان هو يدللها ويناديها «اندو»).

ودخلت من باب الغرفة ولم أر وجهه على الفور، إن ممرضته التى أسرعت تضع نظارته على عينيه لكى يتحقق من الداخل إليه كانت تحجبه عنى.

كان نصف جالس فى سريره مغطى إلى ما فوق الوسط ببطانية من الصوف تظهر من تحتها الملاءات البيضاء. ولم يكن هناك كثير ظاهر من جلابيته البيضاء أيضًا لأن شالاً من الكشمير كان يلف كتفيه وينضم على صدره. وكان هناك كوب زجاجى عادى فوق منضدة بجانب السرير ومن الكوب تنتصب وردته الحمراء الشهيرة. لا يريد أن يفارقها حتى فى فراش المرض.

وجاءنى صوته هادئًا وإن لم يبد لى خفيضًا أو ضعيفًا:

- «آه.. إذن فهو أنت... تعال.... تعال».

واقتربت وأنا أرجوه ألا يتحرك ويجهد نفسه من أجلى.

وقال وهو يشير إلى المقعد الذى كانت تجلس عليه ممرضته إلى جانب سريره:

- «تعال... اجلس هنا».

وقلت:

- «إننى أريد أن آخذ الإذن أولاً!».

وقال: «ممن؟».

والتفت إلى ناحية ابنته «أنديرا» وقال:

- «آه... من «أندو»؟ .. لا، «أندو» طيبة وسوف تسمح. أما هذه الدكتاتورة (مشيرًا إلى الممرضة) فهى التى تتعنت أحيانًا».

ولم يترك للمرضة فرصة وإنما قال لها:

- «سوف تسمحين لنا ببعض الوقت. لابد أن أشعر أننى حى وعلى اتصال بالناس. اسألى الأطباء ثانية وسوف يقولون لك إن هذا جزء من العلاج. اذهبى. عشر دقائق استريحى فيها ثم عودى. لن أتكلم أنا كثيرًا. سوف أسمع منه. هناك كثير أريد أن أسمعه. هو صحفى. تعرفين الصحفيين، يدّعون دائمًا أنهم يسمعون الآخرين والحقيقة أنهم هم الذين يتكلمون طول الوقت ولا يتركون للآخرين المساكين فرصة للكلام»!

ويبتسم واستسلمت.

ونظرت إلى«أنديرا» وكانت نظرة عينيها تعنى أننى أستطيع أن أجلس. وتشجعت عندما رأيتها تذهب إلى ركن فى الغرفة وتسحب مقعدًا تقترب به من السرير وتقول لأبيها:

- «أنت الآن بالتأكيد أحسن. أحسن مما رأيتك فى الصباح».

ورد عليها «بابو»:

- «أنتم تضيفون عبء السجن على عبء المرض بهذه العزلة التى تبالغون فيها، لقد مضى الوقت الكافى للنقاهة لكنكم لا تريدون تخفيض مستوى الأسوار العالية من حولى، وهذا يضايقنى».

والتفت إلىّ وكأنه يشكو وقال:

ـ «منذ عدة أيام فقط سمحوا لى أن أقرأ الصحف.... لكن ليس جرائد الهند. رأوا أنها قد تثير أعصابى. أعطونى التيمس (الإنجليزية) فقط. كنت متشوقًا لبهارات الهند ولم أجد غير البطاطس المسلوق فى التيمس!!».

. . . .

. . . .

كانت الساعة، عندما دخلت غرفته، تشير إلى الحادية عشرة والربع قبل الظهر.

وعندما خرجت كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد الظهر.

وكان هو الذى يتكلم معظم الوقت، وحاولت الممرضة أربع مرات أن تفض الحديث. وفى المرات الأربع كان هو الذى أقنعها أن تتركه وشأنه وهددها فى إحدى المرات بأنه سوف «يغضب» إذا لم تتركه.

وحاولت مرتين أو ثلاثًا أن أطلب من «اندو» أن تفض هى الحديث لكنها ـ كما قالت لى فيما بعد ونحن نخرج معًا من غرفة نومه ـ أحست بحاجته إلى الكلام وأحست بانطلاقه فيما يقول ولم تلمح ولو من بعيد آثار تعب، «ولعله كان على حق عندما قال إن إحساسه بالحياة والمشاركة فيها مع الناس جزء من العلاج فى هذه المرحلة من النقاهة»، وهكذا تركته وحاله، ومع ذلك«فأنت تعرفه ومادام يريد شيئًا فليس فى مقدور أحد أن يردعه»!

ولم أر «نهرو» أو أسمعه كما رأيته وسمعته فى هذا اللقاء.

ولم أره بعد ذلك ـ لسوء الحظ ـ فقد كان ذلك آخر لقاء.

. . . .

. . . .

□

بدأ «نهرو» بعدد من الأسئلة التقليدية: أخبار مصر، وأحوال «عبد الناصر»، وهل صحيح ما سمعه من أن انتخابات سوف تجرى فى مصر على أساس دستور جديد؟ وما الذى يعنيه ذلك؟

وحاولت أن أجيب باختصار قدر ما أستطيع حتى لا أرهقه بكثرة التفاصيل.

وقاطع حديثى بعد دقيقتين أو ثلاثة قائلاً لـ «اندو» («أنديرا») أنه يريد أن ننتقل إلى غرفة المكتب المجاورة وإنها لا تستطيع أن تعترض على ذلك لأن الأطباء صرحوا له بالخروج من الغرفة مرتين كل يوم يتمشى فيهما فى أرجاء الطابق الذى يعيش فيه، وحين لمح أنها تتردد بادر فقال لها فى لهجة عتاب تشيع فيها نبرة غضب «اندو.... لا تعاملونى على أننى عاجز». وانتهت مقاومتها، ولم ينتظر وإنما بدأ ينهض من فراشه، وسارعت هى فأحضرت عباءة من الصوف وضعتها على كتفيه ولفتها من حول جسده وانحنت فقدمت إليه خفًا كان بجوار الفراش، ومشى، ونحن الاثنان وراءه، إلى غرفة مكتب ملاصقة لغرفة نومه. وجلس على مقعد بجوار نافذة ينساب منها شعاع شمس يضفى على الغرفة إحساسًا بالضوء والدفء. وعدل نفسه فى مقعده وضم العباءة على صدره وساقيه، وقال لـ «اندو» متسائلاً «أليس ذلك أحسن؟». ثم أضاف بأنه «على السرير يزداد شعوره بالمرض دون داع، ثم إنه يجد صعوبة فى متابعة الجالسين معه ويضطر طول الوقت إلى لفت رأسه وبصره، وهذا يضايقه».

ومده يده يتحسس صوف عباءته ويقول إنها عباءة عربية وإنها هدية من «الملك سعود» وإن لديه عددًا كبيرًا من العباءات أهداها له الملوك والأمراء العرب. ويبدو بالتداعى أن «العباءة العربية» قادته إلى سؤاله التالى: عن مؤتمر القمة العربى الذى انعقد أخيرًا فى القاهرة وما توصل إليه من نتائج؟ وقبل أن أجيب قاطعنى بسؤال آخر عما «إذا كان هذا المؤتمر قد بحث موضوع حرب اليمن وما إذا «كنا» قد وجدنا حلاً لها يوقف نزيف الجهود والدماء العربية وأنه حتى الآن لم يستطع أن يفهم معنى وجدوى هذه الحرب؟ ثم انتقل إلى القول بأن «الرئيس ناصر لا بد يشعر بخيبة أمل شديدة لنشوب هذه الحرب واستمرارها لأن أحلامه عن الوحدة العربية

كانت كبيرة». ثم تساءل «غريبة.. أين هو حلم الوحدة العربية؟» واستطرد وشعور ما يخالجنى بأننى أسمع صوت رجل يتحدث مع نفسه «أنا نفسى كنت متشككًا فى مسألة الوحدة العربية ولكن الرئيس ناصر استطاع إقناعى بصحة أساسها وإمكانية تحقيقها، ووقفنا معه بقدر ما أمكننا ووقفنا بفهم بعد أن اقتنعنا، فنحن فى الهند عرفنا مرارة التقسيم عندما صمم المسلمون على الانفصال عنا وإنشاء باكستان. ثم إن الهند نفسها معرضة لخطر التجزئة. هناك كثيرون فى العالم يراهنون على تقسيم الهند نفسها ولا أظن أنهم سوف يرون اليوم الذى يكسبون فيه رهانهم».

حتى هذه النقطة كنت أسمع رجلاً يتحدث إلى نفسه كما قلت. وبعدها أحسست أن الرجل يتحدث إلىّ. تماسكت نبرات صوته واتصلت عباراته ببعضها وتدفق كلامه.

قال «نهرو»:

ـ «كلنا نواجه نفس المأساة.

أحلام كبيرة فى البداية ثم صدمتنا الحقائق.

عندما بدأنا كنت أتصور أن الهند هى المشكلة، وبعد أن واجهت الحقائق تعلمت أن المشكلة هى كل هندى. كل شخص فى الهند مشكلة. كانت لدينا مشكلة واحدة واكتشفت أن أمامنا أربعمائة مليون مشكلة(تعداد الهند فى ذلك الوقت).

كنت أختلف مع «المهاتما غاندى» وكان خلافنا علنيًا فى بعض القضايا.

كان يرى أن نقطة البدء الصحيحة هى تعليم الناس فى الهند، وكنت أقول له إننا لو انتظرنا حتى يتعلم كل واحد فى الهند فمعنى ذلك أننا سننتظر إلى الأبد. كنت أتصور أن المشكلة هى استقلال الهند والباقى بعد ذلك ممكن.

إننى أرهقت «المهاتما» بمناقشات طويلة وكنت عنيدًا معه.

فى وقت من الأوقات كنت متأثرًا بالماركسية وكنت مؤمنًا بالثورة. وكان هو

فيلسوفًا براهميًا عميق الحكمة بشفافية الروح، وحين راح يطرح فكرة العصيان المدنى ضد الإمبراطورية البريطانية كنت أنا متشككًا فى جدوى العصيان المدنى وكنت أحضه على الدعوة للثورة. ولكنه كان ضد العنف، وكان رأيه أن العصيان المدنى هو الوسيلة الوحيدة للجمع بين الأخلاق والسياسة. العصيان المدنى كان فى رأيه ممارسة الثورة دون عنف. ترك ممارسة العنف للطرف الآخر إذا أراد ممارسته.

فى مرة من المرات كنت أحدثه عن إمكانات الثورة وأننا نستطيع قيادة شعب الهند إلى مواجهة دامية مع البريطانيين، واستمع إلىّ صابرًا ثم قال لى فى البداية «جواهر («جواهر لال نهرو») أنت مأخوذ بغرور القوة الأوروبى. تواضع قليلاً. لا تستطيع أن تصل إلى الحقيقة إلا بالتواضع.

التواضع هو الذى لا يجعل «الذات» تقف سدًا بينك وبين «الموضوع». إذا قابلت «غرورهم» بالقوة بـ «غرورك» أنت بالثورة - فإن غرورهم سوف يغلب غرورك. تواضع. إن الهند لن تستطيع أن تغلب الإمبراطورية بالغرور ولكنها ستغلبها بالتواضع!».

ربما كان على حق. وربما كنت أنا على حق. لا أعرف يقينا من منا كان على حق!

كنت أقول لـ «غاندى» - أثناء محاوراتنا عن «الثورة» و«العصيان المدنى» - إنه متأثر بتجربته الأولى فى جنوب أفريقيا. هناك كانت أوضاع القوة بين السادة البيض وبين غيرهم من المقهورين السود أو الملونين، مختلفة عن أوضاع الهند. هناك فى جنوب أفريقيا كانوا أقوياء و مسيطرين. هنا لم تكن الإمبراطورية البريطانية قادرة على السيطرة. هنا كنا قارة بأكملها من الهنود الهندوس والمسلمين.

«غاندى» كانت له مقاييس أخرى كلها أخلاقية وإنسانية. مرة سنة ١٩٣٢ وأنا فى السجن أعلن إنهاء حركة عصيان مدنى لمجرد وقوع حادثة عنف واحدة سالت فيها الدماء. وكتبت إليه من السجن غاضبًا ورد علىّ يدعونى إلى الكف عن إصدار

الأحكام إذا كنت فى ظرف لا يسمح لى بإصدار الأحكام. وفيما بعد اكتشفت أنه كان على حق. لقد كنت فى السجن بعيدًا عن الواقع وحقائقه. وهناك كنت مشحونًا بالتفاعلات والنزعات والأوهام التى تصنعها العزلة الإجبارية وراء القضبان. وكانت عواطفى جامحة وشعورى بالإحباط شديدًا، وربما كنت أريد للعنف فى الخارج أن يكون تنفيسًا عن قيدى وراء الأسوار. «غاندى» قال لى فى رسالته «لا تشغل نفسك بالخارج. حاول أن تقرأ أو تكتب. أو حاول أن تتعلم حرفة يدوية مما يتعلمونه فى السجن: صنع السلال أو الأحذية أو النجارة أو الحدادة». ورأيت أن أكتب، وكتبت فى تلك الفترة كتابًا عن لمحات من تاريخ العالم أو رسائل إلى ابنتى. رسائل إلى «اندو».»

واستطرد «نهرو»:

ـ «أظننى كنت مدللاً بدون وجه حق. من بيت والدى (كان والده «لال» من أكبر محامى الهند وواحدًا من مؤسسى حزب المؤتمر ومموليه) إلى مدرسة «هارو» إلى جامعة«كامبريدج» إلى محافل لندن السياسية والأدبية والفنية.

(لم يقل«نهرو» شيئًا عن محافل لندن الاجتماعية وقد حل معه منها ذكريات دافئة، فقد كان مجتمع العاصمة البريطانية فى ذلك الوقت مفتوحًا أمام شباب الأرستقراطية الهندية. وقد كان للبانديت نهرو طوال حياته قلب أخضر على استعداد لأن يخفق باستمرار. ولقد استطاعت زوجته«كمالا» أن تمسك بقلبه فترة وجودها إلى جانبه، ولكن وفاتها المبكرة سنة ١٩٣٦ تركت فى نفسه أسى لم يشحب رغم مرور السنين. لكن هذه السنين نفسها شدته بعد ذلك إلى حيث خفق قلبه. وربما كانت أشهر قصص غرامياته فيما بعد هى قصته مع الليدى «ادوينا مونتباتن» قرينة آخر نواب الملك فى الهند).

□

ويواصل «نهرو» كلامه دون توقف:

ـ «كنت مدللا. وحين عدت إلى الهند كانت أبواب حزب المؤتمر مفتوحة لى. سنوات قليلة ثم إذا أنا رئيسه.

ظروفى لم تسمح لجلدى أن يكون سميكًا إلى الدرجة التى تمكننى من الاحتكاك بالناس وبالعالم دون أن أصاب بخدوش أو جروح. أسوأ من ذلك فإن هذه الظروف نفسها سمحت لى أن أعرف عن العقل الغربى أكثر مما أعرف عن روح الهند. تستطيع أن تقول إن روح الهند كانت فى أعماقى بالضمير لكن عقل الغرب كان موجودًا فى رأسى بما تعلمته فى «هارو» و«كمبريدج» وطول لندن وعرضها!

كل بلد فى الدنيا لا بد أن تفهمه لكى تستطيع إدارة سياسته. لكن الهند أعقد من أى بلد غيره. الهند تركيب بالغ التعقيد. دعك من كل ما يقولونه عن تباين وتعدد وتضارب الجذور العرقية لشعب الهند. وعن اختلاف الطوائف والديانات واللغات. كل هذه قضايا يمكن أن يقال عنها الكثير ونستطيع أن نقول فيها حتى صباح الغد. هذا غير ضرورى الآن. المهم هو استيعاب «روح الهند» التى تكونت من هذا التباين والتعدد والتضارب. كثيرون لم يفهموا أن الاعتراف والتسليم بمكونات «روح الهند» يفرض علينا فى حكم الهند ضرورة «التراضى» وإلا حدث الانقسام والانشقاق.

«التراضى» يعنى الاعتراف بالتنوع والوصول إلى قاسم مشترك مقبول بهذا «التراضى» وإلا كانت الهند فى خطر.

بعض أصدقائنا لامونا وقالوا لنا «أنتم لا تحكمون الهند»، وكان ردنا عليهم «نعم لأن الهند هى التى تحكمنا»، وما هى جدوى أن «نحكم» الهند ثم لا نجد بعد ذلك «هندًا» على الإطلاق.

تستطيع أن تترجم «التراضى» بتعبير آخر هو «الديمقراطية» ـ أى أن الشرط الديمقراطى ضرورى ليس كحق لشعب الهند فقط ولكن كضرورة لاستمرار وحدته أيضًا.

«التراضى» لا بد بعده من «حزم» فى فرض ما استقر عليه الرأى الغالب فى الهند،

لا بد أن تجد وسيلة لتأكيد احترام الرأى الغالب وإلا فإن أية أقلية تستطيع أن تكسر وحدة الهند.

المعادلة صعبة. ليست مستحيلة وإن كانت مكلفة.

«كلايف» (فاتح معظم الهند لحساب شركة «الهند الشرقية») ابتكر أسلوبًا غريبًا لحكم الهند ـ أسلوبا سيئا شديد الكفاءة فى نفس الوقت.

وجد أن إنجلترا (القرن السادس عشر) ليست لديها الموارد البشرية التى تمكنها من حكم قارة فى اتساع الهند، وهكذا ابتكر أسلوب حكم الهند بواسطة الهنود. لم يكن أمراء المقاطعات الهندوس فى شرق الهند سعداء بحكم سلاطين المغول المسلمين فى غربها. وكان «كلايف» يغزو «الإمارة» بالتواطؤ مع أميرها فى معظم الأحيان ثم يؤمنه على عرشه ويترك له كل سلطة التشريع المحلى وجمع الضرائب ويقنعه بحاجته إلى جيش يتولى ضباط «كلايف» الإشراف على تسليحه وتدريبه لكى يحميه ضد أعدائه بما فيهم شعبه. ثم يستعمل جيش هذا الأمير فى غزو إمارة أخرى، وهكذا. أصبح هناك أمراء (مهراجات) متنافسون متحاسدون فيما بينهم. وشعوب شارك فى قهرها أمراؤها. وساد الهند جو يدعو إلى احتقار كل شىء وكل إنسان. الإنجليز يحتقرون الأمراء الذين تواطئوا معهم ضد بعضهم وضد شعوبهم. والأمراء يحتقرون شعوبهم والشعوب تحتقر أمراءها الذين أصبحوا أدوات فى يد الإنجليز.

. . . .

. . . .

[لم يتعرض «نهرو» لحقيقة أن استعمار الهند كان جزءا من عملية تطويق الإسلام ودولته العربية التى كانت تمسك وتسيطر على طريق التجارة مع الشرق.

جاء الاستعمار الغربى أول الأمر فى الحروب الصليبية وكان هدفه اقتصاديًا بالدرجة الأولى..... فتح طريق التجارة مع الشرق.

وتصدت الدولة الأيوبية ثم تصدت دولة المماليك العظام فى مصر والشام وردت الموجات الصليبية على أعقابها.

ولم يستطع الاستعمار أن ينفذ من القلب فاتجه إلى الأطراف والأجنحة. وسقطت الأندلس وبدأت محاولات البحث عن الطريق البحرى الطويل إلى الشرق. وكانت إسبانيا والبرتغال فى المقدمة لأن المحاولات الصليبية من شمال وسط القارة - فرنسا وإنجلترا وألمانيا - أرهقت واستنزفت نفسها فى محاولات النفاذ من القلب..... فلسطين.

وأرسلت كل من إسبانيا والبرتغال بعثات استكشاف بحرية.

خرج «كريستوفر كولومبس» إلى بحر الظلمات - المحيط الأطلسى - قاصدًا الشرق وإذا به يصل إلى أمريكا.

وخرج «فاسكو داجاما» إلى بحر الظلمات أيضًا ووصل إلى الشرق فعلاً.

وسقطت دولة المغول المسلمة فى شبه القارة الهندية بنفس الطريقة التى سقطت بها دولة العرب المسلمة الأندلسية فى شبه الجزيرة الأيبيرية.

سقط الجناحان فى العالم الإسلامى وبدأت عملية الزحف نحو القلب. زحف من الشرق من الهند إلى الخليج العربى إلى عدن. وزحف آخر من الغرب خلع جذور الإسلام من إسبانيا.

سقط الجناحان فى العالم الإسلامى. وبدأت عملية الضغط على القلب العربى. والمحزن أن أحدًا فى هذا القلب لم يتنبه ولم يتحرك.

جرى التهام دولة الإسلام فى الأندلس قطعة بعد قطعة، ولم يتنبه أو يتحرك أحد لما يجرى فى الغرب. وجرى التهام دولة الإسلام المغولية فى الهند بنفس الطريقة، ولم يتنبه أو يتحرك أحد لما جرى فى الشرق.

وراح الغزاة الجدد الذين سيطروا على الجناحين يضغطون على القلب العربى.

إسبانيا تعبر مضيق جبل طارق وتحصل فى المغرب العربى على نقط ارتكاز

تكون قواعد لزحف جديد. والبرتغال تفعل نفس الشيء فى المشرق وتتقدم حامياتها البحرية لتقيم المواقع والحصون ممتدة إلى شطآن الخليج العربى ثم تبدأ فى التعرض للملاحة العربية فى البحر الأحمر.

ويتنبه السلطان المملوكى الحاكم فى مصر. السلطان «الغورى». فيبعث أسطولا بقيادة «حسين الكردى»، ويلاقيه أسطول برتغالى بقيادة «البكيركى»... تنبه السلطان متأخرًا ووقعت الواقعة وضاع الأسطول المصرى. ولم يجد السلطان «الغورى» غيرأن يستنجد بـ «بابا» روما أى أنه استجار من الرمضاء بالنار! وكانت تلك فى الحقيقة هى اللحظة التى انهار فيها النظام المملوكى كله كما ينهار أى نظام يعجز عن حماية دياره.

وبعض المؤرخين يتساءلون عن السبب الذى دفع العرب إلى الرضى بالعثمانيين وكيف بايعوهم بالخلافة فى قلب دار الإسلام وهم من غير العرب؟ ولعلى لا أتطاول على التاريخ إذا قلت إن الرد على هذا السؤال لا يحتاج إلى عناء كبير. فالعناصر الواعية فى الأمة العربية تصورت أن هؤلاء العثمانيين وهم «جنس عسكرى» يستطيعون حماية قلب دار الإسلام ضد قوى السيطرة التى راحت تحدق به من كل ناحية.

وكان هذا التصور منطقيًا فى ذلك الحين بكل ما فيه من خير وشر.

الخير فى أن «الجنس العسكرى» استطاع أن يرد لبعض الوقت ويصد.

والشر فى أن الظاهرة العسكرية وحدها وبدون عمق حضارى هى لحظة موقوتة.

وهكذا فإن الزحف الاستعمارى الغربى الذى توقف قليلا بعد قيام الخلافة العثمانية لم يلبث أن عاد يستأنف ضغطه من الجناحين إلى القلب.

وكان الذى حدث أن إسبانيا والبرتغال عجزتا عن تكملة الطريق فى الوقت الذى كان فيه شمال ووسط أوروبا (بريطانيا وفرنسا بالذات) قد التقط أنفاسه بعد

الحروب الصليبية وعوّض خسائره فيها بكل ما استطاع نهبه من الشرق. وكان عليه أن يواصل ما عجزت عنه إسبانيا والبرتغال.

آكملت بريطانيا ما بدأته البرتغال ووصلت حتى عدن. وأكملت فرنسا ما بدأته إسبانيا فى شمال أفريقيا بل وحاول «نابليون» أن يبدأ مباشرة من مصر.

«وكان جواهر لال نهرو» قد سألنى مرة من قبل، وكنا فى بلجراد، عن الأسباب التى أدت إلى سقوط دولة الإسلام فى الهند بهذه السهولة، وقلت لها أيامها إنها فى ظنى نفس الأسباب التى أدت إلى انهيار دولة الإسلام فى الأندلس. ثم تسرعت وقلت «إنه تعدد الزوجات»، وأضفت إننى حاولت أن أتقصى الحالتين وأدرس ما جرى فيهما وكان أكثر ما استلفت نظرى هو الحروب العائلية التى وضعت الأخ فى مواجهة أخيه وسمحت للغريب أن يمر بينهما وأن يحالف أحدهما ليقضى على الآخر. ولم أجد سببًا ظاهرًا غير تعدد الزوجات الذى جعل الأمراء فى أحضان أمهاتهم وكل واحد منهم يرضع مع لبن أمه كراهية زوجة أبيه الأخرى وأبنائه منها.

وسألنى «نهرو» فى بلجراد: «هل تظن أن ذلك وحده السبب؟» ثم أضاف «إنه درس الإسلام فى طفولته فى «أحمد أباد» وتعرف إليه قبل أن يتعرف على ديانة قومه من الهندوس، وهو يظن أنه لا بد من وجود أسباب أخرى إلى جانب حكاية تعدد الزوجات».

والآن وأنا أسمعه، يغالب المرض فى غرفة مكتب ملاصقة لغرفة نومه، يتحدث عن ثلاثى الإنجليز وأمراء الهنود والشعب المقهور. رحت أسائل نفسى:

- «هل إن أمراء الشرق بصفة عامة لا تهمهم مسألة السيادة؟ تهمهم السلطة على رعاياهم، وأما السيادة فهم على استعداد لتسليمها إلى الأجانب ماداموا يضمنون لهم السلطة؟».

أليس هذا ما حدث حتى فى تاريخنا القريب؟

حتى «محمد على الكبير» تواضعت أحلامه فى النهاية وتنازل عن كل شىء واستكان إلى أن تعود مصر إيالة عثمانية فى مقابل أن يظل وأولاده بعده يحكمونها

كإقطاعية خاصة يستعبدون شعبها ويبددون ثرواته تاركين السيادة للسادة: عثمانيين، أو إنجليز.

ولم يكن «محمد على» وحده فى بداية القرن التاسع عشر. بعده بقرن كامل ـ فى بداية القرن العشرين ـ كان هناك هؤلاء الأمراء العرب الذين أسلموا مصائر الأمة للإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى والمعاهدات التى عقدوها معهم وكان النص فيها على أن بريطانيا العظمى تتعهد بحمايتهم «من كيد الأعداء وحسد الأمراء»!

بل هل أتجاسر وأقول إننى تذكرت تكرارًا أقرب زمنًا من الحرب العالمية الأولى وألصق بأيامنا هذه من تلك الأيام الخوالى؟

هل أقول ـ وهذا ثابت بالوثائق يوم تذاع ـ إن الرئيس السادات ـ رحمه الله ـ سلم يوم ١١ نوفمبر ١٩٧٣ بكل شىء لـ «هنرى كسنجر» فى مقابل أن تتعهد الولايات المتحدة بمساعدته ضد كل أعدائه فى الخارج والداخل؟!

حدث مع الأسف، وهى أيضًا قصة أرى لها أوانها ولها مكانها.

من «كلايف» فى الهند. إلى «لورانس» فى الحرب العالمية الأولى. إلى «هنرى كيسنجر» بعد حرب ١٩٧٣.... نفس القصة وكأن السنين لا تمر وكأن أحدًا لا يعى درس السنين!].

. . . .

. . . .

□

وكان «نهرو» مازال يتدفق، وكانت «اندو» مأخوذة بتسلسل حديثه فنسيت حرصها الزائد على صحته.

وقال «نهرو»:

ـ «لا يمكن أن تفهم الهند الحديثة إلا بفهم «حكومة الهند البريطانية» وطبيعتها.

استعمار الهند فى البداية كان بواسطة شركة. ثم أخذتها الدولة. ثم عادت الشركة ثم عادت الدولة. الهند كانت قارة بأكملها وكانت الغنائم فيها هائلة ومجال النهب بغير حدود.

لم يكن فى الهند مندوب سام، أو معتمد بريطانى، أو حاكم عام.

كان القائم بالحكم هنا نائبًا للملك. أو نائبًا للملكة.

لماذا؟ الهند بعيدة عن المركز فى لندن ووسائل الاتصال الوحيدة المتاحة هى السفر بحرًا. والقرارات لا تستطيع أن تنتظر خصوصًا وأن الغنيمة كانت هائلة.

لابد أن يتصرف المسئول عن الحكم فى الهند بكل سلطات الملك فى ذلك الوقت. وإلا ضاعت الفرصة.

فيما بعد جدت ظروف اقتضت توسيع سلطات نائب الملك وحكومته. لم تكن حكومة تابعة للندن ولكنها كانت حكومة موازية للندن.

حول الهند كانت هناك إمبراطوريات جديدة تتوسع وتحتك - أثناء توسعها - بالإمبراطورية البريطانية فى الهند. هولندا كانت فى إندونيسيا وفرنسا ذهبت إلى الهند الصينية.. روسيا القيصرية كانت تزحف إلى المحيط الهادى. ضرورات الظروف كانت تقتضى ترك قدر كبير من حرية التصرف لحكومة الهند وعلى رأسها نائب الملك فى الهند.

«حكومة الهند البريطانية» أصبحت ظاهرة لم تتكرر فى التاريخ الاستعمارى كله. نخبة من الرجال المختارين - الإنجليز بالطبع - يحكمون قارة بأكملها ويتمتعون فى حكمها بصلاحيات مطلقة. بعض نواب الملك أصبحوا يتصورون أن مركز الإمبراطورية الحقيقى هو فى دلهى وليس فى لندن. «هاستنجز» كان قريبًا من ذلك «وكورنواليس» أيضًا.

مع مرور الأيام أثر ذلك الوضع حتى فى التركيب الطبقى للهند. ظهرت فى الهند طبقة متوسطة هندية فعلا. دعك من الأمراء - المهراجات - هؤلاء بدأ نفوذهم يتقلص

مع الأيام. لكن المهم أن الطبقة المتوسطة التى ظهرت فى الهند كانت هندية فعلا. فوقها كانت حكومة الهند. لا بأس. لكن طبقة متوسطة هندية ـ هندية أصبحت تحتل مركزًا قياديًا فى الهند.

فى الحرب العالمية الأولى كانت حكومة الهند بسلطاتها الواسعة هى المسئولة عن إدارة الصراع مع الخلافة العثمانية فى الشرق الأوسط. وفى الحرب العالمية الثانية كانت حكومة الهند بسلطاتها الواسعة أيضا هى المسئولة عن إدراة المجهود الحربى ضد اليابان التى أصبحت، بعد غزو بورما، واقفة على حدود الهند.

حدثت بطبيعة الأمور عمليات تنمية واسعة. وتصنيع. الطبقة المتوسطة الهندية زادت من قوتها.

كانت هى التى كونت حزب المؤتمر وقادت استقلال الهند. ميزة «المؤتمر» ومشكلته فى نفس الوقت أنه طبقة أكثر منها حزبا سياسيا. طبقة متوسطة. وهى هندية هندية. أحزاب الطبقة المتوسطة فى العالم الثالث عمومًا هى التى قادت الاستقلال. أحزاب منها لم تصمد لسببين: أولهما أنها كانت تمثل بعض العناصر فى الطبقة المتوسطة وهكذا نشأت صراعات بين عناصر الطبقة المتوسطة أدت إلى تمزقها. ثم إن ظروف بعض البلدان الأخرى لم تجعلها مثل المؤتمر. حزب «الكومنتانج» فى الصين لم يكن صينيًا ـ صينيًا فى حين ظل «المؤتمر» هنديًا ـ هنديًا رغم خلافات كثيرة فى الرأى حتى بين قياداته. كونه طبقة قبل أن يكون مجرد حزب، وكونه طبقة متوسطة لها امتداداتها إلى فوق (فوق الطبقة المتوسطة) ولها امتداداتها إلى تحت (تحت الطبقة المتوسطة)، ثم كونه هنديًا ـ هنديًا مكنه من أن يقود الاستقلال وأن يستمر بعده إلى الآن.

وإذن هى إضافات تتراكم على بعضها: «روح الهند» أولاً، ثم «نوعية حكومة الهند» فى عصر الاستعمار البريطانى، ثم «طبيعة الطبقة المتوسطة» التى نشأت فى الهند.

□

كان «نهرو» مازال يتكلم وقد أجهض بسرعة محاولة قامت بها «اندو» لإعادته إلى فراشه ملوّحة به بأن طبيبه فى الطريق إليه. وكان رده أنه سوف ينتظره فى غرفة المكتب حتى يجىء وسوف ترى أنه سوف يسعد بأن مريضه «حى» وليس «جثة» ممددة على الفراش.... وواصل كلامه:

ـ «كانت الفترة السابقة على إعلان الاستقلال أصعب الأوقات بالنسبة لنا. لا أتحدث عن السجن الذى وضعنا الإنجليز فيه فقد ضايقهم أننى حاولت انتهاز فرصة مأزق الحرب وحاولت أن أحصل على ضمانات.

لم يكن «غاندى» متحمسًا لاتجاهى وكان رأيه تقدير الظروف، وتجنب الضغط والإثارة، ثم إن جو الحرب لا يصلح لتحريك الناس إلى العمل السياسى.

وأما أنا فقد كنت متحمسًا وقلت له إن اللغة الدبلوماسية قتلت جوهر المطلب الوطنى وإن الأدب يهدد الحق ثم إن الرقة تذبح الشجاعة. وسمعنى «غاندى» غاضبًا ولم يضق صدره وإنما قال لى: جواهر.. إنك لم تفقد صديقًا»!

«غاندى» كان معلمنا جميعًا لكن طاقة جهده كانت واسعة واعتماده على حركة التاريخ كان شبه غيبى، ثم إننى كنت أخشى أن يتعلق مصير الهند برجل واحد فإذا غاب عنها ضاع منها اتجاهها.

إن المصاعب زادت قرب نهاية الحرب وعندما بدا أن استقلال الهند لم يعد منه بد وليس أمام البريطانيين إلا أن يسلموا. أول المصاعب ظهور الانتهازيين. لا يخلو منهم مجتمع. الذين كانوا يدورون حول الإنجليز واختفوا فى الظروف الصعبة عادوا فجأة يلعبون بذيلهم. كان «غاندى» مطمئنًا وكان رأيه أن المسألة تتعلق بقيادة «المؤتمر» فعليها هى وحدها إقناع الشعب باتجاهاتها وبإخلاصها وقال لى «هل قلتم للناس ولم يسمعوا؟ هل أعطيتموهم حقائق ولم يقبلوا؟ النجار لا يحق له أن يلوم «المنشار» الذى فى يده». وكان تقديره أن نسبة من الانتهازيين سوف تدخل ومن الخير أن نتركها تمر لأنه ليس بيننا من يستطيع أن يبدأ بصفحة بيضاء فنحن جميعًا تعاملنا مع الواقع الذى أفرزه التاريخ!

كانت المحنة الكبرى يوم اضطررت إلى قبول تقسيم الهند بين الهندوس والمسلمين. كان «جناح» («محمد على جناح» زعيم مسلمى الهند) مصممًا على أن تكون لمسلمى الهند دولة مستقلة وبالطبع كان هناك تشجيع من جهات كثيرة. «جناح» قال لنا وهو ممسك بكأس «شمبانيا» (!) إنه لن يوقع معنا على وثيقة طلب خروج الإنجليز من الهند إلا إذا عرف أولا خطوط الحدود التى سنتركها لباكستان. كانت مأساة، وكنت أشعر أن التقسيم سكين يقطع فى اللحم الحى للهند. وكان علينا أن نتعلم من التاريخ. الألمان عاشوا حروبًا دينية طويلة بين الكاثوليكية والبروتستانتية. الحقيقة أنها كانت حروبًا طبقية وعرقية وثقافية أغرقت الألمان مائة سنة فى بحر من الدماء. قرنا كاملاً. فى بدايته كان الألمان ثلاثين مليونًا وفى نهايته أصبحوا خمسة ملايين. ولو أن عملية الذبح بدأت فى الهند بين المسلمين والهندوس لضاع أمل كل الهند فى أى مستقبل. لأن الحرب الأهلية لن تكون لها نهاية إلا فى ظل دكتاتورية ليس فى رأسها غير ظلمة حالكة!

بعد مأساة التقسيم جاء اختبار الاستقلال.

ورحت أتكلم كل يوم وأعبئ الناس. فقد كان فى خيالى حلم اشتراكى عظيم، وكنت أدرك بعد التجربة السوفييتية أن هناك شرطا أساسيا لنجاح الاشتراكية وهو مشاركة الناس فى الفكر وفى الفعل وإلا فإن سلطة الشعب التى يمثلها الحزب تتحوّل إلى بيروقراطية حزب شأنها شأن كل البيروقراطيات وفيها كل عيوبها. بيروقراطية الحزب فى الاتحاد السوفييتى هى مشكلة التجربة لأنها أعطت نفسها الحق فى أن تنوب عن كل الناس وتغييب دورهم. فيما بعد عندما قرأت تقرير «خروشوف» أمام المؤتمر العشرين عن أيام «ستالين» لم أصدق ما قرأته ثم لم يبق أمامى بعد التصديق غير الفزع. لم يكن ما جاء فى تقرير «خروشوف» مفاجأة كاملة، فقد كنا نعرف أن أشياء تجرى لكننا قدرنا أن بعض الناس يبالغون ثم جاء «خروشوف» فأكد أسوأ مخاوفنا.

المهم، رحت أخطب فى الناس داعيًا إلى حلم اشتراكى يكون هو اختيارنا لبناء الهند الجديدة. وقال لى «غاندى» يومًا «لماذا لا تعطى حنجرتك فرصة للراحة؟!»

وحين قلت له إنه ليس لدى الهند وقت تضيعه كان رده علىّ «لا تحاول أن تقنع أحدًا بتغيير عاداته وأفكاره. أقصى ما تستطيع فعله هو أن تقنعه بأن يبدأ فى مراجعة العادات والأفكار. إذا فعل فإنه هو الذى سيغير وليس أنت».

عندما أخذت السلطة كرئيس لوزراء الهند كانت الأفكار من حولنا جميعًا فوضى، وكان أخشى ما أخشاه أن أجد نفسى طرفًا فى صراع بين المجتمع وسلطة الدولة. وكان رأى كثيرين أن الاشتراكية لا يمكن تحقيقها بالديمقراطية. لكن الديمقراطية كانت فى جوهرها قضية وحدة الهند. إن الاستعمار البريطانى عمل شيئا نافعًا حين حدد الخطوط من حول حدود الهند، لكنه حاول أن يسيطر فى الداخل بتمزيق الوحدة داخل خطوط الحدود. آثار النظام القديم كانت لا تزال موجودة فى الهند المستقلة. الفقر والقهر كسرا شيئا ما فى الناس. عامة الناس. إحساس المواطنة أصيب بشرخ. نظام السيطرة القديم تعامل مع الناس بموظف الدولة ومحصل الضرائب ورجل البوليس ووكيل مالك الأرض - وهؤلاء جميعًا لم يغتصبوا عمل الناس فحسب ولكنهم سرقوا شجاعتهم وسرقوا قدرتهم على العمل الجماعى وعلموهم الخضوع والرضا بالهوان ثم القبول بالقدر كيفما جاء!

بعد سنة فى السلطة بدأت أحس أن أتغير. أول ما أحسست بالتغيير أننى عدت إلى الكتب. كنت أفضل صحبة الناس على صحبة الكتب. الناس يحاورونك ويثيرون أفكارك. الكتب لا تحاورك. تعرض نفسها عليك وتطرح أفكارها ولكن بغير جدل. ثم أصبحت أكثر حدة مع زملائى، كان صبرى ينفد معهم. حضور اللجان أصبح بالنسبة لى عملية حصار مثل زنزانة السجن. خطانا أقل كثيرا من أحلامنا. لا علاقة بين الاثنين.

وجاء اغتيال «غاندى» فكان صاعقة بالنسبة لنا جميعًا. ثم احترت فيما نفعله مع قاتله. المحكمة حكمت عليه بالإعدام. وأنا شخصيا ضد الإعدام ولكن الحبس المؤبد أصعب من الإعدام. ثم ماذا يجدينا قتل رجل حتى وإن كانت جريمته شنعاء.

وزاد شعورى بالوحدة. أحسست أننى أصبحت فردًا ممعنًا فى انفراده دون أن

أقصد ذلك أو أريده. فكرت فى الاعتزال وصارحت زملائى بأن عليهم أن يبحثوا عن رجل آخر لرئاسة الوزارة.

(لم يكن يدرى أن خليفته فى رئاسة الوزارة معه هذه اللحظة فى قاعة مكتبه. «اندو» ابنته الخجولة التى لا تستطيع أن تتحمل حتى مسئولية إدارة بيت رئيس الوزراء الذى فقد زوجته، أمها!).

اللجان. الاجتماعات. المؤتمرات أصبحت كلها تضغط على أعصابى. حتى صديقاى «تيتو» و«ناصر» لم يستطيعا فى بعض الأحيان أن يقدرا الحالة النفسية التى كانت تدفعنى إلى الفرار من اللقاءات والمناقشات والبيانات إلى آخره.

كنت أجلس معهما فى القاهرة أو بلجراد أو دلهى ولكن أفكارى كانت «ترعى فى حقول أخرى».

كنت رجلاً اختل فى فكره التوازن بين المثال والواقع.

والآن فإن مستقبل الهند فى يد الطبقة المتوسطة. هندية هندية كما قلت لك. لكنها طبقة.

مستقبل الهند سوف تحدده العلاقة بين أربعين مليون فيها يعيشون. وبين أربعمائة مليون فيها ينتظرون.

الأربعون مليونًا هم تقريبًا حجم الطبقة المتوسطة، تعلموا وأنتجوا وازدهروا. والأربعمائة مليون لم يتعلموا ولم يزدهروا وإن كانوا يكدحون عاملين طول حياتهم.

وليس فى مستقبل الهند إلا أحد احتمالين:

أما أن تستطيع عضلات الأربعين مليونا - وأفكارهم وضمائرهم - أن ترفع ثقل الأربعمائة مليون، أو ينزل ثقل الأربعمائة مليون على الأربعين مليونًا فيكتم أنفاسهم ويكسر ضلوعهم.

كان لدىّ أمل فى العلم لكنهم (العالم المتقدم) يسبقوننا فيه، ونحاول ونحاول

ولكن المسافة تتسع ويتحوّل العلم والتقدم بعده ليصبحا من وسائل السيطرة الجديدة مثل السلاح.

الطاقة النووية تحولت إلى كارثة، فقد حددت خطوط الحركة بين الاشتراكية والرأسمالية وربطت وقيّدت وجمّدت. رأوا فيها سلاحًا فقط وأعرضوا عن رؤية استخداماتها السلمية وإمكاناتها.

خاب أملى فى أمريكا أيضًا. لم تعد أمريكا «جيفرسون» و«لنكولن». عندما وجدوا أن السلاح النووى أنهى احتمالات الحرب طوروا الوسائل الأخرى لممارسة الصراع مع الآخرين وخرجوا علينا بهذه القوة الشريرة التى اسمها «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية» تعربد فى العالم وتحاول قلب أوضاعه بحماقة المؤامرة وكيدها».

□

وأغمض «نهرو» عينيه لحظة وهز رأسه وهو يزم شفتيه ثم قال:

- «والصين؟.. الصين كانت مأساتى الكبرى.

إننى اتصلت بالثورة الصينية منذ سنة ١٩٣٦. وحين زرت الصين سنة ١٩٣٩ ضيفًا على «شيانج كاى شمك» لم أقصر زيارتى على جماعته ولكنى طلبت أن أقابل الآخرين: «ماوتسى تونج» و«شوين لاى» و«شوتيه» وغيرهم. اعتقدت أنهم الخط الوطنى الصحيح فى الصين. واختلفت مع «شيانج كاى شيك» واعتبرتهم أمامه أصدقائى. بعد أن وصلوا إلى السلطة سنة ١٩٤٨ تحمست لهم وناديت العالم كله أن يعترف بهم ويتعامل معهم باعتبارهم الصين الحقيقية.

حاولت أن أجعل الهند جسرًا بين الصين وبقية العالم ونجحنا مرات كثيرة.

تذكر أننى قدمت «شوين لاى» و«جمال عبد الناصر» أحدهما للآخر.

وفجأة اختلفوا معنا على قضية حدود. لماذا؟ قالوا إن الحدود القائمة رسمها «كيرزون» الاستعمارى وأنه لا بد من إعادة تخطيطها. وبدلاً من استنفاذ وسيلة المفاوضات لجئوا للسلاح.

هل تعـرف أنه بعـد هـجـوم الصـين علـى الهند أصـابنى المرض؟ بدأت أحس أننى مـريض. وكـان قلبى سليـمًـا حـتى هذا الوقت. ولكنى بدأت أحس بالمرض فى كل جسمى.

إن الرئيس «ناصر» حاول أن يتدخل بيننا وبين الصين وعرض علينا وساطته، لكنهم لم يسمعوا لأحد.

كنت أتصور أن الحضارة الصينية شأنها شأن الحضارة الهندية حضارة غير هجومية. حضارة دفاعية. لهذا لم تتوسع أيهما خارج بلادها. انحصرت فى رقعتها ولم تخرج. على عكس الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية، كلتاهما حضارة هجومية. لهذا توسعت كلتاهما خارج بلادهما.

لا أعرف من أين جاءت للصين الحديثة نزعة التوسع. هى طارئة عليهم. والمشكلة أننا كنا لا نريد تناقضًا معهم لأنهم جيراننا خصوصًا وأن السوفييت كانوا يشجعون ثم إن الأمريكان كانوا يحرضون، وكنا نحن ليس فقط بين نارين ولكن بين نيران كثيرة.

لا أخفى أننى الآن حائر بين العقائد والناس والتجارب.

الدين كانت لى آراء جامحة فيه يوما من الأيام ثم تعلمت أن حياتى تصبح عبئًا علىّ وحدى إذا لم يرفع الدين بعض أثقالها معى، ولكن ألسنا بذلك نعطى المجهول وصاية على المعلوم؟!

الناس مشكلة. فى السجن عرفت محنة الوحدة وأدركت أهمية أن تكون بين الناس وفى وسطهم وطرفًا فى حوار دائم معهم. الحوار هو الذى يفتح أمامنا طرقًا تخرجنا من الركن المحصور الذى يقبع فيه كل واحد منا بما لديه. بدون الآخرين لا نستطيع أن نرى أبعد من الركن الذى نقبع فيه وهو يضيق علينا كل يوم.

مشكلتى أننى عدت مرة أخرى وباختيارى إلى إيثار الوحدة على صحبة الناس. فى مرات سابقة كان السجن هو الذى فرض على الوحدة على عكس إرادتى. والآن بإرادتى أختار الوحدة وأختار الكتب بدلاً من الناس وأقول لنفسى إن القضايا أكبر

من الكلمات. ثم إن أحلى الابتسامات ليس فى مقدورها أن تحل أعقد المشاكل، وهذا خطأ أعرف أنه خطأ. ولهذا فأنا أقول لهم إننى لم أعد صالحًا للحكم.

والتجارب؟ أية تجارب؟

هل تعرف أن الرئيس «ناصر» غضب منى مرة؟ التقينا فى القاهرة وكنت فى زيارة لها بعد انفصال سوريا عن مصر. الحقيقة أننى وغيره من أصدقائه قصدنا أن نزوره فى القاهرة. من ناحية لكى يظهر تضامننا معه، ومن ناحية أخرى لكى يستطيع كل منا أن يعطيه من تجربة ما لديه. وراح الرئيس «ناصر» يحدثنى عن الطريقة التى وقع بها الانفصال والمؤامرات التى كانت وراءه. وعندما طلب رأيى قلته له وكان يسمع باهتمام، وفى النهاية قلت له «إننى تكلمت معك حتى الآن كسياسى يتحدث إلى سياسى آخر فهل تريدنى الآن أن أحدثك كإنسان لإنسان؟». ورحب. وقلت له: «إذا أردت رأيى فحاول أن تقلل دورك. الأفراد فى هذا العصر الثورى يجب أن يقللوا أدوارهم وأن يتركوا الطبيعة تأخذ مجراها. الطبيعة ببساطة لن تستجيب لأحلامنا ولكنها سوف تستجيب عندما يجىء الوقت وتتماسك فيه كل العوامل والعناصر.

كل ما هو واجب علينا أن نفهم الصراعات وأن نساعد على توجيهها. أكثر من ذلك لا نستطيع. لا تكن مثلى فى شبابى تتصوّر إمكانية تغيير العالم فى مدى عمر فرد واحد. ثم لا تجعل أمتك تتعوّد الاعتماد على فرد واحد».

لا أعرف ما الذى دار فى رأس «ناصر» وهو يسمعنى أقول ما قلت له. بالتأكيد تصور أننى فقدت إحساسى بإمكانية تحقيق أشياء عظيمة. ربما كان على حق. «سوكارنو» قالها لى مرة بصراحة. قال لى: «أنت أصبحت محبطًا للآمال». ربما كان هو أيضًا على حق!

ولكن ماذا أصنع؟ هل يمكن أن أكون إلاّ نفسى؟.... وإذا لم أكن نفسى فمن أكون؟!».

□

وعلى غير انتظار ـ أو ربما كان علىّ أن أنتظر ـ وقفت «أنديرا» بحزم تقول لـ «بابوا» إن الحديث آن له أن يتوقف وإن ما فيه الكفاية يكفى، ثم التفتت إلىّ، وتطلعت إليها بنظرة اعتذار تقول لها أيضًا بالصمت إننى لم أكن مسئولا ولم أتكلم إلا فى أضيق الحدود.

وكان هو هذه المرة على استعداد لأن يطيع فقد بدأ حديثه يدخل إلى مناطق جرداء وموحشة بدأت أجواؤها تشيع فى لهجة حديثه ونبرة صورته.

وقمنا جميعًا. ودخل هو إلى غرفته وهى معه. ودعت ممرضته لتكون فى صحبته وجاءت معى إلى باب البيت مودعة.

. . . .

. . . .

[ومرت سنوات بعد سنوات وأصبحت «أنديرا» رئيسة لوزراء الهند.

وقابلتها بعد ذلك مرة فى مكتبها سنة ١٩٧٣ وكتبت عن لقائى معها مقالاً فى «الأهرام» نشر فى شهر مارس ١٩٧٣.

وكانت آخر فقرة فى هذا المقال على النحو التالى:

«وتشعب الحديث إلى ذكريات أيام مضت حين كانت دول عدم الانحياز تلعب دورها على مقدمة المسرح السياسى العالمى.

وتحدثنا طويلاً عن «نهرو» وعن أول مرة استمعت إليه فيها مطولاً فى باندونج سنة ١٩٥٥ إلى آخر مرة رأيته فيها على فراش المرض فى غرفة نومه سنة ١٩٦٤ بالمقر الرسمى لرئيس الوزراء.

وقالت أنديرا غاندى:

ـ «لقد أصبح هذا البيت متحفًا لحياته وأعماله.

لقد ذهب فى نفس الغرفة التى قابلته أنت فيها آخر مرة».

واستطردت:

- «كان يكتب خواطره بانتظام كل ليلة قبل أن ينام.

في الليلة الأخيرة كتب مقطعًا من قصيدة لروبرت فروست».

واختلج صوت أنديرا غاندى وهى تستعيد السطور الأخيرة التى كتبها والدها قبل النهاية بساعات:

«الغابة جميلة... مظلمة.. وعميقة.

ولكن لدىّ موعدًا لا بد أن أحفظه وأميالاً طويلة أقطعها قبل أن أنام وأميالاً طويلة أقطعها قبل أن أنام»!]

. . . .

. . . .

وفى شهر أكتوبر ١٩٨٤ كانت «أنديرا غاندى» على موعد آخر قدر لها أن تحفظه. وحفظته ونامت هى الأخرى فى وسط تل من الزهور تحاصره ألسنة اللهب على ضفاف نهر «الجانج» المقدس!

«محمــد رضــا بــهلــوى»

عــرش الطــاووس.. وكــل الــدروس المنسيــة!

يثير استغرابى، فيما بينى وبين نفسى أحيانًا، أننى مازلت حتى هذه اللحظة حائرًا فى ترتيب وتحديد مشاعرى تجاه «محمد رضا بهلوى» شاه إيران السابق - وأظنه الأخير.

مازلت حائرًا فى أمره رغم مرور أربع وثلاثين سنة على أول مرة قابلته فيها، وكانت سنة ١٩٥١، إبان صراعه الشهير مع الدكتور «محمد مصدق» فى إطار المحاولة الأولى لتأميم البترول فى إيران. ومازلت حائرًا أيضًا بعد عشر سنوات على آخر مرة قابلته فيها، وكانت سنة ١٩٧٥، أثناء زيارة بدعوة شخصية منه لإيران جلست إليه خلالها أكثر من سبع ساعات، توزعت على لقاءين فى قصر «نيافاران».

مازلت حائرًا فى أمره رغم تعاقب أحداث كبرى سالت فيها أنهار من الدم وتفجرت فيها براكين من الحمم وانطلقت فيها ثورات وانهارت نظم وقيم وعروش.. بل وتغيرت خرائط!

فى بعض الأحيان كنت أشعر أننى أفهمه وبالتالى فإننى أستطيع على نحو أو آخر أن أرى منطق تصرفاته بصرف النظر عما إذا كنت أوافق أو أرفض سياسته.

وفى أحيان أخرى كنت أشعر أننى عاجز عن فهمه وبالتالى فهو - من وجهة نظرى - يجدف بقاربه فى اتجاه معاد لتيار التاريخ، وإذن فإن قاربه محكوم عليه بالغرق، ثم إنه هو شخصيًا ضائع فى لجج الموج مهما فعل.

والفهم أو محاولة الفهم أصعب الأشياء فى السياسة وفى الحياة عمومًا لأنها جهد نفسى وفكرى وإنسانى مرهق.

ولقد كنت واحدًا من الذين يعتبون على العقل العربى قبوله السهل والسريع

لثنائية الأبيض والأسود التى استحوذت عليه طويلاً وأمسكت به أسير أحد موقفين لا ثالث لهما، وقد راحا به أحيانًا إلى متاهات لها أول وليس لها آخر وحملاه إلى بحار بغير شطآن:

الروح أو المادة، العلم أو الفن، الحب أو العقل، المال أو الجمال، الأصالة أو المعاصرة، الوطنية أو القومية، القومية أو السلام.. وهكذا وهكذا.

ثنائية باستمرار، حادة وقاطعة، وهى لا تحتمل أى تنوع أو تلوين مما تصنعه الظلال نتيجة لتحوّل الفصول واختلاف المناخ وتغير الطبيعة ذاتها.

ثم إنها ثنائية لا تحتمل أى نوع من أنواع الاتساق كأنما قسمات الحياة الإنسانية جميعًا فى حرب مع بعضها والثأر بينها مبيت من قديم الأزل نافذ فيها إلى ما بعد الأبد!

إن هذه الثنائية لها أصولها وجذورها فى العقل العربى، لكن المشكلة أنها وصلت به فى النهاية إلى حيث يستطيع أن يحب أو يكره لكنه قليلاً ما يجرّب أن يفهم وحينئذ يتضح له أن الحب أو الكراهية هما أسهل الاختيارات وأن الواقع - ولا أتجاسر وأستعمل كلمة «الحقيقة» بدلاً من كلمة «الواقع» - أعقد كثيرًا من كل الثنائيات.

ولقد أصبحت مسألة العقل الثنائى قضية شديدة الخطورة فى عصر ما يسمى بـ «التعبئة الشاملة» الذى جاءتنا به وسائل الاتصال الحديثة، فلقد ساعدت أكثر على التعميم وربما قلت على التسطيح. وفى العالم العربى - على سبيل المثال - فإن أجهزة الإعلام، وفى مقدمتها التليفزيون والإذاعة، واقعة تحت سيطرة أنظمة الحكم فى بلادها وهى بالصورة وبالكلمة مكلفة بأن تدفع إلى اتجاه وليس أن تستثير تفكير. الصورة الملونة على الشاشة والكلمة السريعة فى الراديو مطالبتان بخلق انطباع، وعن طريق تكراره كل يوم يتأتى أو يتولد الاقتناع. حتى لقد صدق القول بأن ساسة هذه الأيام لم يعودوا يتكلمون للبشر وإنما أصبح كلامهم كله إلى العدسات والميكروفونات.. هى الآن أوثان وأصنام العصر الإلكترونى أمامها وحدها الطقوس والصلوات!

والاقتناع بالانطباع يصلح للإعلان لكنه فى الإعلام ـ من العلم ـ يمكن أن يتحوّل إلى كارثة عظمى. فى الإعلان نشترى بالانطباع سلعة أو لا نشتريها ومن ثم فإن الضرر محصور، لكننا بالإعلان نتخذ مواقف تؤثر فى سياسات وتصنع تاريخًا وتقرر مصائر ومقادير!

□

أعود إلى «محمد رضا بهلوى» شاه إيران السابق ـ وأظنه الأخير ـ لأقول مرة أخرى إننى مازلت حائرًا فى أمره.

حضرته عن قرب فى أزمته الأولى مع «مصدق» وقابلته وحاولت دراسة الظرف التاريخى الذى أحاط به وقتها وكتبت عن ذلك الظرف أول ما نشرت من كتب، وكان عنوانه «إيران فوق بركان» وقد نشر سنة ١٩٥١ ـ وكان «محمد رضا بهلوى» قد أفلت من أزمة ذلك الظرف بمعجزة.. صنعتها مؤامرة.

ثم حضرته عن قرب مرة ثانية فى أزمته الأخيرة مع «الخمينى» وقابلته وحاولت دراسة الظرف التاريخى الذى أحاط به وقتها أيضًا وكتبت عن ذلك الظرف كتابًا كان عنوانه «عودة آية الله» وقد نشر فى لندن سنة ١٩٨١ وترجم إلى أكثر من ثلاثين لغة بينها اللغة العربية التى نشر فيها تحت عنوان «مدافع آية الله» ـ ولم يستطع «محمد رضا بهلوى» أن يفلت من ذلك الظرف. لا أفلت بعرشه ولا أفلت بحياته. ولم تكن هناك معجزة ولا كانت أعتى المؤامرات قادرة على رد المصير المحتوم!

كل ذلك، ومازلت أقول ـ أو أعترف ـ حتى هذه اللحظة إننى مازلت حائرًا إزاءه ـ رغم أننى لم أتعامل معه بمنطق الثنائية المشهورة وأحكامها الصارمة التى تفرض الحب أو الكراهية والإعجاب أو الازدراء بغير ظلال أو ألوان.

ولقد وجدتنى فى أزمته الأولى متحمسًا لـ «مصدق» وهو يؤمم البترول الإيرانى، لكننى فى نفس الوقت لم أكن قاطعًا فى الحكم ضد الشاه الذى كان فى

أعماقه يعارض التأميم وإن اضطر تحت الضغط الشعبى أن يوقع بإمضائه على القانون الذى أصدره «المجلس» فى إيران بالموافقة على مطلب «مصدق».

صحيح أن الشاه كان يعارض التأميم - من موقف التبعية - لكن الدعوة إلى تأميم البترول الإيرانى سنة ١٩٥١ كانت لها محاذيرها بعيدًا عن موقف التبعية.

فى ذلك الوقت كانت شركات الاحتكار الكبرى، كشركة البترول البريطانية - الإيرانية، نموذجًا مصغرًا لحكومات بلادها - وكان معظمها على أى حال مملوكًا مباشرة لهذه الحكومات - وبالتالى فقد كان الصدام مع واحدة منها هو فى واقع الحال صدامًا مع حكومتها، وهى معركة صعبة. ثم إن الصدام فى هذه الحالة كان مباشرة ووجهًا لوجه وإذن فهى حرب سافرة.

فى ذلك الوقت أيضًا لم تكن هذه الشركات الاحتكارية الاستعمارية قد اكتسبت الخبرة والمرونة والنفوذ الذى ملكته فيما بعد حينما تحولت إلى شركات متعددة الجنسيات تؤسس شبكات علاقات واسعة ومتداخلة عبر الحدود السياسية والقارات والمحيطات مما أعطاها خفة فى الحركة تستطيع معها أن تقبل قرارات التأميم شكلاً وتبطل مفعولها عملاً دون صدام مباشر وبغير حروب سافرة. الآن تستطيع الشركات متعددة الجنسيات أن تقبل قرارات التأميم من أى دولة صغيرة، بل لعلها على استعداد لأن توحى بها اتقاء لإثارة أو تهييج، ثم تروح عن طريق البنوك ومصانع السلاح وأسواق النقد تحصل على كل ما تريد تاركة السيادة لمن يريد أن يتظاهر بها. بل لعلها أصبحت تؤثر أن تترك شكل السيادة «للوطنيين» وتحت غطاء هذه السيادة «للوطنيين» تواصل نزع مواردهم دون داع لاستفزازهم.

هكذا فى ذلك الوقت كان موقف «مصدق» مطلوبًا وطنيًا وكان موقف الشاه - بصرف النظر عن دوافعه - مفهومًا عمليًا.

ثم وجدتنى فى أزمته الثانية مع «الخمينى» متحمسًا للثورة التى قادها «آية الله» العجوز وهد بها قوائم عرش الطاووس فى طهران التى كان كل ما يجرى فيها داعيًا ومحرضًا على الثورة. وفى نفس الوقت فقد كنت أستطيع أن أفهم الشاه - بصرف

النظر عن دوافعه أيضًا - حين يتساءل وقد استعصت عليه الأمور: «ولكن ما هو بالضبط ما تريده الثورة الإسلامية؟» .

ولقد كان ذلك الفهم - أو محاولته - هو الذى دعانى فى شهر ديسمبر ١٩٧٨ أن أقول لـ «آية الله الخمينى» حينما قابلته لأول مرة فى قرية «نوفل لوشاتو» بالقرب من باريس:

- «إننى أرى أن ثورته الإسلامية تستطيع أن تقوم بدور المدفعية الثقيلة. من بعيد تستطيع أن تضرب مواقع النظام القديم وتدكها - ولكن ماذا بعد ذلك؟

إن النصر فى المعارك لا يتحقق بالمدفعية تدك القديم وتحيله أطلالاً وركامًا ولكنه يتحقق بالمشاة يحتلون المواقع ويطهرونها ويفسحون المجال بعدها لنظام جديد.

والثورة الإسلامية قد تكون مدفعية النظام القديم. لكن بناء نظام جديد يقتضى أسلحة أخرى غير المدافع. فأين فى الثورة الإسلامية هذه الأسلحة الأخرى وهى بالضرورة أفكار وخطط وسياسات فى الزراعة والصناعة والخدمات والعلاقات الخارجية مع عامل متعدد فى قواه ومتغير مع صباح كل يوم؟!» .

وطوال سنوات الزلزال الكبير فى إيران ما بين سنة ١٩٧٨ وسنة ١٩٨٠ كان موقفى إزاء «محمد رضا بهلوى» فى حالة حركة متأرجحة. أفهمه أحيانًا وأعجز عن فهمه فى أحيان أخرى.

ولعلى أتجاوز وأقول إن «الحيرة» كانت نفس موقفى منه حتى قبل سنوات الزلزال ما بين سنة ١٩٧٨ وسنة ١٩٨٠.. سنوات عاصفة الثورة الإسلامية على إيران، وأتذكر أننى حاورت الرئيس «جمال عبد الناصر» كثيرًا أيام إقامة حلف بغداد سنة ١٩٥٥.

كان «جمال عبد الناصر» - وله كل الحق - ضد حلف بغداد من أوله إلى آخره، وبالطبع فقد كنت وراءه مع تحفظ واحد هو أننى كنت أفرق بين العراق وبين إيران فيه.

دخول العراق فيه كان كسرًا لوحدة نظام الأمن العربى. وأما إيران فقد كان لها من وجهة نظرى تصنيف آخر، وكنت أقول لـ«جمال عبد الناصر» ما معناه «إن شاه إيران قصة مختلفة. فهو رجل محكوم عليه بالجغرافيا وبالتاريخ أن يتحالف مع الغرب.

بالجغرافيا فإن بلاده بحدودها الطويلة مع الاتحاد السوفييتى تشعر باستمرار بضغط قوة عظمى على رأسها.. تشعر بالأنفاس الساخنة للجار السوفييتى حارة على ظهر رقبتها، ومن ثم فإن إيران تحتاج إلى أن توازن جوارها الجغرافى مع الاتحاد السوفييتى بعلاقة وثيقة مع المنافس الآخر للجار فى واشنطن.

وبالتاريخ فإن روسيا القيصرية توسعت على حساب إيران حينما قضمت نصف «أذربيجان» وضمته إلى أراضيها، ومهما قلنا فإن النظام السوفييتى على الأرض هو الوريث الشرعى للنظام القيصرى الذى سبقه.

ثم إن الذاكرة الإيرانية لا تستطيع أن تنسى أن السوفييت على عهد «ستالين» أقاموا بالفعل جمهورية تابعة لهم تحت رئاسة «جعفر بيشفارى» فى شمال إيران بعد الحرب العالمية الثانية، ولو لم يقف الغرب مع إيران فى تلك الأزمة لذهبت بقية «أذربيجان» لتلحق بما سبقها من أرض جرى ضمها إلى روسيا.

وعلى ذلك فإن تناقضًا روسيًا ـ إيرانيًا يبقى دائمًا من طبائع الأمور ثم يكون من صالح إيران ألاّ تدفع هذا التناقض إلى نقطة الخطر أو التحدى».

ولم يكن هذا كله غائبًا عن «جمال عبد الناصر» ، لكنه كان يرى أن المعركة ضد حلف بغداد يستحيل تجزئتها بحيث يزداد الضغط على العراق لدواعى أمن النظام العربى ثم يخف الضغط على إيران لدواعى الجغرافيا والتاريخ الخاصة بها!

وعلى أى حال فإن محاولاتى لفهم شاه إيران تبددت جميعها حين فتح الشاه أبواب إيران على مصراعيها لإسرائيل.

فى محاولته لتوثيق صداقته بالغرب كنت أفهمه بمطالب الجغرافيا والتاريخ. لكننى بالعلاقات الوثيقة مع إسرائيل عجزت عن فهم الشاه خصوصًا وقد كان

منطق الجغرافيا والتاريخ ذاته ضده بأبعاده الثقافية والحضارية وحتى الإستراتيجية.

. . . .

. . . .

(ربما كان مأزق الجغرافيا والتاريخ والعجز عن إدارة تناقضاته هو النقطة التى تعثرت عندها مسيرة الثورة الإسلامية فى إيران.

فـ«آية الله الخمينى» لم يكن قادرًا، لا بحكم السن أو التكوين أو العلم أو التجربة، على رؤية وتقدير ضرورات جغرافية إيران أو تاريخها. ولكى أكون منصفًا فلقد كان واعيًا ببعد واحد هو البعد المذهبى، لكن ذلك لم يكن يكفى!

ولقد نقول إنه جاء إلى السلطة العليا فى إيران من خلال صراع مع أكبر أصدقاء الولايات المتحدة فى المنطقة - وهكذا فإن الولايات المتحدة أصبحت له الشيطان الأكبر.

ومن ناحية أخرى فإنه جاء إلى السلطة العليا فى إيران بحدود ما لديه من حصيلة الموروث والاجتهاد - وهكذا فإن الاتحاد السوفييتى كان بالنسبة له توءمًا للشيطان الأكبر لا يختلف عنه فى كثير أو قليل.

لكن الغريب أن القوتين الأعظم فى بداية الثورة الإسلامية كانتا - كلتاهما - على استعداد للتعامل بنشاط معها. فإيران هى الجائزة الحقيقية فى منطقة الخليج بموقعها وكثافتها السكانية وتركيبها الحضارى والثقافى الخاص، وهى بعد ذلك وبكل خصائصها ليست جزءًا لا يتجزأ مما حولها وهو العالم العربى القلق بتفاعلاته البالغة درجة الغليان أحيانًا، ثم هى أقرب الطرق من الحدود السوفييتية إلى المياه الدافئة - فضلاً عن البترول وفوائضه. ثم إنه كان هناك إعجاب مقرون برهبة لدى الطرفين تولد من متابعة وقائع الثورة يومًا بعد يوم ضد نظام الشاه. وكان هناك ذلك الانبهار الذى يصنعه ذلك المجهول الذى يسمى بـ«الإيمان» والذى يستعصى على الفكر الأوروبى غربيًا وشرقًا. فلا هو الاختيار المفتوح كما فى الغرب

ولا هو قوة التعبئة العقائدية كما فى الشرق. شيء آخر بدا للكل غريبًا ومهابًا وكانوا جميعًا على استعداد للاقتراب منه ولو على الأقل لمحاولة استطلاع أمره.

لكن الثورة الإسلامية فى إيران لم تستطع أن تعرف أن هناك حدودًا لا بد من الوقوف عندها. ولقد كانت قضية حدود القوة هى النقطة التى ركزت عليها فى كل مناقشاتى مع الطلبة الإيرانيين الذى احتجزوا الرهائن من الأمريكيين فى مبنى السفارة الأمريكية فى طهران.

ونفس القضية ناقشتها مع «آية الله الخمينى» فى «قم» ، ولم أكن أعرف أن الحوار بيننا كان مذاعًا على الهواء بواسطة شبكات التليفزيون الإيرانى، ولم يكن لديه جواب مقنع ولا كانت القضية حاضرة فى فكره.

ولقد تكررت قضية التعامل مع قوى العالم وسحبت منطقها على قضية التعامل مع الإقليم وانعكس ذلك فى محاولة تصدير الثورة الإسلامية إلى خارج حدود إيران.

والثورة لا تصدّر لكن قيمها قابلة للانتشار. وفرق كبير بين تصدير الثورة وبين انتشار قيمها. ومن الصعب أن يتصور أحد أن الثورة الإسلامية التى عرضت نفسها فى إطار مذهب واحد وبلد واحد كان فى استطاعتها أن تصدّر أو تنتشر كثيرًا أو بعيدًا إلا إذا استعملت فى ذلك سلطة الدولة وليس جاذبية الثورة.

ولعل أزمة الثورة الإسلامية فى هذه الإشكالية تمثلت فى القصور عن التفرقة بين مرحلة الثورة ومرحلة الدولة فكل واحدة منهما لها أسبابها وذرائعها ولها دورها وأساليبها. ولم تكن الثورة الإيرانية نموذجًا فريدًا لهذه الإشكالية فى التاريخ وإنما نماذجها عديدة على اتساع العالم وتعاقب عصوره.

وهكذا فإن المأزق بدأ يضيق كل يوم.

لم تجد دولة الثورة الإسلامية نفسها تتجاوز حدود القوة المقبولة والمسموح بها فقط، وإنما وجدت أيضًا أنها حرمت نفسها من البعد الإستراتيجى المحيط بها فى المنطقة.

ومهما قيل فى أن «دولة الثورة» مضطرة إلى أن تحمى نفسها خارج حدودها فإن أى عمل خارج الحدود له أيضًا بضرورة الأحوال حدود.

وفى هذا الجو الملبد وجد العراق نفسه مدفوعًا إلى حمل السلاح لحماية تركيبته الوطنية (شيعة سنة وأكراد) والإلاجاء يوم أصبح فيه تماسكه ـ وبالتالى موقعه الحساس شرقى النظام العربى ـ مهددًا (والمذهب فى إطار تركيبة قومية أو وطنية يستطيع أن يكون طاقة دافعة كما أثبت الشيعة العرب فى جنوب لبنان، وأما المذهب وحده ووحيدًا فلا أظنه يستطيع تجاوز حد محدود).

ولقد كان مأزق الثورة الاسلامية فى إيران فى واقعه نتيجة مؤكدة لتجاهل حدود القوة أو الجهل بها. ثم هو أيضًا بكثير من مظاهره منزلق الخلط بين الثورة والدولة.

ولقد حاولت أن أعثر لنفسى على جواب يحل لغز عجز الثورة الإيرانية عن فهم قضية حدود القوة وأهمية إدارة ثوابت الجغرافيا والتاريخ فى إطار هذه الحدود، وكان الجواب الوحيد الذى عثرت عليه ـ لنفسى ـ هو «عقدة الاستشهاد فى الوجدان الشيعى».

ولقد توقفت طويلاً عند عبارة قالها لى «آية الله الخمينى» : «ليس البطل هو روح التاريخ ولكن الشهيد هو روح التاريخ». وأنا أعرف أنه تضايق من مقال لى نشرته فى الـ «صنداى تيمس» البريطانية ووصفته فيه بأنه «رصاصة انطلقت من القرن السابع الميلادى واستقرت فى قلب القرن العشرين»، لكنى مازلت أعتقد أن هذا الوصف دقيق فى تعبيره عما رأيت.

فلقد كان أقرب ما يكون شبهًا بشخصيات عصر الفتنة الكبرى بين «على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان» ، وكانت إيران بعد الثورة تعيش وكأنها قد استعادت كل أجواء «كربلاء».

كانت الثورة استشهادًا أكثر مما هى فرحة.. رغم أنها كانت بكل المعايير انتصارًا مجيدًا.

وهكذا فقد كانت الثورة الإيرانية هى التى عزلت نفسها قبل أن يحاول أحد عزلها. بعقدة الاستشهاد راحت تحصر رقعة الأرض التى تتحرك عليها يومًا بعد يوم. من ظاهرة إنسانية هائلة فى أيامها الأولى إلى ظاهرة شيعية داخل إيران فى مدة لا تتجاوز سنة واحدة.

وكانت مأساة تاريخية ليست حتمية وليست ضرورية.

وأظن أنه حين يكتب تاريخ الثورة الإيرانية بعدل وإنصاف فإن كثيرين سوف يتوقفون عند هذه النقطة بالتحديد.. نقطة عجزها عن إدارة التناقضات التى فرضها مأزق الجغرافيا والتاريخ على إيران. ربما بتأثير عقدة الاستشهاد التى حجبت الحقائق عن حدود القوة).

. . . .

. . . .

□

قابلت الشاه «محمد رضا بهلوى» لأول مرة فى ربيع سنة ١٩٥١ وكانت إيران فوق بركان فعلاً.

كان الدكتور «محمد مصدق» هو رجل الساعة وقتها بدعوته إلى تأميم البترول وكان حليفه الدينى أيامها هو «آية الله كاشانى» وكان النمط السياسى التاريخى فى إيران الشيعية يكرر نفسه: واحد من آيات الله من «قم» («آية الله كاشانى»). وواحد من الساسة فى طهران (الدكتور «محمد مصدق») وبقيادة الاثنين كان الشارع الإيرانى يغلى. وحاول الشاه أن يسيطر على الموقف فجاء برئيس أركان حربه الجنرال «على رزم آراه» يؤلف وزارة عسكرية ويحكم بقبضة حديدية (أحيانًا يعيد التاريخ بعض مشاهده) لكن «رزم آراه» ضرب بالرصاص فى مسجد «سباه سالار» وكان قاتله هو «خليل طهمسبى».. قتله بأمر مباشر من جماعة «فدائيان إسلام». وازداد الموقف فى إيران اشتعالاً.

كان ذلك اللقاء الأول مع الشاه فى بيت شقيقته وتوءمه الأميرة (فى ذلك الوقت) «أشرف بهلوى» وكانت شخصيتها، وظلت حتى النهاية، مسيطرة عليه.

وكانت الأميرة «أشرف» متزوجة من شاب مصرى من أسرة مصرية كبيرة هو السيد «أحمد شفيق» وقد تعرفت به فى القاهرة فى جو العلاقات الحميمة التى ربطت طهران بالقاهرة بعد زواج الشاه للمرة الأولى من الأميرة (فى ذلك الوقت أيضًا) «فوزية» ، شقيقة الملك «فاروق» (ملك مصر فى ذلك الوقت كذلك!).

كان «أحمد شفيق» بعد أن تزوج من «أشرف بهلوى» ونزح إلى إيران واكتسب جنسيتها ـ قد عين مديرًا للطيران المدنى. ولما كنت أعرفه من قبل فقد قصدت إليه بعد وصولى إلى طهران لمتابعة أحداث إيران وكان أن دعانى إلى بيته.

وكان الشاه مهتمًا بأن يعرف العالم العربى حقائق ما يجرى فى إيران خصوصًا وأن التعاطف مع «مصدق» كان عامًا وعارمًا فى كل العواصم العربية، وهكذا فيما يبدوا لى قرر أن يحضر الغداء الذى دُعى إليه صحفى مصرى فى بيت شقيقته، ولم أكن أعرف مسبقًا أنه سيكون معنا على الغداء أو بمعنى أصح أننا سنكون معه.

ولقد دخلت يومها بيت «أحمد شفيق» أو بيت الأميرة «أشرف» خالى البال لا أعرف ما ينتظرنى. ولفتت نظرى فى غرفة الصالون التى انتظرت فيها أصحاب البيت مجموعة رموز تعطى فكرة عن صاحبته: صور لوالدها «رضا خان» مؤسس أسرة «بهلوى» ثم تمثال صغير لـ «نابليون بونابرت». هذه إذن صورة البطل فى حياتها.. جنود أسسوا إمبراطوريات أو هكذا خطر ببالى. أوانى الزهور فى معظمها ملأى بزهرة «الفيوليت» الزرقاء. هى أيضًا زهرة «نابليون». المقاعد فى الصالون كلها مكسوة بجلد النمور. نمور طبيعية أو حقيقية. كانت حقيقية قبل اصطيادها ونقل فرائها من غابات الهند على الأغلب إلى صالون أميرة فى طهران. إذن فهو عشق القوة. وحشية حتى إذا اقتضى الأمر!

ثم جاء أصحاب البيت «أحمد شفيق» والأميرة «أشرف» ، ولا أتذكر ولا أجد فى

أوراقى ما يذكرنى بما دار بيننا جميعًا فى قرابة نصف ساعة تحدثنا فيها قبل أن يدخل علينا «محمد رضا بهلوى». شاه إيران.

والغريب أيضًا أننى لا أتذكر ولا أجد فى أوراقى ما يذكرنى بما دار بيننا جميعًا بعد ذلك من حديث على مائدة الطعام. كل ما أتذكره من هذا اللقاء الأول مع الشاه هو مأزق شخصى وقعت فيه. فقد كان طبق الـ «كافيار» هو فاتحة الغداء، ولم أكن قد ذقته من قبل لكنى جاريت الباقين وأخذت فى طبقى بعضًا منه، وفعلت كما فعلوا وتناولت ملعقة صغيرة منه على قطعة من الخبز المجفف وضعتها فى فمى ثم لم أستطع أن أمضغ أو أبلع. فقد فوجئت بمذاق «زفارة» بحرية مركزة (لم يكن الروس قد توصلو إلى أساليب معالجته لإزالة «زفارته» كما فعلوا فيما بعد) وأحسست أننى أختنق. وكان الشاه هو الذى أحس على الفور بما جرى لى واقترح برقة أن أذهب إلى الحمام وأتخلص مما هو غير قابل للمضغ أو البلع فى فمى. وأسرعت. وعدت. وكان هو الذى قال بأدب «إن كل الذين يجربون الكافيار لأول مرة يحدث لهم ما حدث لى».

ثم كان موعدى معه فى اليوم التالى فى قصر «المرمر» وكان لقاء مشتركًا. فقد حضرته معه زوجته الإمبراطورة «ثريا» التى تزوجها بعد طلاقه من الأميرة المصرية «فوزية». كان يريد من «فوزية» وليًا للعهد ولم تنجح. ونفس الشىء حدث فيما بعد لـ «ثريا». لم تنجح فى إنجاب ولى عهد وطلقها الشاه رغم أن غرامه بها ظل معه حتى اليوم الأخير من حياته فى مستشفى المعادى العسكرى بالقاهرة!

وفى ذلك اللقاء الأول وبحضور «ثريا»، وقد نشرته كله فى كتابى «إيران فوق بركان»، لم يكن هناك شىء غير عادى. كان مؤدى ما قاله لى فى هذا اللقاء «إنه لا يدخر وسعًا فى العمل لمصلحة شعبه. وإن السياسيين يتاجرون بمشاعر الجماهير. وإنه يقف وحده لا يسانده أحد فى مواجهة العواصف على إيران». ثم كلام كثير فى هذه المعانى وحولها لا يستحق إعادته مرة أخرى.

□

وتعاقبت السنين، وجرت مياه كثيرة ـ كما يقولون ـ تحت كل الجسور.

وفى بداية سنة ١٩٦٨ تلقيت خطابًا من السناتور «عباس مسعودى» صاحب جريدة «إطلاعات» الإيرانية فتح بابًا أمامى.

كنت قد عرفت «مسعودى» من أيام «إيران فوق البركان» وترددت أكثر من مرة على مكتبه فى «إطلاعات» ثم ظل الود متصلاً بيننا بالرسائل رغم كل الظروف وبينها قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإيران بسبب فتح مكتب اتصال إسرائيلى ـ على مستوى سفارة ـ فى طهران.

وفى ملابسات ما بعد صدمة معركة سنة ١٩٦٧ كان «جمال عبد الناصر» يعاود التفكير فى أوضاع المنطقة كلها ويسعى إلى تعزيز نطاق المواجهة السياسية والعسكرية بين العرب وإسرائيل بخط ثان من العلاقات ينفذ إلى العمق فى الحزم الإسلامى ـ غير العربى ـ المحيط ببؤرة الصراع وبالتحديد باكستان وإيران وتركيا. وكان تنشيط العلاقات مع باكستان وتركيا سهلاً ولكن العقدة كانت فى إيران بسبب قطع العلاقات.

ثم جاء خطاب السناتور «مسعودى» فإذا هو يشير إلى احتمالات قابلة للاستكشاف. كان «مسعودى» قد أصبح، إلى جانب ملكيته لجريدة «إطلاعات»، وكيلاً لمجلس الشيوخ الإيرانى وواحدًا من المقربين من شاه إيران الذى بدأ نجمه يعلو فى المنطقة بسبب البترول من ناحية ونتيجة للصدمة التى تلقتها الحركة القومية العربية العامة فى معركة سنة ١٩٦٧.

وفى خطابه إلىّ كان «مسعودى» يشير إلى اجتماع أخير له مع الشاه أحس فيه برغبته فى تحسين العلاقات مع مصر والعرب (وكان السبب بالتأكيد راجعًا إلى أن مشاعر مؤيدة للعرب ومعادية لإسرائيل قد عبرت عن نفسها فى الشارع الإيرانى بطريقة مؤثرة بعد حوادث سنة ١٩٦٧ خصوصًا إزاء احتلال إسرائيل للقدس).

ولم يكن لدىّ شك وأنا أناقش مع الرئيس «جمال عبد الناصر» خطاب السناتور

«مسعودى» أن «جمال عبد الناصر» ينفر من شاه إيران بمقدار نفور شاه إيران منه. بل لعلى أقول إن الشاه كان يكره «جمال عبد الناصر». لكن مصالح الشعوب والأمم تبقى فى كل الأحوال أقوى وأبقى من مشاعر الكراهية حتى وإن كانت على مستوى الملوك والزعماء.

وهكذا كتبت إلى السناتور «مسعودى» رسالة مشجعة. ثم توالى تبادل الرسائل وبدا واضحًا أن الرسائل فى حقيقتها لم تكن بين «مسعودى» وبينى وإنما كانت بطريقة غير مباشرة بين الشاه «محمد رضا بهلوى» والرئيس «جمال عبد الناصر».

ثم دعوت «مسعودى» إلى زيارة القاهرة. وجاء، وحين رتبت له مقابلة مع «جمال عبد الناصر» كان أول ما فعله هو أن قدم له رسالة مكتوبة من الشاه.

وتلت ذلك اتصالات إلى إعادة العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة وطهران. وظهرت عقبات. فقد كان «جمال عبد الناصر» يشترط إغلاق مكتب الاتصال الإسرائيلى فى طهران فى حين كان الشاه يرى أن إعلان عودة العلاقات يجب إعلانه من القاهرة أولاً باعتبارها الطرف الذى سبق إلى قطعها.

وكان الحل الوسط بعد جهود مضنية هو تنزيل درجة مكتب الاتصال الإسرائيلى فى طهران إلى مستوى التمثيل التجارى فقط لأن إسرائيل مدينة لإيران ولا تستطيع إيران إغلاق مكتب الاتصال كله، وتعطى إسرائيل فرصة الخروج بديونها. وأما قضية من يبدأ بالاعتراف فقد اتفق على بيان يصدر فى القاهرة وطهران فى نفس اللحظة.

وقد كان.

وتلقيت خطاب شكر من الشاه، ورسالة جديدة من «مسعودى» يسألنى فيها عما إذا كنت مستعدًا لزيارة طهران ومقابلة الشاه الذى يريد أن يقلدنى وسامًا. واعتذرت. فلم تكن الظروف فى مصر تسمح لى بالسفر من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد قلت لـ «مسعودى» إننى كقاعدة عامة أتردد دائمًا فى قبول أوسمة حتى فى بلدى عن اقتناع قد يكون صحيحًا أو خاطئًا بأن أى صحفى لا يجوز له أن يقبل

وساماً من أى سلطة، فقارئه هو صاحب الحق الوحيد فى تكريمه إذا شاء، وأما غير ذلك فأى وسام يسىء للصحفى مهما كان بريقه!

□

ومرة أخرى جرت مياه كثيرة من تحت كل الجسور.

وفى بداية سنة ١٩٧٥ كانت خلافاتى بعد فك الاشتباك الأول بين مصر وإسرائيل على أشدها بين الرئيس «أنور السادات» - يرحمه الله - وبينى وكنت قد تركت مكانى فى «الأهرام» واعتذرت عن منصب نائب رئيس الوزراء ومستشار الرئيس للأمن القومى، واتخذت موقف المعارضة من سياسات الرئيس «السادات» تجاه الولايات المتحدة وتجاه إسرائيل وتجاه بعض السياسات الداخلية التى جرى اعتمادها فى مصر ذلك الوقت وفى مقدمتها ما سمى بـ «الانفتاح».

كانت الظروف المحيطة بى فى مصر مزعجة وكنت مصمماً على أن أظل فى مصر وأقول آرائى وأنشرها خارج مصر مادامت مجالات التعبير قد سدت أمامى فيها. وكانت حملات الرئيس «السادات» - غفر الله له - علىّ عنيفة وحادة. فقد كان يشعر كما كان يقول إن سياساته تمر فى عنق زجاجة وأنه لايقبل فى هذه الظروف أية معارضة تصدر خصوصاً فى مصر وتسمع أصداؤها خارج حدودها.

وفجأة فى هذا المناخ طلب السفير الإيرانى فى القاهرة «خسرو خسروانى» زيارتى وجاء إلى مكتبى يحمل لى دعوة من الشاه لزيارة إيران.

وقرأت رسالة الدعوة والسفير «خسروانى» جالس أمامى. ثم أعدت قراءتها ثم أبديت دهشتى للسفير من «أن يدعونى الشاه فى هذا الوقت لزيارة إيران بينما هو على صداقة وثيقة بالرئيس «أنور السادات» ؟».

وأردت أن تكون الأمور واضحة بما لا يترك لدى أى طرف مجالاً للبس. سألت السفير «عما إذا كان «جلالته» يعرف أننى على خلاف مع الرئيس «السادات» ؟». وهز رأسه بما يعنى الموافقة. وسألته «عما إذا كان «جلالته» يعرف أننى مصنف فى

القاهرة باعتبارى عدوًا للنظام؟». (لم يكن الرئيس «السادات» قد أعلن بعد كما فعل مع الصحفية الأمريكية الكبيرة «كاترين جراهام» أننى عدوه رقم (١) فى مصر!!). وأراد السفير «خسروانى» فيما أظن أن يقطع الطريق على أى سؤال فقال «إن صاحب الجلالة الإمبراطورية يعرف كل شىء» !

ولم يكن فى حاجة إلى إلحاح طويل فقد كنت بالفعل أريد أن أعود مرة أخرى لأسباب كثيرة بدت لى مثيرة من بعيد.

... شخصية الشاه الذى عرفته من قبل خجولاً مترددًا فى ظل أخته الأميرة «أشرف» المعجبة بأبيها وبـ«نابليون» تغيرت فيما يقال لى وأصبح الإمبراطور الآن إمبراطورًا بالفعل له كلمة مسموعة فى الدنيا وله شأن مرموق.

... الانقلاب المضاد الذى حدث فى إيران بواسطة المخابرات الأمريكية والذى أعيد به الشاه إلى العرش بعد أن هرب فعلاً من عاصمته سنة ١٩٥٣، أصبح فيما يقال لى الآن نسيًا منسيًا وامحت من الذاكرة معه كلمة الشاه عند عودته أمام «كيرميت روزفلت» ممثل المخابرات الأمريكية، وكان الشاه قد قال أمامه بعد أن عاد أو أعادوه إلى العرش: «إننى مدين بعرشى لله ولشعبى وجيشى ولك وللولايات المتحدة الأمريكية».

... تلك الطفرة التى حدثت فى أسعار البترول غيرت فيما يقال لى أوضاع إيران كلها. فعملية التحديث فيها على قدم وساق، ثم إن المال يتدفق أنهارًا يبنى أحجارًا ويهدم قيمًا فى مشهد غريب من مشاهد التناقض الكبير الذى خلقه الذهب الأسود!

... ذلك الدور الذى يضطلع به الشاه فى شئون الخليج تجاوز كل ما كان متصورًا، فلقد أصبح هو فيما يقال لى الآن - وبفضل عوائد البترول وصفقات السلاح - شرطى تلك المنطقة الحساسة والحيوية وهو هناك قادر على الفعل يتدخل حيث يشاء، بواسطة الزعيم الكردى «الملا مصطفى البرازانى» ضد العراق، أو بغير واسطته كما فعل فى ميادين أخرى بينها العراق وغيره! وكنت قد سمعت بنفسى من الرئيس «السادات» أثناء مفاوضاته مع «هنرى كيسنجر» لفك الاشتباك الأول أن

حكومة العراق أصدرت بيانًا ضد هذه المفاوضات، واستعمل الرئيس «السادات» هذا البيان حجة فى كلامه مع «هنرى كيسنجر» أثناء المفاوضات وإذا بـ «هنرى كيسنجر» يقول له إنه سوف يكفيه شر أى شىء يجيئه من العراق، ومن مجلسه حيث كان كتب «كيسنجر» برقية للشاه سلمها لأحد مساعديه وفى اليوم التالى مباشرة كانت قوة من الجيش الإيرانى تقتحم الحدود وتشتبك مع نقطة عراقية. وانشغل العراق بالاشتباك على حدوده عن فض الاشتباك على الخطوط مع إسرائيل!

... ثم إن هناك فيما يقال لى وميض نار تحت الرماد فى طهران، لكن محاولات القمع بواسطة الـ «سافاك» - مخابرات الشاه - على أشدها إلى درجة أن تقارير هيئة العفو الدولية كانت تتحدث عن اختفاء ستين ألف شاب وشابة ابتلعتهم السجون ثم نزل على مصائرهم الظلام وغابوا إلى حيث لا يعرف أحد.

لقد جرت بالفعل مياه كثيرة تحت كل الجسور... وتحولت المياه إلى شبه طوفان فى الخليج على وجه التحديد.

وإذن فهناك أشياء كثيرة تستحق الرؤية على الطبيعة الآن فى إيران.

ولم أقل شيئًا من هذا كله للسفير «خسرو خسروانى» وإنما قبلت دعوة الشاه ولم أتركه - كما قلت - فى حاجة إلى إلحاح طويل علىّ.

قبلت الدعوة شاكرًا. وحددت موعدًا. وركبت طائرة. ووجدت نفسى ذات يوم من أيام مايو سنة ١٩٧٥ نازلاً إلى مطار «مهرباد» عائدًا إلى طهران بعد غيبة طالت إلى قرابة ربع قرن!

□

أثناء الرحلة بالطائرة من القاهرة إلى طهران - وهى تستغرق ثلاث ساعات من الطيران المباشر - كنت أفكر فيما عسى أن أراه فى تلك العاصمة التى غبت عنها قرابة ربع قرن حافل من الزمان.

كنت قد سلمت السفير «خسرو خسروانى» قائمة بما أتمنى لو استطاعوا أن يحققوه لى أثناء زيارتى التى قدرت لها أسبوعًا لأنى أريد العودة بسرعة إلى القاهرة أسافر منها بعد أيام إلى لندن لأحضر ظهور كتاب جديد كان على وشك أن يصدر لى هناك عن حرب أكتوبر تحت عنوان «الطريق إلى رمضان».

وكانت أول نظرة على القائمة كفيلة بأن تكشف مواطن اهتماماتى فى هذه الرحلة إلى إيران، ولم أتحرج فى ذلك، فلم أكن أريد أن أخدع أحدًا كما لا أريد وبنفس المقدار أن يخدعنى أحد.

وكان على رأس قائمتى طلب موعد مع الشاه.

وبعده كان هناك طلب موعد مع رئيس الوزراء «أمير عباس هويدا» فى ذلك الوقت.

ثم كانت هناك بعد ذلك طلبات بمواعيد مع وزير الخارجية «خلعتبرى» ووزير الداخلية والبترول «أموزيجار» ووزير البلاط «أسد علم».

ثم طلبت أن أزور جامعة طهران وأن أزور دور بعض الصحف. «إطلاعات» و«وكيهان» بالذات ـ دون أى مرافق.

وإلى هنا كان يمكن أن تكون كل الطلبات طبيعية ليس فيها ما يثير شكا أو يدعو إلى ريبة.

لكنى لم أتوقف عند هذا الحد وإنما طلبت مقابلة ساسة المعارضة الباقين من أعوان «مصدق» وبقايا الحركة الوطنية: «صديقى» و «سنجابى» و «بازرجان» و«بختيارى».

ثم طلبت مقابلة الجنرال «نعمة الله ناصرى» رئيس الـ «سافاك» (مخابرات الشاه المسئولة عن كل عمليات القبض والتعذيب والعمليات السرية كلها خارج إيران بما فيها التنسيق مع إسرائيل).

ثم طلبت مقابلة الجنرال «على أويسى» قائد حرس الشاه وهو المكلف كما يقال

بمواجهة أى خطر مفاجئ عليه، فتحت أمره كما كان يشاع فرقة مدرعة كاملة انخرطت ضمن قوات الحرس الإمبراطورى.

وأخيرًا طلبت مقابلة مع «الملا مصطفى البرازانى» الذى قبع لاجئًا فى طهران بعد أن توصل الرئيس «صدام حسين» مع شاه إيران إلى تسوية يوقف الشاه بمقتضاها مساعدته للنشاط الكردى المعادى للعراق.

ولقد تسلم السفير «خسرو خسروانى» قائمتى وقرأها أمامى فى عشاء دعانى إليه فى بيته قبل السفر. وأشهد أن ملامح وجهه ظت على ثباتها لم تختلج فيها عضلة واحدة ولم يعلق بأكثر من قوله إنه سوف يبعث بها إلى طهران.

وأشهد أيضًا أننى توقعت أن يصلنى رد من طهران بسحب دعوة الشاه لى. لكن ترتيبات الدعوة ظلت ماضية فى طريقها بشكل طبيعى حتى حان موعد السفر، ولم أتلق بعد ردًا على ما طلبت. وحين استوضحت اكتفى السفير «خسرو خسروانى» بأن يقول لى إننى سوف أتسلم الرد على طلباتى كلها حينما أصل إلى عاصمة بلاده. وأضاف إلى ذلك تأكيده «بأننى لا ينبغى أن أخشى شيئًا لأنى هناك ضيف «صاحب الجلالة الإمبراطورية» ولن يرفضوا لى طلبًا»!

وفى الطائرة رحت أفكر فى الرد الذى يمكن أن ينتظرنى فى طهران وأتحسب لما سوف أجده من رد فعلهم على طلباتى. وقد اعترفت فيما بينى وبين نفسى فى الطائرة أننى أسرفت فيها ربما بأكثر مما تسمح به الظروف.

ودار جزء كبير من أفكارى حول الشاه شخصيًا وأعترف على نحو ما أن شعورى تجاهه فى ذلك الوقت كان مختلطًا بشىء من الود والتقدير. وكان أبسط ما قلته لنفسى «ها هو بنفسه يدعونى إلى طهران وقد كنت أقرب الأصدقاء إلى أعدى أعدائه فى المنطقة («جمال عبد الناصر») ثم إننى الآن ضمن المعارضين لأصدق أصدقائه فى المنطقة («أنور السادات»).

□

وحين وصلت نازلاً إلى آخر درجة من سلم الطائرة فى مطار «مهرباد» فوجئت بعدد من الرجال ينزلون بسرعة من سيارة فارهة كانت واقفة بقرب مربض الطائرة ويهرعون نحوى.

كان أولهم وزير الإعلام ولمحت بجانبه «فرهاد مسعودى» الابن الأكبر للسناتور «مسعودى» والذى خلفه بعد وفاته فى إدارة أمور دار «إطلاعات» وكل منشوراتها، ثم أحد أمناء القصر الإمبراطورى.

ولم تكن هناك إجراءات جمارك أو جوازات وإنما حملتنى سيارتهم إلى باب المطار حيث كان فى انتظارى موكب رسمى تتقدمه سيارة بوليس كبيرة تدور فوقها أضواء زرقاء ثم رتل من سيارات المرسيدس الكبيرة تحيط بالأولى منها مجموعة من راكبى الدراجات البخارية ثم تلحق بها فى المؤخرة سيارة بوليس كبيرة أخرى تلف فوقها أضواء حمراء.

واتخذت مقعدى فى سيارة الضيافة الرسمية وبجانبى وزير الإعلام ومعنا «فرهاد مسعودى» و «أمين القصر الإمبراطورى».

وبدأت فى السيارة بكلمات شكر صادقة على حفاوة الاستقبال، لكن أحاسيسى راحت بعد ذلك تتقلب بسرعة غريبة. نوع من الاطمئنان فى البداية، فهذا الاستقبال معناه أن جزءًا مما طلبت على الأقل سوف يجاب وهذا الاستقبال الحافل هو فى واقع أمره رسالة إلىّ منذ اللحظة الأولى بأننى لم أتجاوز فيما سألتهم فيه.

بسرعة تبدل هذا الإحساس وحل محله شىء من القلق. لعلهم يريدون أن تحل حفاوتهم بى محل إحراجهم بمن طلبت لقاءهم. كرم على المستوى الشخصى بغير حدود. وقيود على المستوى العام والسياسى حتى وإن كانت القيود من حرير موشى بنقوش فارسية من الذهب!

ثم بدأت مع وسط المدينة وزحامه - وقد اقتربنا منه بعد أن تجاوز موكبنا ميدان «الشاهياد» - أحس بضيق. فسيارة البوليس الكبيرة التى تتقدم موكبنا تطلق صفارات مزعجة تنبه كل من فى الطريق لكى يفسحوا وسطه لموكب يراد له أن يعبر

بسرعة. وكانت سيارة البوليس الكبيرة التى تتبع موكبنا تطلق من ميكروفون معلق على أحد جانبيها صيحة مدوية استطعت أن أتبين ألفاظها بأصلها العربى تقول «توقف كن».. أمر بإفساح الطريق والتوقف على جانبيه لكى يمر الموكب.

لم يكن إحساسًا بالضيق فقط لكنه أيضًا إحساس بالخجل. فأنا حتى فى القاهرة أسخط كثيرًا عندما تعرضنى الظروف أحيانًا للمرور بقرب موكب رسمى تدوى منه الصفارات وتبرق الأضواء الملونة لسيارات المرور، وأجد نفسى على الرغم منى أبدى آراء شديدة الصراحة فى حق ركاب المواكب الرسمية من أولهم إلى آخرهم. وها أنذا الآن فى هذا الموقف ذاته، ولابد أن هناك آلافًا من الذين تعج بهم شوارع طهران المزدحمة مشاة أو ركاب سيارات يسخطون جميعًا على ذلك الذى تسبب فى إرباك حركتهم وراحت مؤخرة موكبه تصرخ فيهم «توقف كن» فضلاً عن صفارات المقدمة وصخب الدراجات البخارية على الجانبين.

ولم أستطع أن أكتم أحاسيسى فقلت لوزير الإعلام الذى كان بجانبى: «هل أستطيع أن أرجوه إعفائى من هذا الموكب؟» وكان رده بسرعة: «ليس قبل أن تلتقى بصاحبة الجلالة الإمبراطورية وتطلب منه ذلك فهى أوامره ولا يستطيع أحد تغييرها إلا بإشارة منه».

وسألته «متى موعدى مع جلالته؟» وكان رده «إنه سوف يسلمنى جدول ما تم ترتيبه من مواعيد لى حين نصل إلى الفندق».

وأخرج ورقة من مظروف حمله أحد مساعديه إلى حين دخلنا إلى فندق الإنتركونتننتال فى قلب طهران الجديدة؟

- سوف يتركون لى بقية هذا اليوم راحة من عناء السفر أو جولة مفتوحة فى طهران إذا شئت.
- الموعد مع الشاه غدًا بعد الظهر. الساعة الخامسة.
- موعد مع رئيس الوزراء فى صباح الغد. يليه موعد مع وزير الخارجية قبل الظهر. حضور اجتماع شعبى لـ«راستاخيز» ـ حزب النهضة ـ الذى كان حزبًا

رسميًا يرعاه الشاه غدًا يقيمه وزير الإعلام قبل موعدى المنتظر والحاسم مع «جلالته».

- فى اليوم الثالث من الزيارة موعد فى الصباح مع وزير البترول والداخلية ثم دعوة إلى غداء يقيمه رئيس الوزراء للرئيس «صدام حسين» وكان يزور طهران وقتها زيارة رسمية بعد الاتفاق الشهير بينه وبين الشاه. وقد رأى السيد «أمير عباس هويدا» رئيس الوزراء أن يدعونى إلى الحفل مادام يكرم ضيفًا عربيًا كبيرًا أثناء وجودى فى طهران.

- وفى اليوم الرابع زيارة لدار «إطلاعات» وغداء هناك، ثم زيارة لدار «كيهان» وعشاء فيها.

لكن البرنامج بعد ذلك توقف ولم يرد فيه ذكر لبقية ما طلبت.

لا الجامعة، ولا الجنرال «ناصيرى»، ولا الجنرال «أويسى»، ولا الزعماء الباقين من رفاق «مصدق»، ولا «الملا مصطفى البرازانى».

إذن فقد تحققت مخاوفى!

الجزء السهل والتقليدى مما طلبت مجاب وأكثر.

والبقية وفيها الشائك والحساس معطلة أو متعثرة.

وسألت وزير الإعلام: «لكنى قائمتى التى أرسلتها بواسطة السفير الإيرانى فى القاهرة كانت تشمل مواعيد أخرى؟».

وكأنه كان ينتظر سؤالى فى حينه فقد رد على التوّ: «صاحب الجلالة الإمبراطورية بنفسه سوف يعطيك الإجابة عن ذلك!».

□

كانت أمامى أكثر من أربع وعشرين ساعة فى طهران قبل موعدى مع «صاحب الجلالة» الإمبراطور «محمد رضان بلهوى آريا مهر» (لقبه الرسمى بما فيه الكلمتان الأخيرتان ومعناهما نور الجنس الآرى كله!).

لكن هذه الساعات الأربع والعشرين كانت كافية لإقناعى أنه هو شخصيًا كل شىء فى بلاده - فيما يبدو من ظواهر الأمور بالقطع.

كل ما يجرى فى إيران صادر عن إحدى حالتين:

حالة أن يأمر الشاه وينفذ الآخرون. أو ينفذ هؤلاء الآخرون بما يتصور أى منهم بأن الشاه قد يأمر به!

أى أن كل الإشارات فى إيران على خط واحد من قصر «نيافاران» إلى كل إيران. أو من كل إيران إلى قصر «نيافاران».

إطاعة أوامر الشاه أو نيل رضاه هو القانون السائد ولا شىء سواه يعتد به!

ولم يكن ذلك ما استنتجته من مجمل أحاديثى مع من لقيت فى الساعات الأربع والعشرين الأولى فى طهران من الرسميين - بما فيهم رئيس الوزراء - والصحفيين فقط... ولا من رؤية شوارع العاصمة ومبانيها ومكاتبها وكلها مزدانة بصوره فقط.. ولا من قراءة صحف طهران ومشاهدة تليفزيونها مساء يوم وصولى وصباح اليوم التالى وحجم التغطية المركزية لنشاطه بصرف النظر عن نوع هذا النشاط فقط.. ليس من هذا كله ولكن حتى من زعماء المعارضة وبقايا رفاق «مصدق».

كنت قد حصلت على رقم تليفون أحد كبار زعماء الجبهة الوطنية (فيما بعد لعب دورًا مهمًا فى الفترة الأولى من حكم الثورة الإيرانية) وقررت أن أتصل مباشرة به أطلب موعدًا معه. وفوجئت به يقول لى على التليفون ما معناه «إنه يرحب بى فى عاصمة بلاده ولكنه يخشى ألاّ يستطيع استقبالى فى بيته إلا بإذن من صاحب الجلالة الإمبراطورية».

هكذا فإننى حين غادرت (فى موكب رسمى!) فندق الإنتركونتننتال فى الساعة الرابعة والربع بعد الظهر لكى أكون فى قصر «نيافاران» قبل الساعة الخامسة موعدى مع الشاه، كنت أدرك أننى على وشك مواجهة الحد الفاصل فى زيارتى لإيران: إما أن تصبح هذه الزيارة مضيعة للوقت بغير قيمة وإما أن أستطيع - عن

طريق ما يقوله أو يأذن به - أن أجعل من هذه الزيارة فرصة حقيقية لاستكشاف الواقع الإيرانى!

واتجه موكبنا بسرعة - بصفاراته وأضوائه - فى اتجاه ضاحية «شمران» التى يقبع قصر «نيافاران» على سطح أحد جبالها. وكنت ألاحظ أثناء الطريق أن كثافة الحراسة تشتد بمقدار ما نقترب فى اتجاه القصر. وحين وصلنا إلى الأسوار كانت الحراسة جيشًا مسلحًا لكننى لاحظت بعد اجتياز الأسوار والحدائق الخضراء ثم الدخول إلى ساحات القصر ذاته أن الحراسة تخف تدريجيًا. وعندما وقفنا أمام المبنى الذى اتخذه الشاه مكتبًا لنفسه لم يكن هناك فى الحراسة غير ضابطين اثنين فى حين بدت الساحة الواسعة الخضراء المفروشة ببساط من الزهور خالية تمامًا إلا من ثلاث نافورات بعرضها واحدة كبيرة فى الوسط وواحدة أصغر على كل ناحية منها، وكان الهدوء السائد نقيضًا صارخًا لضجة المدينة وصخبها عند أقدام جبال «شمران».

(كان قصر «نيافاران» فى الواقع ثلاثة قصور فى مجمع واحد بناه أحد ملوك أسرة «كاجار» - الأسرة المالكة فى إيران قبل استيلاء «رضا بهلوى» على الحكم سنة ١٩٢١. وقد اختاره الإمبراطور «محمد رضا بهلوى» مقرًا له بعد أن تشاءم من قصر «المرمر» القديم الذى غادره بسرعة خوفًا من ثورة يقوم بها «مصدق» سنة ١٩٥٣، وحين عاد بعد يومين وتحركت فيهما وكالة المخابرات المركزية بانقلاب مضاد خاطف على «مصدق» رفض أن يدخل قصر «المرمر» واختار قصر «نيافاران».

وقد رتب الشاه حياته فى هذه القصور الثلاثة فجعل واحدًا منها سكنًا خاصًا له. وخصص الثانى ليكون دارًا للاستقبالات الرسمية والحفلات الكبرى. واتخذ الثالث مكتبًا له.. وكنا الآن أمام الباب الرئيسى لهذا القصر الثالث).

□

أستأذن الآن فى تجربة لم أحاولها فيما سبق من فصول هذا الكتاب، ذلك أننى

أريد أن أعود إلى نصوص ما نشرته فعلاً بعد المقابلة مباشرة وحول وقائع ما دار فيها بيننا. ولى فى تلك العودة الصارمة إلى النصوص القديمة سبب وهو أن صحف طهران الكبرى - وبالذات «إطلاعات» و«كيهان» - ظهرت فى اليوم التالى لنشر الحديث فى العالم الخارجى حاملة لقرائها نصوصه كاملة نقلاً عن الذين نشروه قبلها بيوم. ثم أكثر من ذلك فعلت إذاعة طهران نفس الشىء على كل موجات إرسالها.

وكان لذلك معنى واحد هو أنه أمر من «صاحب الجلالة الإمبراطورية».

وكان هذا بالتداعى له معنى واحد أيضًا هو أن الشاه اعتبر ما نشرته عرضًا دقيقًا لما قاله لى.

وإذن ماذا؟

إذن عدة ضوابط:

١ - إننى إذا عدت الآن - وبعد عشر سنوات - سقط خلالها حكم الشاه وتمرغت سمعته فى التراب - إلى تحليل مضمون كلامه من واقع منطوق ألفاظه - إذن فإن حديثى عنه ملتزم بالموضوعية. وأنا حقيقة أتمنى أن ألتزم بها خصوصًا إزاء رجل انهالت عليه السهام من كل ناحية وتكسرت على جسده النصال على النصال كما يقال!

٢ - إننى إذا سمحت لنفسى الآن أن ألحق ما قاله الشاه ونشرته وقتها ببعض ما قاله ولم أنشره وقتها لظروف ودواع يمكن فهمها من السياق - إذن فإن هذه الإضافات الجديدة لا تفعل شيئًا أكثر من استكمال صورة رضى عنها هو تمامًا فأمر بنشرها وإذاعتها وتظل إضافاتى مجرد لمسات على الزوايا والأطراف.

٣ - فإذا مضيت بعد ذلك إلى تعليقات من عندى على السياق - إذن فإن هذه التعليقات لا تجىء الآن بأثر رجعى وبعد أن سقط حكم الرجل وسمعته وانتهت حياته. فالشجاعة بعد الموت تظل دائمًا مكروهة. كما أن الحقيقة لا دخل لها بالهزيمة

أو الانتصار حتى وإن تكررت على مسامعنا باستمرار مقولة «إن صفحات التاريخ يكتبها المنتصرون وحدهم»!

□

وحينما أعود إلى النص المنشور أيامها أجدنى بدأت بوصف دخولى إلى مكتبه فى قصر «نيافاران». رئيس الأمناء الذى استقبلنى أمام سلم رخامى عريض ثم قادنى منه إلى ردهة طويلة مزدحمة بفنون «فارس» وتاريخها ومنها إلى مكتب الشاه الذى همّ من مقعده على مكتبه يلاقينى فى وسطه ويقصد بى إلى ناحية القاعة الفسيحة كأنها شرفة متصلة به مطلة على ربوة تنحدر إلى وادٍ تفرشه أشجار الغابات. وجلسنا، ثم قال لى بمودة ظاهرة:

ـ «لقد تأخرت كثيرًا.. انتظرناك مرات عديدة من قبل لكنك لم تجئ.. كان يجب أن تجىء قبل ذلك بزمان».

ثم أجدنى فى النص المنشور أيامها أوجه إليه الأسئلة الثلاثة «التقليدية» التى أبدأ بها أى لقاء: الوقت المخصص لى؟ درجة الصراحة المقبولة منى فى الحديث؟ ثم الإذن فى حذف الألقاب حتى لا يتحول الحوار إلى إجراءات بروتوكول؟

وقد رد الشاه ـ طبقًا للنص المنشور ـ بأن وقتى معه غير محدود ولهذا فقد اختار لى موعدًا بعد الظهر يكون فيه قد انتهى من كل شواغله. ثم إنه يريد صراحة فى الأسئلة مائة فى المائة. وهو ـ قالها بعد تردد لم يطل ـ يوافق على حذف الألقاب.

ثم يتواصل النص المنشور أيامها على النحو التالى:

(قال الشاه مستأنفًا كلامه من حيث توقف:

ـ «تعود بعد خمس وعشرين سنة.. هل ترى أشياء تغيرت.. كنت معنا فى الأيام العصيبة؟

لم نعد الآن فوق بركان.. قل لى عن انطباعاتك».

قلت:

- «مازلت أحاول أن أرى أوسع مساحة ممكنة من الصورة».

قال:

- «أريد أن ترى كل شىء.. إنك رأيتنا فى ظروف الامتحان القاسية. وقد اجتزنا تلك الظروف».

وسكت قليلاً ثم قال:

- «مصدق.. لقد بدأ طيبًا وانتهى سيئًا وسقط.. فاطمى كان الروح الشريرة التى دفعته إلى السقوط».

قلت:

- «كنت معجبًا بمصدق، لكن الأزمة التى فجرها كانت أكبر منه.. وكان الدكتور حسين فاطمى صديقى فى ذلك الوقت، وكنت كثير التردد على مكتبه فى جريدة «باختر أمروز» ، كان رئيس تحريرها قبل أن يصبح وزيرًا للداخلية ونائبًا لرئيس الوزراء مع مصدق، وكنت أذهب إليه أحاول من عنده أن أتابع الحوادث، كان مكتبه خلية نحل».

قال:

- «لم يكن فاطمى مخلصًا.. وإنما كان مدفوعًا.. لا تزال هناك قوى تدفع إعانات لأسرته فى أصفهان حتى اليوم.

إن كل القوى اختبرتنى فى امتحان صعب.

الإنجليز اختبرونى فى أزمة مصدق.

والأمريكان اختبرونى فى أزمة أمينى.

والروس قبل ذلك كله اختبرونى فى أزمة جعفر بيشفارى ومحاولته لسلخ أذربيجان عن إيران».

قلت :

ـ «حكايات الأمس طويلة وحديثها لا ينتهى.. هل استأذنك فى الانتقال إلى حكايات اليوم؟»)

. . . .

. . . .

[إذا توقفنا قليلاً أمام هذه الفقرة من نصوص الحديث الذى نشر أيامها فسوف نجد الشاه يقول إن كل القوى اختبرونى وكلها سلمت له فى النهاية.

الإنجليز «اختبروه» فى أزمة «مصدق» بينما الحقيقة أنه كان مع الإنجليز فى نفس الموقع المعادى لتأميم البترول.

والأمريكان «اختبروه» فى أزمة «أمينى» ، وهو يقصد بها أن الرئيس الأمريكى السابق «جون كيندى» طلب إليه ـ فى أواخر عصر البراءة الأمريكية ـ أن يعين رئيس وزراء مسئول وأن يجرب حكم إيران بشىء ما من الديمقراطية وربط ذلك بطلبات الشاه من السلاح واستجاب الشاه. وعندما حصل على السلاح وقتل «كيندى» وخلفه «جونسون» بادئًا عصر حماقة القوة الأمريكية الذى قادها فيما بعد إلى مستنقعات فيتنام ـ فإن الشاه تخلص من «أمينى». وفى كل الأحوال فمن الصعب أن يقال إن تعيين «أمينى» كان اختبارًا أمريكيًا للشاه، فنقطة البداية الحقيقية فى علاقته بالأمريكان هى الانقلاب المضاد على «مصدق» وهو انقلاب دبرته وقادته ونفذته وكالة المخابرات المركزية. وكان رجلها المسئول عن العملية فى ذلك الوقت هو «كيرميت روزفلت». وقد تم الانقلاب المضاد فى غيبة الشاه الذى دفعه خوفه من «مصدق» إلى الهرب بطائرته إلى بغداد ثم إلى روما. وحين بلغها لحقته أخبار نجاح الانقلاب الأمريكى المضاد وغيّر اتجاه طائرته من منفى كان يريد اختياره فى أمريكا وعاد مرة أخرى إلى إيران وعرش الطاووس. فإذا طلبت منه القوة التى أعادته إلى العرش ألاّ يبالغ فى إحراجها ويترك بعض السلطة لنوع ما من الحكم الديمقراطى، إذن فإن الحسابات تصبح على الأقل متوازنة!

ثم يقول الشاه إن الروس «اختبروه» فى أزمة «جعفر بيشفارى» أى محاولة إقامة جمهورية شعبية (سوفييتية) فيما تبقى من أذربيجان. وكان الروس قد دخلوا شمال إيران واحتلوه طبقًا لاتفاق مع الإنجليز الذين دخلوا جنوب إيران واحتلوه بدعوى أن «رضا بهلوى» والده راح من وراء ظهورهم فى الأوقات الحرجة من الحرب العالمية الثانية يغازل «هتلر».

ولقد خرج الإنجليز بعد الحرب، أو هكذا قالوا فى حين ظل وجودهم كثيفًا وعسكريًا فى الواقع تحت مظلة شركة البترول الإيرانية البريطانية.

ومع ذلك فلم يكن الشاه هو الذى أخرج الروس، وإنما كانت الولايات المتحدة هى التى تولت هذه العملية ضمن محاولات تثبيت الأوضاع على خطوط التماس بينها وبين الاتحاد السوفييتى فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وكان «مصدق» لا يزال «سيئًا» حتى بعد أن اعتقلته قوات الانقلاب المضاد ووضعته فى زنزانة سجن منفرد مليء إلى ارتفاع متر بالماء ومن نتيجة ذلك أن الرجل مات بـ«الروماتزم» الذين طحن كل مفاصله وأذاب عظامه (!!)

ثم إن «حسين فاطمى»، والشاه يسميه هنا بـ«الروح الشريرة»، قتل طعنًا بالسكاكين فى مكتبه (!!)

ولقد كان واضحًا أن الشاه لا يكره «مصدق» و«فاطمى» وحدهما وإنما يسحب كراهيته على كل الساسة الإيرانيين الذين عرفوه صغيرًا أيام والده، أو تعاملوا معه وهو على العرش سنة ١٩٥٣ وما سبقها، وكان ذنبهم أنهم رأوه جميعًا فى حالة ضعفه وعرفوه جيدًا من داخل كل الملابس المزركشة الجديدة والتيجان المرصعة التى صممت خصيصًا له ولمناسباته التاريخية.

حتى الذين جاهروا بالولاء له مثل رئيس وزرائه فى أعقاب الانقلاب المضاد وهو «حسين علاء» ـ فرض عليهم سجن النسيان كما فرض على «مصدق» سجن القضبان!

وفى النهاية فإن أحدًا لم يختبر الشاه فى الحقيقة ولكنه صوّر لنفسه ما يريد وكما يوافق نفسيته . ثم اقتنع بما صوّر لنفسه وراح يتباهى بالوهم.

وعندما نظر الشاه إلىّ نظرة ذات معنى وهو يقول «إن هناك قوى تدفع مخصصات لأسرة حسين فاطمى فى أصفهان» ـ سمحت لنفسى أن أرد على الفور (ولم أنشر هذا فى نصوص الحديث) » بأننى أعرف أن مصر (جمال عبد الناصر) كانت تساعد عائلات الرموز من ضحايا حركة التحرر الوطنى وتعتبر ذلك مسئوليتها». وقاطعنى الشاه يومها بسرعة : «أليس هذا تدخلاً فى شئوننا؟» وقلت : «يكون لك الحق فى ذلك القول إذا كان فاطمى مازال حيًا وإذا كان مازال يواصل عمله فى السر أو العلن ضدك، أما والرجل قتل بالسكاكين فى مكتبه وترك وراءه أرملته وأبناءها فإن مصر كان لها الحق أن تعتبر ذلك مسئولية عليها وليس تدخلاً من جانبها».

ولم يقتنع وعاد إلى الكلام عن جمال عبد الناصر كما سيظهر فيما بعد!].

. . . .

. . . .

□

□□□ نقلاً عن النص المنشور أيامها :

(قلت للإمبراطور :

ـ «هل أستطيع أن أسألك : ماذا تريد؟

هناك ثلاث ظواهر تستلفت نظرى ونظر غيرى فى العالم العربى :

● إيران تتسلح بشدة.. مشترياتها من السلاح هذا العام أربعة آلاف مليون دولار.. هناك تركيز فى هذا التسليح على القوة الجوية وعلى القوة البحرية فى الخليج، والذى يستلفت نظرى ـ ونظر غيرى ـ هو: لمن هذا السلاح، ومن هو العدو الذى تستعد له به؟

إن هذا السلاح لا يمكن - فى ظنى - أن يكون موجهًا للاتحاد السوفييتى، لأن موازين القوى - مهما كانت مشترياتكم من السلاح - لا تسمح لكم بصدام عسكرى معه، وإذا كان ذلك .. إذن فسؤالى قائم: لمن هذا السلاح؟

- الظاهرة الثانية: إن لك قوات عسكرية تحارب ضد الثورة فى ظفار وجنبًا إلى جنب مع قوات السلطان قابوس فى عمان، وأنا لا أبدى الآن رأيًا فى ثورة ظفار ولا فى سلطان عمان، ولكنى أسأل أليس ذلك تدخلاً عسكريًا فى قضية داخلية لبلد عربى؟

- الظاهرة الثالثة: كيف يمكن أن تفسر لى ما حدث فى الثورة الكردية التى قادها الملا مصطفى البرازانى .. رفعت إيران يدها عن ثورة الملا مصطفى فإذا الملا مصطفى ينسحب من الميدان وتنتهى الثورة الكردية .. أليس من حق بعض الناس - وأنا منهم - أن يقولوا إن إيران كانت القوة المحركة للثورة الكردية - على الأقل فى الفترة الأخيرة - وإنه بعد اتفاقك مع الرئيس صدام حسين بوساطة الرئيس بومدين فى الجزائر رفعت يدك فوقعت الثورة الكردية على الأرض؟ إنك مشكور بالطبع إذ رفعت يدك .. ولكن أليس معنى ذلك أنك سابقًا كنت الدافع والمحرض؟

دعنى أضيف أننى واحد من الذين يرون أن هناك أسبابًا موضوعية لتناقضات عربية إيرانية .. تلك مسألة طويلة لها جذور ضاربة فى تاريخنا الحضارى والسياسى .. ولكننى واحد من الذين نادوا وما زالوا ينادون بأنه من الضرورية أن لا نسمح للتناقضات بيننا أن تتحول إلى تناقضات عدائية، وإنما يجب لهذه التناقضات أن تظل تناقضات غير عدائية يجرى حلها وتذويبها بالفهم المتبادل وبالتعاون المشترك وبالتفاعل اليومى لعلاقات بناءة، لكن بعض الظواهر - كما قلت لك - تستلفت أنظارنا:

القوة العسكرية والتركيز البحرى فى الخليج .. يجعلنا نتساءل .. تدخلك فى ظفار .. يدفعنا إلى القلق ..

دور مثل ما كان لك فى الثورة الكردية .. يجعلنا نتخوف من أن يحدث ذلك مرة أخرى!

كان الإمبراطور يصغى بصبر، وبغير حركة تقريبًا إلا مرة واحدة مد يده فيها فأحكم تثبيت نظارته فوق أنفه ووراء أذنيه، وحين فرغت من أول سؤال لى بصراحة «مائة فى المائة» كما أذن ـ التقط هو حبل الحديث.

قال لى:

ـ «سوف أجيب عن كل ما سألتنى فيه، ولكنى أريد أن أسألك عن شىء قبله... قد يبدو لك فرعيًا ولكنى اعتبره مهمًا.

إنك فيما سألتنى فيه أشرت إلى الخليج مرتين، ولكنك فى المرتين أشرت إليه بغير وصف.. ذكرته على أنه «الخليج» وسكت، أليست لهذا الخليج صفة؟

دعنى أسألك: ما هى الصفة التى تعلمتها فى المدرسة لهذا الخليج؟

قلت ضاحكًا:

ـ «فهمت قصدك.. صحيح، فى المدرسة ومن سنين بعيدة تعلمنا اسمه مصحوبًا بوصف وصفه... تعلمنا على أنه الخليج الفارسى».

قال الإمبراطور:

ـ «ليس من سنين بعيدة.. حتى وقت قريب كنتم أنتم أيضًا تسمونه الخليج الفارسى... أنا بنفسى سمعت مرة فى الراديو خطابًا لعبد الناصر... سمعته بنفسى. كان يتحدث عن الحركة القومية العربية من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى... كرر تعبير الخليج الفارسى فى خطابه عدة مرات... فلماذا قررتم فجأة قبل عدة سنوات تغيير الطبيعة والتاريخ ثم نسيتم وصف الفارسى ورحتم تسمونه بالخليج العربى... لماذا؟ أسألك لماذا؟».

كان الإمبراطور جادًا فى ملاحظته وقلت له:

ـ «ربما كان الذى حدث أننا وجدنا اسم الخليج الفارسى منسوبًا إلى فارس، ثم وجدنا أنكم غيرتم اسم فارس القديم باسم إيران الجديد... إنكم بهذا تركتم الخليج وحده لأن البلد الذى أضفى اسمه عليه غيّر هذا الاسم.. واكتشفنا نحن أن الخليج

وحيد... ربما يتيم، وأعطيناه صفتنا التى لم تتغير، وأصبح اسمه الخليج العربى...»

وهز الإمبراطور رأسه قائلاً:

- «لا.. أنا أتكلم جدًا.. أريد أن أعرف لماذا غيرتم الطبيعة والجغرافيا، كان اسمه من وقت عرفته الدنيا واكتشفته: الخليج الفارسى فكيف يمكن فجأة أن تجعلوه الخليج العربى؟».

قلت:

- «ربما وجدت تفسيرًا آخر لا أعرف هل ترضى به أو ترفضه... لقد وجدنا سبع دول عربية تطل عليه وهى العراق والكويت والسعودية والبحرين والإمارات وعمان.. ومن غير العرب فقد كانت هنا إيران وحدها... كانت نسبة العرب عليه سبعة إلى واحد.

هل هذا التفسير مقبول؟».

قال الإمبراطور:

- «هل تتغير معالم التاريخ والجغرافيا بهذه الطريقة. هل تستطيع الباكستان مثلاً أن تطلب تغيير اسم المحيط الهندى أو تطالب بإضافة وصف الباكستان إلى وصف الهندى؟

النقطة التى أريد أن أضغط عليها فى هذه الملاحظة ليست نقطة التاريخ وحدها، ولكن المشكلة النفسية.. ها أنتم. على الأصح بعضكم يقرر فجأة أن يرفع اسمناه من فوق علم جغرافى اشتهر به طول الزمان كله.. أليس من حقنا أن نتساءل؟.. أليس من حقنا أن نستغرب؟»)

. . . .

. . . .

[وإذا توقفنا قليلاً أمام هذه الفقرة الثانية من نصوص الحديث الذى نشر أيامها؛

فسوف نجد أنفسنا أمام رجل مشغول بالشكل قلق نفسيًا على حد تعبيره حتى من وصف يطلق على الخليج الذى تطل عليه كما قلت له سبع دول عربية فى مقابل دولة واحدة «فارسية»!

وقد قيل لى إن ذلك من أثر تربية والده وطغيان شخصيته القوية على شخصية ابنه طوال حياته. لم يكن الأب معجبًا بابنه يراه ضعيفًا مهزوز الإرادة. وكان إعجابه كله ينصب على التوءم الآخر لـ «محمد» وهى «أشرف». وكان يقول إن الطبيعة فى بطن زوجته أخطأت فقد كان عليها أن تجعل «أشرف» هى الذكر «ومحمد» هو الأنثى من التوءمين. وقد أرسله فى صباه إلى مدرسة داخلية فرنسية فى سويسرا ثم تولت كل أموره مربية فرنسية، وضاع بين الثقافات ولم يجد فى حياة أبيه غير توافه الأمور تشغله. وأغرب من ذلك فإنه حين قرر الحلفاء نفى «رضا بهلوى» من إيران وإجلاس ابنه «محمد» فوق عرش الطاووس بدلاً منه طلب الشاه العجوز أن يرى ابنه الشاب مودعًا. ولم تزد كلمات الوداع عن وصية قال فيها الأب لابنه «أنجب ولدًا بسرعة لكى تضمن استمرار عرش بهلوى فى إيران!» وافترق الاثنان.

ولم تكن مسائل الشكل وحدها تشغله وإنما علمه الفراغ أشياء أخرى أحس بها الآخرون وبدءوا يحاولون استغلالها بنفس الطريقة التى استغلوا بها غرامه بالأشكال.

أصبحت ألقاب التفخيم والتعظيم تنهال عليه وفى مقابلها كان سخيًا فى العقود والامتيازات.

ثم أصبحت برامج زيارته للخارج تعد بعناية ويترك فيها الوقت الكافى للعب.

وحين زار أمريكا سنة ١٩٥٤ مثلاً فإن «أريك جونسون» وكان رئيسًا لغرفة صناعة السينما فى الولايات المتحدة أقام تكريمًا له حفلة فى قاعتين منفصلتين من فندق فى لوس أنجلوس.

قاعة كان فيها الإمبراطور هو الضيف وحده مع أجمل ممثلات هوليوود.

وقاعة أخرى كانت فيها الإمبراطورة «ثريا» وحدها مع كل الفتيان الأول من نجوم الشاشة الأمريكية.

وفيما بعد مضت الحفاوة أبعد وتكفلت بعض وزارات الخارجية فى دور كبرى بأن ترتب للشاه ليلة أو ليلتين للغرام!

وفيما بعد ولأن السفر أصبح غير متاح بسهولة فإن الشاه حوّل إحدى جزر الخليج (كيش) إلى مركز سياحى عالمى للصفوة المختارة القادرة. وبعد الثورة نشرت صحف العالم صور عشرات من الجميلات قالت كل منهن إنها دعيت لأسبوع فى «كيش» وغادرتها بذكريات دافئة مع الشاه وبضعة عشرات من ألوف الدولارات!]

. . . .

. . . .

□

□□□ نقلاً عن النص المنشور أيامها:

(وسكت الإمبراطور قليلاً يحاول ـ فيما بدا لى ـ أن يحس بأثر ما قال... ثم فجأة قرر أن يستأنف كلامه...

قال:

ـ «سوف أعود إلى سؤالك.

سؤالك فيه ثلاثة أقسام:

لماذا هذا الحجم فى التسليح الإيرانى؟ دورنا فى مساعدة السلطان قابوس؟ ثم حكايتنا مع الثورة الكردية؟

سوف أبدأ بمسألة التسليح الإيرانى.

دعنى أقول لك بوضوح: نعم، نحن نتسلح ومشترياتنا من السلاح هذا العام أربعة آلاف مليون دولار، وربما يزيد هذا المبلغ فى سنوات قادمة، وسوف يستمر هذا المعدل فى شراء السلاح لسنوات طويلة قادمة.

لماذا؟

جوابى: لأننا نريد أن نكون أقوياء فى المنطقة التى نعيش فيها.

دعنى أسألك: هل لابد أن نكون ضعفاء لكيلا يخاف الآخرون ولا يقلقوا؟

ليست هناك دولة يمكن أن تبنى سياستها الدفاعية على ذلك الأساس، وإنما كل دولة.. خصوصًا دولة لها دور فى منطقة مهمة من العالم... ولديها ثروة يمكن أن تكون مطمعًا للطامعين، لابد لها من قوة.

سألتنى القوة ضد من؟

صحيح... ملاحظتك فيما يتعلق بالاتحاد السوفييتى سليمة... فلا يمكن أن تتكافأ موازين القوى بيننا وبينه.

من ناحية أخرى فهل يمكن أن يكون هناك من يتصور أننا نريد أن نبنى قوة عسكرية نهدد بها العرب؟

كان يجب للجميع أن يقدروا موقفى من مشكلة البحرين.

كنا نعتبر أن البحرين إيرانية.. كذلك قرأنا التاريخ.. ولكننى قلت إننى لا أريد أن آخذ بدعوى التاريخ أرضًا لا أستطيع أن أحتفظ بها إلا بقوة السلاح...

يقول البعض إن لى مطامع فى بعض إمارات الخليج... لماذا؟

إذا وضعت حسابًا للأرباح والخسائر فى مثل هذه العملية ـ بصرف النظر عن كل الاعتبارات الأخلاقية ـ فإننى لا أجد شيئًا يغرينى بالمغامرة فى الخليج.

هل أذهب لغزو الإمارات مثلاً لكى أحصل على أرباحها من البترول؟ على ألفى مليون دولار فى السنة.. وماذا أفعل بها؟ وهل تحتاجها إيران؟

ثم فى مقابل هذا أدخل فى عداء مسلح مع الأمة العربية كلها؟... هل يرضينى ذلك؟

أقول لك: لا ... أقولها بالتأكيد!

ألخص لك سياستى العسكرية:

- أنا أعيش فى هذه المنطقة، وهى اليوم أهم منطقة فى العالم. قرأت لك مرة أنك تعتبرها مركز الثقل فى الصراع العالمى كله.. وأتفق معك.
- فى هذه المنطقة وأنا طرف فيها لدىّ ثروة أحرص على حمايتها ولدىّ دور أؤديه ولدىّ سياسة أمارسها، وليست هناك ثروة ولا دور ولا سياسة بغير أمان القوة العسكرية.
- القوة العسكرية التى أبنيها موجهة ضد أى تهديد أتعرض له... تهديد أضعف من قوتى لن يواجهنى قط... تهديد فى مستوى قوتى أتكفل به... تهديد أقوى منى فلى فى ذلك نظرية... أقول إن القوة المسلحة نوع من الترباس على الباب... يصد ولو لبعض الوقت... يعطل ويعطينا وقتًا... ويعطى وقتًا لأصدقائنا أيضًا، لكل من يريدون مساعدتنا. هذه سياستى.)

. . . .

. . . .

[إذا توقفنا قليلاً أمام هذه الفقرة الثالثة من نصوص الحديث الذى نشر أيامها فسوف نجد أن الشاه لديه تصورات أوسع بكثير من حدود بلاده.

رجل له دور فى منطقة بأسرها، ومن أجل هذا الدور فهو يبنى قوة عسكرية تتجاوز حتى طاقة جيشه على استيعابها (لم يكن الجيش الإيرانى خلال ربع قرن قادرًا مهما قيل على استيعاب أسلحة بلغ حجم تعاقداتها ما بين ثمانين إلى مائة بليون دولار - استحالة مادية).

«نعم نحن نتسلح» قالها وكررها. و «نعم مشترياتنا من السلاح سوف تزيد».
بشكل ما يشعر سامعه أن السلاح بالنسبة له مطلب حيوى بصرف النظر عما يصنعه هذا السلاح. كأن تكديس السلاح فى حد ذاته يعطيه سببًا للاطمئنان ضد مخاطر يشعر بها فى أعماق نفسه ولكنها لا ترد على لسانه.

وهو يريد أن يشعر الآخرون بقوته وقدرته. قوته إذا غضب، وقدرته إذا رضى، وكان واضحًا قوله إنه يعتبر البحرين إيرانية ولكنه لم يسع بالقوة لأخذها، وبرغم ذلك فإن العالم العربى لم يقدر موقفه.

وهو لا يريد أن يحارب العرب وليست له مطامع فى الخليج لأن الخليج ليس فيه شيء يساوى الحرب. والخطر الذى يستعد له من مفهوم كلامه هو الاتحاد السوفييتى. وحين يذكره أحد بأن التكافؤ بينه وبين الاتحاد السوفييتى ليس حسابًا مطروحًا لعدة أسباب أولها أن زحفًا سوفييتيًا على إيران فى ذلك الوقت كان يعنى حربًا عالمية، يكون رده أنه يريد أن يضع ترباسًا على الباب.

ولقد أبديت له عند هذه النقطة من الحديث تعليقًا عابرًا قلت فيه «إن الترباس الذى يكلف ستين بليون دولار (وقتها) غال جدًا، ثم إن التهديد المحتمل للنظم فى المنطقة لن يجيئها من زحف سوفييتى كان رده: «إن أوامرى للجيش الإمبراطورى ـ!ـ أن يكون مستعدًا للعمل على كل الجبهات!»]

. . . .

. . . .

□

□ □ □ نقلاً عن النص المنشور أيامها:

(واستطرد الإمبراطور:

ـ «إنك تسألنى الآن عن مفهوم الأمن الإيرانى... حسنًا سوف أجيب.

أريد علاقات طيبة مع العالم العربى، فهو حدودى الغربية... وقد تحقق كثير من ذلك بفضل التحوّل الذى طرأ على السياسة المصرية... ولقد سوينا مشاكلنا مع العراقيين، وهى مشاكل بدأت من أيام عبد الكريم قاسم سنة ١٩٥٨ واستمرت إلى هذه السنة... لكننا الآن على وفاق.

تركيا فى شمالى الغربى، لا مشاكل لى معها ونحن شركاء فى الحلف المركزى.

فى الخليج الفارسى أريد أمنًا مشتركًا...

فى الشرق لدىّ سياسة محددة... أنا بوضوح ضد أى تمزيق جديد فى وحدة باكستان، وسأقف ضد هذا.

المحيط الهندى فيه فراغ قوة، ولست أدعى أننى قادر وحدى على ملء هذا الفراغ، ولكنى أتصور أنه من الضرورى أن يكون لدول المنطقة وجود بحرى فى هذا المحيط خصوصًا بالقرب من مداخل الخليج الفارسى، فهذا طريق الاقتراب إلى قلب إيران».

واستطرد الإمبراطور:

ـ «وأنت تسألنى الآن عن القوة النووية، وردى أننى لا أريد أن تكون لدى إيران قنبلة ذرية لسببين فى منتهى البساطة:

أولهما: إن التكاليف هائلة.

وثانيهما: إننى لا أملك وسائل... مركبات ـ صواريخ ـ لنقلها إلى أهدافها.

لكننى أقول بنفس الوضوح إنه «إذا حصل كل من هب ودب فى المنطقة على قنبلة ذرية، فلا بد أن تكون لإيران قنبلتها الذرية».

فى الوقت الحاضر تركيزى الكبير على الدفاع الجوى... أريد أن أجعل الجو الإيرانى مستحيلاً بالنسبة لأى محاولة اختراق... لا بد أن تكون لى القدرة على إسقاط أى طائرة معادية أو مغيرة على بعد مائتين أو ثلثمائة كيلو متر من الأرض الإيرانية.

إننى أريد باختصار أن أكون قويًا فى المنطقة التى أعيش فيها، والتى تكمن فيها ثروتى ومصالحى وأمنى.

هل أنا مخطئ فى ذلك؟»)

. . . .

. . . .

[إذا توقفنا قليلاً أمام هذه الفقرة الرابعة من نصوص الحديث المنشور أيامها فسوف نجد أن أوهام القوة تصل به إلى آفاق بعيدة.

باكستان «هو» لا يسمح بتمزيق وحدتها وإنما سيدافع عنها ويحميها من الداخل والخارج.

والمحيط الهندى كله فراغ وقوته البحرية لا بد أن تملأه ليس فى الماء فقط وإنما فى أجواء المحيط بواسطة الطيران.

ثم إن امتلاك قوة نووية ليس بعيدًا عن خياله، وهو يدرك حجم التكاليف لكنه «إذا حصل كل من هب ودب فى المنطقة على قنبلة ذرية فلا بد أن تكون لإيران قنبلتها الذرية».

وفى ذلك الوقت كان قد أقر فعلاً برنامجًا للطاقة النووية يكلف ثلاثين بليون دولار على سبع سنوات[1]

. . . .

. . . .

□

□ □ □ نقلاً عن النص المنشور أيامها:

(واستطرد الإمبراطور:

ـ «هل تعرف؟... كان لدى العراق دبابات أكثر مما كان لدىّ... نحن الآن نتساوى في قوة ما لدينا من الدبابات.

أليس من حقى أن أطمئن طول الوقت إلى قوتى؟

أريد أن أسألك هنا سؤالاً سريعًا:

«كيف ترى الصورة فى الخليج الفارسى؟».

(وأعطيته رأيى مفصلاً وقد نشرته فى سياقه من الحديث المنشور)

وعاد إلى حديثه:

ـ «نجىء إلى القسم الثانى من سؤالك: مساعدتى للسلطان قابوس ضد الثورة فى ظفار؟

لست على استعداد لأن أقول شيئًا غير الحقيقة...

والحقيقة هى: نعم، إن لى قوات فى ظفار تحارب جنبًا إلى جنب مع قوات السلطان..

الثورة فى ظفار شيوعية، وأنا ضد الشيوعية فى المنطقة.

ليست هذه مسألة عقائد فقط، ولكنها مسألة أمن.

لنضع الخريطة أمامنا ونتكلم.

هذا هو خليج هرمز، مخرجى إلى المحيط... إلى العالم... هو معبر البترول الإيرانى كله.

هل تعلم كم قيمة البترول الإيرانى الذى يمر كل يوم فى خليج هرمز؟ مائة مليون دولار..»

وتوقف الشاه... ثم نفخ الهواء فى فمه وتساءل:

ـ «ماذا أقول...؟

لا... القيمة أكبر من ذلك بكثير.

مائة وثمانون مليون دولار... مائة وثمانون مليون دولار بترول تمر لى كل يوم

فى المضـيق... والمضـيق مخـتنق تقـريبًـا.. ممر الملاحـة فـيـه على مـرمـى حـجـر من الشـاطـئ، فـهل تظن أننى أسـمح لنظام مـعـاد لى أن يقـوم على الشـاطئ العـربى للخليج... هل أسمح لنظام شيوعى أن يقوم هناك؟ من جانبى ـ وأنا أقولها بوضوح ـ لا أقبل... بل ولا أحتمل... المضـيق شـريان الحـيـاة لبترول إيران.. وبترول إيران حياتنا الآن... وإذن فأنا لا أسمح ولا أحتمل.

وعندمـا طلب السلطان مسـاعدتى... قـدمت له المسـاعـدة، ولسـت أريد أن تبقى قواتى هناك إلى الأبد... أريدها مرة أخرى بأسرع ما يمكن.

الثورة فى ظفار ليست شيئًا كبيرًا... ولكنها شرارة.

أواجه الشرارة قبل أن تندلع النار.

تقاريرى من هناك أن عدد الثوار لا يزيد عن خمسمائة إلى ستمائة...»

ثم قال الإمبراطور:

ـ «... ومع ذلك فـهذه مشكلتى... مضيق هرمز شريان حياة لى... لا أتركه تحت أى تهديد ولا أسمح لنظام شيوعى أن يقوم على الخليج.

وبرغم ذلك، فلقد قلت لبعض أصدقائى من زعمـاء العرب: جربوا أنتم أن تحلوا المشكلة فى إطار العالم العربى... ولقد حاولوا ولم يصلوا إلى نتيجة حتى الآن... أتمنى أن يصلوا إلى نتيجة ... ولكن حتى يصلوا فإن علىّ مسئولية حماية الشريان الحيوى لإيران...

هل أخفيت عنك شيئًا؟»)».

. . . .

. . . .

[إذا توقفنا قليلاً أمام هذه الفقرة الخامسة من نصوص الحديث الذى نشر أيامها فإن أهم ما فيها هوالاعتراف بدور الشرطى فى المنطقة.

سوف يتدخل عسكريًا فى أى مكان يشعر فيه بتهديد، وإذا لم يستطع الآخرون أن يحلوا مشاكلهم فإنه ـ منفردًا ـ سوف يتولى حلها نيابة عنهم.

إن الشرطى الذى بدأ متواضعًا يمارس دوره على حدوده فقط فى أوائل السبعينيات كان فى آخرها قد أصبح مسئولاً عن الأمن والنظام ليس فى الخليج كله فقط بل وفى أفريقيا أيضًا فى زائير وفى القرن الأفريقى وفى غيرهما. ولقد كانت مثل هذه الشطحات هى التى دفعته إلى ترتيب إنشاء ما سمى فيما بعد «نادى السافارى». مجموعة دول فيها إيران والسعودية ومصر والمغرب، تنشئ قوة تدخل سريع (البعض يساهم فيها بماله والبعض بسلاحه والبعض الآخر يتبرع لها بدم وأرواح رعاياه) جاهزة للعمل حيث يطلب منها. والمخيف أن الفكرة الأصلية فى هذه القوة لم تكن وليدة المنطقة وإنما هى فى الأصل مجموعة من البنوك والشركات الكبرى فى الولايات المتحدة أحست أن مصالحها مهددة ثم إن قوتها مقيدة لأن «مفكرها» المسيطر فى وزارة الخارجية الأمريكية «هنرى كيسنجر» يواجه العراقيل فى الكونجرس بسبب عقدة فيتنام. الكونجرس لا يريد أن يوافق على أية اعتمادات لتمويل عمليات تدخل خارجى. وكانت المشكلة أيامها مستعصية فى «أنجولا» فقد جاءت فيها حكومة اعتبرها أصحاب المصالح الكبرى «ذات ميول ماركسية» وطلبوا الإطاحة بها وعجز «هنرى كيسنجر» عن تلبية الطلب!

ثم طرأت واقعة التمرد الذى قاده الجنرال «بومبا» ضد الجنرال «موبوتو» وهو أفسد حكام أفريقيا وأشدهم سوءًا، وإذا بقوة «تدخل سريع» تحت توجيه الشاه تظهر فجأة وتتشكل للعمل تحت أعلام «نادى السافارى» . مقاتلون من مصر والمغرب وسلاح وتمويل من إيران والسعودية.

كانت مغامرة «نادى السافارى» ـ وكلمة «السافارى» تعنى رحلات صيد الوحوش فى الغابات ـ من أغرب المغامرات السياسية فى تاريخ المنطقة الحديثة.

ناس يتطوعون للتعاون والتدخل المسلح فى مناطق وقضايا لا تتعلق بأمنهم المباشر أو غير المباشر وإنما هم يفعلون ذلك لأسباب أخرى، لحساب قوى لا تريد أن تدفع تكاليف مصالحها فإذا بآخرين على استعداد لدفع التكاليف بالنيابة».

ولقد روى لى الرئيس الجزائرى «هوارى بومدين» بنفسه أن دور المغرب عرض عليه قبلاً، فقد قال له الرئيس «السادات» فى إحدى زياراته للجزائر: «إن هنا تنظيمًا إقليميًا سوف ينشأ ليقوم بضبط الأمور فى المناطق الحساسة المحيطة بالشرق الأوسط. وإن هناك من أرادوا استبعاد الجزائر منه، ولكنه - أى الرئيس «السادات» - قال لهؤلاء إنه لا «يرضيه» استبعاد الجزائر وإنه سيتولى بنفسه عرض الدور على صديقه «بومدين». وقال لى الرئيس «بومدين» إنه استوضح «السادات» عن هذا التنظيم ودوره والهدف المطلوب من هذا الدور، وعندما استمع إلى التفاصيل كان رده «إنه من جانبه يرضيه «جدًا» استبعاد الجزائر» !!]

. . . .

. . . .

□

□ □ □ نقلاً عن النص المنشور أيامها:

(قال الإمبراطور:

- «ثم القسم الثالث من سؤالك: حكايتنا مع الثورة الكردية؟ بصراحة أيضًا سوف أقول لك نعم، ساعدنا الثورة الكردية... وفى الفترة الأخيرة كنا نحن القوة الفعلية وراءها، ولما سحبنا تأييدنا لها حدث ما حدث....

أريد أن أقول لك إننى لم أخترع الثورة الكردية... ولكنى وجدتها حقيقة قائمة.

لسنوات طويلة كانت النظم الحاكمة فى العراق تناصبنا العداء.

وجدت فى الثورة الكردية فرصة.

قلت لنفسى: لماذا لا أستغلها؟ وفعلت... ولم لا؟

نعم... ساعدت الثورة الكردية ضد حكومة بغداد... كان ذلك ردًا على ما قاموا به ضد إيران.

لماذا أدارى ما فعلت إذا كنت قد فعلت وإذا كنت مقتنعًا بالأسباب التى دعتنى إلى فعله؟

هل ترانى درت من حول سؤالك... أو أننى أجيبك بأقصى قدر من الصراحة؟».

قلت:

- «الحقيقة أنك لم تدر... وهذا يشجعنى على سؤال آخر:

علاقتك بإسرائيل... فى وقت من الأوقات كانت هناك معلومات مستفيضة عن التعاون بين المخابرات الإيرانية والمخابرات الإسرائيلية؟».

قال الإمبراطور:

- «لم يكن التعاون بينى وبين إسرائيل مقصورًا على التعاون بين المخابرات والمخابرات... لقد امتد التعاون إلى كل الأسلحة فى الجيش... لقد أرسلت إلى هناك قليلاً من كل شىء.

ولكن دورى الآن قد جاء لأسألك:

- إنك كنت صديقًا لجمال عبد الناصر... فهل تعرف لماذا فرّق فى المعاملة بين تركيا وبينى... لقد كانت بين تركيا وإسرائيل منذ البداية علاقة قوية وعلى مستوى السفراء... وأما نحن فإننا فى البداية أقمنا علاقات محدودة معها، ولكن عبد الناصر رد بعنف وقطع علاقته معنا... لماذا لم يفعل نفس الشىء مع تركيا؟».

قلت:

- «سوف أقول لك ما رأيته:

إن العلاقات بين تركيا وإسرائيل قامت قبل جمال عبد الناصر.

وحين جاء عبد الناصر إلى المسئولية فى مصر فقد كانت سياسته هى تثبيت الحصار فيما بقى من المواقع حول إسرائيل.

ولذلك فقد كان يقاوم بشدة موقف أية دولة تقيم علاقات جديدة مع إسرائيل.

وكان لإيران وضع يختلف عن وضع تركيا.

تركيا أدارت ظهرها للعالم العربى منذ وقت طويل، وكان حلم أتاتورك أن يجعلها جزءًا من أوروبا بصرف النظر عن التاريخ والتراث.

وكانت تركيا إلى سنوات قريبة دولة غازية فى العالم العربى وكانت علاقاته معها حافلة بالتعقيدات.

إيران كانت شيئًا آخر.. كانت روابطنا قوية.

وكان خوف جمال عبد الناصر حينما بدأت العلاقات المحدودة بين إيران وإسرائيل أن يكون فى ذلك سابقة لدول أخرى، وتنفرط الحلقات من سلسلة الحصار حول إسرائيل.

كان الخوف أن تتأثر دول إسلامية مثل إندونيسيا والملايو والباكستان بموقف إيران، وكان الخوف أن تتشجع دول أوروبية مثل اليونان وإسبانيا على الاعتراف بإسرائيل.

لهذا رد عبد الناصر بقوة على الموقف الإيرانى وقتها.

كان لا بد له أن يرد بقوة... ربما كان أقرب مثال على ذلك - مع اختلاف الظروف - هو سياسة مبدأ هالشتين الذى اتبعته ألمانيا الغربية والذى كانت بمقتضاه تقطع علاقاتها مع أى دولة تعترف بألمانيا الشرقية.

ذلك ما حدث كما رأيته».

واستطرد الإمبراطور:

- «حين عادانى جمال عبد الناصر تصرفت بمقتضى الحكمة التى تقول إن «عدو عدوى صديقى»، وهكذا كثفت تعاوننا مع إسرائيل.

واستطرد الإمبراطور:

- «هناك من تصوروا عندكم... وربما مازال هناك من يتصورون أننى ألعوبة فى يد الأمريكان... لماذا أقبل أن أكون ألعوبة؟ أعطنى سببًا واحدًا يدعونى إلى القبول بهذا الدور؟!

إن لدينا من أسباب القوة ما يجعلنا أقوياء، فلماذا نرضى بدور مخالب القطط للآخرين؟!»)

. . . .

. . . .

[وإذا توقفنا قليلاً أمام هذه الفقرة السادسة من نصوص الحديث الذى نشر أيامها فسوف نجد عبارات لا تحتمل أى تأويل فى بعضها وفى بعضها الآخر تحتاج إلى عملية تحليل نفسى.

فيما يتعلق بالأكراد ليس هناك مجال لتأويل فقوله واضح «نعم ساعدنا الثورة الكردية وفى الفترة الأخيرة كنا نحن القوة الفعلية وراءها ولما سحبنا تأييدنا لها حدث ما حدث».

فيما يتعلق بإسرائيل هناك عقد ضاربة إلى بعيد فى العمق. سألته عن تعاون مخابراته مع مخابرات إسرائيل فإذا هو بنفسه يتبرع ويقول لى إن تعاونه مع إسرائيل لم يتقصر على المخابرات وإنما امتد إلى كل المجالات خصوصًا المجال العسكرى.

ثم علل ذلك بأن جمال عبد الناصر هاجمه فتصرف بمقتضى الحكمة التى تقول «عدو عدوى صديقى» ، ونسى تمامًا أن جمال عبد الناصر هاجمه بسبب علاقته مع إسرائيل، ولم يكن هجوم جمال عبد الناصر عليه هو الذى دفعه إلى إسرائيل.

ومهما يكن فلقد كان فى استطاعته أن يربط بين العداء المتبادل مع جمال عبد الناصر وبين صداقته الحميمة بإسرائيل، لكن حجته تصبح واهية فى ظروف صداقته الطارئة والمستجدة مع الرئيس السادات، وفى هذا فإنه كان يكفى تذكر مواقفه أثناء حرب أكتوبر:

١ ـ رفض طلب الاتحاد السوفييتى بأن تعبر طائرات جسر الإمداد الجوى لمصر وسوريا فى أجواء إيران ـ رغم أن جسرًا أمريكيًا للإمداد جرى فتحه قبلاً بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

٢ ـ لم يمارس على الولايات المتحدة أى تأثير بشأن إمدادها العسكرى السريع والفعال لإسرائيل (تأكد ذلك فيما بعد بما قاله كيسنجر فى مذكراته فى صفحة ٦٧٣ من الجزء الذى صدر منها بعنوان «سنوات الغليان»).

٣ ـ لم يشترك فى حظر تصدير البترول إلى الولايات المتحدة وإن كان قد تصدر فى عملية رفع الأسعار التى توافقت مع الحظر.

٤ ـ استمر فى تزويد إسرائيل بكل ما كانت تحتاجه من البترول طوال حرب أكتوبر (ونفس الشىء حدث فى حروبها السابقة مع العرب سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ ـ كل وقود آلة الحرب الإسرائيلية كان إيرانيًا).

٥ ـ سمح لحاملات الطائرات الأمريكية التى كانت تقوم بمظاهرة عسكرية لصالح إسرائيل أثناء الفترة الأولى من المعارك بأن تتزود بالوقود من الموانئ الإيرانية.

٦ ـ واصل الضغط العسكرى على العراق حتى يمنع ثقله العسكرى الكامل من التأثير فى المعركة.

٧ ـ كان مؤمنًا بالدور الإسرائيلى الرادع للعرب (تأكد ذلك بما نقله عنه كيسنجر فى صفحة ٦٧٥ من مذكراته من قول الشاه له «إن إسرائيل هى التى تحفظ توازن المنطقة وتحمى استقلال ووجود بعض الدول الصغيرة فيها»!).

ومن المفارقات بعد ذلك بسنين أن الرئيس السادات حاول إقناع الشعب المصرى بقبول استضافته فى مصر على أساس «الوفاء بدوره فى حرب أكتوبر»، وأريق حبر كثير على صفحات جرائد مصر فى التعبير عن «الوفاء والعرفان للرجل الذى وقف معنا فى حرب أكتوبر وفى الأيام العصيبة»!!

وفجأة بالتداعى وربما عن غير قصد يقفز الشاه فى حديثنا المنشور إلى القول «بأن هناك من تصوروا عندكم أننى ألعوبة فى يد الأمريكان... ولماذا أقبل أن أكون مخلب قط للآخرين».

الخط فى هذا كله واحد مستمر.

نعم تدخلت فى عمان..

نعم سوف أتدخل فى أى مكان فى الخليج.

نعم كنت أنا القوة المحركة وراء الثورة الكردية...

نعم تعاونت مع إسرائيل، ليس فقط فى مجال المخابرات وإنما فى كل مجال...

وفى النهاية «ولكنى لست ألعوبة فى يد الأمريكان»!

ولم أكن قد وجهت إليه سؤالاً بهذا المعنى أو قريبًا منه.]

. . . .

. . . .

□

□ □ □ نقلاً عن النص المنشور أيامها:

(وانتقل الحديث إلى قصة البترول.

وكان الإمبراطور متحمسًا فى حديثه يقول:

ـ «لدينا الآن ثروة ضخمة ولدينا فسحة من الوقت مع هذه الثروة الضخمة وإن كانت فسحة الوقت محدودة....

والتحدى الذى يواجهنا هو: هل نستطيع بهذه الثروة الضخمة وبهذه الفسحة من الوقت وهى محدودة أن نبنى قوة ذاتية قادرة على البقاء؟

هم يثيرون علينا حملة كراهية؟

هم ينسبون إلينا أزمة التضخم التى يعانون منها، ولكن أزمة التضخم ليس سببها ارتفاع أسعار البترول.

التضخم فى العالم سنة ١٩٧٤ كان فى حدود ثلاثين فى المائة، ونصيب أثر ارتفاع أسعار البترول فيها أقل من اثنين فى المائة.

ما زال البترول رخيصًا فى الحقيقة».

قلت:

ـ «هناك سؤال لم أعد قادرًا على الانتظار به... ألستم مدينين بأسعار البترول الجديدة لنا... ونحن الذين حاربنا فى أكتوبر ١٩٧٣؟»

قال الإمبراطور:

ـ «هذا صحيح، ولست مستعدًا لإنكاره... إنكم بحربكم فى أكتوبر ١٩٧٣ خلقتم الظرف التاريخى الذى جعلنا نعدل سعر البترول ونرفعه إلى قرب قيمته الحقيقية، ومع ذلك مازال سعر البترول كما قلت لك رخيصًا».

وقال الإمبراطور:

ـ «تسألنى الآن ماذا أفعل بدخل البترول... هل رأيت إيران كلها؟ نحاول الآن بناء إيران جديدة... بناء بلد أفضل لشعبى ولابنى الذى سيجلس على العرش بعدى.

عندما كنت فى سنه الآن كنت أحلم... وكان مستقبل إيران أمامى رؤى بعيدة.

أريد أن أسلمه الحلم أمرًا واقعًا... وأريد أن أسلمه المستقبل حقيقة تراها العيون وتلمسها الأصابع».

. . . .

. . . .

[وإذا توقفنا قليلاً أمام هذه الفقرة السابعة من نصوص الحديث الذى نشر أيامها فإن عبارة واحدة فيه استلفتت نظرى وهى «أنه عندما كان فى سن ابنه الآن كان يحلم وكان مستقبل إيران أمامه رؤى بعيدة»!

وأعترف أننى أشعر بقلق شديد عندما يبدأ «أحدهم» يتحدث عن الأحلام والرؤى

التى كانت تطوف حول صباه الباكر وتلم أطراف التاريخ كأنها رسالة نبوة مبكرة.

والواقع أن الشاه عندما كان فى سن ابنه (عام دار حديثنا) كان طفلاً لضابط صغير فى حامية على بحر قزوين، ولم يكن أبوه «رضا خان» قد تعلم القراءة والكتابة بعد أن أصبح ضابطًا فى الجيش أو قائدًا لفرقة القوزاق التى حرضه الجنرال الإنجليزى «ايرونسايد» على الزحف بها واحتلال طهران ومن ثم يسقط حكم أسرة «كاجار» الذى استمر قرنًا ونصف قرن ثم يتوج نفسه ملكًا على إيران ويؤسس الأسرة التى اختار أن يطلق عليه لقب «بهلوى».

لم تكن ظروف طفولته تسمح له بأحلام ورؤى بعيدة تضم مستقبل إيران.

وتبقى ملاحظة سريعة على هذا الجزء من الحديث وهى تنصب على دخل البترول وماذا يفعل به.

لقد كانت أهم العوامل التى أدت إلى الزلزال الكبير هى أموال البترول السائبة والتى خلقت ظاهرة فساد وصل سوسه إلى العظام.

ولم يكن هذا الفساد بعيدًا عنه فقد كانت أسرته وأصدقاؤه وأركان حكمه كلهم غارقين فيه، وكان هو شخصيًا قد طلب من شركة البترول الوطنية أن تقدم له من دخل بترول إيران مبلغ ألف مليون دولار سنويًا يتولى هو نفسه الإشراف على صرفها فيما يراه ضروريًا لـ «مجد وعظمة وهيبة إيران» طبقًا لنص الأمر الملكى المسجل والتى استندت إليه قرارات وضع الألف مليون دولار تحت تصرفه سنة بعد سنة!)

. . . .

. . . .

□

□ □ □ نقلاً عن النص المنشور أيامها:

(قلت للإمبراطور:

- «... أنت رجل خبرت العالم... قل لى كيف تراه؟»

ونفخ شاه إيران الهواء من شفتيه... ثم راح يرسم صورة لأحوال العالم كما يراه.

قال الإمبراطور:

- «نبدأ من هنا وبما حولنا... لقد حدثتك عنه.

الخليج كما اتفقنا بؤرة الصراع لسنوات قادمة.

المحيط الهندى فيه كما قلت لك فراغ قوة، وهنا محاولات لملء هذا الفراغ، ويمكن أن تكون هذه المنطقة لتسابق بين القوتين الأعظم.

شبه القارة الهندية منطقة تفاعلات عنيفة.

جنوب شرق آسيا مازال يعيش مرحلة إعادة ترتيب أوضاعه بعد انتهاء الحرب الفيتنامية.

كنت أخشى بعد الحرب الفيتنامية ومن عواقبها أن تنكفئ الولايات المتحدة إلى العزلة، وذلك لو حدث خطر بالنسبة للولايات المتحدة فى ظرف عشر سنوات، لكنهم الآن يفيقون من الصدمة ويتحركون، ولا أظن أن احتمال العزلة وارد، وهذا شىء مطمئن.

ولكن انسحاب أمريكا من جنوب شرق آسيا - وكان حتميًا بعد الحرب الفيتنامية - سحب فراغ القوة حتى لليابان...

نجىء إلى اليابان... اليابان لغز محير.. والمستقبل وحده هو الذى سيرينا كيف تتصرف اليابان وكيف تأخذ دورها... هناك دور لها بلا شك، ولكن كيف ومتى.. هذه هى المعضلة؟

إلى الغرب من هنا العالم العربى؟

الصراع العربى الإسرائيلى يشغله... هل هناك حل نهائى لهذا الصراع؟ لست متأكدًا!

فكرت أحيانًا فى توازن جديد لهذه المنطقة.

توازن يقوم على دور إيران فى هذه الناحية... ودور مصرى فى وسط العالم العربى... ودور جزائرى هناك عند أقصى الغرب.

المسافات بين طهران والقاهرة والجزائر متقاربة.

إيران بالطبع ليست عربية. إلى أى مدى مصر عربية..؟ أنا أسأل.

إلى أى مدى الجزائر عربية..؟ أيضًا أسأل.

هل يمكن أن يكون الإطار الإسلامى هو دائرة التوازن الذى قد نفكر فيه؟».

قلت:

ـ «إذا أذنت لى فاعتقادى بالنسبة لمصر أنها عربية... وفى كل الأحوال فإن انتماءها العربى هو أساس دورها السياسى فى المنطقة ... لا أحد يقلل من أهمية الاعتبار الإسلامى، لكن قضايا الأمن وقضايا النمو الاقتصادى والاجتماعى لا يمكن أن تقوم إلا على الأساس القومى.. والجزائر نفس الشىء فيما أعتقد ذلك».

قال الإمبراطور:

ـ «أنا هنا أتحدث عن تصورات... لا أتحدث بعد عن خطط».

وسكت لحظة ثم استطرد:

ـ «أعود إلى ما كنت فيه... جنوب أوروبا كله مثير للاهتمام... لابد أن نتابعه من أول اليونان إلى البرتغال مارين بإيطاليا وبإسبانيا.

ما يحدث هناك فى هذه البلدان كلها يستحق الدراسة.

ما هو تأثير الوفاق ومؤتمر الأمن الأوروبى على أوضاع القارة الأوروبية فى الغرب وفى الشرق؟

قلت:

ـ «لماذا لا نتحدث قليلاً عن الناس... عن الذين قابلتهم وعن الذين تقابلهم؟».

قال الإمبراطور وهو يبدو كمن يستذكر شريط صور يمر أمام عينيه:

ـ «الملك خالد... قابلته أخيرًا، وأعتقد أنه يريد أن يفتح الأبواب أمام التقدم والأمير فهد بجانبه وهو قادر على أن يقوم بعمل كبير.

... لابد أن أقول إن صدام حسين أعجبنى، مازال شابًا يملك خيالاً جرئيًا، وقد قام بمبادرة معنا قابلناها بكل نية طيبة.

... السادات تربطنى صداقة وثيقة به... وقلبى معه... لقد اجتزت أنا أصعب امتحاناتى... وأما هو فلايزال يمتحن كل يوم.

... بومدين رجل ذكى، وهو يطمح إلى دور كبير للجزائر فى أفريقيا. وهذا مفيد جدًا.

... القذافى... لا أعرفه ولم أقابله، وأظننى لا أفهمه، وعلى أى حال فإن قذافى واحد فى العالم العربى كفاية...

... فى أوروبا الغربية فإن جيسكار ديستان نوع ممتاز من القيادات الجديدة فى الغرب.

هناك شاب آخر... خوان كارلوس فى إسبانيا... تمنيت لو أن الجنرال فرانكو أعطاه فرصة ليمارس تجربة الحكم وهو موجود بجانبه.

... بريجنيف شخصية ضخمة من نوع الشخصيات التى لا غنى عنها فى عصور التحولات الكبرى.

علاقاتى الآن بالسوفييت ممتازة، إننا وجدنا أخيرًا صيغة معقولة للتعاون... لدينا استثمارات كبيرة عندهم.. ونحن نمدهم بالغاز»).

. . . .

. . . .

[وإذا توقفنا قليلاً أمام هذه الفقرة الثامنة من نصوص الحديث الذى نشر أيامها فسوف نجد أننا فى مواجهة أحكام واسعة تشمل مناطق بأكملها من العالم وتنسحب على بعض تخومه فى نظرات خاطفة.

الولايات المتحدة أسيرة عقدة فيتنام وهو يخاف عليها أن تنكفئ إلى العزلة... شبه القارة الهندية قلق... جنوب شرق آسيا مفتوح... اليابان لم تعرف دورها... الصراع العربى الإسرائيلى آن له أن يتوقف... مصر ليست عربية وكذلك الجزائر... الحلف الإسلامى للمنطقة وليس القومية العربية.

وأما عن الناس فلقد كان من مفارقات المقادير أن يقول «إنه اجتاز أصعب امتحاناته والسادات مازال يمتحن كل يوم»، وما أظنه خطر بخياله فى أشد اللحظات إغراقًا فى التشاؤم أنها ليست إلا سنوات قليلة بعد هذا الحديث، ثم إذا هو لاجئ مطارد فى ضيافة السادات، وتمر سنة واحدة بعدها ويحدث ما حدث على المنصة.

كذلك كان من مفارقات المقادير كلامه عن «خوان كارلوس» الذى لا يعلمه «فرانكو» ما ينفعه فى حكم إسبانيا، بينما «خوان كارلوس» هو الآن صاحب العرش الباقى من كل عروش البوربون!]

. . . .

. . . .

□

□ □ □ (وتوقف الشاه فجأة... ثم قال:

ـ «لقد جعلتنا نطوف بالدنيا كلها، لكنك لم تحدثنى عن إيران.. إنك لم تخرج من طهران هذه المرة بعد، ولكنك تعود إلى طهران بعد ربع قرن، قل لى ماذا رأيت...»).

قلت: ـ «هناك انطباعات سريعة.

طهران بالطبع فى وضع مختلف عما رأيتها عليه...

فى طهران ومن حولها أحسست أن الطبقة المتوسطة تتسع بشكل ضخم.

ظهر اليوم حضرت جلسة من جلسات «الرستاخيز» ـ تجمع النهضة ـ التنظيم السياسى الجديد ـ وتابعت المناقشات، كانت مليئة بالحيوية، ولكنى لا أعرف مدى تمثيل ذلك للقاعدة الشعبية الإيرانية.

هناك موضوعات مازلت أبحث من حولها وعنها، ولم أصل بعد إلى جواب:

كيف تفكر الطبقة العاملة الجديدة فى إيران؟

ماذا فى الريف الإيرانى، وما هى الأحوال هناك؟

ما هو السر وراء حركات التمرد الظاهرة فى شباب إيران الذى يدرس فى الخارج؟

ما هو الدور الذى تقوم به منظمة سافاك ـ المخابرات الإيرانية ـ وما يقال عنها كثير خصوصًا فى أوروبا؟

ما هى الدوافع وراء عمليات العنف التى تتفجر من تحت الأرض أحيانًا فى إيران؟

هذه كلها أشياء أريد أن أبحث عنها».

قال الشاه:

ـ «أريد أن تبحث... لا أريد أن أعترض بحثك عن الحقيقة... أريدك أيضًا أن تدرس ما سميناه الثورة البيضاء».

وتنهد الإمبراطور واستطرد:

ـ «لم تعد ثورة بيضاء... لقد سالت فيها دماء، ولم يكن ذلك ما أريده، ولكن كان ذلك ما أرادوه»).

□

فى نصوص الحديث المنشور وقتها كانت هذه الأسئلة الحساسة هى آخر ما توقفت عنده.

أى أننى نشرت الأسئلة ولم أنشر إجابات الشاه عنها فقد أرادها لعلمى.

وكانت هناك عملية «مفاوضات شاقة» وراء هذا الحل غير المألوف فى أى مقابلة صحفية!

كان الشاه قد وصل إلى لحظة فى حوارنا السياسى شاء فيها تغيير جو المكان لأن بقاءه فى المكتب طول يوم العمل يجعله فى النهاية غير قادر على التركيز. ووجدته يرفع سماعة التليفون على مائدة بجواره ويدير بنفسه رقمًا واحدًا ثم يتحدث بصوت خفيف وعبارات قصيرة، ثم وضع سماعة التليفون مكانها وقال «دعنا نذهب إلى البيت نواصل كلامنا».

وقام وقمت معه، وخرجنا من المكتب إلى الممر الطويل إلى البهو الفسيح إلى السلم الرخامى ووراءنا واحد فقط من أمناء القصر.

وأمام نهاية درجات السلم كانت هناك سيارة مكشوفة من طراز ألمانى فى لون البن المحترق، وتقدم أحد الضباط ففتح الباب ووجدت الشاه يصعد إلى مقعد القيادة ويدعونى للركوب إلى جانبه.

ولم يركب معنا أحد ولا تبع سيارته أحد.

ودار هو بالسيارة حول الدائرة التى بدت قبل الغروب بساطًا فارسيًا من الزهور وخفت ألوانها الآن فى ضوء مصابيح الحديقة، ثم أخذ شارعًا طويلاً وبدا أمامى سور حديدى يسد الطريق، وضغط على زر يفك شفرة قفل فإذا الباب الحديدى ينفتح أمامنا بهدوء ويمرق الشاه بسيارته ثم يتوقف بعد قليل أمام مبنى آخر فى «نيافاران»... كان هو «البيت»!

وأسرع ضابط واحد ظهر من حيث لا أدرى فجأة وفتح له الباب وفتحت الباب لنفسى ونزلت، وعبر صالة واسعة بدت لى هى الأخرى متحفًا للفنون وتقدمنى إلى

غرفة فى المواجهة. غرفة معيشة كما يسمونها. وكان واضحًا حتى من كمية الأطر الذهبية التى تضم صورًا عائلية أننا الآن داخل الحرم الخاص للشاه.

وفى هذا الجو الأليف تذكرت مشكلة «موكبى» قائلاً: «إنه هو يتحرك بطريقة بسيطة وعادية ويفرض ـ كرمًا منه ـ على ضيوفه أثقال بروتوكول عنيف».

والتفت إلىّ وفى عينيه نظرة استغراب وقال «إننى قصدت أن تعامل أثناء زيارتك لإيران كوزير. إننى أمرت بذلك». وابتسمت قائلاً له «ولكنى أريد أن أعامل كصحفى. وحتى عندما فرضت علىّ الظروف كرهًا أن أقبل منصب الوزارة لفترة معينة فإن أبهة السلطة فى الشرق لم تدخل عقلى ولا قلبى ولم أستطع ترويض نفسى على قبول مظاهرها». ودخلنا فى حوار غريب عن «الوزير» و «الصحفى» وبدا لى أن آرائى لا توافقه، ونزل فى النهاية على رجائى قائلاً «إنه سيصدر أوامره بإلغاء مظاهر البروتوكول فى زيارتى».

وواصلت من هذه النقطة فقلت «الآن وقد سلم لى بكل حقوق الصحفى فى رأيى (وبتدخل الصحفى فيما لا يعنيه ـ فى رأيه!) فإن لدىّ مجموعة أسئلة لها أهميتها وربما كان خيرًا أن دورها جاء فى حوارنا «هنا فى البيت». وهكذا طرحت قضايا «تمثيل حزبه للقاعدة الشعبية» و «الطبقة العاملة الجديدة فى إيران» و «ما الذى يجرى فى الريف الإيرانى؟» و «حركات التمرد الظاهر فى شباب إيران الذى يدرس فى الخارج» و «السافاك وجرائمه التى تتحدث عنها تقارير منظمة العفو الدولية» ثم عمليات «العنف والتفجير التى تبرق نارها ما بين وقت وآخر؟».

وبدا عليه نوع من عدم التصديق لما يسمعه منى. وسألنى بشىء من الضيق «أتريد أن تسألنى عن هذه كله وأن أجيبك عنه؟» ورددت قائلاً: «ولم لا؟ هذه أسئلة تدور فى العالم كله وسوف يدهش كثيرون إذا عرفوا أننى قابلتك ولم أسألك فيها».

واستوقفنى رده علىّ... قال «لو أننى أجبتك عن هذه الأسئلة لتشجع غيرك كثيرون على سؤالى عنها وأنا لا أسمح لهم بذلك. لو رضيت فسوف أجد غدًا أن كل

«جاك» و «توم» و «جيرى» فى الصحافة الأجنبية يوجهها إلىّ متصورًا نفسه قاضيًا يحاكم إمبراطور إيران».

وقلت له إن «محاكمة إمبراطور إيران» شىء لم يخطر على بالى وهو يتجاوز حدودًا أعرفها لنفسى. وسارع إلى القول بأنه لم يكن يقصدنى وإنما كان يقصد صحافة أمريكا وأوروبا. ثم بدا أنه وصل إلى رأى فقال «سوف أرد عليك ولكن ليس للنشر» ! وقلت «إننى أعتذر عما قد يبدو له عنادًا من جانبى، لكن الرأى العام من حقه أن يعرف أننى سألته فى هذه الموضوعات التى تثير الاهتمام على أوسع نطاق». وقال «إنك تعقد الأمور... لماذا لا تبحث أنت فى هذا كله بعيدًا عن حوارنا؟». وخطرت على بالى صيغة توفيق فعرضت عليه أن أنشر أسئلتى ضمن حوارى معه ثم أقول إن رده علىّ كان «طلبه إلىّ أن أبحث بنفسى عما عساه يكون هناك من إجابات». وتردد ثم وافق.

وانفتح باب القاعة ودلف منه اثنان من رؤساء الخدمة فى القصر ببذلة الفراك يحملان بعض صوانى المشروبات، وأشار الشاه بطرف أصبع وراح أحدهما يصب له كوبًا من الشمبانيا الوردية وسمعنا فى هذه اللحظة أصداء موسيقى تصل إلينا من بعيد وقال لى الشاه «تعال أقدمك للإمبراطورة» - ومشيت إلى جانبه إلى قاعة أخرى عبر البهو الكبير وهناك كانت الإمبراطورة واقفة بجوار بيانو، لكن شابة أخرى كانت تجرى بأصابعها على مفاتيحه، وقدمنى لها وقلت لها «إننى رأيت بنفسى لمسات فن وجمال فى طهران قيل لى إنها وراءها. حملة تشجير واسعة. ثم محاولة بعث ثقافى للفنون القديمة وجمع للضائع من روائعها. ثم نصب «الشاهياد» وهو فى رقة الطاووس وصلابة أحجار برسوبوليس وقد فهمت أنها كانت وراء فكرة بنائه». ولم يطل وقوفنا معها فما لبث الشاه أن قال لها «لدىّ خناقة مع هذا السيد ولا بد أن نسويها» وعدنا إلى حيث كنا. وراح يجيب عن أسئلتى مرة واحدة.

كان مجمل ما قاله فى الرد على ما سألته فيه كما يلى:

«إذا كان هناك من يسألون هذه الأسئلة ويتصورون أن النظام فى خطر فعليهم أن

يريحوا أنفسهم لأن حكم أسرة بلهوى باق فى إيران لأنه أصبح مرتبطًا بمستقبلها. وهو يفكر جديًا وفى وقت ليس ببعيد جدًا أن يتنازل عن العرش لابنه ويقف هو وراءه حتى يتعلم، وبذلك فإنه سوف يشعر أنه أدى واجبه ووقتها يستريح (لم أكن أعلم ولا غيرى أنه مريض وأنه يعرف حقيقة مرضه. وربما لم يكن لما قاله لى علاقة بالمرض، لكننى وأنا أعود إلى هذا الحديث الآن وبعد عشر سنوات تبدى لنا خلالها ما تبدى، لا أملك أن أتجاهل تمامًا احتمال أن الشاه قال ما قاله لى معبرًا دون أن يقصد عن سر خطير يخفيه فى ركن قصىّ من أعماقه!).

قال أيضًا:

«إنه يخلق إيران جديدة. استعمل فعل «خلق.. وهذه الإيران الجديدة كل من فيها مدين له بما هو فيه.

الطبقة المتوسطة التى اتسع نطاقها تعرف أنه هو الذى أعطاها الفرصة.

العمال يعرفون أنه الذى أقام الصناعة.

والجيش. أكبر جيش فى المنطقة هو جيشه. وقال بالحرف «إن الذى يريد أن يصل إلىّ عليه أن يعبر سدًا من سبعمائة ألف رجل ولاؤهم لى وللعرش».

وأما عن حزب «الرستاخيز» فهو فعلاً منشئه وراعيه، وهو خطوة نحو الديمقراطية، وهو لن يسمح لأحد أن يعلمه كيف «يمنح» الديمقراطية لشعبه، ثم قال بالحرف أيضًا «لا أريد ديمقراطية على طريقة «ووترجيت».» وعندما أبديت ملاحظة مؤداها «أننى أعتبر قضية «ووترجيت» بما فيها إرغام الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» على مغادرة البيت الأبيض نموذجًا رائعًا فى ممارسة الديمقراطية»، كان رده «بأن تصوراتى عن الديمقراطية «غير مسئولة». وأن إرغام الرئيس الأمريكى على الاستقالة من منصبه لمثل هذه «الأسباب الواهية التى تحدث فى كل الدنيا» هى الدليل على أن هناك عملية تحلل فى إرداة شعب الولايات المتحدة الأمريكية وهو ما لا يفيد منه أحد غير الروس».

قال أيضًا:

«إن كل ما أشرت إليه فى أسئلتى عن الشباب والتوتر وعوامل الانفجار.. إلى آخره كله من صنع الشيوعيين، وإنك إذا كشطت جذع شجرة فى طهران فسوف يسل منه دم أحمر لأن الشيوعيين ما زالوا يتحركون فى الشارع. ثم إن الاتحاد السوفييتى يريد أن «يأخذ» إيران.. يأخذها عن طريق صناديق الاقتراع إذا أمكن أو عن طريق «الصياح فى الشوارع» إذا استطاع. لكنه لن يسمح لهم بذلك وهو يحاول إلهاءهم بعيدًا ببعض العظام التى يلقيها إليهم كخطوط أنابيب الغاز وكبعض صفقات السلاح، لكنه لا يستطيع أن يربط نفسه بهم أو يعتمد عليهم.

ثم إن «نيكسون» ـ هذا الذى ذهب ضحية فى «ووترجيت» ـ كان وحده بين كل الرؤساء الأمريكيين الذى فهم ضرورات إيران العسكرية ففتح أمامها باب شراء السلاح دون أى قيد لأنه بعد سياسة الانسحاب البريطانى من شرق السويس فإن القوة الوحيدة الباقية القادرة على التصدى هى إيران وجيشها القوى. ثم قال فجأة وقد بدت على ملامحه لمسة قرف شديد «إن فكرة الانقلاب العسكرى فى إيران غير واردة لأننى بنفسى توليت تربية كل ضابط فيه».

ثم قال كلامًا كثيرًا من نفس طبقة الصوت وكان بعضه مفزعًا من فرط ما فيه من ثقة زائدة بالنفس.

وفى النهاية رد على طلباتى المعلقة: «سوف أصدر أمرى إلى الجنرال «ناصرى» (رئيس «السافاك») بأن يمر عليك غدًا فى فندقك وتستطيع أن تسأله فيما تريد. إنه أيضًا سوف يرتب لك أن ترى من تشاء من زملاء صاحبك القديم «مصدق». سوف نجد أنهم جميعًا ظلال باهتة لا تستطيع أن تقنع طفلاً صغيرًا. وسوف يرتب لك أن ترى «البرازانى» مادمت تصر. وستكون أوامرى إليه «مفتوحة» !».

□

وخرجت من قصر «نيافاران» ليلتها فى الساعة الحادية عشرة مساء حائرًا ومستغرقًا فى خواطر متنازعة. ثم طرأ على بالى هاجس أقلقنى. فقد أحسست

فجأة بحرج أن أذهب إلى أحد من رفاق «مصدق» عن طريق الجنرال «ناصرى» مدير السافاك.

وظهر فى اليوم التالى أننى كنت على خطأ، فعندما اعتذرت «لأحدهم» - ولا داعى لذكر اسمه - مبديًا أسفى أننى أجيئه عن طريق الجنرال «ناصرى» وأنه هو الذى طلب منى إذن صاحب الجلالة الإمبراطورية حتى يرضى باستقبالى - أدهشنى رده. فقد قال: «بالعكس... ذلك أحسن. لم يكن لقاؤنا ممكنًا بغير هذا الضوء الأخضر»!

والأغرب أن هذا «السياسى» من بقايا الجبهة الوطنية ورفاق «مصدق» القدامى سألنى ونحن فى بيته على فنجان شاى «أريد أن نخرج من هنا لنزهة فى الشوارع الجديدة من طهران؟» وخرجت معه وقال ونحن فى الشارع: «إن بيتى تحت الرقابة وكل كلمة فيه مسجلة ولقد أردت أن نخرج منه لنتحدث بصراحة».

وتحمست متصورًا أننى أخيرًا سوف أسمع الحقيقة، وإذا به يقول لى:

- «لا بد أن يعرف أصدقاؤنا جميعًا خارج إيران أنه لم تعد هناك فائدة. إن الشاه يملك ويحكم ولم يعد فى استطاعة قوة أن تتحداه. إنه هناك فى «نيافاران» يرى كل شىء ويتابع كل شىء ويحكم وفق ما يشتهى دون معقب على ما يأمر به. لم يعد فى استطاعة أحد حتى أن ينطق باسمه. وكلهم الآن يرمزون إليه فى أحاديثهم بلقب «هو» Him وهى الحروف الأولى من كلمات لقبه الرسمى His Imperial Majesty.

وروعنى ما سمعت وقلت لرفيقى فى شوارع طهران: «إننى لا أصدق ما أسمعه وأراه؛ فقد عرفت الشاه من سنوات طويلة شابًا خجولاً مترددًا ضعيفًا ولا أصدق أن ابن «رضا خان» قد أصبح بقدرة قادر تجسيدًا جديدًا لشخصية «جنكيز خان».

ورد بسرعة: «لا، صدق. صدق. ذلك حدث. إنه تغير. السلطة المطلقة غيرته، وأموال البترول غيرته، وجبال السلاح غيرته. أساليب القمع الجديدة فى سافاك غيرته، ونفوس الناس الضعيفة أمام سطوة الإفساد غيرته!».

وأتذكر أننى قلت لرفيقى فى شوارع طهران:

«ولكن هذا وضع خطير.

فالحد الأقصى من القمع سوف يتولى بنفسه خلق نقيضه وهو الحد الأقصى من التطرف».

وقال رفيقى يائسًا: «وماذا يفعل الحد الأقصى من التطرف.. سوف يذهب إلى المسجد يصلى ويتعبد. إنهم حتى لا يستطيعون أن يشكوه إلى الله لأن سافاك قد تلتقط أصوات دعائهم فى طريقها إلى السماء»!!

وغادرت طهران بعد أيام إلى القاهرة وفى يقينى أن إيران مازالت فوق بركان!

□

ورحت أتابع أحداث إيران باهتمام وربما جازفت وزعمت أن زلزال الثورة الإسلامية لم يكن مفاجئًا لى لأن الحد الأقصى من القمع جاء - كما كان حتميًا - بالحد الأقصى من التطرف.

وكان التطرف الذى ظهر فى إيران على القاعدة العريضة والصلبة للدين، ولم يستطع أحد أن يرى منذ البداية أنها فى واقع الأمر ثورة وطنية أرغمتها قوى القهر على التراجع طويلاً ومزقت صفوفها وأعلامها، فكان أن تلاقت كل القوى على الأرض التى لا خلاف عليها بين الأطراف والصفوف والأعلام وهى أرض الدين، فهم يولدون عليه مهدًا ويذهبون إليه لحدًا ولا يحتاجون إلى حافز من خارج أنفسهم لكى يقاتلوا على ساحته، بمعنى أن أى اتجاه يختاره أى إنسان يحتاج إلى دعوة جديدة وتعليم وربما تجنيد، وأما الدين فقضية أخرى يسجل مع الجنسية فى شهادة الميلاد. وفى حين تحتاج الجنسية إلى جهد إضافى لكى تتحوّل إلى مواطنة ووطنية. فإن الدين لا يحتاج إلى أى جهد إضافى فهو ينزل ويدخل وينساب باستمرار - مع الدم فى العروق - إلى أبعاد من النفس البشرية مفتوحة للإيمان واليقين.

كانت وقائع الثورة الإيرانية تتلاحق طوال سنة ١٩٧٨ وظهر «آية الله الخمينى»

قائدًا لا ينازع لها على الأرض التى لا تحتمل الخلاف والقادرة فى نفس الوقت على تحويل جزء من الإيمان إلى قوة ضاربة بالتطرف وهو ضرورية فى مرحلة الاقتحام.

ومن بعيد كان واضحًا أن النظام فى طهران يتهاوى وأن الشاه يتخبط وأن شخصيته القديمة ظهرت من وراء القناع المصنوع بعد الانقلاب المضاد سنة ١٩٥٣. كان قناعًا من الجبس وانكسر إلى شظايا عند أول صدام حقيقى مع القوة التى لا يجدى معها القمع أو الإفساد؛ فهو لأول مرة أمام قوة يتسابق المؤمنون بها إلى طلب الشهادة مدخلاً إلى الجنة. وهكذا فإنه لا يمكن إغواؤهم أو تهديدهم بمنح مباهج الحياة أو منعها، فالحياة الدنيا نفسها ليست رغبة أو مطلبًا وإنما ما بعد الحياة الدنيا هو المرغوب المطلوب.

ولم يكن القناع قد انكسر عن وجه الشاه فقط وإنما بدت الولايات المتحدة وراءه أشد عجزًا منه لأنها أمام شىء لم يسبق لها أن عرفته أو جربته. وفقد العقل الإلكترونى قدرته أمام القلب المؤمن وأضاعت الدبابة والطائرة قوتها أمام اليقين المطلق.

ومن بعيد أيضًا كنت أسمع أن النصائح الأمريكية للشاه متضاربة: «اضرب بقوة». «انتظر قليلاً». «حاول بعض الإجراءات الديمقراطية».... «لم يعد مفر من تدخلك بكامل قواتك المسلحة».

وفى شهر ديسمبر من سنة ١٩٧٨ كنتُ بمحض المصادفات مارًا بالعاصمة الفرنسية والتقيت بمن أطلعنى على آخر التطورات فى إيران مؤكدًا وموثقًا وبينها صورة رسالة من «بريجنسكى» مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى - «كارتر» فى ذلك الوقت - وكان مضمونها تعليمات إلى ممثلى أمريكا فى طهران تقول «لابد من حكم عسكرى يحكم بقبضة من حديد فى إيران وبوجود الشاه أو بغير وجوده».

وكان واضحًا أن الولايات المتحدة على استعداد لأن تلعب ورقة الشاه إذا أمكن، أو تلقى بها إلى قارعة الطريق وتلعب أى ورقة غيرها إذا أتيحت لها مثل هذه الورقة!

وكان واضحًا أن هناك عنصرًا إيجابيًا على نحو ما فى تردد الشاه، فقد بدا تخوفه من استعمال كامل قوة جيشه فى محاربة كامل قوة الشعب الإيرانى. ومهما كانت الأسباب التى دعت إلى التخوف ومنها أن الجيش قد ينفرط من يده ولا ينفذ أوامره ومنها ما كان يقوله هو شخصيًا من أنه إذا استعمل كامل قوة الجيش ضد كامل قوة الشعب فسوف يصبح مستحيلاً على ابنه أن يتولى العرش إذا تنازل هو عنه... مهما قيل من ذلك كله أو غيره فقد كان تردد الشاه يحمل ـ كما أشرت ـ عنصرًا إيجابيًا على نحو ما.

وأحسست به من بعيد رجلاً من محنة يواجه ظرفًا أكبر من قدرته ويتصدر مسرحًا لا يستطيع أن يملأه بحضوره. كأنه واحد من تلك الشخوص التى يتسلى بها التاريخ أحيانًا فيما بين فصول أحداثه الكبرى.

ولم أجد فى نفسى القدرة على أن أكرهه وبالطبع لم تكن لدىّ ـ ولا لدى غيرى ـ شهية الإعجاب به!

ثم شاءت المصادفات أن أتلقى صباح آخر يوم من أيام زيارتى تلك لباريس دعوة للقاء «آية الله الخمينى» فى قرية «نوفل لو شاتو» التى كان يقود منها أحداث الثورة على بعد ثلاثة آلاف كيلو متر من طهران!

وقابلته وقضيت معه عدة ساعات!

□

ثم عدت إلى القاهرة وقد تصورت أن علاقتى بإيران التى هى فوق بركان على وشك أن تصل إلى نهايتها. فالحركة الوطنية التى عرفتها سنة ١٩٥١ تشرذمت، والشاه الذى قابلته سنة ١٩٥١ ثم سنة ١٩٧٥ قد انتهى أمره.. لكن الطوفان راح يكتسح الخلجان جميعها!

عندما وصلت إلى القاهرة اكتشفت أن الرئيس «السادات» كان غاضبًا لأنى قابلت «الخمينى» فى باريس؛ فقد أحرجه ـ كما قال ـ أن يلتقى مصرى بـ «آية الله» الثائر

على صديقه الشاه. وسأل واحدًا من معارفنا المشتركين عن الصفة التى قابلت بها «الخمينى». وكان رد «معرفتنا المشتركة» على الرئيس أننى قابلت «الخمينى» بصفتى الصحفية. وكان تعليق «السادات» فى ذلك الوقت هو قوله «هل نسى أننى أحلته إلى التقاعد» ؟ وحين بلغتنى الملاحظة رجوت صاحبنا المشترك أن ينقل للرئيس «أنه ربما أحالنى إلى التقاعد من منصب ولكنه لم يحلنى إلى التقاعد من مهنة». ونقل إلىّ أنه لم يقتنع.

ثم حدث شىء غريب بعد ذلك. فقد وصل الشاه إلى أسوان خارجًا من طهران بعد أن ألح عليه الأمريكيون فى الخروج. وكان من جانبه يسوّف، فمن ناحية لأنه عاد إلى خيالات التدخل العسكرى الكامل، ومن ناحية أخرى لأنه أراد أن يحمل معه عند الخروج مجوهرات التاج الإيرانى وهى ثروة تقدر بأرقام فلكية.

ولم يستطع الشاه أن يجسد خيال التدخل بقرار منه. ولا استطاع الحرس الملكى أن يجيئه بمجوهرات التاج فلم يضع فى حقائبه منها إلا ما كان موجودًا فى القصر الملكى حين بلغ الزلزال أشده.

والذى حدث أن الشاه كان حين وصوله إلى أسوان لا يعرف شيئًا عن خطط «آية الله الخمينى». هل سيذهب إلى طهران أم سيكتفى بالتوجيه من بعيد فى باريس وحتى تستقر الأمور وتنجلى فى إيران؟

وكما علمت فيما بعد فإنه سأل الرئيس «السادات» عما إذا كانوا قد عرفوا شيئًا عن نوايا «الخمينى» عن طريقى؛ فقد قرأ فى الصحف أننى كنت آخر من قابلوه؟ وقال له الرئيس «السادات» - فيما علمت - إنه وضع تقليدًا يحتم على كل مصرى يقابل شخصًا له أهمية فى الخارج بأن يكتب تقريرًا عما يجرى بينهما فور عودته إلى القاهرة (ولم يكن هذا «التقليد» قد وصل إلىّ ولا كنت على استعداد له!).

وفوجئت بمن يتصل بى من أسوان يطلب منى «ورقة أو ورقتين» عن نوايا «الخمينى». وقلت لمن اتصل بى إننى لم أتعود كتابة أوراق لأحد. وبعد أقل من ساعة تلقيت دعوة بأن أتوجه إلى أسوان، وأبلغت أن مقعدًا جرى حجزه لى على طائرة

الرئاسة التى تسافر كل صباح من القاهرة إلى أسوان وتعود مساء كل يوم من أسوان إلى القاهرة. واعتذرت عن السفر، وأضيفت نقطة سوداء فى سجلى إلى نقط سوداء سبقت منذ جرت مفاوضات فك الاشتباك الأول وتوترت علاقاتى بسببه مع الرئيس «السادات»!

□

ثم شدتنى الظروف خطوة أبعد على الطريق نحو ما يجرى فى إيران بما فيه مصير الشاه.

فقد تصادف وجودى فى لندن يومًا ودعيت إلى عشاء مع ناشرى هناك وإذا الحديث يدور عن الثورة الإيرانية و «الخمينى». وأبديت ملاحظات من واقع لقائى مع «آية الله» قبل أسابيع. وظهر على الفور اقتراح أن يكون كتابى الجديد عن الثورة الإيرانية. وقلت إننى أوافق على العرض إذا تلقيت إذنًا من «آية الله الخمينى» بأن الأبواب والملفات سوف تفتح أمامى فى طهران.

وبعثت إليه. ورد. وسافرت إلى إيران وقضيت أسابيع طويلة بين طهران وقم، ولقيت «الخمينى»، ولقيت غيره من معاونيه، وأهم من ذلك دعانى الطلبة الإيرانيون الذين كانوا يحتجزون الرهائن الأمريكيين فى مبنى السفارة الأمريكية إلى اجتماع طويل معهم وحافل.

ثم خرجت من طهران وإذا بـ «هارولد سوندرز» مساعد وزير الخارجية الأمريكية فى ذلك الوقت يجيء إلى مقابلتى أكثر من مرة ما بين لندن وجنيف يطلب منى أن أكون أحد الوسطاء فى قضية إطلاق سراح الرهائن. وكانت النقطة الحساسة فيها تلك الأيام قضية تسليم الشاه وإعادة ثروته إلى إيران.

ووجدتنى مرة أخرى دون قصد بقرب مصير «محمد رضا بهلوى».

□

يقول المثل العربى: إن العاقل من اتعظ بغيره، ولكن الواقع أمامنا يقول بأصدق من كل الأمثال القديمة بأنه لا أحد يتعظ.

لم يكن «محمد رضا بهلوى» أول من اعتمد على الولايات المتحدة، ولا أظنه آخرهم.

ولم يكن هو أول من تخلت عنه الولايات المتحدة عند الحاجة، ولا أظنه آخرهم.

القائمة طويلة عريضة لقادة نسوا حقوق شعوبهم وتذكروا قوة المعبود الأمريكى، فإذا هذا المعبود يطردهم فى اللحظة الحرجة من جنته ويتركهم لألسنة الجحيم تشوى جلودهم.

وأظن أن شاه إيران الأخير مات فى المستشفى العسكرى فى المعادى وكل بقعة من جلده تحمل أثر لسعة نار أمريكية:

- خرج من طهران بدعوة منهم، ووعد بأن يستقبلوه فى بلادهم وينزلوه فيها ملجأ آمنًا. وفجأة بعثوا إليه فى أسوان ثم فى مراكش بـ «اردشير زاهدى» - زوج ابنته السابق وسفيره اللاحق فى واشنطن - يقولون له إنهم لا يستطيعون استقباله فى الولايات المتحدة - على الأقل فى الوقت الحالى - لأنهم لا يريدون إحراج أنفسهم مع النظام الجديد فى إيران!

- وبعث يسألهم وماذا عن أولاده وتعليمهم خصوصًا ولى العهد الذى كان بالفعل يدرس هناك؟ وردوا عليه بأنهم على استعداد للتفكير فى عودة أولاده إلى مدارسهم على شرط ألاّ تعود أمهم الإمبراطورة معهم. فإذا كانت تريد أن تعود - وهو موضوع بحث آخر - فإن عليها ألاّ تقيم مع أولادها حتى لا يتصور النظام الجديد أن الأسرة التأم شملها فى أمريكا!

- وألح عليهم فى الذهاب بداعى المرض - وكان بالفعل مريضًا - وأرسلوا بعثة طبية لفحص حالته فاكتشفت خطورة مرضه ووافقوا على التفكير فى السماح له بدخول الولايات المتحدة إذا كان مستعدًا للتنازل عن العرش قبل الدخول؛ ولم يكن مستعدًا بعد، فرفضوا طلبه واعدين أن يجدوا له ملجأ ومستشفى!

- ثم وجدوا له ملاجئ مؤقتة ومستشفيات نصف مجهزة فى جزر «البهاما» وفى «المكسيك». ثم تبين أن حالته تستدعى علاجًا لا يتوفر فى غير الولايات المتحدة، ورق قلبهم وأبلغوه وأمر بإعداد طائرته ثم عادوا يطلبون منه إرجاء سفره إليهم أربعة وعشرين ساعة!

- وعندما وصل بطائرته إلى أجواء الولايات المتحدة أنزلت طائرته فى مطار آخر غير مطار نيويورك. وتساءل عن السبب وقيل له إنها إجراءات الهجرة والجمارك لابد من اتخاذها قبل نيويورك، ففى نيويورك قد يكون المطار مزدحمًا بالصحفيين مما لا يعطى الفرصة لهذه الإجراءات الضرورية، ولم يكن من قبل يعرف شيئًا عن هذه الإجراءات الضرورية فى زيارات سابقة للولايات المتحدة.

- ولم يكد يتماثل للشفاء بعد جراحة فى نيويورك حتى طلبوا إليه المغادرة إلى بلد آخر لأن إيران هائجة مائجة ضد دخوله إلى مستشفى فى الولايات المتحدة. وحين وافقهم على الرحيل من الولايات المتحدة فى ظرف ثمانى وأربعين ساعة أبلغوه بأنه يتحتم عليه أن يرحل قبل أربعة وعشرين ساعة فقد رتبوا له ملجأ آخر فى «بناما» بعد أن رفضت «المكسيك» عودته إليها. ثم نقلوه من جناحه إلى القسم الخاص بالأمراض العصبية حتى يتسرب انطباع خروجه من المستشفى. وفى اليوم التالى غادر المستشفى من الباب الخلفى باب دخول البضائع وخروج مخلفات المستشفى!

- وكان له رجاء واحد وهو يرحل إلى «بنما»: أن يكون فى البيت الذى اختاروه له تليفون مباشر مع العالم الخارجى لأن الإمبراطورة «سوف تصاب بالجنون إذا عاشت فى مكان معزول ولم تستطع أن تتصل بأصدقائها فى العالم الخارجى» ووعدوه خيرًا، فسوف يبحثون الأمر مع الجنرال «عمر توريخوس» دكتاتور «بنما» فى ذلك الوقت!

- ووصل الاجتراء بمرافقه الأمريكى - وهو محام استأجرته شقيقته الأميرة

«أشرف» لتدبير أموره - أثناء مناقشة بينهما اختلف فيها رأى كل منهما على مسألة فرعية - إلى حد أن يقول للشاه «يظهر يا صاحب الجلالة أنك أصبحت مختلاً عقليًا» !!

ونظر إليه الشاه ساهمًا ولم يقل شيئًا.

- وعندما استقر فى «بنما» راح الأمريكيون وراء ظهره يتفاوضون على تسليمه للحكومة الإيرانية. وصدر بالفعل قرار من محكمة دعيت على عجل فى الليل باحتجازه. وعرف مبكرًا بالقرار فهرع إلى المطار وركب الطائرة إلى القاهرة. وفكر أحد مساعدى الرئيس الأمريكى «كارتر» فى احتجاز طائرته فى أى محطة تقف فيها بين بنما والقاهرة ليظل ورقة فى معادلة التفاوض بين طهران وواشنطن حول أزمة الرهائن!

- واكتشف الشاه بمحض المصادفات فى الطائرة أن هناك اسمًا رمزيًا كان يطلق على تحركاته فى أوراق الإدارة الأمريكية ووثائقها وأن هذا الاسم ألصق به منذ لحظة مغادرته لطهران. وعرف أن هذا الاسم الرمزى كان بالحرف «عملية الخازوق»!

وحين نزل إلى مطار القاهرة كان أول ما قاله للرئيس «السادات» والدموع فى عينيه هو «لقد عرفت أنهم كانوا طول الوقت يسموننى الخازوق» !!

وقد كان الشاه قبل خروجه من إيران حريصًا على تأمين وضعه المالى. قوة الغنى بديلاً لقوة السلطة. وكان قد خرج بثروة ضخمة تفاوتت حولها التقديرات وتراوحت الأرقام ما بين خمسة بلايين دولار إلى عشرين بليون دولار. لكن الشاه كان ينفخ الهواء من فمه كما كان يفعل عادة حين تضيق من حوله الأقاويل ثم يقول:

«هل يعرف هؤلاء الذين يهذون بهذه الأرقام ماذا يعنى بليون دولار؟ إنه جبل من أوراق النقد».

ولقد كان مما استلفت أنظار كثيرين أن الشاه فى ساعاته الطويلة المأساوية فى

المنفى كان حريصًا دائمًا على أربع حقائب كبيرة ظلت مقفوله طول الوقت ومفاتيحها فى حراسته شخصيًا ولم يستطع أحد أن يعرف ماذا فيها.

. . . .

. . . .

[أهدى الشاه فى القاهرة كميات هائلة من المجوهرات لإحساسه أنها محطته الأخيرة فى التيه. وكان حريصًا على أن يضمن سلامه فيها وسلامته حتى يصل قاربه إلى بر أمان!

واستغله البعض فيها وحاولوا بعد وفاته مع زوجته لكنها كانت أشد تماسكًا منه. ولم تنتظر شيئًا بعد حادث المنصة وإنما حملت حقائبها واختفت فى أوروبا. ثم رتبت حياتها عبر المحيط بين أوروبا وأمريكا وحاولت أن تلملم أطراف ما تبقى لها ولأسرتها فى الحياة والممتلكات!

وكان آخر ما فعلته فى القاهرة أنها سددت فاتورة تليفونية خارجية زادت على عشرين ألف دولار ثم أقفلت فصلاً من فصول حياتها ومشت.

وهناك واقعة مشهورة مكتومة فى نفس الوقت عن صديق للشاه من الأيام القديمة وهو من أسرة مالكة أوروبية مرموقة عمل وكيلاً له فى بعض أعماله ثم ادعى أمامه ذات يوم فى القاهرة ضياع سبعين مليون دولارًا منه.

وكان الشاه يجز على أسنانه غضبًا ويقول. «كيف تختفى سبعين مليون دولار؟ هل اختفت فى المجارى»!

وظلت السبعون مليون دولار ضائعة ولم تظهر حتى الآن!!

وأسوأ من ذلك حدث له مع مدير أعماله فى سويسرا «بهبهانيان». كان «بهبهانيان» هو موضع ثقة الشاه والمسئول عن إدارة جانب كبير من استثماراته.

وعندما اتضح لكل ذى عينين أن الشاه فقد عرشه بالتأكيد ـ اختفى «بهبهانيان»

من سويسرا. واختفت مع سكرتيرته. ومع الاثنين اختفت أيضًا ملايين كثيرة من الدولارات، بعضهم يقدرها بالمئات وبعضهم أكثر.

ويوم عرف الشاه أن «بهبهانيان» فرد جناحيه وطار إلى مكان مجهول وحمل سكرتيرته معه، حبس نفسه فى غرفته.

كان عليه أن يصرخ فى صمت فلم يكن يستطيع ابلاغ بوليس أو الاحتكام إلى قضاء!!

. . . .

. . . .

● ولم ترض الحكومة البريطانية أن تعطيه تأشيرة سفر إلى إنجلترا ليقضى بعض الوقت فى مزرعة جميلة كان قد اشتراها فى «سرى»؛ لأن لها مصالح دائمة مع إيران لا دخل لها بصداقة قديمة مع الشاه. ورفضت سويسرا أن تمنحه تأشيرة دخول إليها ليقضى ولو أيامًا يستريح فيها فى فيلا «سوفريتا» التى دفع فيها ستة ملايين دولار فى «سان موريتز»؛ لأنها لا تريد أن يتزحلق حجم تعاملها مع إيران من أجل خاطر الشاه المغرم بالتزحلق على الجليد فى «سان موريتز»! ولم ترد فرنسا أصلاً على طلب للشاه بالذهاب إليها للعلاج خصوصًا وأن أطباءه أيام عرش الطاووس كانوا فرنسيين وكانوا هم الذين اكتشفوا مبكرًا إصابته بالسرطان الليمفاوى، ثم إن لديهم مراكز متقدمة لعلاجه. وكان تعليق شاه إيران على الصمت الفرنسى هو قوله بالحرف: «لقد كان جيسكار ديستان (رئيس الجمهورية الفرنسية السابق) يلعق حذائى. وفى يوم من الأيام جاء من باريس إلى سان موريتز ليشرب فنجان شاى معى. تغيروا فجأة».

(لم يدرك الشاه أنهم لم يتغيروا ولكنه هو الذى تغير.. كانت قيمته بالعرش الذى يجلس عليه وبالمصالح التى يتحكم فيها، وعندما ضاع العرش والحكم لم يعد هناك مكان لعواطف أو حتى ذكريات!)

● ويبدو أن الرئيس «السادات» كان قد أقنع نفسه لسبب أو آخر بأن الأزمة سوف

تنتهى بعودة الشاه إلى عرشه فى إيران وهكذا قرر استضافته فى قصر القبة وهو المقر الرسمى لرئاسة الجمهورية فى مصر. لكن الشاه كان بقرب نهاية رحلة حياته. فقد دخل المستشفى فى المعادى واحتار الأطباء فى علاجه. وكانت آخر كلمات خرجت من بين شفتيه هو قوله لأطبائه المختلفين حول فراشه بيأس رجل فقد الرغبة فى الحياة ذاتها:

«أيها السادة: أنا لا أعرف ماذا تقولون. ولكن بالله عليكم اتفقوا على رأى واحد ثم افعلوا ما تريدون بعد ذلك»!

وأغمض عينيه ولم يفتحهما بعد ذلك.

- ولم تكن تلك آخر مآسيه فقد وقع له ميتًا عكس ما كان قد أوصى به. قالت الإمبراطورة «فرح» للذين فى يدهم الأمر بعد أن أصبح زوجها أمامها جثة هامدة «كانت وصيته أن يدفن فى احتفال دينى بسيط فى «مسجد الرفاعى» حيث رقد من قبل والده لسنوات ـ ثم ينقل جثمانه بعد ذلك عندما تسنح الظروف إلى إيران».

لكن الرئيس «السادات» رفض وأصر على جنازة عسكرية. وحاولت الإمبراطورة «فرح» أن تقاوم ولم يكن فى يدها القرار الأخير. وأكثر من ذلك فقد وجدت نفسها تسير فى موكب جنازة عسكرية بطيئة وطويلة وثقيلة. ثم هى مخالفة لوصية رجل أحس بالموت يقترب منه وهو فى أسوأ حالات الإحساس بالمرض والعزلة والهوان!

. . . .

. . . .

وليس مهمًا أننى مازلت ـ حتى هذه اللحظة ـ وربما من مشاعر إنسانية بحتة ـ حائرًا فى ترتيب وتحديد مشاعرى تجاه «محمد رضا بهلوى».. ليس ذلك مهمًا.

وإنما الأهم «أنه كل ذلك ولا أحد يتعظ»!

«دافيد روكفلر»

القرار الأمريكي... من يملكه؟!

فى نظام عملى ثلاث رحلات أحرص عليها دائمًا وفى مواعيدها:

فأنا أحاول أن أذهب إلى أوروبا مرة على الأقل كل سنة، خصوصًا لندن وباريس، فكلتاهما لا تزال عاصمة إمبراطورية برغم أن الإمبراطورية نفسا ذابت وتلاشت. أى أن المجد الإمبراطورى الفكرى والثقافى والحضارى عمومًا ما زال موجودًا فى العاصمتين - لكن عجرفة الإمبراطورية وقوتها وحماقتها لم تعد هناك. وهكذا فإن أى مراقب يستطيع أن يتابع دون أن تتحمل أعصابه تكاليف وأعباء ما يراه أو يسمعه.

وأنا أحاول - ثانيًا - أنا أذهب إلى آسيا - أو أفريقيا - مرة كل عامين عن تصور بأن نقطة الارتكاز فى سياسات العالم تنتقل تدريجيًا إلى الشرق. كانت عند قناة السويس أمس، وهى اليوم قرب الخليج العربى، وهى غدًا هناك حول المحيط الهادى. فحول هذا المحيط فى وقت ليس ببعيد سوف تتقابل أربع قوى عظمى بكتلها البشرية وطاقاتها الإنتاجية وإمكانياتها التنظيمية والعلمية والتكنولوجية وهى الولايات المتحدة - بشواطئها الغربية المطلة على هذا المحيط من ناحية - والاتحاد السوفييتى واليابان والصين وكلها تطل على شطآنه الآسيوية من الناحية الثانية. ثم إن أفريقيا سوف تظل لسنوات طويلة بؤرة صراعات خفية وظاهرة.... ساخنة وباردة.

وأنا أحاول - ثالثًا - أن أذهب إلى الولايات المتحدة مرة كل ثلاثة أعوام. فالولايات المتحدة هى المحرك الأكبر لعالمنا كما هو اليوم وكما سوف يكون فى المائة سنة القادمة - إلا إذا حدث ما ليس فى الحسبان وهو مستبعد. وربما كان يجب أن أذهب - والأمر كذلك - إلى الولايات المتحدة أكثر من مرة كل ثلاث سنوات،

لكنى أعترف أن الرحلة إلى الولايات المتحدة مرهقة للأعصاب فهى إمبراطورية جديدة، وعجرفتها وقوتها وحماقتها ماتزال فى ريعان الشباب. ومهما كان من أهمية ما يستطيع أى مراقب أن يراه ويسمعه هناك، فإن تكاليفه وأعباءه العصبية مرهقة وفادحة خصوصًا إذا كان الزائر المراقب مهتمًا بأحوال العالم العربى، وإذا كان هذا العالم العربى يمر بمرحلة تضاءلت فيها قدرته على التأثير وتلاشت مقدرته على الفعل!

□

وحين أشرع فى وضع برنامج رحلتى إلى الولايات المتحدة ـ مرة كل ثلاث سنوات ـ فإنى أضع دائمًا على رأس قائمة من أريد مقابلتهم هناك اسمًا لم يتغير ولم يتزحزح من مكانه على قائمتى فى الثلاثين سنة الأخيرة وهو اسم: «دافيد روكفلر».

ولا أستطيع أن أقول إن «دافيد روكفلر» صديق حميم ولكنى أستطيع أن أقول إنه صديق قديم، فلقد تقابلنا أكثر من عشر مرات بين نيويورك وواشنطن والقاهرة ـ ومرة واحدة فى لندن. لكنها جميعًا كانت مقابلات عمل، ومناقشات حول قضايا أو أحداث، أسأله فيها أو يسألنى، وأسمع له أو يسمعنى، ثم يذهب كل منا فى سبيله. كأننا بواخر تعمل على خطوط ملاحية محددة فى البحار الواسعة.... تتقاطع طرقها فى بعض الأحيان فتلتقى فى الموانى أو على صفحات الموج ثم تواصل كل منها رحلتها المرسومة.... حتى تتقاطع الطرق من جديد!

ولقد جرت معظم مقابلاتنا فى مكتبه فى الطابق الخامس والثلاثين من مبنى بنك «تشيز مانهاتن» الذى تملكه أسرة «روكفلر» وهو يقع وسط «وول ستريت» ـ حى المال والأعمال فى نيويورك ـ وكانت مراسم هذه اللقاءات تتم وفق بروتوكول لاتتبدل قواعده تقريبًا.

... أذهب إلى مبنى «تشيز مانهاتن» فأجد إحدى سكرتيرات «دافيد» فى انتظارى وأدخل معها إلى المصعد الذى لا يتوقف إلا فى الطابق الخامس والثلاثين وأخرج

لأجد رئيسة سكرتيراته تنتظرنى وأمشى معها إلى مكتبه ويكون هو فى انتظارى على مدخله.

ويختلف مكتب «دافيد روكفلر» عن أى مكتب آخر رأيته، فهو يحتل قلب الطابق الخامس والثلاثين من مبنى البنك.. يحتل قلب المبنى كله بما فيه صندوق الخرسانة المسلحة الذى يدور حول المصاعد وهو يشكل فى وسط المكتب كتلة ضخمة هى نقطة الارتكاز التى تحيط بها بقية المكتب وهى دائرة عريضة لا تقل مساحتها عن ثلثمائة متر مربع. وفى نقطة وسط هذه الدائرة العريضة مائدة قديمة من الطراز الإنجليزى للقرن السابع عشر وراءها مقعد واحد لصاحب المكتب ومقعد فى مواجهته لزائره ثم مائدة صغيرة من نفس العصر والطراز عليها جهاز تليفون واحد وهذا كل ما فى قاعة المكتب من أثاث. والأثاث فى كل الأحوال لا يخطف البصر ولكن الذى يخطف البصر أو بالأحرى يبعثره أن القاعة الدائرية كلها أشبه ما تكون بمتحف نفيس.

الجدران كلها مجموعات من لوحات تتغير كل سنة. فهى فى إحدى السنين لروائع الفن الإيطالى، وهى فى سنة تالية لروائع الفن الفرنسى، وهى فى سنة ثالثة لروائع الفن الإسبانى.... وهكذا.

وتحت مستوى مجموعات اللوحات توجد موائد - أو رفوف بمعنى أصح - تدور مع القاعة حيث تدور وهى أيضًا مجموعات لروائع من فنون النحت تتغير بدورها كل سنة، ولقد رأيتها مرة من أقنعة أفريقية، ورأيتها مرة أخرى من النحت المكسيكى.

وفى أول مرة دخلت فيها إلى مكتب «دافيد روكفلر» لمحت من نافذة بجوار المكتب ذاته تمثال الحرية ينتصب على قاعدته من بعيد أمامنا. وشدنى منظره المهيب عن كل ما كان يتجاذب بصرى قبله على الجدران أو الموائد والرفوف من الروائع، وقال لى «دافيد»:

- «لك الحق.... هذه هى اللوحة التى تستحق التأمل».

ثم أضاف:

ـ «إن التمثال يتوجه ببصره ويشير إلى أوروبا وقد كتبوا تحته «أعطونى كل من عندكم من المضطهدين فى الأرض والمظلومين والمتعبين». ولقد استجابوا لنداء الحرية وجاءوا ولكنهم فى هذه الأرض لم يعودوا مضطهدين ولا مظلومين ولامتعبين».

وقلت له: «لعلى لا أضايقك إذا صارحتك بأننا نشعر أحيانًا أنهم فى هذه الأرض انقلبوا من النقيض إلى النقيض: بدورهم أصبحوا يضطهدون ويظلمون ويتعبون سواهم».

وابتسم قائلاً: هذا يتوقف على الموقع الذى تنظر منه إليهم».

وطبقًا للبروتوكول فإن الحديث يدور بيننا وحدنا لقرابة الساعة ثم تجىء كبيرة سكرتيراته تدعونا وتتقدمنا إلى الطابق الأربعين حيث قاعات الاستقبال المخصصة له، وندخل واحدة صغيرة منها يكون فى انتظارنا فيها أحد كبار مساعديه، ويستمر الحديث على مائدة الغداء، ثم نعود سويًا إلى مكتبه مرة أخرى. فنجان قهوة على انفراد.

وأتذكر أننى استأذنته مرة فى أن أغسل يدى بعد الغداء وذهبت إلى حمام مكتبه وفوجئت أن وجدت جدران الحمام مغطاة بمجموعة اسكتشات بتوقيع «بيكاسو». وقدرت أن قيمة مجموعة الاسكتشات لا يمكن أن تقل عن ما بين ثلاثة إلى خمسة ملايين دولار فى الحمام. وقدرت أن مجموعات المكتب كلها لا يمكن أن تقل قيمتها عن مائة مليون دولار.

لكن الغنى الأسطورى لأسرة «روكفلر» لم يكن هو الذى يثير اهتمامى بـ «دافيد روكفلر» وإنما كان المثير دائمًا هو «دوره» أو «أدواره».

والواقع أن «دافيد روكفلر» فى الثلاثين سنة الماضية وحتى الآن كان ثلاثة «أدوار» فى رجل: هو «بابا» البنوك الأمريكية كلها. ثم هو «أمير» نيويورك بغير منازع. ثم هو أخيرًا ما يمكن أن نسميه مجازًا: رئيس حكومة الظل التى تشارك

بالتوجيه فى نيويورك فى مقابل حكومة السلطة التى تشرف على التشريع والتنفيذ من واشنطن!

باختصار هو واحد من أهم أقطاب النخبة المهيمنة فى الولايات المتحدة.

□

ويثور دائمًا سؤال عن: من الذى يحكم فى الولايات المتحدة ومن الذى يوجه ويناقش الخيارات ويقرر فى سياسة هذا البلد الذى بلغ من القوة مبلغًا لم يسبق له مثيل فى التاريخ أو قرين فى العصر وبالذات فى مجال السياسة الخارجية والأمن القومى؟ فهذا هو الذى يعنينا ويعنى غيرنا فى العالم (القرار الأمريكى الداخلى قضية أخرى وهى ليست شاغلى الآن ولا هى مدار اهتمامى فى هذا الحديث!).

ولقد كان هذا السؤال مطروحًا والناس يرون الرؤساء الجالسين فى البيت الأبيض وتعتريهم الدهشة مما يرون.

هل يمكن القرار الأمريكى فعلاً هؤلاء الذين يتعاقبون على الجلوس فى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض؟!:

... «ليندون جونسون» مثلاً الذى يخلع جاكيته ويرفع قميصه وملابسه الداخلية لكى يتمكن الصحفيون والمصورون من رؤية أثر جرح لعملية أزالوا به مرارته....؟

.... أو «ريتشارد نيكسون» الذى ظهر على حقيقته من تسجيلاته لنفسه فيما عرف باسم «فضيحة ووترجيت» ومن خلالها ظهر الرئيس الأمريكى بما لا يفرقه فى كثير أو قليل عن واحد من أعضاء عصابة الـ «مافيا»....؟

... أو «جيرالد فورد» الذى كان «جونسون» يصفه بقوله: «إن «جيرى» (تصغير «جيرالد») لا يستطيع أن يفعل شيئين فى نفس الوقت. لا يستطيع أن يمضغ لبانًا ويلعب كرة!» ثم يقول عنه فى مرة أخرى: «إن «جيرى» المسكين لعب الكرة الأمريكية بدون غطاء رأس معدنى يحميها وارتج مخه ولا يزال مرتجًا»....؟

... أو «جيمى كارتر» الذى لم يكن أحد يعرفه لدرجة أن الرأى العام الأمريكى ظل سنوات ترشيحه وبداية رئاسته يعرفه بتعبير «جيمى... من ؟».

ثم استحكمت الدهشة مع دخول «رونالد ريجان» باكتساح إلى المكتب البيضاوى الشهير فى البيت الأبيض.

كان تساؤل الرأى العام فى العالم - وخصوصًا العالم العربى - وهم يذكرون ماضى «ريجان» كممثل من الدرجة الثانية فى هوليوود: «ما الذى يعرفه هذا الرجل ليمسك بقرار السياسة الخارجية والأمن القومى فى هذا البلد؟ وهل يعقل أن تكون قرب أصابعه أزرار الحرب التى تحول الكرة الأرضية فى لحظات إلى رماد وركام؟ هل يعقل أن يستطيع مثل هذا الرجل وبمحصول تجاربه السابقة أن يحكم ويفصل فى قضايا تقرر مصير السلام العالمى. والاقتصاد الدولى. وبؤر التوتر العالمية؟!

ثم هم يرونه رجلاً يحفظ سطوره قبل أن يلقيها، وينام أثناء المفاوضات مع غيره من الأقطاب، ويضحك طول الوقت وهو يؤكد لمن يسألونه أنه رغم خمس وسبعين سنة من العمر لا يصبغ شعر رأسه ولا يحتاج إلى من يساعده ليمتطى صهوة جواده لأنه مولود بشباب دائم لا يشيب ولا يهرم!

وكان بعض الناس يتندرون قائلين «إن أمريكا بعد مآسى رؤسائها من منتصف الستينيات حتى منتصف السبعينيات لم تجد رئيسًا يمثلها فجاءت بممثل محترف يمثل دور الرئيس»!

فى هذا كله نسى القائلون سؤالاً بدهيًا:

«هل الرئيس الأمريكى هو الذى يقرر السياسة الخارجية والأمن القومى للولايات المتحدة الأمريكية... أم إن هناك أطرافًا أخرى؟».

وتضاربت الآراء حول مصدر القرار الأمريكى وتصادمت النظريات!

● وكانت للشيوعيين نظرية وهى أن القرار الأمريكى ليس لساكن البيت الأبيض

وإنما القرار فى يد حكومة خفية تقوم على تحالف ثلاثة أطراف: «وول ستريت» (حى المال والأعمال فى نيويورك)، وال«سى. آى. أيه» (وكالة المخابرات المركزية الأمريكية)، والـ«بنتاجون» (قيادة القوات المسلحة الأمريكية).

وكان اعتقادى ولا يزال أن ذلك تبسيطًا مخلاً بالحقيقة فهو يقوم أساسًا على نظرية المؤامرة فى التاريخ. والتاريخ لا يمكن أن يكون مؤامرة. بمعنى أن التاريخ قد يشهد مؤامرة. لكن التاريخ لا يمكن بأى منطق أن يتحول كله إلى مؤامرة.

● وكانت لليبراليين نظرية أخرى معاكسة ومؤداها أن الولايات المتحدة مجتمع مفتوح يستطيع أى فرد فيه أن يصبح رئيسًا وأن يقرر ويحكم. حرية بلا قيد من عرق أو جنس أو دين أو مصلحة، وديمقراطية ذاهبة إلى أبعد مدى لدرجة أن صاحب محل خردوات صغيرة («ترومان») وراعى بقر من تكساس («جونسون») ومزارع فول سودانى من ألباما («كارتر») وممثل من هوليوود («ريجان») - وصلوا جميعًا إلى مقعد الرئاسة من خلال اقتراع عام.

وكان اعتقادى ولا يزال أن ذلك تسطيحًا مسيئًا للحقيقة. فهو يقوم على أحلام وأوهام لا يمكن أن تستند إليها قوة فى مثل حجم ودور وتأثير بلد كالولايات المتحدة الأمريكية!

ومع ذلك يتبقى أن كل سؤال يتحتم أن يكون له جواب.

وإذا كان الجواب الأول من الشيوعيين - على أساس نظرية المؤامرة المطلقة مخلاً..... بالتبسيط؟

وإذا كان الجواب الثانى من الليبراليين - على أساس نظرية الحرية المطلقة مسيئًا... بالتسطيح؟

... إذن فما هو الجواب؟

وظنى أن جواب هذا السؤال مسألة بالغة التعقيد وهى بالغة الأهمية لنا بالذات فى العالم العربى لسبب ظاهر هو أننا فى هذه المرحلة، على نحو أو آخر، مربوطون

بسلاسل إلى الولايات المتحدة. بعضنا سلاسله من ذهب وبعضنا سلاسله من حديد!

□

لكيلا يفلت منى خيط الموضوع الذى أتعرض له الآن فلا بد أن أتذكر - وأذكر غيرى - بأن «دافيد روكفلر» هو هذا الموضوع الذى أتعرض له الآن ومن خلال أحاديث معه وأحاديث عنه وليس أكثر. فإذا غصت أكثر من ذلك فى السؤال المعقد والمهم عن: «من الذى يحكم أمريكا ومن الذى فى يده قرارها؟» - فإن خشيتى أن يتبادر إلى الأذهان بأن ما أقصده فى النهاية أن «دافيد روكفلر» حسب التصوير الشهير فى قصص التاريخ الأوروبى - هو ذلك الكاردينال الرمادى الذى يحكم من وراء ستار خلف العرش ويهمس باستمرار لنصف الإله الجالس عليه، ويتحول همسه الصادر من الظلال إلى إرادات فاعلة ينطق بها - مجرد نطق - نصف الإله الظاهر تحت الأضواء!

وليس هذا ما أقصده.... وإلا وقعت بدورى فى فخ نظرية المؤامرة فى التاريخ. والفارق الوحيد الذى يبقى بينى وبين أصحابها هو أنهم تصوروا وجود حكومة خفية فى الظلام. وأما أنا فقد تصورت وجود «كاردينال» خفى وراء الستار!

والحقيقة فيما أظن أسهل من هذه التصورات جميعها وأقرب إلى المقبول والمعقول.

والمقبول والمعقول أن القوة الحقيقية فى أى مجتمع هى للذين يملكون المصالح الحقيقية فيه. ولما كان تركيز المصالح فى الولايات المتحدة شديدًا، ثم إن التداخل بين هذه المصالح المركزة فى الولايات المتحدة عميقًا بسبب طبيعة التركيبة الأمريكية وظروفها الخاصة، إذن فإن بعض مواقع القوة تصبح لها سلطة نافذة يصعب تحديد مجالها كما يستحيل حصره.

وإذا كنت قد وصفت «دافيد روكفلر» قبل قليل بأنه «بابا البنوك الأمريكية» ، ثم

بأنه «أمير نيويورك بلا منازع» ثم بأنه «رئيس حكومة الظل» التى تشارك بالتوجيه من نيويورك فى مقابل حكومة السلطة التى تشرف على التشريع والتنفيذ من واشنطن، فإن تلك الأوصاف فى حقيقتها هى محاولة بناء موقف أو وضع. حجر يقوم فوق حجر وطابق يرتفع على طابق تحته.

... بسبب سيطرة أسرته على أكبر البنوك فى أمريكا («تشيز مانهاتن» و«ناشيونال سيتى» وعشرات غيرهما) ـ فإنه أصبح «بابا» البنوك بالحق الطبيعى.

... ولأنه أصبح «بابا» البنوك وأكبرها مركزًا فى نيويورك (العاصمة المالية للولايات المتحدة فى مقابل واشنطن عاصمتها السياسية) ـ فإنه أصبح «أمير» نيويورك بواقع الأمر.

وبحقائق القوة المترتبة على ملكية المصالح المالية العظمى (فى أغنى مجتمع عرفه العالم) ـ فإن العاصمة السياسية لم يكن لها أن تتصرف بمفردها فى القرار الأمريكى ولا كانت قادرة على ذلك أومستعدة حتى لمحاولته!

والنتيجة ـ مقبولة ومعقولة ولا تحتاج إلى نظرية تآمرية ـ هى أن «دافيد روكفلر» بموقعه أو موضعه على قمة تركيبة قوة اقتصادية ومالية هائلة له صوت مؤثر فى القرار السياسى الأمريكى ضمن أصوات أخرى بالطبع بحكم تعددية المجتمع الأمريكى وحيويته.

وعلى مائدة غداء مع «دافيد روكفلر» ـ يوم ١٨ أكتوبر ١٩٧٥ ـ فى إحدى قاعات الطعام المخصصة له فى الطابق الأربعين من مبنى بنك «تشيز مانهاتن» ـ سألته صراحة عن العلاقة بين المال والسياسة. وكان رده ببساطة «إنهما وجهان لعملة واحدة».

وقلت له: «إننى رأيت شخصك فى بعض أزماتنا وأزمات غيرنا الكبرى، وفى بعضها الآخر لمحت ظلك»، ثم عددت له بعض ما رأيته ولمحته فيه من مناسبات وظروف!

وكان رد «دافيد روكفلر» ، وبابتسامة هادئة، هو قوله:

«هل تسمح لى أن أقول لك ما هى القاعدة الذهبية فى عمل البنوك؟».

ثم أجاب عن سؤاله:

«الصمت» !

واستطرد:

«كان أول درس تعلمناه فى جو الأسرة أن أكبر قدر من النجاح يرتبط بأقل قدر من الكلام. كلما تكلمنا أكثر كلما كشفنا من مواقعنا رقعة أوسع. وكلما كشفنا المزيد من مواقعنا، كلما ضاقت أمامنا مساحة الحركة وحرية التصرف.

ميدان المال فيه كثير من ميدان الحرب خصوصًا بالنسبة للسرية والمفاجأة وسرعة الحركة بالفعل أو برد الفعل».

وقلت لـ «دافيد روكفلر» ما معناه إن ذلك «الجو» الذى يحيط به ـ وبغيره من أقرانه ـ يثير سحبًا كثيفة من الشكوك والريب تصل أحيانًا إلى درجة سوء الظن وحتى الكراهية ـ وكان رده مختصرًا: «إن الكلمات لا تقتل أحدًا».

وحين قلت له إن كلامه يذكرنى بمثل مأثور فى الأدب العربى يقول «إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب» ـ ارتفعت درجة حماسته ومد يده إلى ورقة وقلم وكتب ترجمة القول العربى المأثور قائلاً لى «إنه سوف يطلب من سكرتاريته أن يحفروه له على لوحة صغيرة من الفضة يضعها على مكتبه» !

□

ومع ذلك فإن «دافيد روكفلر» ليس على الدوام نسخة من صمت «أبو الهول». يتكلم أحيانًا ويتكلم كثيرًا لكن القول كله بحساب. يقول بقدر ما يريد وليس بقدر ما يطلب سامعه.

وفى ذلك اللقاء بيننا يوم ١٨ أكتوبر ١٩٧٥ سألنى بعد الغداء وأمامنا القهوة:

ـ «لماذا تعارض «السادات» ؟ إنك عارضته فى فك الاشتباك الأول مع إسرائيل ثم

عارضته في فك الاشتباك الثاني (كان اتفاق فك الاشتباك الثاني قد جرى توقيعه قبل لقائنا بأسابيع قليلة وكان ما دار حوله ما زال ماثلاً في الأذهان).

وقلت لـ «دافيد روكفلر» : «إنني أعرف أنك واحد من الذين شجعوه («السادات») على هذه السياسات التي ينتهجها وأخشى أنها ستؤدي بالمنطقة كلها إلى كارثة».

وانزاح قناع الصمت الذي يغطي ملامح «دافيد روكفلر» ويجمد تقاطيعها أحيانًا. وكانت مرة من مرات قلائل وجدته فيها متحمسًا ـ ولا أقول منفعلاً.

قال:

ـ «هل تتصور أنني أقنعته بسياسات معينة؟ أنا لم أفعل ذلك وهو ليس من اختصاصي؟

ما حدث كما يلي:

كنت في زيارة له مرة وراح يحدثني عن آماله في رخاء الشعب المصري، وجرنا الحديث إلى الدور الذي يمكن أن تقوم به الاستثمارات الأمريكية في تنمية مصر. وأوضحت له أن رأس المال الأمريكي لن يذهب إلى مصر في أجواء حرب. لأن رأس المال الأمريكي ـ وأي رأسمال آخر ـ لا يستطيع أن يعمل إلا في أجواء السلام.

اصنع لنا السلام ونحن نصنع لك الرخاء.

إن الرجل اقتنع، لم يقنعه كلامي فقط ولكن منطق الأمور نفسها أقنعه!».

وسكت «دافيد روكفلر» ولم أشأ أن أتركه يغرق في بحار الصمت مرة أخرى وهكذا سألته على الفور:

ـ «هل تستطيع أن تضمن له استثمارات أمريكية مؤثرة في مصر؟».

وتردد لحظة ثم تساءل وكأنه يفكر بصوت عال ويتحدث مع نفسه وليس معي:

ـ «استثمارات أمريكية في مصر؟ لا أظن!

رأس المال الأمريكي لن يذهب إليكم وهذا في مصلحتكم على أي حال.

لماذا؟

لأنكم ببساطة لا تستطيعون أن تتحملوا مطالب رأس المال الأمريكى فى هذه المرحلة.

دعنا نواجه الأمور بصراحة.

عندما يخرج رأس المال من بلاده ويرتحل فهو يفعل ذلك لأنه يطلب نسبة ربح لا يستطيع تحقيقها فى بلاده. نسبة الفائدة فى السوق الآن ما بين ١٥،١٦ فى المائة. هى كذلك فى أمريكا. فإذا خرج رأس المال خارج بلاده فلا بد أن يريد على الأقل ٣٠ أو ٣٥ فى المائة.

وعندما يكون خروج رأس المال إلى مناطق قلق وتوتر سياسى فلا بد أن تكون لمخاطرته فيها ثمن.

وإذا نظرنا الواقع كما هو فإنكم فى الشرق الأوسط عمومًا منطقة قلق وتوتر سياسى حتى إذا وقعتم مائة اتفاقية مع إسرائيل. ببساطة أنت وأنا متفقان على أن السلام لن يجىء بهذه التوقيعات على أوراق وإنما السلام عملية طويلة وتعوّد وممارسة وتبادل مصالح، تطبيع كامل وهذا يحتاج وقتًا.

وإذن فارتحال رأس مال أمريكى إلى مصر سوف يكون محكومًا بعنصرين فى نفس الوقت:

الارتحال نفسه أولاً.. وهذا له ثمن.

وجو القلق والتوتر.. وهذا أيضًا له ثمن.

ما هو معنى ذلك؟ معناه أن أى رأسمال أمريكى فى مصر لا بد أن يرسم حساباته - إذا ذهب إليها - على أساس نسبة ربح سنوى تتراوح ما بين ٥٠ و ٦٠ فى المائة - فهل تستطيع مصر فى ظروفها الراهنة أن تعطى أحدًا هذه النسبة من الربح؟ لا أظن. ثم إن كثيرين سوف يصرخون «الذئب.... الذئب» شاعرين بأن هناك استغلالاً أجنبيًا لبلادهم وهى مشاعر أستطيع أن أفهمها رغم أننى رأسمالى.

هناك بعد ذلك شيء آخر:

إن هذه النسبة من الربح لا يمكن أن تتحقق إلا فى مجالات محددة أولها مجال الموارد الطبيعية، بترول مثلاً أو نحاس أو ماس أو ما شابه ذلك، وأنتم فى مصر لا تملكون مثل هذه الموارد - أليس هذا صحيحًا؟».

لم أكن أريد أن أقاطع «دافيد روكفلر» - أما وقد توقف عن حديثه ووجه إلىّ سؤالاً فقد قلت له:

- «إذن فهل أستطيع أن أسألك بدورى عن الأساس الذى تصورته لرخاء الشعب المصرى وأنت تتحدث معه (مع «السادات») ؟».

ورد «دافيد روكفلر»:

- «تذكر أنه صديقى وأنا لا أخدعه. بالطبع كانت لدىّ صيغة ومازالت لدىّ هذه الصغية وأظنها صالحة.

معادلة من ثلاثة عناصر لا بد لنا أن نجمع بينها: رأسمال عربى + يد عاملة مصرية + تكنولوجيا أمريكية».

وقلت:

- «المشكلة أن هذه المعادلة قد تبدو صالحة نظريًا لكنها عند أول اختبار مع الحقيقة لا تستقيم عمليًا.

أولاً - إنك تتحدث عن رأسمال عربى كطرف من أطراف المعادلة. والطريق الذى تسير فيه الأمور الآن فى مصر سوف يؤدى بها إلى صلح منفرد مع إسرائيل، وإذا وصلت إلى هذه النقطة فإنها سوف تجد نفسها فى عزلة عن العالم العربى كله، وهكذا فإن رأس المال العربى لن يجىء. وإذا جاء فسوف يكون مجيئه على استحياء وبدوافع المغامرة وليس بضرورات الاستثمار.

وثانيًا - فإنك تتحدث عن «تكنولوجيا أمريكية» - وإذا كان رأس المال عربيًا وإذا كانت الأيدى العاملة مصرية وإذا كانت كل مساهمتكم هى التكنولوجيا - فى العلوم

أو فى الإدارة ـ إذن فلماذا نحصر أنفسنا فى نطاق التكنولوجيا الأمريكية التى قد تكون غالية الثمن علينا. لماذا نستبعد التكنولوجيا الألمانية أو الفرنسية أو اليابانية؟ لماذا الأمريكية فقط؟».

وفكر «دافيد روكفلر» فيما قلته ثوانى ثم سألنى:

ـ «هل تريد أن تقول لى إن بقية العالم العربى لن تتبع مصر فى التوقيع على معاهدة مع إسرائيل؟ أليست مصر هى زعيمة العالم العربى وقيادته؟».

وقلت:

ـ «إن مصر تقود العالم العربى بمقدار ما تعبر عنه، وتتزعمه بمقدار ما تمثل طموحاته. فإذا توقفت عن التعبير والتمثيل أصبحت مجرد واحدة من دول المنطقة.

ليس هناك قانون يعطى مصر الحق فى «رئاسة» العالم العربى.... ليست لها مثل هذه الولاية عليه.

هناك أسباب معينة إنسانية وحضارية وسياسية أعطت لمصر دورًا معينًا فى المنطقة فإذا توقفت عن أداء هذا الدور لم يعد لأى سلطة فيها إلا ما تستطيع فرضه داخل حدودها. لكنها لا تستطيع أن تفرضه على الباقين. وحتى هذا الذى تستطيع أى سلطة فى مصر أن تفرضه داخل حدودها مرهون بأجل ومعلق بوعد. فإذا لم يستطع القرار أن يفى بأجله أو بوعده سقط حتى فى مصر ذاتها مهما كان جبروت السلطة التى فرضته!».

وبدا كأن «دافيد روكفلر» استعاد بسرعة كل أقنعة الصمت:

راح يصب لنفسه فنجان قهوة جديدة ثم يرشف منه على مهل ثم قال:

ـ «ولكن ما ذكرته خطير....».

واستطرد:

ـ «... هل تحدثت فى هذا مع هنرى (يقصد «هنرى كيسنجر») ؟».

وقلت:

- «أكثر من مرة. من أول لحظة التقينا فيها فى فندق «هيلتون» فى القاهرة مساء يوم ١١ يوم نوفمبر١٩٧٣.

لقد ذهبت إلى الاجتماع به - كما تعرف - بناء على طلب منه وبناء على طلب من الرئيس «السادات» أيضًا وكنت وقتها مازلت قريبًا منه.

وحينما بدأت أتحدث معه (مع «كيسنجر») عن القضية العربية عامة والصراع العربى الإسرائيلى بصفة خاصة فوجئت به يطلب منى أن يقتصر حديثنا على مصر وحدها.

واعترضت عليه ليلتها وقلت له بالحرف تقريبًا «إننى لا أستطيع أن أقصر حديثى على مصر وحدها. ولو فعلت فسوف أجد نفسى طالبًا وليس مطلوبًا.

بمعنى أننى إذا تحدثت معبرًا عن مصر داخل حدودها فقط - إذن فأنا أتحدث عن مشكلة. بلد يزيد تعداده عن طاقة موارده. ولا يمارس وجودًا مؤثرًا خارج حدوده. ولا يمسك بمفتاح من مفاتيح الصراع الكبرى.

لكنى إذا تحدثت معبرًا عن عالم عربى بأسره - إذن فأنا أتحدث من أرض صلبة. باسم منطقة هى القلب الإستراتيجى فى العالم ممسكًا فى يدى بمفاتيح كبرى منها مثلاً الموقع الإستراتيجى وممراته البحرية والجوية.. والوزن الحضارى لأمة بأكملها إلى جانب مواردها الإنسانية والاقتصادية والعسكرية، منها فى النهاية مثلاً البترول وفوائض أمواله».

وحاول «كيسنجر» ليلتها أن يعاند قائلاً إنه يفضل الحديث عن المرئى والمحسوس، وليس عن التاريخ والمجرد.

وواجته ليلتها بخشيتى من أن يكون تفكيره وتخطيطه متجهين إلى عقد صلح منفرد بين مصر وإسرائيل، ولم يجهد نفسه طويلاً فى إخفاء أن ذلك بالفعل هدفه وإن كان حاول تغليفه بصياغات بارعة.

ووجدت من واجبى أن أقول له ليلتها «إن ذلك الطريق لن يؤدى بالمنطقة إلى سلام وإنما سوف يؤدى بها إلى كارثة محققة».

وذهبت فى صباح اليوم التالى إلى الرئيس « السادات» وكان يقيم فى قصر الطاهرة وقابلته فى غرفة نومه وشرحت له كل مخاوفى.

لكن ضغوط «هنرى كيسنجر» كانت أقوى منا جميعًا».

ورد «دافيد روكفلر» بقوله:

- «ولكن لا بد أن «هنرى» يعرف ما يفعله. إنه يدرس قضاياه جيدًا ثم إنه واسع العلم شديد الذكاء.... وقد استطاع الحصول على ثقة «السادات» بغير تحفظات. نحن أيضًا نثق فيه لكننا فى البنوك لا نعرف الثقاة بغير تحفظات».

وقلت بسرعة «ولا السياسة تعرف - أو يجب أن تعرف - هذا النوع من الثقة العمياء».

وقال «دافيد روكفلر» : «سوف أتحدث مع «هنرى» فى آرائك وقد ترى مناسبًا أن نجتمع نحن الثلاثة مرة أخرى على غداء أسمعكما فيه تتحاوران أمامى حول ما تقوله الآن».

وكان «هنرى كيسنجر» وقتها وزيرًا للخارجية ومستشارًا للأمن القومى فى نفس الوقت مع الرئيس الأمريكى «جيرالد فورد» وهو نفس الموقع الخطير الذى وضعه فيه «ريتشارد نيكسون» الذى كانت فضيحة «ووترجيت» قد أطاحت به.

وكان نفوذ «كيسنجر» أيامها فى السماء.. ففى الشهور الأخيرة من رئاسة «نيكسون» كانت فضيحة «ووترجيت» تحاصره وتحدد قدرته بما جعل «هنرى كسينجر» يملك فعلاً سلطات الرئاسة كلها فيما يتعلق بالسياسة الخارجية.

وقد قالها لى «هنرى كيسنجر» بنفسه فى القاهرة عندما التقينا. وقالها لغيرى وبينهم الرئيس «السادات». قال لنا صراحة: «فيما يتعلق بالسياسة الخارجية فإن عليكم أن تتعاملوا معى وكأننى رئيس الولايات المتحدة» !

(وأتذكر أننى اعترضت عليه وقتها وقلت له «إننى لا أستطيع التسليم بهذه المقولة وإنه من الخطر أن يتصور أى فرد منا أنه فوق كل القوى والمؤسسات مهما كانت ملابسات الظروف!).

وعندما حل «جيرالد فورد» محل «ريتشارد نيكسون» فى البيت الأبيض زاد نفوذ «هنرى كيسنجر» ولم يقلّ لأن الرئيس الجديد وإن لم يكن محاصرًا بالفضيحة كان عاجزًا بالجهل حتى عن النطق السليم بالقرار فى ميدان السياسة الخارجية!

كان نفوذ «هنرى كيسنجر» فى السماء لكنه ظل كما كان قبلها وكما ظل بعدها موظفًا لدى أسرة «روكفلر». كان قبل «نيكسون» واحدًا من مساعدى «نيلسون روكفلر» الشقيق الأكبر لـ «دافيد روكفلر» - وكان «نيلسون» قد ترك مجال قوة المال المضمرة إلى مجال أضواء السياسة السافرة ورشح نفسه للرئاسة. ثم عاد «هنرى كيسنجر» ، بعد فترة السلطة فى البيت الأبيض وفى وزارة الخارجية وفى الاثنين معًا لبعض الوقت، ليعمل رئيسًا لمجموعة مستشارى بنك «تشيز مانهاتن» أى أسرة «روكفلر» !

□

لا بد لنا هنا من وقفة.

فلو أننى واصلت الحديث بنفس السياق لوجدتنى - على الرغم منى - أعزز انطباعًا حاولت نفيه وأقصد به الانطباع بأن «دافيد روكفلر» هو الذى يحكم القرار الأمريكى. وأنا لا أقصد ذلك ثم إنه غير حقيقى كما أشرت قبلاً.

لقد حددت ما أقصده تمامًا فيما سبق حين قلت:

«إن «دافيد روكفلر» بموقعه أو موضعه على قمة تركيبة اقتصادية ومالية هائلة، له صوت مؤثر فى القرار الأمريكى ضمن أصوات أخرى بالطبع بحكم تعددية القوى فى المجتمع الأمريكى».

هذا بالضبط ما قصدته وهو يقودنا إلى مجموعة أسئلة:

● من هو «داقيد روكفلر» بالضبط؟

● ما هو موقعه أو موضعه؟

● ومن أى تركيبة لقوة المصالح الاقتصادية والمالية المؤثرة؟

● وما هى مجالات هذا التأثير؟ وآفاقه؟ وحدوده؟

● وكيف يقع هذا التأثير فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية كما تعرض نفسها علينا كل يوم؟

وهذه كلها أسئلة لا بد أن نجيب عنها - أو نحاول - مادام واقع التاريخ المعاصر قد حكم علينا - وعلى غيرنا - بالتعامل مع القوة الأمريكية. وفى حالتنا نحن بالذات تبدو الحاجة إلى الإجابة أكثر ضرورة وإلحاحًا، فنحن لا نتعامل فقط مع الولايات المتحدة الأمريكية ولكننا أكثر من ذلك لا نعرف - وربما لا نريد - أن نتعامل مع غيرها فى سنوات الجفاف والقحط التى نعيشها الآن.... جفاف الفكر وقحط الخيال!

ونحن نتعلم لغة غيرنا لكى نستطيع أن نتكلم معه. لكننا إذا أردنا أن نفهمه تعين علينا أن نغوص إلى أعمق من مجرد تعلم لغته.... يصبح لازمًا فى هذه الحالة أن نحاول التعرف على تجربته.

لغة الآخرين تكفى للكلام معهم، لكن تجربتهم لا غنى عنها لفهم تصرفاتهم ومحركاتهم إليها لأن تجربة أى مجتمع إنسانى هى ذخيرته التى يستند إليها فى كل أحواله، وهى ضابط أفعاله وردود أفعاله.

. . . .

. . . .

[لا أستطيع فى نطاق هذا الحديث أن أتعرض للتجربة الأمريكية - كمدخل إلى فهم تركيبة القوة الأمريكية وقرارها وأصحابه.... إلى آخره - إلا فى أضيق الحدود وبالقدر الكافى لإعطاء لمحات سريعة قد تكشف الشكل العام - مجرد الشكل العام - لكيان هائل ومعقد ومشحون:

● وعلى ذلك فلنقل إن التجربة الأمريكية عمرها خمسة قرون. من القرن السادس

عشر حتى القرن العشرين (وهذا صحيح فإن «كريستوفر كولومبس» ومن جاءوا بعده من الملاحين العظام وصلوا إلى نقط مختلفة من شواطئ الدنيا الجديدة فى الجسر الزمنى الذى يربط نهايات القرن الخامس عشر ببدايات القرن السادس عشر).

● ولنقل إن القرن السادس عشر كان قرن الاستكشاف والهجرة من العالم القديم (أوروبا) إلى العالم الجديد (أمريكا) فما أن انفتحت الأبواب بعد الاستكشاف حتى هرع الذين ضاق بهم العالم القديم عبر البحر إلى الأرض الموعودة. وكانوا أخلاطًا غريبة من البشر فالذين يركبون البحر مهاجرين فى تلك الأيام كانوا هم الذين لم يجدوا لأنفسهم ملاذًا آخر: المضطهدين دينيًا أو عنصريًا، والثوار والحالمين، الهاربين والمنفيين والمغامرين والجائعين، والباحثين عن فرصة ضاعت منهم حيث كانوا وظنوا أنهم يلحقون بها فى عالم جديد.

● ولنقل إن القرن السابع عشر كان قرن الترويض والمغامرة، فقد راح المهاجرون إلى العالم الجديد يحاولون السيطرة على الطبيعة فيه وعلى الناس الذين عاشوا وسطها قبلهم.

قطعوا الغابات الكثيفة وزرعوا الحقول إلى مدى البصر.

وبنوا القرى والمدن والكنائس. وفتحوا الطرق والمصانع والبنوك.

وكان الشاطئ الشرقى لأمريكا - وهو شاطئ الأطلنطى المواجه لأوروبا من حيث جاءت موجات الهجرة ومازالت تجيء - هو نقطة الارتكاز فى كل قرن الترويض والمغامرة، ومنه كان الانطلاق إلى القلب فى اتجاه الغرب باستمرار فقد كان الغرب هو الأفق المفتوح والزحف فى اتجاهه مستمر.

● ولنقل إن القرن الثامن عشر كان قرن تأسيس دولة. فى بدايته كانت الإمكانيات الطبيعية الهائلة قد أفضت بكل أسرارها فإذا هى أغنى القارات بالظاهر على سطحها والكامن تحت السطح. أرض شاسعة ومياه غزيرة وثروة حيوانية بغير حدود. ومعادن. وقد أحدث تفاعل العناصر بين أنواع وأشكال وألوان المهاجرين

مجتمعات فوارة بالحيوية. ثم إنه أنتج شخصية مختلفة لا تحمل مواريث أو أعباء تاريخية أو أسطورية، فالذين جاءوا إلى العالم الجديد كان عليهم جميعًا أن يبدءوا من جديد. وكان معيارهم واحدًا - وهو الذى صاغ فيما بعد فكرهم - وهو معيار النتائج. بمعنى أن المفاضلة بين الخيارات لا تجرى إلا بمعيار فائدتها لهم، وهذا هو المنطق الطبيعى فى كل مغامرة مع المجهول.

ولايمكن فهم عملية إبادة الهنود الحمر على سبيل المثال بمعيار الدين والأخلاق ولكن يمكن فهمها و- بصرف النظر عن أحكام القيمة - من تصور المهاجرين الجدد أنهم أقدر وأولى بهذه الأرض من أصحابها الأصليين الذين لايعرفون ماذا يفعلون بها.

ولأن المهاجرين الجدد أدركوا أنهم لا يستطيعون الاعتماد على حماية أسيادهم القدامى من ملوك وأمراء وساسة القارة القديمة، الذين لم يكن لهم همّ غير جباية الضرائب والقهر فى دول الظلم التى دفعت المهاجرين إلى ركوب البحر - فإن كل مهاجر جرى لمطاردة فرصة سنحت له - وكان عليه أن يحمل معه بندقيته التى أصبحت الآن مصدرًا واحدًا ووحيدًا لكل قانون.

وبمعيار النتائج وحدها وبقانون الرصاص وحده نشأ مجتمع جديد - أو مجتمعات جديدة - انطلقت بغير حدود فى إعصار من العنف لا تخفف من وطأته وساوس من أى نوع ولا تحكمه إلا نوازع الامتلاك والتوسع.

وكان الشاطئ الشرقى للعالم الجديد - على الأطلنطى - مازال نقطة الارتكاز، وفيه بالتراكم والتفاعل والحركة نشأ هيكل مجتمع تجارى وصناعى حى وقادر، برزت فى وسطه جماعات رأت أن عالمها الجديد يستحق أن تكون له دولته المستقلة عن الإمبراطوريات الاستعمارية فى أوروبا. ثم إن العناصر المفكرة والمثقفة فى هذا المجتمع التجارى والصناعى بدأت تعطيه فكرًا خاصًا ينسجم مع ظروفه وقيمه.

وهكذا شهد الربع الأخير من القرن الثامن عشر نقط تحول ثلاث كبرى:

الحرب ضد الاستعمار القديم. ثم إعلان الاستقلال. ثم الدستور الأمريكى.

وكانت تلك كلها فى ذلك القرن أهم معارك الحرية والمساواة بين الناس وحقهم الذى لا يناقش فى السعى إلى ما يوفر لهم سعادتهم بصرف النظر عن كل أحكام «القيمة»!

ولنقل إن القرن التاسع عشر كان قرن بناء وتركيز وتأكيد أوضاع الدولة الجديدة.

وقد شهد علامات تشير إلى رؤى مستقبلية.

شهد مبدأ «مونرو» وبمقتضاه كانت الدولة الأمريكية الجديدة تقول للعالم الأوروبى القديم إن المحيط فاصل بينهما وإن خط الوسط على أمواجه حد لا ينبغى تجاوزه إلا بحساب لأن «ناحيتهم» من المحيط لاتريد أن تقحم نفسها فى صراعات أوروبا وهى لا تقبل أن تقتحم عليها أوروبا شاطئها الجديد. وكان هذا هو مضمون وصية «واشنطن» بطل حرب الاستقلال فى آخر خطاب له.

ثم جاءت الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب ولم تكن فى حقيقة أمرها حرب تحرير العبيد وإنما كانت حرب توحيد الدولة الجديدة وترسيخ إمكانات مواردها وقوتها وتوسعها.

وكان التوسع نحو الغرب على أشده وكان الآن يجرى - بالبخار - على خطوط السكك الحديدية. ثم أعطاه اكتشاف البترول طاقة جبارة. وعندما بلغ التوسع نحو الغرب مداه وجد العالم الجديد نفسه يطل على المحيط الآخر وهو المحيط الهادى.

وكانت جماعات الشاطئ الشرقى مازالت هى القوة الموجهة والمحركة لبناء هذا العالم الجديد واستقلاله وتوحيد سيادته فيما أصبح الولايات المتحدة الأمريكية. وفى نفس الوقت الاحتفاظ به بعيدًا عن أوروبا ومشاكل عالمها القديم ونزاعاته وحروبه وثاراته.

● ولنقل إن القرن العشرين أصبح قرن الإمبراطورية. فقد بدأت الولايات المتحدة بما صنعته وحققته تصبح قوة متميزة وممتازة. إذ أقامت قوة اقتصادية متينة

البناء شامخة الصروح. وتكونت فيها ثروات بلغت حدودًا خرافية. وبرزت أنماط من السلوك تداخلت فيها الحرية والمساواة وطلب السعادة مع التعصب ونزاعات القوة والعنف والسيطرة.

وراحت الولايات المتحدة تحاول بسط نفوذها جنوبًا إلى أمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية، ثم راحت تقفز عبر المحيط الهادى إلى شواطئ آسيا الشرقية، ثم وجدت نفسها فى مصالح متشابكة مع العالم القديم.

ولم تكن تعرف بالضبط ماذا تريد، ولكنها كانت تتحسس طريقها إلى إرث الإمبراطوريات القديمة، وتلك دورة التاريخ الطبيعية إذا تذكرنا فكر «ابن خلدون».

كانت جماعات الشرق مازالت هى الموجهة والحاكمة لسياسات الدولة الجديدة، وكانت هذه الجماعات صفوة من أصحاب المصانع والمزارع والبنوك والشركات الكبرى الباحثة عن أسواق خارج حدودها.

وبعد تردد طال ثلاث سنوات وجدت نفسها طرفًا فى الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء خصوصًا بريطانيا العظمى التى كانت روابط اللغة تصنع بينها وبين الولايات المتحدة علاقة ذات طابع خاص ومتميز.

لكنها بعد انتهاء الحرب بانتصار الحلفاء لم تستطع أن تقنع نفسها بالدخول معهم فى تنظيم عالم السلام الذى تمثل فى قيام عصبة الأمم. ربما لأن الإمبراطوريات القديمة كانت ماتزال تحتفظ ببعض عوامل القوة التى لم تمكن العملاق الأمريكى من أن ينتزع لنفسه ما أراد. ولم يجد الطريق أمامه مفتوحًا فآثر أن يعود عبر الأطلنطى كما جاء.

ورجع المحاربون الأمريكيون من أوروبا إلى وطنهم الأمريكى يحملون خليطًا من الأفكار والمشاعر ويواجهون أوضاعًا فيها الكثير من ملامح أزمة اجتماعية واقتصادية لأن السوق الأمريكى اكتشف أنه بلغ حدًا من القوة لا يستطيع معه إلا أن يتوسع خارج حدوده أو يضمر داخل هذه الحدود.

وللحظة فى الثلاثينيات من القرن العشرين بدا كما لو أن شبح الشيوعية يطوف حول قبة الكابيتول فى واشنطن.

وحاول «روزفلت» أن يدور حول المأزق الأمريكى بسياسة «الصفقة الجديدة»....

ثم تفجر الصراع الكبير مع النازية.

وعادت الولايات المتحدة مرة أخرى ـ بعد تفكير وتدبير ـ تحارب فى صفوف الحلفاء وتتقدم هذه الصفوف بمواردها الهائلة. عادت مصممة على ألاّ ترجع مرة أخرى لتنكمش وراء شواطئها فهذه الشواطئ لم تعد كافية للوفاء بمطالبها.

لقد ذهبت إلى أوروبا مرة أخرى لتشارك فى هزيمة المحور. ثم لتأخذ لنفسها حق إرث هذه الإمبراطوريات العجوزة المتهالكة التى لم تعد تقوى على العصر وأدواته وطموحاته التى تفتحت الآفاق أمامها.

هذه المرة كانت أمريكا تقدر وكان الآخرون قد استنفذوا ما تبقى لديهم من عوامل القوة!

وكانت مؤسسة الشرق ما زالت هى التى توجه وتحكم.].

. . . .

. . . .

□

فى هذا كله أين كان «دافيد روكفلر»؟

فى هذا كله كانت قصته ـ مثل كثيرين غيره ـ هى قصة ظهور ونمو القوة الأمريكية.

كان جده «جون روكفلر» مولودًا لمهاجر ألمانى تزوج من مهاجرة إسكتلندية. وكان هذا المهاجر الألمانى «ويليام روكفلر» نوعًا غريبًا من المهاجرين ادعى فى فترة

من فترات حياته أنه طبيب وراح يعالج مرضى السرطان بالشعوذة والدجل؛ ثم دخل السجن متهمًا باغتصاب شابة صغيرة السن. وكانت زوجته المهاجرة الإسكتلندية هى التى حفظت البيت ورعت الأولاد، ووجدت وظيفة لابنها «جون روكفلر» ككاتب حسابات فى إحدى الشركات. وكلفته شركته يومًا أن يدرس الاحتمالات الاقتصادية لمساحة شاسعة من الأرض فى ولاية بنسلفانيا حصلت عليها الشركة بالتوسع على حساب إحدى قبائل الهنود الحمر. وذهب «جون» وإذا هو يكتشف فى الأرض بترولاً ثم إذا هو يجعل الاكتشاف لنفسه بوضع اليد ثم يجد نفسه صاحب بئر بترول، ثم حقل بترول، ثم مجموعة حقول بترول، وأصبح مليونيرًا فى سنوات معدودة.

وراح يتوسع. وساعده على التوسع امتداد شبكات السكك الحديدية. ثم إن «هنرى فورد» كان قد صنع محرك السيارة.

وراح «روكفلر» يتوسع أكثر وتوصل إلى محصلة خبرة كانت فيما بعد أساس علم الإدارة الحديث ومؤداها أنه فى حاجة إلى مساعدين كثيرين أكفاء وموثوق بهم. ثم كانت القاعدة التى استرشد بها هى أن «الإدارة لا علاقة لها بالملكية». وإن المالك حين تتسع مصالحه يحتاج إلى مديرين من أعلى طراز. ثم إن الملكية قضية، والإدارة قضية أخرى، ولا علاقة للاثنتين ببعضهما.

وقفز «جون روكفلر» بمصالحه من الشمال إلى الجنوب، من الولايات المتحدة إلى أمريكا اللاتينية، فإذا هو وراء مواردها المعدنية يحصل فيها على امتيازات واحتكارات ساعدته عليه «مهارته» فى رشوة أعضاء الكونجرس ليصدروا له ما يشاء من تشريعات. ثم استطاع تعزيز ذلك بقسوته الشديدة فى استغلال امتيازاته واحتكاراته الخارجية بأقصى قدر من العنف ضد السكان المحليين.

وفى هذا كله كان «جون روكفلر» يدافع عن نفسه ضد الذين هاجموا أساليبه فى الحصول على الثروة بقول مأثور عنه وهو «إن رصيدى فى البنك هو الشهادة لى بأن الله راض عما أفعله»!

وفى بداية القرن كانت ثروة «جون روكفلر» تقدر بألف مليون دولار.

وإذا حسبنا هذا المبلغ بقيمة النقود الآن فإنه يصبح مائة ألف مليون دولار على الأقل!

كان «جون روكفلر» واضحًا فيما يريد ومحددًا. «المال والنفوذ الذى يوفره المال لأصحابه» وهذا هو كل شىء.

ولعل «جون روكفلر» أراد أن يخفف عن ضميره فأنشأ مؤسسة خيرية للتعليم، وأسهم فى إنشاء عدد من الجامعات تبرع لها بمئات الملايين من الدولارات. وعلى أية حال فإن آلة صنع الثروة لم تكن تكف عن الدوران.

ولم يكن «جون روكفلر» وحده فارس هذا المضمار، وإنما كان معه كثيرون. كلهم اغتنوا وكلهم جمعوا ثروات طائلة واكتسبوا نفوذًا واسعًا وراء هذه الثروات الطائلة وكلهم تركزوا فى الشركات والمصانع والبنوك.

أسماء مشهورة حتى الآن إلى جانب اسم «روكفلر». «مورجان». «ميللون». «فاندربلت». «هاركنس». «كارنيجى». «وينثروب».... وغيرهم وغيرهم.

وكانت لهؤلاء جميعًا جيوش من المديرين، والمحامين، والمستشارين، والمشرعين، والدعاة.

وهكذا تحولت جماعات الشرق الموجهة والحاكمة إلى شبه مؤسسة، ثم إلى مؤسسة كاملة تتفاعل مع من حولها وتبلوره ـ وأحيانًا بمعارضتها والتصدى له صارت تركيبًا اجتماعيًا ومن ثم سياسيًا، وراح دورها يزداد ظهورًا وبروزًا فى الولايات المتحدة.

أصبحت هى ما يطلق عليه اسم «المؤسسة الشرقية» Easrern Establishment.

ولم تكن هذه المؤسسة ظاهرة مباشرة فى سلطة الحكم فى واشنطن، لكنها كانت موجودة، وكان نفوذها محسوسًا سواء بما تملكه مباشرة من المصالح الكبرى أو بما تشتريه فى سوق السياسة من وسائل فى الكونجرس أو حتى فى البيت الأبيض ذاته!

ولقد كان كثيرون من هذه «المؤسسة الشرقية» في أتون الحرب العالمية الثانية. وكانت مشاركتهم فيها بالتوجيه الإستراتيجي وما يتصل به من رسم الخطط لعالم ما بعد الحرب وفي الإعداد لانتقال مركز الثقل فيه من أوروبا إلى أمريكا.

وعلى سبيل المثال كان «جون ماكلوى» - أحد المحامين البارزين ورئيس مجلس إدارة بنك «تشيز مانهاتن» - أحد بنوك أسرة «روكفلر» - هو الذى تولى مسئولية إعادة ترتيب أوضاع ألمانيا بعد هزيمة النازية.

وعلى سبيل المثال كان «هارولد ايكس» - أحد المحامين عن شركة «ستاندارد أويل» - إحدى شركات أسرة «روكفلر» - هو الذى وضع سياسة أمريكا البترولية كلها بعد الحرب.

وعلى سبيل المثال كان «مورجنتاو» - وهو أستاذ اقتصاد ومالية عامة - هو الذى وضع النظام النقدى الجديد لعالم ما بعد الحرب فى «دومبارتون أوكس» وفى «بريتون وودز» (بما فى ذلك فكرة صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وبنك التسويات الدولى).

والأمثلة بغير نهاية تدل جميعها على أن «المؤسسة الشرقية» فى «الولايات المتحدة» كانت هى التى تشير وتوجه ليس فقط على مستوى الولايات المتحدة، ولكن على مستوى العالم الذى تصدت الولايات المتحدة لأكبر محاولة إمبراطورية فى التاريخ للسيطرة على مقاديره.

(وأريد هنا أن أكرر مرة أخرى أن هذه الصورة التى عرضتها لا تعنى أنها العودة إلى نظرية «المؤامرة فى التاريخ». وإنها الآن عصابة من الرأسماليين تقرر. وإنما ما أقوله وألح عليه هو أنها مجموعات مصالح واسعة ومتداخلة. وهى تتحرك مع التطورات بقوة، وهى فى حركتها تخلق نوعًا من وحدة المصلحة والفكر والاتجاه تغنى جميعًا عن المؤامرة ثم إنها تخلق من حولها تيارًا من القبول والاقتناع والحماسة ينشر أفكارًا وأحلامًا وإرادة فعل متوثبة وغلابة!).

□

ولقد كانت «المؤسسة الشرقية» بتركيبها المتنوع وبالطاقة المضاعفة المتولدة منه وبكل من فيها من الأقطاب، وبينهم «دافيد روكفلر» - هى التى استطاعت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة أن تتوصل إلى استنتاجات ثلاثة رئيسية ترتبت على التوصل إليها تغييرات بعيدة المدى فى حياة عالمنا المعاصر وكما نراه حولنا الآن.

أولها: الاستنتاج بأن الحرب العالمية الثانية هى آخر الحروب على مستوى العالم وذلك بسبب اكتشاف أسرار الطاقة النووية وإمكانية صنع القنبلة الذرية التى لم تعد حكراً على الولايات المتحدة. والواقع أن الاحتكار الأمريكى لهذه القنبلة لم يدم غير سنة واحدة تقريباً ثم أصبحت القنبلة هنا وهناك.

وفى حين أن بعض القادة اللامعين من الحرب العالمية الثانية وفى مقدمتهم الجنرال «دوايت أيزنهاور» - الذى قاد عملية غزو أوروبا - راحوا يتصورون أن القنبلة الجديدة ما هى إلا مدفعية من نوع أثقل - فإن أقطاب «المؤسسة الشرقية» أدركوا على الفور أن «القنبلة» تغيير كيفى فى قصة الحرب كلها وأنه بمثابة نقطة الختام فى تاريخ العسكرية كما عرفته البشرية منذ نشأتها الأولى وصراعاتها المبكرة.

وبالتالى فإن الحرب - وهى من طبائع الصراع بين المجتمعات ذات المصالح المتناقضة - لا بد لها من ممارسة جديدة بغير قوة السلاح!

وثانيها: أن الصراع العالمى الجديد مع القوة المنافسة الأخرى للولايات المتحدة فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية - وهى الاتحاد السوفييتى - هو فى جوهر أمره صراع عقائدى سوف يحسمه النموذج الناجح وليس السلاح الصاعق.

أى أن الصراع فى حقيقته هو بين الرأسمالية والشيوعية، ولم يعد - كما كانت الصراعات من قبل - حروباً بين دول: إنجلترا وفرنسا أيام «نابليون» ، فرنسا وألمانيا أيام «بسمارك» ، إنجلترا وألمانيا أيام «هتلر» مثلاً. الصراع الآن بين نظامين اجتماعيين وسوف ينتصر فيه من يثبت أنه حقق نجاحاً أكبر - أى رفاهية يحسها الناس أكثر.

لم يعد صراعًا فى ميادين القتال وساحاتها وإنما أصبح صراعًا فى بيوت الناس وعقولهم.

وثالثها: أن الفكر لا بد له أن يلعب دوره فى هذا الصراع. وإذا كان الفكر أداة المراجعة والنقد والتغيير فى مجتمعه وهو بالتالى عنصر القلق الكامن فى قلبه - فإن هذا الحال يجب أن يتبدل. ولابد أن يصبح المفكر جزءًا من «المؤسسة» وليس خارجها وليس أيضًا على هامشها. وإذا كان مديروا المصانع والشركات والبنوك يحصلون على أكبر الدخول فإن المفكرين، وهم مديرو العقول، يجب أن يكونوا فى «الداخل» وأن تكون لهم دخول غيرهم من المديرين وألا يتكرر ما حدث من قبل بعد الحرب العالمية الأولى حينما اتجه الفكر الأوروبى والأمريكى إلى اليسار وأصبح عنصر قلق وتوتر فى قلب مجتمعاته.... هذه المرة لا ينبغى السماح للخطأ القديم أن يكرر نفسه خصوصًا وأن الصراع الجديد كله أفكار وموازينه مذاهب وعقائد.

والذى يستوجب الإعجاب حقًا هو أن «المؤسسة الشرقية» فى الولايات المتحدة لم تتوصل إلى هذه الاستنتاجات الصحيحة فحسب وإنما توصلت أيضًا إلى الربط بينها جميعًا وإلى دمج نتائجها فى خطة عمل كان حظها هى الأخرى من النجاح بعيدًا وواسعًا.

ولا بد من الإشارة إلى أن خطة العمل هذه لم يجر التوصل إليها بالمصادفات أو بالاختراع - أو بالمؤامرة للسيطرة على العالم! - وإنما جرى التوصل إليها بحكم حقائق الواقع التاريخى وبدرجة عالية من التنبه واليقظة للتطورات الجارية وظروفها السانحة وبالمبادرة السريعة بالفعل ورد الفعل خطوة بعد خطوة.

● وكانت الخطوة الأولى هى محاولة الولايات المتحدة - بينما الحرب العالمية مازالت دائرة - للحصول على امتيازات فى بترول الشرق الأوسط وتسهيلات لعبور أجوائه - رغم أن بريطانيا وفرنسا كانتا هما الإمبراطوريتين المسيطرتين عليه أيامها. ولقد أصيب «ونستون تشرشل» - رئيس وزراء بريطانيا زمن الحرب - بالفزع لأن هذه الطلبات الأمريكية من امتيازات بترول فى الشرق الأوسط

وتسـهيلات عبور جوى - جرت من وراء ظهر لندن وباريس ومباشـرة مع الأطراف المعنيـة بالأمـر مـحليًا، وكـتب إلى صـديقـه «فـرانكلين روزفلت» - رئيس الولايات المتـحـدة زمن الحـرب - يقـول له صـراحـة «إن هذه الطلبات من وراء ظهـرنا أثارت مخاوف لدى بعض وزراء حكومتى» .

وآثر «روزفلت» ألاّ يرد ربما لأنه كـان يعـرف أن المجـهـود الرئيـسـى فى كـسب الحـرب ضـد «هتلر» هو المجـهـود الأمريكى وأن «تشـرشـل» ليس فى يده أكـثر من أن يشكو.

● وكـانت الخطوة الثانية - وهـى فى أعقاب الحـرب مـباشـرة - هى أن «المؤسسة الشـرقيـة» وجدت أوروبا الغـربيـة المحـررة فى حـالة يرثى لهـا من الخـراب والدمار الأمـر الذى يفتح أبوابها للشـيوعية . وتحـرك الرئيس الأمـريكى «ترومان» - بمشـورة وزارة الخـارجية الأمريكية التى كان يسـير أمورها «دين آتشـيسـون» - وهو محـامى شـركات من واشنطن - إلى تقديم مسـاعدات وقروض لأوروبا تحت اسم «مشـروع مارشال» - وزير الخـارجية أيامها - ليضمن بذلك عدة أمور . بينها أن يصـد الشيوعية عن أوروبا الغربية، وبينها أن يعيد بناء أوروبا بجهد أمريكى لا ينسـى فضله، وبينها أن يخلق نوعًا من وحدة المصلحة والأمن على جانبى الأطلنطى .

● ثم جـاءت الخطوة الثـالثة والحـاسـمة فى اليونـان . كـانت اليونـان طبقًـا لتقسـيم «يالطا» الشـهير من اختـصـاص بريطانيا، واكتشـف السـفير البريطانى فى أثينا اللورد «انفـرسـال» أن اليـونـان على وشك أن تقع فى أيدى الشـيـوعـيـين إذا لم تحـصـل حكومتهـا على قدر كاف من المسـاعدات، وكتب بذلك إلى رئيس الوزراء البريطانى «آتلى» . ولـم يكن لدى بـريطانيـا مـا تعطيـه لليـونـان . وهكذا كـتب «آتلى» إلى الرئيس الأمريكى «ترومان» يرجوه أن تحل الولايات المتحدة محل بريطانيا فى المسئولية عن اليونان .

وأشـار «آتشيسـون» - وكـان قد أصبح وزيرًا للخـارجية الأمريكيـة - بالاسـتجابة على الفور وأعلن ما سمى بمبدأ «ترومان» وبمقتضـاه حصـلت اليونان، وتركيا أيضًا،

على قدر كبير من المساعدات الأمريكية لمواجهة الشيوعية. وكان مبدأ «ترومان» يعطى هذا الحق نفسه لأى دولة تجد نفسها معرضة للخطر الأحمر!

كانت الولايات المتحدة تتحين الفرصة للسيطرة على العالم، الغرب فيه على الأقل.

وجاءتها الفرصة تسعى وأمسكت بها فى الدقيقة والثانية.

وكان تعليق «دين آتشيسون» لاذعًا وصحيحًا «إن بريطانيا ضيعت إمبراطورية ولم تستطع العثور بعد على دور»!

ثم أضاف «إن أوروبا لم تستطع أن تصنع سعادتها وجاءتنا زاحفة ترجونا أن نفرض عليها سعادتنا»!

فى الخلاصة لم تعد أوروبا قادرة على حمل مسئولية «الدور الإمبراطورى» وراح هذا الدور يبحث عن «إمبراطور» جديد يحمل صولجان القوة!

□

وكانت «المؤسسة الشرقية» فى الولايات المتحدة جاهزة للدور الإمبراطورى بقوتها المتعاطفة فى كل المجالات، وقد فكرت فى الدور واقتربت منه وتوصلت بشأنه إلى استنتاجات صحيحة: عن استحالة الحرب النووية. وعن الطبيعة العقائدية للصراع بينها وبين الشيوعية. وعن دور الفكر فى الحرب بدون سلاح!

ولم تكن مؤامرة - مازلت ألح - وإنما إمبراطورية جديدة تبزغ شمسها فى مناخ عالمى مختلف.

دور مطروح، والمؤهل له يقوم بأعبائه وله مغانمه. وهو يختار وسائله ضمن مجموعة قيمة. ومجموعة قيمة صنعتها تجربته بقانونها الوحيد وهو قانون النجاح وليس قوانين الأخلاق أو الدين أو العرف أو أى مصدر آخر من مصادر القانون.

وفى البداية - كما يقول «الإنجيل» - كانت الكلمة - الفكرة.

وهكذا تحولت المؤسسة Foundation الخيرية للتعليم التى أقامها «جون روكفلر» الجد إلى مؤسسة أوسع وأشمل. أصبحت مؤسسة «روكفلر» كما نعرفها الآن.

. . . .

. . . .

لا بد لنا أن نفرق بين وصف المؤسسة بالمعنى الاجتماعى والسياسى Establishment وبين وصف المؤسسة بالمعنى التنظيمى والإدارى Foundation - فنحن نستعمل وصف مؤسسة بالمعنى الأول فنقول «المؤسسة الحاكمة» أو «المؤسسة العسكرية» مثلاً، لكننا فى اللغة العربية نستعمل نفس الوصف فنقول مؤسسة «روكفلر» أو «فورد» أو غيرهما. ومن سوء الحظ أن جهود الاشتقاق فى اللغة العربية لم تتوصل بعد إلى نحت ألفاظ مختلفة للتعبير عن الأشكال المتعددة التى يطلق عليها جميعًا وصف مؤسسة.

. . . .

. . . .

ومؤسسة «روكفلر» كما نعرفها الآن - جهاز ضخم للتفكير والأفكار ونشرها داخل الولايات المتحدة وخارجها، ومراكز للبحث والدرس وإعداد البدائل والخيارات، وأقسام متخصصة فى مساعدات التعليم وتطوير البيئة وتمويل بعض المشروعات العلمية التى تضع العاملين فيها على مئات النقط الحساسة باتساع العالم بأسره.

ويفتح هذا الجهاز الضخم كل نوافذه وأبوابه لأصحاب الفكر ليحصلوا كمديرين للعقول على نفس الدخول التى يحصل عليها مديرو البنوك والشركات والمصانع. (الفكر من الداخل وليس من الخارج وللتنظير للمصالح وخدمتها وليس للسخط عليها بالتوتر والقلق!).

ويستلفت النظر على سبيل المثال أن الرئيس «جون كيندى» كان أول من استحدث منصب مستشار الرئيس للأمن القومى. ثم إن اختياره لمستشاره - أول مستشار للأمن القومى للرئيس - كان هو «ماك جورج باندى» النجم البارز فى مؤسسة «روكفلر». وكان فيها قبل البيت الأبيض وعاد إليها بعد البيت الأبيض.

ولم تكن مؤسسة «روكفلر» هى وحدها التى تطورت لمجابهة الظروف الجديدة، وإنما تطورت معها عشرات المؤسسات الأخرى - «فورد» و «راند» و «كارنيجى» إلى آخره.

ويستلفت النظر على سبيل المثال أن وزير الدفاع فى عصر «كنيدى» - وحين تم وضع أساس المواجهة مع الاتحاد السوفييتى - كان هو «روبرت ماكنمارا» وكان قبلها رئيس مجلس إدارة «فورد» والمشرف بهذه الصفة على مؤسسة «فورد».

ولم تكن هذه ظواهر فردية سواء قبل عصر مؤسسة «روكفلر» أو مؤسسة «فورد» أو غيرهما أو بعد هذا العصر، وإنما بدأت الصورة تتحدد ملامحها ابتداء من نهاية الحرب العالمية الثانية ومع بداية الدور الإمبراطورى.

ولم تكن «المؤسسة الشرقية» Eastern Establishment فى العصر الجديد على استعداد لأن تكتفى بقوتها الاقتصادية وما تمثله من نفوذ، ولم تعد محاولة شراء الأصوات أو القرارات قادرة على أن تحقق ما تريد، وفى نفس الوقت فإن البيت الأبيض نفسه لم يكن مطلبها، فلم يكن بين أفرادها أو رجالها من هو مستعد لمأساة الانتخابات فى عصر التليفزيون وما تفرضه على المرشح بتحويله إلى شبه ممثل يعطى الانطباع المطلوب للناخبين.

كان مرادها ومطلبها أن تكون حيث تكون عملية صنع القرار تشارك فيه بنفسها وبيدها وبصرف النظر عن كل الرسميات والشكليات.

وبعد الحرب العالمية وآثارها المباشرة كان الجنرال «أيزنهاور» هو مرشح «المؤسسة الشرقية». كان هو النجم الذى يستطيع أن يجمع أكبر عدد ممكن من الأصوات ويحرك حماسة أكبر عدد ممكن من الناس. ثم هو يستثير شيئًا فى ولائهم

الوطنى باعتباره قائدهم العسكرى المنتصر فى الحرب، لكن المؤسسة كانت وراء «أيزنهاور» وفى المواقع الحساسة والمؤثرة، وبرجالها مباشرة بلا لف ولا دوران.

كان وزير الخارجية ـ مع «أيزنهاور» ـ هو «جون فوستر دالاس» ـ وهو محامى شركات من نيويورك ـ وقد أصبح رمز الحرب الباردة وصورتها وصوتها.

وكان وزير الدفاع ـ مع «أيزنهاور» ـ وهو «ويلسون» رئيس مجلس إدارة «جنرال موتورز» الذى شاع عنه قوله المأثور «إن ما هو فى صالح شركة جنرال موتورز هو فى صالح الولايات المتحدة بالتأكيد».

وكان وزير المالية هو «جون أندرسون» ـ محامى شركات أيضًا.

وبعد فصل المؤسسات Foundations التى أنشأتها المصالح الكبرى فإن السوابق جرى صقلها وتهذيبها وتحويلها إلى تقليد وإلى شبه نظام:

ـ المصالح الصناعية والتجارية والمالية الكبرى أصبحت «دولية» تمد نشاطها إلى حيث تصل، وقد طالت يدها بحيث لم يعد هناك «بعيد» عن أطراف أصابعها. وقد أجازف وأقول إن هذه المصالح أصبحت دولاً بالفعل (حجم أعمال شركة «جنرال موتورز» أصبح أكبر من حجم الدخل القومى لدولة أوروبية متقدمة مثل بلجيكا).

ـ هذه المصالح الصناعية والتجارية والمالية الكبرى تنشئ مؤسسات تحمل فى الغالب أسماء أصحابها («روكفلر» ـ «فورد» ـ «كارنيجى» ـ «راند» وغيرها).

ـ المؤسسات مجال يجتمع فيه مديرو العقول من المفكرين مع غيرهم من المديرين فى ميادين الإنتاج والمال من خبراء السوق والإدارة والقانون.

ـ المؤسسات داخلة فى الجامعات تجذب إلى أوجه نشاطها آلافًا من المفكرين الجدد (التنظير للمصالح من الداخل بدلاً من التحريض بالقلق خارجها).

ـ الجامعات تنشئ «المركز» للدراسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية.

ـ المؤسسات والجامعات والمراكز تتحاور مع بعضها ومن حوارها تخرج بدائل

وخبرات وتصورات واقتراحات، وتظهر اجتهادات تستلفت النظر وتلمع أسماء تسترعى الاهتمام.

ويظهر مجال بأسره من مجالات التأثير له دورته الكاملة وله اتصاله الوثيق بغيره من المجالات فى إطار المؤسسة الأكبر.

من يومها إلى الآن وكل مستشارى الأمن القومى للرؤساء الأمريكيين من هذا المجال (فرع الفكر السياسى والإستراتيجى) : «ماك جورج باندى» مستشار الأمن القومى للرئيس «كندى» - «روستو» مستشار الأمن القومى للرئيس «جونسون» - «كيسنجر» مستشار الأمن القومى للرئيس «كارتر»... وهكذا.

من يومها إلى الآن وكل وزراء الخارجية من هذا المجال - من المحامين الكبار عن الشركات (فرع القانون!) : من «دين آتشيسون» - إلى «جون فوستر دالاس» - إلى «دين راسك» - إلى «سيروس فانس».

من يومها إلى الآن وكل وزراء الدفاع وكل وزراء المالية من نفس هذا المجال.

ووزارة «رونالد ريجان» الحالية نموذج حى: «شولتز» وزير الخارجية هو نائب رئيس مجلس إدارة شركة «بكتل» للمقاولات. و «واينبرجر» وزير الدفاع هو رئيس مجلس إدارة شركة «بكتل» للمقاولات. و «دونالد ريجان» (وهو ليس من أقرباء الرئيس وإن كان يحمل نفس لقبه) رئيس هيئة مستشارى البيت الأبيض الآن هو رئيس مجلس إدارة شركة «ميرل لينش» المشهورة فى سوق المال. حتى «كايسى» مدير وكالة المخابرات المركزية مع «ريجان» الآن - وهو عضو فى الوزارة بحكم منصبه - محامى شركات أيضًا. بل أكثر من ذلك فإن المفاوض الأمريكى الرئيسى الذى يقود وفد الولايات المتحدة فى مفاوضات الحد من الأسلحة فى جنيف وهو «كامبلمان» ليس دبلوماسيًا محترفًا ولا عسكريًا محترفًا وإنما هو محامى شركات أيضًا.

وهكذا وهكذا.

أعلام الفكر (الإستراتيجى والاقتصادى والسياسى والعسكرى) وأعلام الإدارة

فى الشركات والمؤسسات وأعلام القانون من أساتذة الجامعات أو محامى الشركات - يسبحون جميعًا فى تيار واحد - ويقودون الدولة فعلاً فى كل النواحى بصرف النظر عن الضوء المركز على البيت الأبيض وشخصية الرجل الجالس فى مكتبه البيضاوى.

وفى المحصلة النهائية فإن المصالح واحدة، أو هى متسقة ومنسجمة. والحوار والحركة والفعل فى دائرة واحدة تخلق جميعًا فى النهاية شبه إرادة واحدة دون حاجة إلى نظرية المؤامرة.

وتجرى الانتخابات ويدخل رؤساء ويخرج رؤساء وتظل السياسات فى مجملها مستمرة باستمرار حركة الجدل بين المراكز والمواقع ونتيجة لذلك ينتقل التركيز أحيانًا من موقع لكن الإطار العام للصورة لايميل ولا يختل.

والغريب أن بعض الرؤساء كانوا يجيئون إلى البيت الأبيض دون فكرة محددة عن قضية بالذات ويكون الأسهل على أى واحد منهم وسريعًا أن يتبنى خطة لحل هذه القضية جرى إعدادها قبل رئاسته فى أحد «المراكز». كذلك فعل «جيمى كارتر» مثلاً فى أزمة الشرق الأوسط. لم يكن مستعدًا لها ولم تكن بين أولوياته. وعندما طرحت نفسها عليه استعار خطة مركز «بروكينجز» - كاملة بغير تعديل. وقد أشار عليه بها مستشاره للأمن القومى «بريجنسكى» وكان أحد المشاركين فى مناقشتها، وكان الدارس الذى صاغها فى مركز «بروكينجز» هو «وليم كوانت» الذى أصبح بعدها مسئول مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض المكلف بقضية الشرق الأوسط. ولمع اسمه بعد ذلك كواحد من نجوم «كامب دافيد» !

□

كانت البداية هى الكلمة. الفكر.

وتوصل الفكر إلى حل بقية الأسئلة التى أثارتها استنتاجات «المؤسسة الشرقية» بشأن الدور الإمبراطورى للولايات المتحدة:

استحالة الحرب النووية ومن ثم كيف يدور الصراع دون سلاح.

ثم إنه صراع عقائدى ساحاته وميادينه بيوت الناس وعقولهم.

كان الحل الذى قدمه «الفكر» إلى «الإمبراطورية» هو: سباق التسلح. وكانت النظرية فيه بسيطة وقد سمعت شرحها بنفسى من أحد المشاركين فى صنعها وهو «روبرت ماكنمارا» وزير دفاع «كنيدى» ورئيس مؤسسة «فورد» قبل وزارة الدفاع ورئيس مجلس إدارة البنك الدولى بعد وزارة الدفاع!

وملخص الحل، وأنا أعرضه الآن بصياغتى له وليس بنفس ألفاظ «ماكنمارا»، كما يلى:

■ من البداية كان واضحًا «لهم» أن الحرب بالأسلحة النووية تكاد تصبح ضربًا من الانتحار الإنسانى الجماعى، فكل الشعارات الإستراتيجية التى سادت فى ذلك الوقت عن «الردع الشامل» و «الدمار المتبادل المؤكد» - سقطت وتلاشت وراءها أساطير «الضربة الأولى» و «الضربة الثانية» إلى آخره.

■ فى ذلك الوقت كان «أمامهم» فى البيت الأبيض خياران: إما عقد الاتفاق مع السوفييت لوقف السباق النووى وإما مواصلة السباق:

وكان وقف السباق مرفوضًا لأنه يعتمد فى كثير منه على الثقة والقبول بالنظام الشيوعى المعادى للرأسمالية - ثم إن مثل هذا الاتفاق على وقف السباق مع الاتحاد السوفييتى من شأنه أن يجعل السيادة فى العالم شركة بين نظامين لا يستطيع أحدهما أن يزيح منافسه من طريقه، وهذا أيضًا مرفوض لأن المنافسة بين الاثنين فى هذه الحالة سوف تتجه إلى مجالات أخرى قد يسبق فيها الاتحاد السوفييتى وتتخلف الولايات المتحدة خصوصًا فى العالم الثالث وهو مدار الصراع. فهذا العالم الثالث فقير مستغل، خارج من سيطرة الإمبراطوريات القديمة بنقمة شديدة عليها (وعلى أصدقائها) ومعنى هذا أن العالم الثالث سوف يجد نفسه ينجذب إلى الاتحاد السوفييتى وهذا يفتح له - للاتحاد السوفييتى - أبواب محيطات وقارات وأمم.

وقف السباق كان مرفوضًا كذلك لأسباب اقتصادية وعلمية. فصناعة السلاح ركن ركين فى أساس الاقتصاد الرأسمالى. ثم إن السلاح هو المحركات النفاثة للبحث العلمى فى كل المجالات.

■ وهكذا كان الحل الذى توصلوا إليه بعد جهد جهيد ووجدوه مقبولاً ومطلوبًا هو مواصلة سباق التسلح وذلك لمجموعتين من الأسباب:

أولاهما كل الأسباب التى كان خيار الاتفاق مرفوضًا بسببها.

والمجموعة الثانية من الأسباب وهى الأهم:

لأن سباق التسلح سوف يكون هو الوسيلة الجديدة لاستنزاف موارد الاتحاد السوفييتى.

إن «المفكرين» الجدد فى البيت الأبيض وحوله وجدوا فى استمرار سباق التسلح خطة عمل مثلى تتصل حلقاتها واحدة بالأخرى لتصنع سلسلة من النتائج المرغوبة:

● إن الولايات المتحدة الأمريكية أغنى من الاتحاد السوفييتى مرتين على وجه التقريب.

وفى سباق للتسلح فإن الولايات المتحدة بمواردها الأكبر سوف تكون أسبق، ولكن الاتحاد السوفييتى مهما كانت موارده أقل سوف يضطر إلى مجاراتها بضرورات أمنه.

● إن الولايات المتحدة سوف تجد الدول الغربية وراءها تساعدها وهى غنية إلى حد لا يقارن بالدول الشيوعية التى سوف تقف وراء الاتحاد السوفييتى.

كذلك فإن الولايات المتحدة سوف تبيع كثيرًا من أسلحتها التقليدية غالية لأصدقائها الأغنياء - فى الشرق الأوسط مثلاً - وأما الاتحاد السوفييتى فإنه سوف يرغم على تقديم أسلحة رخيصة لأصدقائه «المناضلين».

وهكذا فإن أصدقاء الولايات المتحدة سوف يكونون مصدرًا إضافيًا لمواردها فى حين أن أصدقاء الاتحاد السوفييتى سوف يكونون عبئًا إضافيًا على موارده.

● إن الاتحاد السوفييتى خرج من الحرب العالمية الثانية بانتصار عسكرى ضخم ولكن بتكلفة اقتصادية وإنسانية مخيفة، وقد وضع لنفسه ثلاث أولويات لمواجهة عالم ما بعد الحرب ـ عالم السلام:

١ ـ إعادة البناء والتنمية الشاملة بما يمنح شعوبه نتيجة ملموسة للحلم الشيوعى.

٢ ـ إعادة إنشاء قدرة دفاعية متطورة بما يردع العالم الرأسمالى المتربص به.

٣ ـ كسب أصدقاء فى العالم خصوصًا أوروبا الشرقية والعالم الثالث بما يوسع ويعزز مصالحه ونفوذه.

وكان تخصيص الموارد على هذه الأولويات الثلاث بنسبة ٧٥٪ لإعادة البناء والتنمية اللازمة للحلم الشيوعى، وبنسبة ١٥٪ لتطوير القدرة الدفاعية، وبنسبة ١٠٪ لمساعدات أوروبا الشرقية والعالم الثالث (أرقام هذه النسب من تقديرات مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض وقتها).

● إذا استطاعت الولايات المتحدة جر الاتحاد السوفييتى جرًا وعلى الرغم منه إلى سباق للتسلح ـ إذن فإن الخطة كلها قد تختل.

وفى ألفاظ «روبرت ماكنمارا» أثناء حديثه معى قال:

ـ «كان هدفنا ببساطة أن نرغم الاتحاد السوفييتى على أن يرفع أولويته رقم ٢ (القدرة الدفاعية) لتحتل مكان أولويته رقم ١ (إعادة البناء) وبنفس النسب إذا أمكن.

أى القدرة الدفاعية أولاً وبأكبر نسبة ممكنة.

والتنمية ثانيًا وبأقل نسبة ممكنة.

وهذا بدوره سوف يؤثر على أولويته الثالثة، إذ سيضطر والحال كذلك إلى أن يسحب من مخصص مساعداته للآخرين ويبقى أكثرها لنفسه لأن مجال المناورة ضاق أمامه.

ما هو معنى ذلك؟

معناه أنه إذا اضطر الاتحاد السوفييتى - بسباق التسلح - إلى تخصيص الجزء الأكبر من دخله (٤٠٪ إذا أمكن) لتطوير قدراته الدفاعية عليه أن ينتظر طويلاً. وعلى أصدقائه فى العالم أن ينتظروا أطول.

وهكذا فإن سباق التسلح يمكن أن يضرب العقائد السوفييتية فى موسكو نفسها.

فقيمة العقائد فى هذا العصر - وفى كل عصر - هى بمقدار ما تستطيع أن توفره من أسباب سعادة الناس فى حريتهم وفى معاشتهم (الغذاء والمسكن والملبس والتعليم والرعاية الصحية والتأمينات والإجازات) وفى ثقافتهم سواء بتعميق مداركهم أو توسيع معرفتهم واتصالهم بالعالم الذى يعيشون فيه.

وإذن كانت الصيغة المقترحة هى:

جعل «رأس المال الأمريكى» هو الذى يضرب «العقيدة الشيوعية» بواسطة «سباق التسلح».

... إذن فإن سباق التسلح نفسه أصبح هو الحرب ذاتها.

... وإذا كانت الحرب الشاملة فى العصر النووى مستحيلة، لا هى محتملة ولا مقبولة ولا حتى ممكنة، وإذا كانت الضرورات تفرض على كل طرف ألاّ يترك للطرف الآخر وسيلة يسبقه فيها بشىء جديد؛ إذن فلتكن هذه الضرورات نفسها هى إستراتيجية المواجهة بتحويلها عملاً إلى إستراتيجية مواجهة أى سباق تسلح لسباق التسلح بالدرجة الأولى وليس للحرب.

رأس المال الأمريكى بثروته الأكبر سوف يضرب العقيدة الشيوعية عن طريق استنزاف الثروة الأقل لدى دولة الشيوعية الأولى فى العالم وهى الاتحاد السوفييتى.

وفى حين يتبقى لدى رأس المال الأمريكى بعد سباق التسلح فائض ضخم يصنع

طريقة جذابة للحياة الأمريكية، فإن الاتحاد السوفييتى بعد سابق التسلح لن يتبقى لديه مثل هذا الفائض، وسوف يضطر إلى مجاراة غيره فى مجالات الأمن (سباق التسلح) ويعجز عن مجاراة غيره فى مجالات الحياة مضطرًا إلى قبول مستوى لا يغرى أحدًا ولا يغويه.

كان تقدير مهندسى صيغة الحرب الجديدة أن الولايات المتحدة تستطيع أن تحتمل تكاليف هذا السباق ـ بإنتاج السلاح وليس باستعماله ـ لأن الحرب طبقًا لنظريته تبقى محتملة على عكس استعمال «القنبلة». وتبقى مضمونة على عكس استعمال «القنبلة». وتبقى فى الحسابات الختامية مقبولة اقتصاديًا وإنسانيًا.

وفى نفس الوقت فإن الاتحاد السوفييتى سوف ينوء كاهله بالعبء. ثم إن تغيير الأولويات سوف ينزع عن العقيدة الشيوعية قدرتها على تحقيق الحلم الشيوعى.

وهكذا يصبح المجتمع الرأسمالى فى أمريكا نموذجًا للغنى والرفاهية ويصبح المجتمع الشيوعى أمامه فى الاتحاد السوفييتى نموذجًا للحاجة والتقشف.. وأمام الكل أن يقارنوا ويفاضلوا ويختاروا».

□

أعود مرة أخرى إلى «دافيد روكفلر».

فى حوار معه فى شهر سبتمبر ١٩٧٣، وكان الحوار على غداء فى مكتبى، قال لى «دافيد» :

ـ «تشغلكم أزمة إقليمية لديكم وهى أزمة الشرق الأوسط. وأما نحن فالذى يهمنا هو الصراع على مستقبل العالم.

أنتم هنا فى مصر وأنتم هنا فى العالم العربى وأنتم هناك وهناك فى آسيا وأفريقيا فى يدكم دون أن تتنبهوا لذلك مصير العالم كله.

إن مصير العالم كله سوف يتقرر ويجرى حسمه لصالح الرأسمالية أو الشيوعية طبقًا لما تختارونه. قبل أن ينصرم القرن العشرين ـ هذا القرن ـ سوف يتقرر كل شيء ويحسم.

إذا اخترتم جميعًا طريقتنا فى الحياة فسوف يكون النصر النهائى لنا.

وإذا اخترتم جميعًا طريقة الآخرين ـ الاتحاد السوفييتى ـ فسوف يكون النصر لهم.

إن «القنبلة» لن تحسم الصراع على مستقبل العالم وإنما الذى سوف يحسمه هو اختياركم».

وقتل لـ «دافيد روكفلر» :

ـ «إن الاتحاد السوفييتى هو الذى يساعدنا فى آسيا أفريقيا وأمريكا اللاتينية بالسلاح لندافع عن استقلالنا. وهو الذى يبيع لنا المصانع ويشترك معانا فى بناء السدود وغيرها من المشروعات الكبرى».

وقال «دافيد»:

ـ «سوف يضطرون إلى تقليل مساعداتهم لكم يومًا بعد يوم. إنهم لا يستطيعون الدخول فى صفقة سلاح مع كل بلد من البلدان المستقلة حديثًا. وهم لا يستطيعون بناء سد عال كل شهر أو كل سنة. ما لديهم محدود إلا إذا سلمتموهم موارد ثرواتكم وأنتم لن تقبلوا ذلك. وإذا قبلتم فإن الدنيا سوف تقوم عليكم وتقعد!

لا بد أن تعرفوا أن المنافسة بيننا على اتساع الأرض والفضاء وهى منافسة عليكم أنتم فى جزء منها لكنها أكبر منكم فى وسائلها وأهدافها».

وقلت لـ «دافيد روكفلر» :

ـ «ولكن الاتحاد السوفييتى يجرى بسرعة ويبدو وكأنه أحيانًا يستقبلكم حتى فى الفضاء. ألم يحدث أنه سبق بإرسال «سبوتنيك» أول قمر صناعى فى الفضاء؟».

وقال «دافيد روكفلر» :

ـ «لقد كان رد «كيندى» على ذلك هو التعهد بإرسال أول إنسان إلى القمر وقد حققنا ذلك فعلاً».

واستطرد «دافيد روكفلر»:

ـ «فى ناحية كان تعهد «كيندى» بإرسال إنسان أمريكى إلى القمر هو اعتذاره للشعب الأمريكى عن خطأ محاولة الغزو الفاشلة لكوبا فى خليج الخنازير. لكنه كان فى الناحية الأخرى ـ الأكبر والأوسع ـ خطوته الضخمة لدفع المنافسة (لم يقل سباق التسلح !) بين العملاقين إلى أبعاد الفضاء اللانهائية.

وسوف ترى !».

. . . .

. . . .

[ولابد من التسليم بأن هذا الأسلوب الأمريكى فى الحرب بدون سلاح قد حقق نجاحًا لا يستطيع أحد أن ينكره.

إن رأس المال الأمريكى استطاع أن يهاجم العقيدة الشيوعية ويرغمها على تحويل مواردها من عملية صنع الرخاء لشعوبها إلى عملية تدعيم الأمن لدولتها].

. . . .

. . . .

□

وكثيرًا ما تذكرت «دافيد روكفلر» أثناء متابعتى لأوضاع الاتحاد السوفييتى فى السبعينيات والثمانينيات.

بدا أن أولوية الدفاع المطلقة جارت على كل ما عداها ولم تترك ما فيه الكفاية لأولويات أخرى.

وترتبت على ذلك نتائج مزعجة.

بحكم أولوية الأمن زاد دور بيروقراطية الحزب فقد كان عليها أن تقنع جماهيرها الواسعة بأن تقبل تأجيل أحلامها الواسعة أيضًا. وحين كان الإقناع يقصر كانت وسائل الأمن الداخلى تتولى سد الفجوة بين الاقتناع والسكوت!

وبحكم أولوية الدفاع فإن القيادة فى موسكو لم تكن على استعداد لقبول هزات قلق داخل معسكرها فى شرق أوروبا - لا فى ألمانيا الشرقية ولا فى تشيكوسلوفاكيا ولا فى المجر ولا فى بولندا على سبيل المثال - وهكذا فإنها تدخلت بالقوة السافرة فى بعض الأحيان!

ثم إنه بحكم أولوية الأمن زاد دور خبراء الأمن فى الاتحاد السوفييتى وهم الماريشالات والجنرالات - فى صنع القرار السياسى الصادر عن موسكو.

وهكذا لعبت المؤسسة العسكرية السوفييتية دورًا ملحوظًا فى المجىء بـ«خروشوف» إلى السلطة ثم فى إخراج «خروشوف» منها وفى اختيار «بريجنيف» بدلاً منه. ونفس الشىء حدث مع «أندروبوف» بعد «بريجنيف». ثم بعد «أندروبوف» مع «تشيرنينكو». وسوف يظل ملحوظًا فيما يلى من تغييرات!

والحقيقة أن الاتحاد السوفييتى تعرض لعملية استنزاف مخيف: اقتصادى وسياسى ومعنوى أيضًا.

ومع ذلك فلا بد من القول إن النجاح الأمريكى كان - بدوره محفوفًا بالخطر.

وذلك أن الولايات المتحدة لكى تستطيع تمويل سباق التسلح من ناحيتها - مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بمستوى المعيشة الجذاب لشعبها - كان عليها أن تستدين.

استدانت الخزانة الأمريكية من الداخل أولاً - أكبر دين وطنى يعرفه التاريخ.

ثم راحت إلى وضع ثروات الآخرين - بما فيها ثروات البترول العربى - فى إطار تخطيطها. وعلى سبيل المثال فإن كل أموال البترول العربى جرى «تدويرها» بمعرفة

البنوك الأمريكية، كما أن جزءًا كبيرًا منها الآن على شكل سندات خزينة أمريكية لمدد محددة تصل أحيانًا إلى خمسة وعشرين سنة.

ثم لجأت أخيرًا إلى التمويل بالعجز حتى فى الميزانية الجارية وهكذا جاءت آخر ميزانية لـ «رونالد ريجان» بعجز يزيد على مائة ألف مليون دولار.

وكانت أوروبا الغربية ـ الحليف الأول للولايات المتحدة ـ أول من استبد به القلق.

● وكانت علامة الشعور بالقلق المبكرة هى إحساس أوروبا الغربية بأن الولايات المتحدة تسلبها مغانم بترولها (كان لبريطانيا ٦٠٪ من بترول الشرق الأوسط سنة ١٩٥٢ فى مقابل ١٠٪ للولايات المتحدة. وفى سنة ١٩٨٢ كانت هذه النسبة قد انعكست ١٠٪ لبريطانيا و٦٠٪ للولايات المتحدة).

● وكانت علامة الشعور بالقلق الثانية أن بعض دول أوروبا الغربية ـ فرنسا بالذات ـ اتهمت الولايات المتحدة بأنها المحرض الخفى وراء عملية رفع أسعار البترول فى أواخر ١٩٧٣ وأوائل سنة ١٩٧٤. وحدثت مواجهة عنيفة فى باريس فى ربيع ١٩٧٤ حين وقف «ميشيل جوبير» وزير خارجية فرنسا يقول لـ «هنرى كيسنجر» وزير خارجية الولايات المتحدة بالحرف تقريبًا:

ـ «هل تظن أننا لا ندرك خطتكم؟ أنتم ترفعون الأسعار وسوف تتركون لأصحاب البترول جزءًا من ثروتهم الجديدة وأما الباقى فإنه سوف يجد طريقة إلى بنوككم وخزائنكم».

وكان رد «كسينجر» ـ ببرود ـ على «ميشيل جوبير» قوله:

ـ «لايعنينى ما تدركونه أو ما لا تدركونه. المهم أن تفهموا أن مشروع «مارشال» قد انتهى الآن. لقد كان حصولكم على الوقود رخيصًا جزءًا من مشروع «مارشال» لمساعدتكم. ولقد ساعدناكم لكنكم الآن على وشك منافستنا بما ساعدناكم به.

ثم لا تنسوا أن الولايات المتحدة هى التى تتولى برادعها النووى حماية أوروبا».

وانفجر «ميشيل جوبير» وقال لـ «كيسنجر»: «إنه ـ أى هنرى كيسنجر» ـ وغيره

ممن يرون رأيه يدفعون العالم كله إلى هاوية أهون شرورها خراب النظام الاقتصادى العالمى».

ثم أضاف: «أنكم تريدون أن تلحقوا الخراب بالاتحاد السوفييتى. ولا يهمكم أن تخرب أوروبا الغربية. تتصورون لأنكم أغنى من الكل أن الخراب سوف لا يلحقكم. نعم سوف يتأخر وصوله إليكم. لكنه سوف يصل إليكم أنتم أيضًا!».

(وأتذكر أننى سألت «هنرى كيسنجر» عن تفاصيل المشادة بعد أن سمعت تفاصيلها من «ميشيل جوبير»، وكان رد «هنرى كيسنجر» علىّ هو أن ضحك بلا مبالاة قبل أن يرد، ثم كان رده:

- «عقدة «ميشيل جوبير» هى قصر قامته. طوله لايزيد عن متر ونصف متر وهذا يضايقه. والكعوب العالية التى يضعها فى أحذيته لا تستطيع أن تضيف إلى قامته أكثر من خمسة سنتيمترات وهى ليست كافية لتحويل قزم إلى إنسان طبيعى.

لو أن السماء زادت فى قامة «ميشيل جوبير» عددًا من البوصات لاختلفت نفسيته واستراح. واستراحت فرنسا ومعها آخرون فى أوروبا!»).

● وكانت علامة الشعور بالقلق الثالثة ثورة شعوب أوروبا الغربية على نصب الصواريخ المتوسطة المدى فى أراضيها ثم الغضب المكتوم لمعظم حكومات أوروبا الآن من إستراتيجية حرب النجوم التى أعلنها «ريجان».

□

كانت «المؤسسة الشرقية» التى تشير وتوجه فى صنع السياسة الأمريكية تواصل عملها بنجاح ظاهر وتشارك فى خوض الحرب برأس المال ضد العقيدة الشيوعية عن طريق سباق التسلح وتحقيق نتائج باهرة.

لكنها بلغت أوجها عند مرحلة من المراحل - ربما فى النصف الثانى من الستينيات - ثم بدأ نجاحها نفسه ونتائجه ذاتها- يجيئان بآثار لم تكن متوقعة بالنسبة لقوتها أو بالنسبة لاحتكارها لجانب معين من جوانب القوة.

ذلك أن سباق التسلح، وهو الآن فى مجالات الطائرات والصواريخ وصناعات الفضاء، كان يحتاج إلى الشمس. الطائرات والصواريخ ومركبات الفضاء تحتاج أجواء صافية يسطع فيها النور الطبيعى معظم شهور السنة ومعظم ساعات النهار.

وراحت هذه الصناعات تزحف إلى الجنوب وإلى الغرب. إلى تكساس وإلى كاليفورنيا.

ولم تكن صناعة الطائرات والصواريخ ومركبات الفضاء وحدها. وإنما كانت وراءها جيوش جرارة من صناعات أخرى أولها وأهمها الصناعات الإلكترونية.

كان الشرق الأمريكى هو الموطن الأساسى للصناعة والمال فى النصف الأول من القرن العشرين. وأصبح واضحًا الآن أن الغرب الأمريكى سوف يصبح هو المواطن الأساسية للصناعة والمال فى النصف الثانى من القرن العشرين، ولأسباب عديدة. أولها سباق التسلح.

وتكونت مصالح هائلة («بوينج» ـ «لوكهيد» ـ «نورثروب» ـ «روكويل» ـ «ماكدونالد دوجلاس» ـ «يونايتد تكنولوجى» ـ «آى. بى. إم» ـ «وانج» ـ «جنرال داينامكس» ـ «جيتى» ـ «هيوز» وغيرهم وغيرهم).

وكان لا بد أن تكون لهذه المصالح الهائلة وسائلها فى التأثير على القرار. وحصلت لنفسها ـ بدورها ـ على ما تحتاجه من المديرين: مديرى الأموال والعقول والخطط، وأضافت إليهم مديرى الاتصالات فلم يكن لها أن تترك بعدها الجغرافى عن واشنطن عقبة تحول دون أن تكون حاضرة باستمرار. وهكذا أنشأت هذه المصالح لنفسها مؤسسات جديدة ومراكز للأبحاث. وجندت خبراء فى العلاقات العامة وعبأت مكاتب المحامين ليكونوا «قوى حضور» فى الشرق لمؤسسة غربية استكملت كل أسباب ظهورها وبروزها فى الولايات المتحدة التى يسمونها «حزام الشمس».

وأضافت هذه «المؤسسة الغربية» إلى مديريها نوعًا آخر من الخبراء المتخصصين فى ميادينها. ولما كان السلاح ميدانها الأساسى فإن العسكريين السابقين كانوا من

أبرز عناصر الإدارة الجديدة إلى درجة أن إحصاءً حديثًا يشير إلى أن عدد العسكريين الأمريكيين السابقين العاملين فى الشركات العاملة فى مجال السلاح وما يتصل به بلغ الآن فى الولايات المتحدة ما يزيد على مائتى ألف ضابط سابق.

ويستلفت النظر أن الدور المتنامى «للمؤسسة الغربية» - إلى جانب «المؤسسة الشرقية» - من الحرب العالمية وبعدها: الرئيس «روزفلت» والرئيس «ترومان» والرئيس «أيزنهاور» والرئيس «كيندى» - كلهم من دائرة نفوذ «المؤسسة الشرقية».

وبعد الحركة من الشرق إلى الغرب: الرئيس «جونسون» من الجنوب. الرئيس «نيكسون» من الغرب. الرئيس «كارتر» من الجنوب. الرئيس «ريجان» من الغرب.

وفى عهد كل من «نيكسون» و «ريجان» أصبح بيت الرئيس الأصلى فى الغرب يسمى «البيت الأبيض الغربى». وهى إشارة رمزية تحمل ما هو أكثر من مجرد الإيماءة العاطفية.

حتى الإعلان - وهو من ضرورات السوق الرأسمالية المتنافسة - حدث انتقال فى مركزه.

كان شارع «ماديسون» هو شارع الإعلان فى نيويورك.

وكان لا بد للغرب أن يجد شارعه للإعلان ووجد مدينة بأكملها كانت فى انتظاره وهى «هوليوود». وكانت أضواؤها قد خفتت ونجومها شحبوا لأسباب كثيرة. وفى مناخ القوة الذى أشاعته «المؤسسة الغربية» فى موطنها على شاطئ المحيط الآخر وباحتياجاتها الطارئة والملحة عادت الأضواء إلى عاصمة السينما المهجورة ولم تعد الآن تصنع فنًا وإنما عادت تصنع إعلانًا للحرب الباردة التى يجب أن تستمر بسباق التسلح (وسباق المخابرات قبله وبعده) وتصنع إعلانًا من نوع مختلف عن الإعلان المباشر لشارع «ماديسون» فى نيويورك!

□

فى وسط هذا الزحام لا ينبغى أن نترك «داڤيد روكفلر» يغيب عن أبصارنا فهو موضوع هذا الحديث وهو فعلاً وسط زحام كثيف:

● كتل من مصالح اقتصادية ومالية تمتد من المناجم فى بطن الأرض وفى كل القارات، إلى الثروات الكامنة فى أعماق كل البحار والمحيطات، إلى الاحتمالات المعلقة فى أجواء الفضاء العالى حيث لا توجد حدود ولا نهايات.

● وشركات ومصانع واحتكارات وبنوك وتوكيلات وفروع ومنتجات وخدمات قادرة على أن تصل ليد أى إنسان أينما كان موقعه على خطوط الطول والعرض من هذه الكرة الأرضية أو خارج نطاقها.

● وأطر عامة تتحرك فيها هذه الكتل والوحدات وأبرزها إطار عام لحيوية وطاقة وقدرة الشرق الأمريكى: «المؤسسة الشرقية»، وإطار آخر بنفس الشكل والحجم والهدف فى الغرب الأمريكى: «المؤسسة الغربية». (وبالطبع فإنه يمكن التسليم بأن هذه الأطر لم تستطع - ولا كان ممكنًا أو متصورًا - أن تستوعب كل شىء فى التركيبة الأمريكية المتنوعة والمعقدة. فلقد بقيت عناصر رفض جرت المحاولة باستمرار لإزاحتها إلى الهوامش؛ ثم كانت هناك أيضًا لحظات قلق وتوتر جرت المحاولة لامتصاص آثارها على نحو أو آخر كما حدث فى مناخ حرب فيتنام).

● ثم جيوش جرارة من المديرين والمحامين والمفكرين السياسيين والاجتماعيين توافرت أمامهم كل وسائل المعرفة والاتصال اللازمة لإنضاج القرار، وهم يأخذون من أرض الواقع إلى مختبر الفكر ومن مختبر الفكر إلى أرض الواقع بمعيار القياس الأمريكى الوحيد (البراجماتية - أى قيمة النتيجة الناجحة بصرف النظر عن غير ذلك من القيم) فى أعمال فكرهم وقرارهم.

● وأخيرًا قنوات اتصال مفتوحة على جهاز الدولة تبدو فى بعض الأحيان وكأنها تجربة لنظرية «الأوانى المستطرقة» حتى أنه فى بعض الأحيان لا يستطيع أحد أن يعرف من الذى يقوم بماذا بالضبط وأين هى الخطوط الضرورية حتى فى الفصل بين السلطات؟

ولعلى أستطيع أن أشرح ما أريد أكثر بعدد من النماذج فى التطبيق العلمى.

□□□ نموذج رقم (١)

أزمة البترول الإيرانى

«مصدق» سنة ١٩٥٢ استصدر قانونًا بتأميم البترول الإيرانى

● الشركة البريطانية - الإيرانية التى تملك امتياز هذا البترول تفكر بالتعاون مع بعض العناصر الإيرانية فى القيام بانقلاب عسكرى على «مصدق».

● الحكومة البريطانية تتردد بسبب احتمالات تأثير مثل هذا الانقلاب على بقية النظم المنتجة للبترول فى المنطقة.

● شركة «جولف» الأمريكية للبترول وكثير من أسهمها مملوكة لأسرة «مورجان» (أسرة توازى فى الغنى أسرة «روكفلر» وهناك أساطير حول أصل ثروتها وهناك من ينسبونها إلى كنوز القرصان الشهير الكابتن «مورجان») تتقدم لتخطيط وتمويل محاولة الانقلاب المضاد على «مصدق».

● «كيرميت روزفلت» (الذى ينتمى إلى واحدة من أشهر أسر «المؤسسة الشرقية» والتى أعطت لهذه المؤسسة اثنين من رؤساء الولايات المتحدة بنفس الاسم: «تيودور روزفلت» و «فرانكلين روزفلت» يكلف بالمهمة من قبل المخابرات المركزية الأمريكية التى كانت فى ذلك الوقت تحت رئاسة «الآن دالاس» (أصله محامى شركات من نيويورك وهو شقيق فى نفس الوقت لمحامى شركات آخر هو «جون فوستر دالاس» وزير خارجية «أيزنهاور».

● ينجح «كيرميت روزفلت» فى تحضير وتنفيذ الانقلاب ويعود الشاه ويجهض قانون تأميم البترول - شركة «جولف» الأمريكية تحصل مع شركة «ستاندارد» (تملكها أسرة «روكفلر» على النصيب الأكبر فى الشركة الجديدة التى جرى تأسيسها بعد سقوط قانون التأميم.

● «كيرميت روزفلت» يصبح مستشارا خاصًا لشركة «جولف».

● «دافيد روكفلر» يصبح مستشارًا سياسيًا واقتصاديًا للشاه.

● بنك «تشيز مانهاتن» (الذى تملكه أسرة روكفلر» يصبح البنك المعتمد لإيداع كل عوائد البترول الإيرانى.

● «هنرى كيسنجر» هو مستشار بنك «تشيز مانهاتن» قبل وبعد خدمته فى البيت الأبيض ووزارة الخارجية.

● «هنرى كيسنجر» و «دافيد روكفلر» هما اللذان يتوليان الضغط على الرئيس «كارتر» ليسمح للشاه بدخوله أمريكا بعد سقوط عرش الطاووس.

● أزمة رهائن السفارة الأمريكية تقع نتيجة لدخول الشاه إلى أمريكا.

● ضغوط كثيرة لمحاولة إنقاذ الرهائن بالقوة من طهران.

● أزمة الرهائن تتعثر فى الحل لأن البنوك الأمريكية وفى مقدمتها بنك «تشيز مانهاتن» قررت تجميد ودائع إيران المالية لديها قبل أن يصدر الرئيس «كارتر» قرارًا رسميًا بهذا التجميد؛ ثم كانت هى التى قررت أن تخصم من هذه الودائع ما تريد (خمسة آلاف وخمسمائة مليون دولار) فى مقابل ديون على الشاه وليس على الدولة الإيرانية، بدليل أنها لم تعرض على المجلس الإيرانى أصلاً فضلاً عن أن تنال موافقته. ومن بين هذه الديون خمسمائة مليون دولار قدمها «دافيد روكفلر» للشاه دون أية إجراءات.

● وكان من نتيجة تعثر حل أزمة الرهائن سقوط «كارتر» فى الانتخابات.

□□□ نموذج رقم (٢)

نادى السافارى فى أفريقيا.

لم يكن سرًا فى أوائل السبعينيات أن نظام الجنرال «موبوتو» فى زائير يواجه تهديدًا خطيرًا بسبب فساد الحكم وسوء الإدارة وتبديد الموارد نتيجة لذلك.

وكانت مصالح أسرة «روكفلر» ـ سواء بواسطة بنك تشيز «مانهاتن» أو الشركات العاملة فى إطاره العام أو تحت مظلته ـ هائلة طائلة فى زائير. وكان القول السارى وقتها هو إنه «إذا سقط موبوتو أفلس وراءه بنك «تشيز مانهاتن».

وتجسد التهديد ضد «موبوتو» فى جيش الخلاص الوطنى يقوده ثائر اشتهر باسم الجنرال «بومبا». وراح هذا الثائر بجيشه يزحف على مقاطعة «شابا» ـ كاتنجا سابقًا ـ وهى موطن أغنى مناجم النحاس فى أفريقيا.

وكانت واشنطن ـ ووزير الخارجية وقتها «هنرى كيسنجر» ـ تحت ضغط شل حركتها فى عمليات التدخل الخارجى ربما بسبب رواسب حرب فيتنام. وكان «هنرى كيسنجر» قد عجز من قبل عن الحصول من الكونجرس على اعتمادات لمقاومة النظام الوطنى فى أنجولا. ثم فاجأت الكل أحداث زائير والخطر على «موبوتو».

وفجأ ظهر ما أسموه «نادى السافارى» هيئة للتدخل السريع المسلح أنشأتها مصر والمغرب والسعودية وإيران ـ وإذا هذه الهيئة تبدأ عملياتها بالتدخل فى زائير والقضاء على حركة عصيان الجنرال «بومبا» وتثبيت الجنرال «موبوتو» على «عرش» زائير.

وارتفعت أسهم بنك «تشيز مانهاتن» وبقية شركاته (وبينها بالطبع أسهم الشركة العامة للموارد المعدنية فى الكونجرس التى تقدر نسبة أرباحها السنوية بما بين ٣٥٠ و ٤٠٠٪ والتى تملك أسرة «روكفلر» نصيبًا كبيرًا فى أسهمها) !

□□□ نموذج رقم (٣)

المبعوثون الخاصون للرؤساء الأمريكيين.

إلى محاولات حل أزمة الشرق الأوسط

منذ نشأة إسرائيل حاول كل رئيس أمريكى أن يجرب حظه فى حل أزمة الشرق الأوسط تحت خرافة أو ادعاء دور صانع السلام فى الأرض المقدسة.

وكانت هناك محاولات تجرى فى الظاهر

وأخرى تجرى فى الباطن.

فى الظاهر كان وزراء الخارجية. «دالاس» و «راسك» و «روجرز» و «كيسنجر» و «فانس» و «هيج» و «شولتز». ولم تكن هذه أهم المحاولات (باستثناء محاولة كيسنجر»).

وفى الباطن كانت هناك المحاولات الأهم والأبعد أثرًا.

● كان أول مبعوث إلى مصر بعد الثورة وفى أكتوبر ١٩٥٢ هو «كيرميت روزفلت» وكان يحمل خطابًا بتوقيع الرئيس «أيزنهاور» الذى منحه لقب مستشار الرئيس (و «كيرميت روزفلت» كان ممثل العملية المشتركة للمخابرات المركزية مع شركة «جولف» للبترول فى الإعداد للانقلاب المضاد على «مصدق») - ولم ينجح فى مهمته - وكانت مهمته الحقيقية بحث إمكانيات الصداقة بين مصر والولايات المتحدة على أساس السلام مع إسرائيل.

● وكان المبعوث الثانى إلى مصر هو «جون ماكلوى» (ربيع سنة ١٩٥٣) وكان «جون ماكلوى» رئيس مجلس إدارة بنك «تشيز مانهاتن» - ولم ينجح فى مهمته - وكانت مهمته هى التلويح بمساعدات أمريكية فى مقابل السلام مع إسرائيل.

● وكان المبعوث الثالث إلى مصر هو «دافيد روكفلر» نفسه. وكان يحمل خطابًا بتوقيع الرئيس «أيزنهاور» وقد تصور الرئيس «جمال عبد الناصر» وقتها أن «روكفلر» كان مهتمًا باستثمارات فى مصر. وفوجئ حين وجده يتحدث فى صميم القضايا السياسية. وأتذكر أن الرئيس «جمال عبد الناصر» طلب إليه أن يقابلنى، كما أنه هو نفسه - «دافيد» - كان قد اتصل بى لطلب موعد.

وأتذكر أن رئيس «عبد الناصر» كان حائرًا فى «الصلة التى يمكن أن تربط بين أيزنهاور وبين روكفلر». وكان «عبد الناصر دائمًا شديد الحساسية لما كان يسميه «سيطرة رأس المال على الحكم».

● وكـان المبـعـوث الرابـع إلى مـصـر وفـى عـهـد «أيزنـهـاور» أيضـًـا هـو «إريك جونسـتـون» وكـان رئيسـًا لاتحاد غرفة صناعة السينما كما كان عضوًا فى مـجالس إدارات بنوك وشـركـات عديدة، وكـان «جـونسـتـون» يـحمل معـه مشـروعـه الشـهـير بالتعاون مع إسرائيل فى توزيع واستغلال مياه نهر الأردن.

● وكان المبعوث الخامس إلى مصر هو «جون آندرسون» وهو وزير مالية سابق ومحامى شركات مشـهور وكان هدفه ترتيب لقاء بين «جمال عبد الناصر» و «دافيد بن جوريون». وبالطبع لم تنجح المهمة.

وهكذا وهكذا.

مـصـالح كـبـرى تشـعـر أن لديهـا كنزًا كـبـيرًا فـى الشـرق الأوسـط، وهـى تريد أن تحـافظ عليـه، ومطلبـهـا الأول لتـأمـين الـجـو الـعـام فـى المنطقـة أن يـسـود السـلام فـى الشـرق الأوسط ويصل العرب إلى صلح دائم مع إسرائيل.

وهى تعتمد على الدولة الأمريكية ووسائلها أحيانًا.

وفى أحيان أخرى فإن الدولة الأمريكية تترك لها مجال تجربة العمل المباشر.

وفى كل الأحيان فإن علاقة الأوانى المستطرقة تمثل حركتها طول الوقت.

ونقفز إلى أيام الرئيس «السادات»:

● «كـان «دافـيـد روكفلر» نفسـه هو أكثر الرسل ترددًا على القـاهرة. وكـان يحمل مـعـه دائمًـا رسـائل من سـادة البيت الأبيض، وأحيـانًا من سـيـد قـصـر نيافـاران (شـاه إيران) وأصبح «دافيد روكفلر» وثيق الصلة بالرئيس «السادات».

وربما كانت أهم زيارة لـ «دافيد روكفلر» إلى مصر هى زيارته فى ٢١ سبتمبر ١٩٧٣. جاء لمدة يومين. وصل يوم ٢١ سبتمبر وقابل الرئيس «السادات» مساء يوم ٢٢ سـبـتـمـبـر. وقد رأيتـه يخرج من اسـتـراحـة برج العـرب حـيث قـابله «السـادات» وتبادلنا كلمات سـريعة مؤداها أننى سـوف أكون فى انتظاره غدًا فى مكتـبى طبـقًا لموعدنا المرتب. وكنت الزائر الذى يلى الرئيس «السـادات» مـسـاء ذلك اليـوم. وحـين

جلست إليه على شرفة استراحته فى برج العرب أحسست بشعور داخلى يؤكد لى أن شيئًا ما قد حدث بينه وبين «دافيد».

كان لقائى مع الرئيس «السادات» لكى أعرض عليه تفاصيل ما كلفنى به من مهام فى الخطة الإعلامية والسياسية المواكبة لمعركة حرب أكتوبر؛ وكانت قادمة فى ظرف أسبوعين لا أكثر.

وفى مقدمة لقائنا ـ الرئيس «السادات» وأنا ـ راح يتحدث عن «دافيد روكفلر» الذى فرغ لتوه من لقائه وكانت فى الكلام إشارات وإيماءات تستوقف النظر:

ـ «لقد تحدثت مع «روكفلر» على المفتوح. لا بد أن يعرفوا ويتحركوا...»

سألته وفى ذهنى سر المعركة القادمة:

ـ «ماذا تعنى «على المفتوح» هذه وإلى أى مدى؟».

وقال حرفيًا ـ نقلاً عن يوميات مذكراتى ـ حتى لا أظلمه وهو بين يدى الله:

ـ «يا أخى مانت عارف إن كيسنجر لا تهمه المشاكل وهى باردة.. عاوزها سخنة ومستوية للحل» !!!

وحاولت أن أستوضح أكثر لكنه نقل إلى موضوع آخر وإن كان بعقله الباطن لم يبتعد كثيرًا وقال:

«إننا نسير فى طريق خطأ منذ وقت طويل. وضعنا أنفسنا مع المفلسين وجاء الوقت لنضع أنفسنا مع الأغنياء».

ثم استطرد:

ـ «طلب منى «دافيد» أن يفتح فرعًا فى مصر لبنك «تشيز مانهاتن» ووافقته».

وأبديت دهشتى وتظاهر بالاستغراب وقال:

ـ «إذا كان «بريجنيف» نفسه وافق له على فتح فرع للبنك فى موسكو... إنهم أشقياء، فتحوا فرع بنكهم فى شارع كارل ماركس فى موسكو قرب الميدان الأحمر حيث عرضوا ألسنتهم «للبلاوى» فى الكرملين».

وقلت «إنه لا شأن لنا بما يسمح له به «بريجنيف» أو لا يسمح، وحسب علمى فإن الروس لم يوافقوا على فرع لبنك أجنبى وإنما وافقوا على توكيل له يعمل فى إطار بنكهم الوطنى للتجارة الخارجية «نورودنى» ، ومع ذلك فلنفرض أن الروس سمحوا فكيف نسمح نحن بفتح الأبواب على مصاريعها لبنوك أجنبية خصوصًا وأن التجارب علمتنا أن فتح الباب لـ «واحد» سوف تترتب عليه سابقة تفتح الأبواب لـ «كثيرين» غيره، وكيف يمكن فى هذه الحالة تنظيم حركة التمويل فى بلد يعتمد سياسة التخطيط بسبب موارده المحدودة؟».

وحاولت طمأنة هواجسى بدعوتى إلى الانتظار حتى تنتهى المعركة وسوف أرى المساعدات والاستثمارات التى ستنزل على البلد مثل «الأرز» !

(فيما بعد عرفت من تفاصيل هذا الاجتماع بين الرئيس «السادات». و«دافيد روكفلر» ما هو أوضح وأدق ـ وهذه قصة أخرى).

فيما بعد وطبقًا لما هو منشور من مقابلات رئيس الجمهورية فى الصحف قام «دافيد روكفلر» بثلاث عشرة زيارة لمصر قابل الرئيس «السادات» فى كل زيارة منها، ثم التقى الاثنان بعد ذلك فى كل مرة قام فيها الرئيس «السادات» بزيارة الولايات المتحدة.

● غير «دافيد روكفلر» كان هناك مبعوثون. بالطبع كان «هنرى كيسنجر» (مستشار «تشيز مانهاتن» وأسرة «روكفلر») موجودًا باستمرار. ومع ذلك فإن المبعوثين الأمريكيين لم يتوقفوا. وكان من أوائلهم بعد الحرب «إدجار بروفمان» وهو رجل أعمال يملك شركة «سيجرام» لإنتاج الويسكى وقد جاء يحمل رسائل ليس من الرئيس الأمريكى وحده ولكن أيضًا من رئيس وزراء إسرائيل!

● والغريب أن المبعوثين الأمريكيين من نفس «المؤسسة» لم يتوقفوا حتى بعد زيارة القدس الشهيرة. فقد كان الممثل الرسمى للرئيس الأمريكى لدفع عجلة السلام بين مصر وإسرائيل وهو «روبرت شتراوس» (محامى شركات وبنوك) ثم تلاه «صول لينوفيتس» (وهو أيضًا محامى شركات وبنوك).

مصالح كبرى. لديها كثير. وهى تريد أن تحافظ عليه. ومؤسستهم (الشرقية التقليدية والغربية المستحدثة) ـ والدولة ليسوا غرباء. إحداهما تمثل الأخرى. وكلتاهما فى نفس الطريق لذات الهدف.

□

ولا أريد أن يضيع منا أثر «دافيد روكفلر» فى خضم استطرادات فرعية. لقد عرضت نماذج من عمل «المؤسسة» المباشرة فى الشرق الأوسط وكان لـ «دافيد روكفلر» فيما عرضت أدوار.

لكن الدور الأكبر الذى أتمنى لو استطعت عرضه هو دوره سنة ١٩٧٤، وبالتحديد مشكلة فوائض الأموال العربية بعد رفع أسعار البترول. ولعلى أقول مقدمًا إن تفاصيل الدور بأكمله ليست لدى مفصلة بالوقائع ثابتة بالأدلة وإنما هى شواهد وقرائن.

سنة ١٩٧٣ ـ قبل حرب أكتوبر ـ كانت الأوضاع المالية فى الولايات المتحدة فى شبه ضائقة عكست نفسها فى ظهور عجز فى ميدان المدفوعات الأمريكى لأول مرة منذ سنة ١٨٩٣، وكان سعر الدولار متدنيًا إزاء كل العملات الأوروبية والين اليابانى. فضلاً عن أن المنافسة الألمانية الغربية واليابانية بدأت تشتد على السلع الأمريكية.

وفجأة وفى أسابيع قليلة ـ وفى ظروف حرب أكتوبر ـ تضاعف سعر البترول عدة مرات. سبع مرات أو ثمانى تقريبًا. ولم يكن هذا الرفع للأسعار ـ يقينًا ـ ضمن الخطة العربية لاستعمال البترول ضمن أسلحة الحرب. فقد كان الحظر هو السلاح الرئيس وأما السعر فلم يكن قد خطر لأحد على بال.

وبدأ الرفع الأول وكان منطقيًا. فالذين سوف يطبقون الحظر سوف تقل صادراتهم ومن ثم تقل دخولهم. وهكذا فإن رفع الأسعار يمكن قبوله ويبرره اقتصاديًا أن الحظر سوف يخلق ندرة فى السوق ترفع السعر.

لكن الرفع الثانى كان مفاجأة وكان الذى تولى إعلانه هو «محمد رضا بهلوى» شاه إيران. أعلن بنفسه فى مؤتمر صحفى رفع أسعار البترول أربعة أمثال سعره السابق مرة واحدة.

وكان هناك معنى واحد لتصدر شاه إيران لهذه العملية وهذا المعنى هو أن الولايات المتحدة الأمريكية (ومصالح «روكفلر» بالذات) ليست بعيدة جدًا عما يجرى.

وسمعت عن خطر الأموال العربية الفائضة لأول مرة من «هنرى كيسنجر» (مستشار بنك «تشيز مانهاتن» وكبير مستشارى أسرة «روكفلر») فى الأيام الأخيرة من سنة ١٩٧٣. فقد قال لى «هنرى كيسنجر» ذات مرة فى تلك الفترة.

ـ «ماذا ستفعلون بفوائض الأموال العربية»؟.

إن هذه الأموال لا يمكن أن تظل تحت تصرفكم فى أى وقت لأنها كفيلة بأن تهزم النظام النقدى كله فى أى مرة تتحرك فيها حركة غير محسوبة.

إن هذه الكتلة من المال السائل تشبه قطعة ضخمة من الحجر انكسرت من قمة جبل وهى تهدد بالسقوط فى أى لحظة فإذا سقطت وتدحرجت كانت خطرًا على كل الناس».

ثم بدأت الصيحة حول خطر الأموال العربية.

ونشرت مجلة «الإيكونوميست» (تملكها أسرة مالية فى بريطانيا هى أسرة «إيفلين روتشيلد» ويرأس مجلس إدارتها «إيفلين روتشيلد» بنفسه، وهى من أحسن مجلات أوروبا وأكثرها نفوذًا واحترامًا) إحصائية طريفة مؤداها أن العرب الآن فى وضع يمكنهم من شراء مؤسسات الغرب الكبرى.

فوائض البترول العربى فى ٦ شهور تستطيع شراء كل أسهم شركة «آى. بى. إم.» وفى ٤ شهور تستطيع شراء كل أسهم شركة «اكسون» للبترول (أسرة «روكفلر» فيها). وفى ١٦ يوما تستطيع شراء كل أسهم «بنك أمريكا».

ثم قفزت فجأة فكرة «تدوير» أموال البترول ـ أى تنظيم حركتها واستيعابها تمامًا.

وكان هناك رأى فى الكونجرس الأمريكى يخشى من هذه الفوائض ويقترح أن يكون تدويرها عن طريق البنك الدولى أو صندوق النقد الدولى وليس عن طريق البنوك الأمريكية. وظهر «دافيد روكفلر» بنفسه فى واشنطن يطمئن أعضاء الكونجرس المترددين، إلى أن البنوك الأمريكية مستعدة لفوائض أموال البترول ولديها الخطة لتدويرها.

وكان الساعد الأيمن لـ «روكفلر» فى إقناع المتشككين فى الكونجرس واحدًا من أكثر أعضاء مجلس الشيوخ هيبة ومكانة وهو السناتور «تشارلز بيرسى» رئيس لجنة العلاقات الخارجية آنئذ (ابنة السناتور «بيرسى» تزوجت من ابن أخ لـ «دافيد روكفلر») وحين بقى بعض المتشككين فى الكونجرس ظهرت ضرورة ترتيب اجتماع لهم مع «دافيد روكفلر». والعجيب أن الاجتماع جرى ترتيبه وتم فعلاً فى البيت الأبيض ذاته. وبعدها كان الكونجرس على استعداد للسماح للبنوك الأمريكية بتدوير الأموال العربية.

وتروى تقارير اللجنة الخاصة التى شكلها الكونجرس لبحث نشاط الشركات متعددة الجنسيات أنه فى خضم «مشكلة التدوير» أبدى بعض أعضاء اللجنة الاقتصادية فى مجلس الشيوخ مخاوفهم من أن الأموال العربية فى البنوك الأمريكية قد تصبح أداة ضغط على السياسة الأمريكية. وكان رد ممثلى بنك «تشيز مانهاتن» بالذات أن العكس هو الصحيح فوجود هذه الأموال العربية فى أيدى البنوك الأمريكية يجعل السياسة الأمريكية أقوى فى مواجهة العرب، لأن هذه الأموال سوف تكون تحت إمرة قرار أمريكى (الدائنون منا رهائن بودائعهم. والمدينون منا مرهونون بما اقترضوه !!).

وتم تدوير الأموال العربية من فوائض البترول واليابان تصرخ وأوروبا تستغيث ويقال لها كما قال «هنرى كيسنجر» لـ «ميشل جوبير» : «لقد انتهى الآن مشروع مارشال لمساعدة أوروبا ببترول رخيص» !

ولقد يسأل سائل أين فوائض أموال البترول الآن؟

والرد أن قسمًا منها تجمد والباقى مازال يدور.

- قسم تجمد فى مشروعات هائلة مدنية وعسكرية تزيد عن حاجة البلدان التى أنشأتها. (وكان المفاوضون والموردون فى الغالب شركات أمريكية. والذين أشرفوا على التمويل بنوك أمريكية فى الغالب أيضًا).

- وقسم تجمد فى مشتريات سلاح (قيمته فى العشر سنوات الماضية حوالى أربعمائة بليون دولار) ومعظمه لن يحارب (وعلى أى حال فقد ساهم فى تمويل أبحاث السلاح الأمريكى، فتقدمت الولايات المتحدة فى تكنولوجيا السلاح، ودفع العرب. وزاد ضغط حزام التقشف على الناس فى الكتلة السوفييتية!).

- وقسم تجمد جزئيًا فقط حين تحول إلى سندات خزينة أمريكية باتفاقات خاصة لمدة طويلة.

- وأما الباقى فمازال يدور بمعرفة وإشراف البنوك الأمريكية وبينه قروض لدول نامية راودتها أحلام عريضة ذات ليل ثم استيقظت فى الصباح فإذا سياط الفوائد تجلدها وتسيل دمها وكرامتها واستقلالها.

ولا تزال الأموال تدور كالطاحونة. والطحين معظمه لخبز البنوك (فطائر حلوة) وليس لخبز أصحاب الفوائض الأصليين (فهؤلاء مازال خبزهم مخلوطًا بحصى الرمال!)

وتبقى القرينة الثابتة المؤكدة باختبارات الزمن وهى أن البحث عن المسئول عن أى عمل يقتضى أولاً تحديد المستفيد منه؟!

وليس من شك أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت «المستفيد» : نسبة نمو لم يسبق لها مثيل بعد الحرب. وارتفاع فى سعر الدولار تواضعت إزاءه بقية العملات حتى الين اليابانى والمارك الألمانى.

□

وأعود لأكرر: إنه ليس «روكفلر» الذى يحكم أمريكا ويملك قرارها. ولا أى فرد آخر غيره حتى وإن كان مقره هو البيت الأبيض ذاته.

وإنما القوة الفعلية لمصالح واسعة تمثلها «مؤسسة هائلة تقليدية فى الشرق «ومؤسسة» مستحدثة فى الغرب.

«المؤسسة» الأولى - الشرقية - أكثر تأنيًا وترويًا بحكم موقعها على المحيط فى مواجهة أوروبا، وبطبيعة اهتمامها بالزراعة والصناعة والتجارة والمال وبعمر تجربتها الطويلة نسبيًا.. إلى آخره.

و «المؤسسة الثانية - الغربية - أشد حماقة واندفاعًا بحكم اشتغالها بصناعات السلاح والفضاء وما يتصل بها وبحكم حداثة عهدها بالقوة.. إلى آخره.

وبين المؤسستين وداخل كل واحدة منهما وعلى أطرافهما ومن حولهما حوار مستمر وحركة لاتهمد وتفاعلات تجرى ليل نهار كأنها هراسات عملاقة لايقف فى وجهها شىء. (ولنا أن نتصور ضغط هذه الهراسات مثلاً على مجالاتها فى بلاد مثل بلادنا: الشركات على الشركات - والبنوك على البنوك - والجامعات على الجامعات - والمراكز على المراكز - والمفكرين على المفكرين ؟!!).

وفى كل الأحوال فإنها ليست خيوط مؤامرة وإنما طبائع أمور فى قوى لها أصولها وجذورها. ولها حياتها وحيويتها ولها قدرتها على النمو والانتشار ثم إنها بما لديها من وسائل القوة تستطيع أن تخلق مناخًا عامًا وحركة نشيطة فى هذا المناخ ومنطق إقناع يكاد يصنع شبه إجماع يبنى ويؤكد مسار سياسات مستمرة مهما تغير أصحاب البيت الأبيض مرة كل أربع سنوات.

مصالح. ومعيار القيمة الواحدة عندها هو النجاح ولا شىء غيره من أثقال الأخلاق ومواريث التاريخ وأعباء أساطير الأولين.

ولقد ركزت فى هذا الحديث على كلمة «المصالح» لأصل منها إلى أحوالنا هنا ولما نتصوره:

● نتصور أحيانًا أن التأثير ممكن بمنطق الحق والعدل والقانون.

(ننسى أننا حيال مجتمع تعود أن يتعامل مع الواقع بصرف النظر عن التاريخ وبالنسبة لمعاييره فليس هناك حق ولا عدل ولا قانون فى المطلق. ولو خطر لهم مثل هذا المنطق لكان عليهم أن يسلموا «الإمبراطورية» إلى الهنود الحمر وينصرفوا عائدين إلى أوروبا.

معيار القيمة الوحيدة هو النجاح. إذا تحقق فلأصحابه الحق والعدل والقانون وليس أمام غيرهم إلا السكوت أو الشكوى!).

● ونتصور أحيانًا أن التأثير ممكن باستثارة العطف ومناشدة النخوة.

(ننسى أننا إزاء مجتمع يحترم فى أعماقه منطق العنف فهو بممارسة العنف تحول من مجتمع هجرة إلى مجتمع إمبراطورية.

وعلى سبيل المثال فإن شيئًا ما فى العربدة الإسرائيلية فى المنطقة يذكرهم باطنًا بزحفهم نحو الغرب، ثم إن رجلاً مثل الجنرال «شارون» لا يمثل لهم صورة «هملر» وزير داخلية «هتلر» بقدر ما يمثل لهم صورة واحد من مشاهير رعاة البقر، أسرع من غيره فى إطلاق نيران مسدسه.

والواقع أننا لم نستطع حتى الآن أن نفهم رؤيتهم - من منظور تجربتهم - لإسرائيل. نتصور أن النفوذ الإسرائيلى فى واشنطن هو من صنع جماعات الضغط اليهودى فقط، وهذا غير صحيح، وأصح منه أن رؤيتهم لإسرائيل تأثرت فى البداية بأجواء قصص العهد القديم ثم اعتمدت بعد ذلك وإلى اليوم - وإلى الغد - على حقائق من مصالح العصر الحديث ومطالب الولايات المتحدة فيه: تأمينه، وردعه عند اللزوم، ودفعه دائمًا إلى الاستغاثة بواشنطن وربما أيضًا تعويمه فى بحر من مشتريات السلاح (المنطقة الوحيدة من مناطق التوتر العالمى التى جربت فيها الحرب الإلكترونية). وأى دراسة متأنية كفيلة بأن تكشف أنهم هم الذين يستعملون إسرائيل بأكثر مما تستعملهم إسرائيل - وإن جرى التظاهر بالعكس. ثم إن كل

الفكرة المحورية للعرب عن القومية العربية تبدو لهم غريبة، فهم فى التجربة الأمريكية لم يعرفوا ارتباط الشعب أو الأمة بأرض أو لغة أوتاريخ!).

● ونتصور أحيانًا أن التأثير ممكن بمديح «صناع السلام» و«حماة الديمقراطية».. إلى آخره.

(ننسى قولاً مأثورًا لـ «جون روكفلر» الكبير يقول فيه إنه «عندما يمدحنى أحد فأول شىء أفعله هو أن أتحسس جيوبى!).

● ونتصور أحيانًا أن التأثير ممكن بالحديث إلى الرأى العام الأمريكى من خلال الميكروفونات والعدسات - أو باستئجار خدمات مكاتب علاقات عامة تنشر إعلانات عن قضايانا فى الصحف والمجلات الأمريكية خصوصًا فى مواسم الحج العربية الرسمية إلى واشنطن (حجم الإعلان العربى فى أمريكا سنة ١٩٨٣ كان بقيمة ٦٥٠ مليون دولار!) - أو بجهود مبعوثين من السفراء أو الوزراء أو حتى الأمراء يقيمون الحفلات أو يدعون إليها ويتصلون بواحد هنا أو واحد هناك من رجال الصحافة أو الدبلوماسيين.

(ننسى أن صناعة القرار الأمريكى أكبر بكثير وأعقد بكثير من هذه الصيحات فى الوديان).

● ونتصور أحيانًا أن التأثير ممكن بالتلويح بخطر الشيوعية الدولية أو بخطر التعصب الدينى.

(ننسى أن أى موظف صغير فى وزارة الخارجية الأمريكية أو فى البيت الأبيض يعرف أن الذين يلوحون بخطر الشيوعية الدولية أو التعصب الدينى هم المعرضون مباشرة لتهديدهما أولاً وقبل أن يقترب هذا التهديد من المصالح الأمريكية!).

□

وأعود - ولا أعرف بالتأكيد لماذا؟ - إلى نقط سجلتها فى أوراقى عن حديث مع «دافيد روكفلر»!

قال لى «دافيد روكفلر» (ولم نكن نتحدث عن أزمة الشرق الأوسط) :

ـ «عندما تذهب إلى السوق لشراء سلعة فإن أول سؤال نوجهه لأنفسنا هو: هل لدينا ما يكفى لشراء ما نريد؟

قوانين السوق لا تسمح لأحد أن يحصل على سلعة لمجرد أنه يحلم بها أو يتمناها أو حتى يحتاجها».

وأجدنى أطبق قانون السوق على السياسة.

فى السياسة ـ كما فى السوق ـ لا يحصل أحد على شىء لمجرد أنه يحلم به أو يتمناه أو حتى يحتاجه.

يحصل عليه إذا كان يملك المقابل له.

وأعرف أننا أضعنا الكثير سدى ولم يعد فى أيدينا غير القليل لكن التجارب والحقائق تعلمنا ـ دائمًا وباستمرار ـ أن المصالح لا تقتنع إلا بالمصالح. ويصدق المثل العربى المأثور بأنه «لا يفل الحديد إلا الحديد»... هذا إذا كانت لدى العرب ـ بعد ـ بقية من الحديد لم تتحول إلى سلاسل وقيود!!

الفهرس

رقم الإيداع ١٥٩٤٧/٢٠٠٣
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0980 - 7

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



عمــــــر فى كتـــــــب

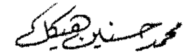
لا أعرف أهو تحيز رجل لما آلف وعرف، أو أنه حكم فى الموضوع، بصرف النظر عن متغيرات العصور.

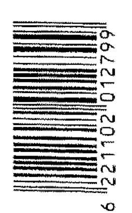
لكنى على شبه اقتناع بأن الكتاب المطبوع على ورق له العمر الطويل، وأنه الحاضر على الدوام، مهما اشتد من حوله الزحام.

بمعنى أن الكلمة المكتوبة على الورق باقية، والكلمة المسموعة على الإذاعة والتليفزيون عابرة، والكلمة المكهربة على الكمبيوتر فوارة، وهى مثل كل فوران متلاشية.

أى أن الكلمة المكتوبة على الورق بناء صلب: حجر أو معدن، وهكذا كل بناء، وأما غيرها فهو صيحة متغيرة - خاطفة، ولامعة، وبارقة.

وبالنسبة لكاتب - على الورق وبالحبر - فإن كتابته هى بناء عمره، وهكذا فإن هذه المجموعة فى نهاية المطاف: عمر من الكتب!




6 221102 012799

دار الشروق